94/93

المناهل

مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة المغربية
نونبر 2012 - 20 درهما

أسئلة الإصلاح في المغرب الحديث

زكي مبارك
وادن بوغفالة
يحيى بولحية
محمد العبوتي
الجيلالي كريم
محمد الصمدي
عبد الحفيظ حمان

بدر العمراني
مارت إدمون كوفيون
عبد العاطي لحلو
محمد أمين العلوي
لحسن تاوشيخت
رشيد يشوتي

خالد فؤاد طحطح
حسن الصادقي
فائزة البوكيلي
جامع بيضا
عبد العزيز اعمار
بيرنابي لوبث غارثيا
إبراهيم الخطيب

منشورات
وزارة الثقافة

Al Manahil - Issn : 0851/0253 - Dépôt légal : 1974/6 Novembre 2012 - Prix : 20 Dh

94-93



مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة المغربية

تصفيف وسحب : **مطبعة دار المناهل.**
الإيداع القانوني : 1974/6
ردمك : 0851-025

المراسلة :
مجلة المناهل : وزارة الثقافة
1، زنقة غاندي ـ الرباط
الهاتف : 90 40 27 -91 40 27 37 05 212+
الفاكس : 93 2740 37 05 212+
البريد الإلكتروني:
revuemanahil@minculture.gov.ma

أسئلة الإصلاح
في المغرب الحديث

- ❑ مرتكزات الفكر الإصلاحي
- ❑ محمد بن الحسن الحجوي
- ❑ في سياق الإصلاح
- ❑ إضاءات

تقــديـــم

بدءا، ليس الإصلاح كالثورة في مقارباتها الجذرية ومنطلقاتها الفلسفية ومقاصدها العامة، ولكنه، أيضا ليس مجرد رؤى سياسية واقتصادية...تطرح في سوق الأفكار، وعلى قارعة الطريق، بل تنزيلا لها وتفعيلا لمقتضياتها على أرض الواقع. ورغم أن هذا التنزيل لا يكون شاملا ولا دقيقا، في كثير من الأحيان، كما أنه يخضع لتأويلات وتطبيقات مختلفة، فإن ما يهم في الإصلاح هو طابعه المتعدد الذي يرتكز على وعي اجتماعي، يساعد على التحرر من (أوهام الإصلاح)، وخاصيته الأساس التي تتمثل في القدرة على تراكم التجارب وتوالدها وامتدادها الإيجابي عبر الزمن.

إذا اعتبرنا الإصلاح تحسينا وتصحيحا، بتدرج، لوضع ما، دون المس بمكوناته الأساس، فقد عرف المغرب، عبر تاريخه، مشاريع إصلاحات انطلقت من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة البدع، ومحاولة وضع حد للتجاوزات الجبائية، وإدخال تنظيمات جديدة، في العصور المرابطية والموحدية والمرينية والسعدية والعلوية، وفي فترة الحماية، وما بعدها، كما توسع في ذلك محمد القبلي ومحمد حجي وعبد الجليل حليم، في مجلة «المناهل» 69/70، لكنها بقيت إصلاحات جزئية وسطحية لاختلالات اجتماعية. كما طرحت في العهدين العزيزي والحفيظي، مشاريع دساتير، منها: مشروع عبد الله بنسعيد 1901، ومشروع علي زنيبر 1906، ومشروع مجلة لسان المغرب 1908، ومشروع الأمين بنسليمان 1910...كما قدمت، منذ أواخر القرن التاسع عشر، فتاوى للسلاطين، وبطلب منهم، حول تنقيص الأعشار وتحريرالوسق، والجهاد، ومسألة تمليك الحراطين، دون أن تحدث تغييرا ملموسا مستمرا.

لتفسير هذه الظاهرة، ربما يستحسن اللجوء إلى توظيف المنهج المقارن، كما وظفه محمد القبلي، في دراسته حول: «الإصلاح وإعادة الإصلاح بالمغرب الوسيط» /

مرجع مشار إليه/ ، حيث وازن بين تجربتي الضفة الشمالية للحوض الغربي للأبيض المتوسط ، والضفة الجنوبية ، ملاحظا أن الإصلاح في الأولى اعتمد أسلوبا نقديا تجاه الكنيسة والنظام السياسي ، في سياق حركة النهضة وما حملته من دعوة لانعتاق الفكر وخلخلة المرجعيات اللاعقلانية ، بدءا من منتصف القرن الخامس عشر إلى عصر الأنوار ، بينما ارتبط الإصلاح ، في الضفة المقابلة ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، بالهيئة الدينية ومشيئة الحكم ، مستنتجا في آخر دراسته: (ولو ابتعدنا من الفترة الوسيطة المنتقاة هنا ، لنتوجه نحو الظرفية الآنية ، لأمكن التساؤل عن وضع هذا المفترق الغابر ، بالنسبة إلى التعامل السائد ، حاليا ، مع قضية الإصلاح ، وفي انتظار ما يسفر عنه التحري من تدقيق مستحب مطلوب ، فلعلنا لن نبعد كثيرا ، إن نحن اعتبرنا أن العلاقة بين الأمس واليوم ، فيما يخص هذه القضية إجمالا ، قد تكون أعمق مما قد يبدو ، لأول وهلة) ، مما يوحي بأن الإصلاحات في المغرب في العهود الوسيطة وفي العصر الراهن ، ربما لا تختلف كثيرا في الجوهر ، لارتباطها ، باستمرار بسلطتين دينية وسياسية ، من ثم كان هنا وهناك في الضفتين (اختلاف الهدف ، وتباين التوجه ، مع اعتماد نوع من اللبس المريح المطمئن لأهالي ضفة الجنوب) /مرجع سابق/.

حقا يصبح المؤرخ لهذه الظاهرة أمام حلقات مفرغة ، وكأن التاريخ يعيد نفسه ، فتتكرر التجارب الإصلاحية ، لكنها تفضي إلى نكوص وارتداد ، وكأننا ، كما يقول العروي أمام نوع من التاريخ الجامد أو الدائري (الحسن الثاني والمغرب).

لكن هذا لا يعني أننا أمام (حالة جمود مطلقة) بل كثيرا ما تتراكم عوامل تقنية ، وتنظيمية وثقافية حينا ، وديموغرافية وسوسيولوجية ، حينا آخر (تحول مؤشر الخصوبة النسوي ، نشأة الأسر النووية ، الطموح للترقية الاجتماعية ، مرونة في التعامل مع منظومة القيم...مثلا) لتحدث تغيرا في الذهنيات والأحكام والسلوكات ، مما من شأنه أن يمهد الطريق لمنظومة متسلسلة من الإصلاحات.

في إطار هذه الأسئلة ومثيلاتها ، انكب الأساتذة الباحثون المساهمون في هذا العدد ، على جمع المعطيات التاريخية وتحليلها ، ورصد المواقف الفكرية والسياسية لبعض رواد الإصلاح في المغرب المعاصر.

وهكذا انصب المحور الأول على مرتكزات الفكر الإصلاحي بالمغرب بمساهمة وداد بوغفالة «الخطاب الإصلاحي في مغرب القرن التاسع عشر بين الانتصار للموروث والانبهار بالوافد: الدواعي والخلفيات»؛ وزكي مبارك «الرحلة إلى الشرق والرحلة إلى الغرب وحركة التنوير والتحديث بالمغرب»؛ ويحيى بولحية: «البعثات التعليمية المغربية: سؤال الإصلاح والتحديث»؛ ومحمد العبوتي: «الجهود الإصلاحية للوطنيين في شمال المغرب خلال ثلاثينيات القرن 20».

وتناول المحور الثاني محمد بن الحسن الحجوي، إذ تطرق إلى جوانب من شخصيته وفكره، والالتباس الذي أحاط ببعض مواقفه، ثلة من الأساتذة: الجيلالي كريم: «السلفية المغربية والفكر الإصلاحي- محمد بن الحسن الحجوي نموذجا»، ومحمد الصمدي: «البعد الاقتصادي والاجتماعي للإصلاح عند محمد الحجوي»، وعبد الحفيظ حمان: «كتاب الحجوي للسلطان عبد الحفيظ: خطاب إصلاحي حول أوضاع المغرب في بداية القرن العشرين»، وبدر العمراني: «طنجة في كتابات محمد بن الحسن الحجوي»، وعبد العاطي لحلو: «سعادة الحجوي»، ومحمد أمين العلوي: «مراسلات العلامة محمد بن الحسن الحجوي مع المؤرخ ابن زيدان، ولحسن تاوشيخت : «فهارس مخطوطات المكتبة الوطنية، بالمملكة المغربية، فهرس محمد بن الحسن الحجوي نموذجا».

وفي المحور الثالث (في سياق الإصلاح) كشف رشيد يشوتي ملامح من شخصية «السفير أحمد بن المواز، أحد رواد الفكر الإصلاحي في المغرب المعاصر»، وساهم خالد فؤاد طحطح بدراسة: (من أعلام المغرب خلال القرن التاسع عشر: الفقيه المخزني علي بن محمد السوسي السملالي (ت 1311هـ) 1893 م)، كما قدم حسن الصادقي قراءة لرسالة حول الإصلاح لأحمد محمد الصبيحي: «حول أسباب الرقي الحقيقي) وتطرقت فائزة البوكيلي إلى موضوع: «من الفكر التنويري الإصلاحي بالمغرب: أبو بكر زنيبر وقضية إصلاح التعليم».

ويشتمل محور (إضاءات) على دراسة حول (الفكر الإصلاحي في مغرب ما قبل الحماية) لجامع بيضا الذي وافق، وكذا مجلة (هسبريس) على إعادة نشرها

مترجمة من طرف عبد العزيز اعمار، في هذا العدد. كما ترجم إبراهيم الخطيب دراسة لبيرنابي لوبث غارثيا يلقي فيها الضوء على ما يسميه بالدستور الذي قدم من الخارج.

وأخيرا، لا يسعنا، في نهاية هذه السلسلة من مجلة المناهل من العدد 59 إلى العدد الذي بين أيديكم 93-94، إلا أن نثمن المجهودات القيمة التي بذلها السادة الأساتذة الباحثون، بمساهماتهم العلمية التي قدمت إضافات فكرية لقضايا ذات طابع إشكالي، كما طرحت مقاربات توخت الموضوعية والنسبية في تحليلها لتاريخنا الحديث والمعاصر، على مستوى المضامين والمناهج والرؤى العامة خاصة في الملفات التي تناولت: السلفية: ثوابت وسياقات (ع61)- اللغة والسلطة (ع62-63)- المغرب والآخر (66-67)- تجربة الإصلاح في المغرب (69-70) إشكالية الهوية (71-72)- الزوايا في المغرب ج I (ع80-81)، ج II (ع82-83)- حفريات في التاريخ الاجتماعي للمغرب (ع84)- الحماية الفرنسية في المغرب: إشكاليات ورهانات (ع87)- تراث وآثار مغربية (ع88)- المغرب زمن الحماية (89-90)- أسئلة الإصلاح في المغرب الحديث(93-94)، وغيرها من المحاور الفكرية الهامة؛ وذلك ما يحتم علينا التعبير عن موفور شكرنا وتقديرنا لهيئات التحرير المتعاقبة وللأساتذة الذين كانوا سندا قويا لنا من مختلف الجامعات المغربية.

أحمد اليبوري

مرتكزات الفكر الإصلاحي

الرحلة إلى الشرق والرحلة إلى الغرب وحركة التنوير والتحديث بالمغرب

زكي مبارك*

مقدمة : أدب الرحلات في المغرب

خصص الفقيه عبد السلام بنعبد القادر ابن سودة المري صاحب (دلبل مؤرخ المغرب الأقصى)القسم السابع من مؤلفه هذا للرحلات التي ألفها المغاربة فذكر أزيد من ثمانين ومائة، ولقد اعتنى بتحقيق ونشر بعضها الأستاذ محمد الفاسي الذي قال في شأن تفوق المغاربة في هذا النوع من التأليف، ولوعهم بالسياحة وارتيادهم للأقاصي البلاد ، ولم يكن ابن بطوطة المغربي الوحيد الذي دخل أقاصي البلاد الشرقية ومجاهل افريقيا ، وإنما بقيت لنا أخبار أسفاره بفضل عناية السلطان ابن عنان المريني الذي أمر بجمعها ، وقد صنف محمد الفاسي هذه الرحلات إلى حجازية، وسياحية، ودراسية، وخيالية، وأثرية، واستكشافية، وزيارية، وسياسية، ومقامية، وفهرسية، وسفارية[1].

من أصناف هذه الرحلات التي لها علاقة بموضوعنا : الرحلات الحجازية أي إلى المشرق العربي واسطنبول التي جعلناها تحت عنوان «الرحلة إلى الشرق» ، والرحلات السفارية أي التي قام بها بعض السفراء المغاربة إلى دول أوربا الغربية والتي جعلناها تحت عنوان «الرحلة إلى الغرب».

* أستاذ باحث، المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس ـ الرباط.

I ـ الرحلة إلى الشرق : الوعي بوحدة الهوية والمصير المشترك

تعتبر الرحلات الحجازية من ابتكار المغاربة وهي الرحلة التي كانوا يتشوقون إليها نظرا لبعد أقطارهم عن الحرمين الشريفين بأرض الحجاز، وعن المسجد الأقصى بفلسطين، فالحج يعد ركن من أركان الإسلام الخمسة، والصلاة بالقدس الشريف جزء من العقيدة الإسلامية انطلاقا من قول الله تبارك وتعالى : «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام ؤلى الميجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا وإنه السميع البصير». لذا كان الحجاج المغاربة متحمسين لأداء هذه الفريضة والقيام بزيارة المآثر الإسلامية الشهيرة فعملت الفئات الواعية منهم، من رجال الفكر والأدب، والدين على ترجمة أحاسيسهم ومشتعرهم في كتابات وتأليف لتكون نبراسا ودليلا يهتدي به من يأتي بعدهم. كما جاءت مدوناتهم عن تلك الرحلات ابن جبير الأندلسي، ثم سار على نهجه ابن سعيد المغربي، وابن بطوطة، والعياشي، وغيرهم مما لا تزال خزائن الكتب والمخطوطات تحفظ بنصوصها في انتظار باحثين جدد يكشفون عن كنوز[2].

من دوافع رحلة المغاربة إلى المشرق العربي كذلك رغبة المتنورين منهم في التوقف بمراكز الثقافة العربية الإسلامية في كل من مصر والشام، والعراقو واسطنبول، والقدس الشريف، حيث حرصوا على الاتصال بكبار علماءها ومفتيها والأخذ عنهم، والقراءة عليهم، ولقاء العديد منهم. رلقد استمرت هذه الصلات الثقافية بين رحال الفكر والقلم المغاربة، وبين إخوانهم المشارقة ولم تنقطع أبدا وإلى اليوم، لأنها ظلت تنتعش وتتغدى بالعطاءات المتبادلة، عطاءات تستمد مقوماتها الروحية والفكرية من منبع واحد لا ينضب ولا يجف،منبع التراث العربي الإسلامي المشترك[3]. إن هذا التراث بكل مقوماته وقيمه الإنسانية شكل الحبل الوريد الذي يشد المغاربة بإخوانهم المشارقة، والمشارقة بإخوانهم المغاربة. لذا كان طبيعيا أن تهتم الفئات الواعية بكل التحولات التي تطرأ في أي جهة من جهات دار الإسلام وخصوصا منها تلك

التي تحتضن مراكز الحضارة العربية الإسلامية وتعتبر منارات للعلم والمعرفة، وفي طليعتها مصر العروبة والإسلام، مصر الأزهر الشريف، من أهم الأحداث البارزة التي عرفتها مصر والمشرق العربي والتي كان لها صدى قويا لدى الفئات الراعية والحاكمة بالمغرب، حملة نابليون وما خلفه هذا الحدث العالمي من تطورات وتحولات في الميادين الفكرية والتعليمية والإدارية والعسكرية في المشرق العربي واسطنبول›، لقد اهتم الحجاج المغاربة بهذا الحدث فخصصوا له في رحلاتهم وتقاريريهم صفحات طويلة وأحتديث مفصلة، ولما كان هذا الحدث وما أعقبه من تحولات في المشرق العربي قد شكل (صدمة الحداثة) التي تؤرخ لنشأة الفكر النهضوي العربي والإسلامي الحديث، فلقد اهتمت به الفئات المتنورة في المغرب وسعت إلى الإطلاع على أسسه الفكرية والمعرفية، عن هذه الصدمة ونتائجها ومخلفاتها الإيجابية والسلبية سيحدثنا بعض الفقهاء المغاربة، وبعض رجالات حكومة سلاطين المغرب الذين إوفدوا للاطلاع هلى أحوال المشرق العربي بعد حملة نابليون، كما سيحدث عنها كذلك بعض المثقفين المغاربة الذين جالوا وتجولوا بالمشرق العربي، وقد شكلت كتاباتهم وتقاريرهم المختلفة الروافد الأولى لحركة التنوير والتحديث بالمغرب.

1 ـ رحلة الفقيه محمد بن عبد الله الغيغائي (مارس 1858م)

صاحب الرحلة ولد بقبيلة غيغاية بأحواز مدينة مراكش المغربية. كان كاتبا عدلا معاصرا للسلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام (1822-1859م)، تعد رحلته في مقدمة الرحلات الحجازية التي تعطي عن العالم العربي، قام أخيرا الدكتور سعيد ابن الأحرش بدارسة عن هذه الرحلة وهي التي اعتمدناها في هذا البحث[4]. عاش الغيغاءي الحرب المغربية الفرنسية التي انهزم فيها الجيش المغربي في معركة ايسلي (1845م). كما عاش المحاولات الاحتلالية للتراب المغربي من طرف الإسبان. ولهذا فإن أوجود الاروربي في المشرق العربي سيسترعى انتباهه منذ أن وطأت قدماء أرض الكنانة. إنه بفيض في الحديث عن خطورة هذا الوجود الذي اعتبره تحديا

وانتهاكا لحرمة دار الاسلام، وإلى عذا المعنى يشير صاحب الرحلة : « ،،، من يحاج النصارى اليوم ويغالبهم لعلو كلمتهم في البحار والمراسي وفي سا ءر الثغور؟ فلا يخفى أمر النصارى وقوتهم في هذا الصدد على من له عقل أو سلك بلادهم، أو جاورهم دمرهم الله، وكسر شوكتهم، وفرق جمعهم[5] »، ويضيف حول تفوق النصارى وما أخذوا يشكلونه من تهديد على الأمة الإسلامية قائلا : «وحاصل الأمر وغايته أن النصارى لعن الله دينهم، تفوقوا على المسلمين وعلت كلمة الكفر في الثغور، وذلت كلمة الإسلام في كل الأمور، ووقع الهول والفتنة وخمدت الفكرة والفطنة وبهذا سلط الله على قلوبنا خوف أعدائنا، فاخترنا التلذذ بالغالي بترك الجهاد » لقد اتخذ الغيغائي من بلاد مصر نموذجا للتخاذل والاإنحطاط والتفكك، وخضوعنا المطلق للسيطرة الأوروبية والانصياع لها. فقد احتل حديثة عن مصر حيزا كبيرا من الرحلة فتعرض للعادات الجارية في اللباس والمأكل والمشرب، كما شرح التقاليد المتبعة في إقامة الحفلات، ودون ارتساماته عن الشرائح الاجتماعية ملاحظا أن من دنا ءة هذا القطر المصري خدمة النصارى، مشيرا إلى أن الفقراء أكثر الناس حياء وخجلا إزاء هذه الوضعية المزرية[6].

عن الجانب الثقافي والمعرفي تعرض الرحالة إلى ذكر من التقى بهم من علماء مصر وفقهائها كإمام المالكية محمد بن عبد الله بت علياش الذي أفتاه بمنع الحج على ظهر الباخرة مما يحصل من المزاحمة والضيق. كما اجرى حديثا ودبا مع كبار الحنفية منهم الشيخ الرافعي، والشيخ ابراهيم الباجوري. كما حضر الغيغائي حلقات الدروس التي كانت تعتقد بالأزهر الشريف، وأبدى اهتمامه بالأزهريين وبوضعيتهم وبأحوالهم حيث عنهم : « ...إنهم اليوم غير معتنى بهم ولامبال بأحوالهم من الدولة، وقد كان لهم في الزمن القديم رواتب وأعلى المراتب، أما اليوم فلا معين لهم إلا الله تعالى[7] »، انتبه الرحالة إلى الوضعية طلبة الأزهر الوافدين عليه من الأقطار العربية والإسلامية فتعرض إلى أحوالهم، وتحدث عن نظام سكناهم وطريقة العيش

والأحياء السكنية المخصصة لهم والتي تدعى بالأورقة فذكر منها رواق الطلبة الأتراك، ورواق الشاميين، ورواق الصعيديين، ورواق المغاربة. ولم يفت الرحالة ذكر مطبعة بولاق ودار الكتب المصرية التي قال عنها : «... وهذه الدار مملوءة كتبا من كل فن وعلى كل لغة من الأجناس[8]». وإذا كانت بعض الجوانب الاجتماعية من المجتمع المصري قد أقلقت الرحالة المغربي، الفقيه، فأن بعض النواحي من الحياة الإقتصادية قد حظيت برضاه واستحسانه لكونها في نظره من الأسس الضرورية للإقلاع التنموي والنهوض بالحركة التجارية والمواصلات. فمن ملاحظاته في هذا المجال شق الطرق وتعبيدها وإنشاء القناطر والموانئ، وهي أشغال إنمائية قامت بها الحومات الإسلامية على طول الطرق المؤدية إلى بيت الله الحرام، وفي أماكن أخرى من البلاد العربية، ومما استرعى انتباهه كذلك المواصلات السلكية ،اللاسلكية التي اعتبرها الرحالة المغربي أداة ناجعة ونافعة لمعرفة الآخر وما يجري في العالم بسرعة مذهلة. عن هذه الآلة يقول : «...هذا السلك أحدثه الروم نحو خمسة أعوام، وهو يجلب أخبار، وصفاته أنه مصنوع من حديد رطب على قدر شريط الحصير المصنوع من الدوم كالخيوط تورد أخبار وتصدر بها في الحين من كل ديوان، وبها رجال من الروم واقفون عليها، عارفين بها. فإذا أردت أن يخبر بها عنك قيدت له حاجتك في الكتاب، ويطرحه أمامه وتنظر اليد وهو يحرك الآلة، فإذا أردت أن تخبر صاحبك عن سلعة أو أمر، تقيد كلامه وتعطي عليه درهما عن كل حرف ويخبر به صاحبه بالسلك ويخبر صاحب السلك الآخر، صاحبك»[6]. من غرائب الأمور التي حيرت عقل الغيغائي القطار، أو كما يسميه بابور البر. خصص له صغحات طوالا وصف كل أجهزته وصفا دقيقا. هذا القطار يوضح الرحالة «... يسميه المشارقة ببابور السكة، إذ السكة عندهم هي الطريق. إنما البابور منه الموضع المقدم الذي هو رأسه، وفيه الحركات والآلات. فالقطار هو على غير شكل البابور البحري لأنه بحمل على قطع أعواد لها أدوار من حديد وهي غاية ما يكون من الصنعة والحكمة والإتقان، وهذه السكة (الطريق) التي يجري فيها مفروشة بالحديد من الجانبين[9]» ويختم

الغيغائي حديثه عن غرائب المخترعات وعجائب الآلات التي شاهدها بمصر وغير مصر يالإشادة بمخترعيها والاعتراف لهم بالتقدم والتفوق وهو يقصد هنا بالدرجة الأولى أروربا بما أنشأته بالمشرق من وسائل وأسباب النهضة الإقتصادية والتجارية معتبرا ذلك من الالهامات الربانية والاستنباطات البديعة.

2ـ رحلات أبو إسحاق ابراهيم بن محمد التادلي (1827-1894م)

«شخصية علمية غريبة الأطوار كان من الممكن أن تقوم بأكبر دور في خلق نهضة علمية واجتماعية بالمغرب في القرن الماضي لو ساعدتها الظروف ووجدت المناخ الصالح»[10] الفقيه التادلي من علماء المغرب الذين تأثروا بالثقافتين العربية الإسلامية والغربية على حد سواء، فمن خلال رحلاته العريضة وجولاته الواسعة في المشرق العربي حيث زار الحجاز، ومصر، وفلسطين، ولبنان، وسوريا، وتركيا، أتيحت له فرص اللقاء بخيرة رجالات العالم والسياسة كالشيخ جمال الهندي، والشيخ أحمد بحلان، والشيخ عليش. كما أتيحت له فرصة اللقاء وهو في بيروت بالشيخ محمد عبده الذي كان منفيا بهل إثر ثورة عرابي المصرية. لقد ألقى الشيخ التادلي درسا في لبقدس الشريف حضره أمير البيان شكيب أرسلات وكان يومئذ حدثا صغير السن. أما رحلاته إلى البلدات الأوروبية وإقامته بها كإسبانيا، وجبل طارق الإنجليزية، قد مكنته من الإطلاع على مظاهر الحضارة الأوروبية وتعلم اللغات الأجنبية كالإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية. وفي هذا الصدد كتب التادلي : «...قيدنا بجبل طارق من بلاد الروم أيام إقامتنا به بعض السن الروم. وقيدته عن بعض المسلمين هناك لاضطرارنا إلى السفر مع النصارى ومخالطتهم، فيعرف الإنسان على الأثل أسماء الماء للوضوء، والحجر للتيمم، والماء البارد، والحار، والفحم، والطبخ ونحو ذلك من ضرورات الإنسان»[11]. الإنتاج الفكري ادى إسحاق التادلي غزير ومتنوع الموضوعات، من أهم تآليفه :

- تفسير بعض اللغات مثل لغة الفرس والترك والفرنسيين والأنجليز والبربر،
- اختصار أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك لخير الدين التونسي.
- رسالة في علم الجغرافية.
- رسالة في البوصلة التي تكون في السفن.
- زينة النحر لعلوم البحر.

من هذا المؤلف الأخير نقتطف الفقرات الآتية التي يقول فيها التادلي : «لما من الله علي بالتوفيق لأداء فريضة الحج، وزيارة البيت المقدس والشام ،أرض الروم، فاضطررت إلى ركوب البحر مرارا، تارة في سفن الشراع، وتارة في سفن النار المسماة بالبابورات، وتلاقيت مع أهل العلم والخبرة بسفر البر من المسلمين والنصارى، اقتطفت منهم ما أمكنني من حكم سفره، لما ورد : الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها ولو من كافر، كما أشار له ما ورد : أطلبوا العلم ولو بالصين، مع النصين قي ذلك الوقت للكفار، قيدت ذلك في هذه الرسالة لينتفع بها من اضطر لركوب البحر إن شاء الله تعالى»،

أما عن مشاركته في الحياة السياسية بالقدر الذي تسمح به مفاهيم العصر وأحكامه في ذلك الوقت : «...فلا عجب أن يكون الشيخ من الرعيل الأمين الذي هزهم الحماس ليبلوا بقلمهم ولسانهم في هذا المضمار خائضين في المبدان، ولو دبلوماسيا على الأقل، فقد كان يجري في المحافل العلية والسياسية إنه حمل رسالة موقعة من أعيان الرباط إلى السلطان عبد الحميد العثماني قصد ربط علاقة المغرب وتركيا عندما أحس بخطر الاستعمار وتكالبه على البلاد الإسلامية، وحمل التادلي تلك الرسالة يدل علي أن الرجل كانت له خدمات سياسية إنسانية علاوة على رسالته العلمية التي عرف بها»[12].

إن الرحلات المتكررة للعلامة التادلي إلى تركيا جعلته يستوعب ويفهم التحولات التي يعيشها هذا البلد الإسلامي وهو يحتك بالأجتبي، وما كان ذلك من تأثير على الأوضاع والمقومات الاجتماعية والدينية والأخلاقية. لقد فهم ذلك بالاجتماع بالدعاة والمصلحين وكبار العلماء كما شاهد بوادر النهضة في تركيا فسعى إلى ربط وتمتين الصلات والتعاون الأخوي بين المغرب وهذا البلد الإسلامي وبدل مجهودات في الأوساط الحكومية والثقافية المغربية من أجل ذلك «غير أن الحكومة المغربية لم تستجب لأية رغبة أبدتها تركيا في هذا الموضوع في ذلك الوقت ولا في غيره بسبب الخوف من انتشار النفوذ العثماني والضغط الذي كانت تمارسه القوى الإستعمارية على السلطان المغربي خوفا من تعاون الدولتين الإسلاميتين اللتين كانت إحداهما تمسك بمفاتيح البحر الأبيض المتوسط من طرفه الشرقي، والأخرى تمسك بمفاتيح مدخله الغربي»[13].

من نشاطه الفكري والسياسي كذلك لابد من ذكر اهتمامه البالغ بكتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، لخير الدين التونسي الذي زار تركيا عدة مرات ما بين (1853-1867م). ظهر كتاب خير الدين التونسي سنة 1867م، واطلع عليه الشيخ التادلي وقام بتلخيصه متأثرا بما يحتويه من أفكار جديدة ونظريات حول شروط النهضة العربية الإسلامية وأساس الحكم العادل. من هذه الأفكار والنظريات انطلق العلامة التادلي لنشر دعوته الإصلاحية فأصبح من المصلحين الأوائل الذين اقتنعوا بأن على الشرق أن يغير أساليب الحكم الاستبدادي، كما عليه كذلك أن يأخذ بعين الاعتبار : «الوسائل التي أوصلت الممالك الأوروبية إلى ما هي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية فيتخير منها ما يكون بحالة المسلمين لائقا ولنصوص شريعتهم مساعدا ونوافقا»[14].

من نشاطه السياسي كذلك سعيه الحثيث في إبطال ضريبة المكس التي كانت مفروضة على أبواب المدن المغربية فتضرر منها الشعب، فافتى بعض العلماء بعدم

شرعيتها، لقد تصدى الفقيه للسلطان مولاي الحسن بكل شجاعة، مندداً بهذه الضريبة حتى أنه بعث للسلطان بواسطة المتصلين به بالنكير ضد هذه الضريبة وعنها كتب «...طلب مني السلطان مولاي الحسن نصره الله وأصلحه، ات أحضر معه بمسجده بالرباط على العادة عنه في تلك الليلة... فامتنعت، واعتذرت له بأني غير صحيح، ونويت أني غير صحيح مما يفعله من المظالم : المكوس»[15]. وتصلب العلامة التادلي في موقفه إلى أن ألغى السلطان هذه الضريبة بظهير شريف عام 1885م. هذه المواقف الشجاعة جعلت من الشيخ التادلي أبرز العلماء المغاربة الذين ظلوا ثابتين على المبدأ، متشبثين بالقيم الإسلامية ،الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها العلماء في المجتمع الإسلامي ليقوموا بدورهم في حركة الإصلاح والتجديد واليقظة الإسلامية، لقد تفطن الشيخ محمد عبده لخصال العالم المغربي حينما التقى به ببيروت وجرت بينهما حوارات دينية وسياسية وفقهية تركت في الشيخ محمد عبده آثارا حميدة، فأعجب بآراء التادلي الصائبة وأفكاره النيرة المتحررة غير ناظر إلى تكوينه التقليدي الذي قد يتسم بالتزمت والتحجر. إن الفقيه عبد الله الجراري الرباطي يعتبر الشيخ التادلي من المجددين الذين قال فيهم الرسول عيلهم السلام: «إن الله تعالى يبعث لهذه الآمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[16].

وككل المجددين والمصلحين تعرض الشيخ التادلي للمحن والإهانة والمذلة من طرف السلطات الحاكمة المغربية. لقد سجن دون أن يتضح السبب لمعاصريه، مما جعل الأقوال تضطرب في شأنه، غير أن العارفين بالأمور يرجعون أسباب سجنه إلى مواقفه الشجاعة، وشهرته الكبيرة في الأوساط العلمية والشعبية وغيرها، حيث أكب الناس على حضور مجالسه للانتفاع بعلمه والاسترشاد بمعارفه، ويضيف الفقيه عبد الله الجراري أنه كان بالإمكان أن تقوم هذه الشخصية الفكرية بدور طلائعي في اليقظ؛ المغربية لو وجدت المناخ الملائم والعقول النيرة والحكام ذوي إرادة صادقة للتغيير والإصلاح والتحديث.

3 ـ كتابات الحاج علي زنيبر السلاوي (1844-1914م)[17]

نشأ الحاج علي زنيبر في مدينة سلا المغربية سنة 1844. وذهب مع والديه وهو صغير السن إلى الديار المقدسة بقصد المجاورة، وبعد وفاتهما عاد إلى مسقط رأسه وعمره إذ ذلك نحو سبعة أعوام. وفي العقد الرابع من عمره توجه إلى مصر سنة (1878-1879م) فاشتغل بالتجارة في الاسكندرية وقيل كذلك في مدينة طنطا، فامتدت إقامته بمصر فترة طويلة عايش خلالها حرب عرابي باشا وساهم فيها، كما عايش معطيات البقظة المصرية. خلال مقامه بمصر : «...دفعته غيرته الوطنية إلى الاهتمام بشؤون المغاربة من حجاج وغيرهم والتطوع للقيام بأعمال بقوم بها عادة القناصل المعتمدون رسميا حتى كان يدعى أحيانا «وكيل المغاربة». وحدث في إحدى السنين أن تأخر خروج مركب الحجاج في موعده المضروب من مصر، فتكلف الحاج علي بنفقة الحجاج المغاربة أثناء فترة الانتظار التي دامت أياما باتفاق مع شركة المركب، لكن هاته الأخيرة لم تفي بالتزامها، ونزل على عاتق الحاج علي عبء النفقة الذي كان ثقيلا إلى درجة أنه افتقر واضطر للعودة إلى بلاده سنة 1904م بعد أربعة وعشرون عاما من الإقامة بمصر».[18] استقر على زنيبر في بداية الأمر بمدينة طنجة العاصمة الديبلوماسية للمغرب، فصادف وجدوه بهذه المدينة تحركات ديبلوماسية مكثفة من قبل الديبلوماسيين والسياسيين ورجال الصحافة والإعلام التابعين للدول الأوروبية المتنافسة على احتلال المغرب. ضمن هذا السياق تابع بكل اهتمام وحس وطني مفرط زيارة الأمير الألماني كيوم الثاني للمدينة سنة 1905م، والمحادثات الفرنسية الإسبانية الإنجليزية الإيطالية للاقتسام المغرب، والمشاريع الإصلاحية التي عرضتها هذه الدول على السلطان المغربي من أجل الأخذ بها، والمشاورات الأولى من أجل عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء والذي سينعقد سنة 1906م[19]. وبغادر الحاج علي زنيبر مدينة طنجة ليستقر بمدينة فاس وهو مشحون بأفكار النهضة المصرية التي واكبها وتأثر بها وساهمت في تغيير عقليته وأفكاره، ومشحون كذلك بما اكتشفه

خلال مقامه بطنجة من مناورات الدول الأوروبية، ومما تبدله من مجهودات وترسمه من مخططات في المجال الفكري والإعلامي لتهيأة الرأي العام الوطني والدولي للسيطرة على المغرب، وقد لعبت صحف طنجة التي صدرت إبان هذه الفترة بإيعاز من رجال الديبلوماسية والمال والأعمال دورا بارزا في هذا المجال[20].

عاد الحاج علي زنيبر إلى فاس وهو متيقن كل اليقين بأن المغرب في طريقه لا محالة إلى الاحتلال والسقوط فذ أيادي القوى الأوروبية. وكفقيه متشبع بالفكر الصوفي وبالدعوة الإصلاحية التي تأثر بها خلال مقامه بمصر النهضة، فقد رأى أنه من واجبه القيام بمهمته كرجل من رجال المتصوفة المخلصين لمبادئهم ومثلهم العليا: «...متمسكا بالشريعة قولا وعملا، خبيرا بالحق، باذلا جهوده في أداء النصيحة»[21]. من هذا الإحساس وبإيعاز منه، حرر الحاج علي زنيبر عدة مذكرات سياسية يشرح فيها وجهات نظره في القضايا الشائكة التي كانت مطروحة على المغرب وتتطلب الحل والأصلاح. من بين الموضوعات التي تناولتها مذكرات الفقيه زنيبر تلك التي تحمل عنوان :

- حفظ الاستقلال، ولفظ سيطرة الاحتلال[22].
- مشروع دستور مغربي يقترحه على السلطان عبد العزيز[23].

حفظ الاستقلال ولفظ سيطرة الاحتلال :

استهل المصلح مذكرته بتفسير كلمة الاستقلال وقارن بين مدلولها اللغوي والسياسي وواقع البلاد المغربية التي مازالت في نظره، قانونيا، رغما على مقررات مؤتمر الجزيزة الخضراء، في حالة استقلال داخليا وخارجيا برا وبحرا. إلا أنه لضمان هذا الاستقلال وتدعيمه يلفت الحاة علي زنيبر نظر السلطان مولاي عبد العزيز إلى ضرورة التريث في المصادقة على لوائحه ويقترح، عليه تأليف لجنة تنتخب من عيون

منتوي الأمة لتقوم بفحص الاصلاحات التي أقرها المؤتمر المذكور حتى إذا انهت الجمعية المغربية فحوصها وأعلنت عن رأيها في تلك المقررات، يأتي دور المصادقة الملكية على ما يجب العمل بمقتضاه.

أما كلمة الاحتلال فهي في نظره كلمة ينصرف مضمونها في أمور السياسة إلى وجود قوة غزيبة بجهة كانت تتمتع بحرية الاستقلال، بصرف النظر عن متعلقاته، أوةدته ظروف الأحوال بطريق شرعي أولا، فلذلك كان مكروها عند قوم آخرين عند قوم آخرين، ولا فرق في المرارة بين ثمرة الاحتلال الأجنبي. وثمرة الاحتلال الوطني. ولذا يطالب صاحب المذكرة بلزوم اتخاذ كل الوسائل للقضاء على مقدمات الإحتلال، مع العمل على نهج سياسة قويمة إزاء الرعية. وليست القوة إلا في جانب قوم رضعوا ألبان معارف التحوطات الدفاعية والتجارب الهجومية بفطام النفوس هن حب الذات وترك الملذات، وينهي هذه المذكرة قائلا : «...وليس في ذكر ما صارت إليه حالة الجزائر وتونس وغيرهما من البلدان أدنى تعزية االتنفس، أو فائدة يتمتع بها الحر إذا لم يقم بالواجب».

مشروع الدستور المغربي لعلي زنيبر :

تناول المشروع في 31 فصلا الإجراءات التي يجب على السلطات الحاكمة مباشرتها والقيام بها لمواجهة مشروع الاصلاحات التي أقرها مؤتمر الجزيرة الخضراء والتي يرى الفقيه على زنيبر أنها ليست مطلقا في صالح المغرب، حكومة وشعبا. من الأمور الأساسية التي تصدرت المشروع نظام الحكم المغربي، وشعارات الدولة المغربية ومظاهرها والهلاقة بين السلطان والرعية، وحماية الهوية المغربية، والحفاظ على ثورات البلاد والعباد.

من الإجراءات التي يجب إتخاذها في المجال السياسي يقترح تشكيل مجلس للأمة ينتخب أعضاؤها من الأعيان المتنورين يرأسهم أفضلهم وتكون من مهامهم

الأساسية اتخاذ الوسائل الإصلاحية، وتعميم أصلحها في كل مصالح الحكومة برا وبحرا ،جلبا للأمن والراحة، وذرء لكل فساد (الباب الأول).

ـ استعمال اللسان العربي، نطقا وكتابة ـ في جميع دواوين الحكومة برا وبحرا ، مع إدخال اللغة الأجنبية لضرورية الوقت، بشرط عدم انفرادها بشيء يخرجها عن سلطة الإجراءات العربية العمومية (الباب الثاني).

ـ وجوب سريان الأحكام المحلية على كل من بالقطر أو من في حكمه، بدون التفات لشريف أو وضيع، أو ثبوت التبعية لأية دولة أجنبية (الباب السادس).

ـ منع كل استبداد يقضي بعدم تمتع الراعي والرعية بثمرة وسائل العدل في كل حال (الباب الحادي عشر)

ـ وجوب المحافظة على مصالح الدول قدر محافظتهم على مصالح وحدة استقلال مملكة المغرب الأقصى، بدون إدخال ما يثني عزيمة الرعية عن الثقة برجال الحكومة وعزيزهم (الباب السادس والعشرون).

ـ اتخاذ التدابير اللازمة لإدخال فنون المعارف العصرية : منجهادية وغيرها وأنواع الصنائع الحديثة والفلاحة وما يزيد الأمة تقدما في الأمور التجارية والإقتصادية (الفصل السابع والعشرون).

ـ وجوب إدخال الإصلاح في نفس مصالح الحكومة ليمكن تخصيص كل إدارة بما يليق لها ، فرذا عضد المشروع كان الواجب على رجال الحكومة إتخاذ التدابير لتكوين حكومة منهم قادرة على دفع الطوارئ وجلي المنافع ووقاية الأوطان، وردع كل من يريده بسوء من إنس وجان (الباب الحادي والثلاثون).

لعل هذه الأفكار كانت متداولة في بعض البلدان العربية والإسلامية تعرف عليها صاحب المشروع، كما تعرف عليها باقي الفقهاء والعلماء المغاربة الذين زاروا هذه

البلدان أو توفقوا بها ، غير أن الجديد في كتابات الحاج علي زنيبر يتجلى في طريقة تقديم كتاباته السياسية والاصلاحية وفي عرضها بأسلوب عربي حديث تعمد فيه استعمال إلفاظ وعبارات لم تكن متداولة من ذي قبل لدى الفئات المتنورة المغربية: « ... فكتابة الحاج علي زنيبر تبرز بصورة ملحوظة التطور الذي طرأ على العربية المستعملة في المغرب، ولربما لأول مرة، إنه يستعمل لغة جديدج للتعبير عن إفكاره مختلفة عن اللغة التي كان يستعملها أبناء جيله. إنه يستعمل ألفاظ مثل : الاستقلال، والحرية، ووضوع، والدول العظام، والمندوبون، والمؤتمر، والصلح، الخ... ،كلها ألفاظ غير قديمة في اللغة ولكنها أخذت معنى جديد في المجتمع المصري عن طربق الصحافة والتآليف الجديدة التي اطلع عليها الحاج علي وتمرس بمدلولها »[24].

هل كان معاصروه من الفئات المتعلمة على درجة من الوعي السياسي لفهم أفكاره ودلالات العبارات الجديدة التي تتضمنها كتاباته الإصلاحية؟ « ...لو كان معاصروه على درجة من الوعي لاعتبروه من الرواد ومن دعاة التجديد ولاستقبلوه حين عودته من مصر بحفاوة وترحاب، ولكان له شأن آخر في بلده سواء بالنسبة للرسميين ورجال المخزن أو بالنسبة لعامة الناس »[25].

4 ـ مذكرات محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي (1874-1956م)

ولد محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري بمدينة فاس في أكتوبر 1874 ودفن بمدينة الرباط سنة 1956م. درس بجامعة القرويين وعين أستاذا بها وعمره لا يتجاوز الخامسة والعشرين. ولمكانة الحجوي الأسرية والعلمية ألحق بحضرة السلطان عبد العزيز ليتولى عدة مهام حكومية. تعرف الحجوي عن السلطة الحاكمة في المغرب من الداخل، ودرس رجالات حكومة هذه السلطة عن قرب بحيث يعتبره المفكرون والمؤرخون المغاربة (المثقف المخزني النموذج) الغزير الإنتاج، والداعية المتحمس الذي كان في الوقت ذاته موظفا مخزنيا لمدة تربو على نصف القرن، كانت تتخللها

فترات من احتراف التجارة والرحلات، هذا المثقف المخزني ركز دعوته إلى تحديث الدولة حسب مفهوم التحديث الذي يرمي إلى تأسيسه على الفكر السلفي الحزيث في المغرب[27].

الحجوي والمحاولات الإصلاحية للسلطان مولاي عبد العزيز (1894-1980م)

تابع الحجوي عن كثب المحاولات الإصلاحية الأولى التي أراد السلطان الشاب مولاي عبد العزيز إدخالها إلى البلاد بإيعاز من مجموعة من الأوروبيين الذين اتخذ منهم حاشيته، وإن لم يكونوا كلهم على درجة واحدة من الإخلاص له، لأن بعضا منهم، بل أغلبهم، همهم الوحيد الغني السريع وتركيز نفوذ بلدانهم على حساب باقي البلدان الأوروبية المتنافسة على المغرب. كما كان الحجوي يراقب من بعيد نشاط وسلوك بعض المغاربة من رجالات المخزن وتجاره الذين استغلوا ميل السلطان لتحديث الحياة المغربية فراحوا يزينون له فوائد الألعاب الميكانيكية والكهربائية الثمينة، وإدخال وسائل التسلية والترفيه للبلاط مثل إقامة سباق الدراجات في حديقة القصر لم يكن يألفها المجتمع المغربي. هذه المستحدثات شوهت فكرة التحديث في أعين الشعب وأضرت بسمعة السلطان ورجالات حكومته. وتزداد الهوة بين السلطان والشعب عندما أقر بإدخال إصلاحات على أجهزة الحكم كما أوصت بذلك الدول الأوروبية وفي طليعتها إنجلترا، إذ كان من رأيها تنظيم مؤسة السلطان على غرار التاج البريطاني، والأخذ بنظام جديد للضرائب والجبايات، واستبدال العقوبات الجسدية العتيقة بما أخذ به من نظام قضائي جديد في هذا المضمار، وتخصيص مرتبات شهرية للولاة والقضاة وأعوان الحكومة عوضا من ترك هؤلاء يعيشون على ما يحصلونه من مناصبهم ومواقعهم السلطوية من رواتب يتقاضونها مباشرة من المواطنين بدون تحديد لضوابطها. "...وما ان شرعت حكومة السلطان عبدالعزيز في تطبيق أولى هذه الإصلاحات حتى تعالت أصوات الشكوى، وتذمر القواد ، لأن تحديد رواتب لهم تقطع عنهم سيل الأموال التي كانوا يأخذونها باسم ضرائب يوردونها

للسلطان، وتمردت بعض القبائل، وتذمر الأشراف الذين لم يعد يشملهم الإعفاء الضريبي، واغتنمها بعض الإنتهازيين فرصة للشغب والإنتفاض على الدولة مما جعل موارد الخزينة المغربية تتضائل تضاؤلا احوج السلطان الى الإقتراض من الدول ألأوروبية، في وقت ارتفعت فيه تكاليف المعيشة اليومية في المدن، واستحكمت الضائقة في البوادي مما حرك شعور الكره بين المغاربة ضد الأجانب المقيمين بينهم، فأخذوا يشنون الهجومات عليهم[28]. هذه الهجومات ضد الأجانب، وهذه الإنتفاضات الشعبية ضد السلطان وهذه الإحتجاجات ضد الإصلاحات التي أدخلت على جهاز الجبايات والتي أضرت بمصالح الولاة وامتيازات رجالات الحكومة والأشراف، ادخلت المغرب في صراعات سياسية واجتماعية زعزعت اركان الدولة العزيزية. اغتنمت الدول الأوروبية هذه الأوضاع للتدخل عسكريا في المغرب من أجل حماية مواطنيها وديبلوماسييها ورجال أعمالها للمحافظة على سلامتهم وممتلكاتهم. كما تدخلت عسكريا من أجل إقرار الأمن وإعادة الطمأنينة في البلاد باسم المخزن ولفائدته. عن هذه الأوضاع كتب الحجوي مذكراته من بينها تلك التي تحمل عنوان: " انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره".. عن هذه المذكرة كتب صاحبها يقول: "...هذه مذكرات لعبد ربه وأسير كسبه وجب علي إبرازها للوجود حيث الوقت كان مملوءا بالحوادث العظمى...وقد رأيت بعض الناس كتبت في ذلك وبرزت كتاباته للعالم وفيها بعض امور مخالفة لما عاينته، حيث قلد الغير ولم يشاهد ما شاهدته، والحقيقة التاريخية يتعين على كل مؤرخ ان ينصرها.[29]

يشرح الحجوي أسباب فشل السلطان مولاي عبدالعزيز في إدخال الإصلاحات الضرورية لتحديث المغرب قائلا: " ... لم تكن للسلطان مولاي عبدالعزيز معرفة تامة بأخلاق المغاربة، وما يجب في سياستهم، لكونه كان مغلوبا على أمره، غير ممارس ولا مباشر للأعمال بنفسه. ثم إن السبب الأعظم في الإنكسار فساد قلوب رعيته، واتهامهم له بالفسق والكفر حتى احتاج لجعل محضر كتب فيه علماء فاس إشهادا لمعاينتهم له يصلي التراويح ليلة سابع وعشرين رمضان، معترفين بوجوب طاعته

التي كانت في اعناق الأمة. كان السلطان مولعا بركوب الدراجة ولم يكن موجودا في المغرب فعدوه كفرا. كما انه صبغ جدران قصره بالنيلة فعدوه كفرا لأنهم كانوا لا يرون ذلك إلا في دور اليهود، ولم يكن المسلمون يعملون ألوانا في جدرانهم إلا البياض فعدوا كل من خالف مألوفهم كفرا وجهلا... وبالجملة رعية جاهلة بسيطة الفكر"

مقترحات الحجوي الإصلاحية الموجهة للسلطان مولاي عبد الحفيظ (1908-1912م)

يأسف الحجوي أسفا عميقا لنهاية الدولة العزيزية، ويتأسف بعدم نجاح السلطان في إدخال الإصلاحات للبلاد. ولما بويع السلطان مولاي عبدالحفيظ وجه اليه الحجوي خطابا تضمن آراءه الإصلاحية في المؤسسة السلطانية، والمرافق الحكومية، والجهاز الإداري، وقطاع التعليم والسياسة الخارجية.

المؤسسة السلطانية: بروز السلطان

يرى الحجوي ان مكانة السلطان داخل هذه الإصلاحات هي المحور والدور الأساسي موضحا مهامه في تحديث الدولة المغربية. وفي هذا الصدد يقول الحجوي: "...هذه الأحوال وما وصلنا اليه من ارتباكات والإختلال ، وتطلب الخلاص من هذا البحر الخضم المظلم، فلا تجد سفينة ولا منجاة إلا بشيء واحد، وهو بروز مولانا أيده الله لعيان رعيته، والتحبب إليها بالبحث عن الحقوق الضائعة والضرب على أيدي الظلمة، وسهره الليل والنهار على ذلك، وهجر كل لذة، وتعهد مجالس القضاة والعمال والمحتسبين، وحضهم على العدل والمساواة بين العباد في الحقوق والضرائب وغيرها، وحسم مردة الزور، وانتهاز الحقوق ممن يخالف ذلك، وسماع شكاوي المظلومين، وتخفيف آلام البائسين، والبحث في أمور الخزينة والأحباس. على السلطان ان يقوم بإحصاء الشاذة والفاذة ليتوفر لديه ما يقيم به أود الجيش مع الانتشار الشديد للجيش وتنظيمه على النسق الأوروبي، وتوفير معداته من أكل

وشرب وخيام، وتحسين مسكنه وفراشه الى غير ذلك، ويتفقد معاهد العلم والعلماء، ويرتب مجالس العلم بما يناسب الحال والوقت ويقدم للتعليم من يستحقه وينشطه برفع درجته، ويرتب الكتاتيب اعني المسائد على نسق تكون أشبه بمدارس إبتدائية وينقحها من المعلمين الجهلة... وبناء مدرسة جامعة لتلقن المعارف الوقتية المفقودة من المغرب مع اضطراره اليها ولو بتحويل بعض المدارس المعطلة."

المرافق الحكومية ومسؤولية الموظفين فيها.

"...على السلطان أن يجعل كل وزارة مستقلة في نفسها، قائمة بموظفيها ويجعل لها من الموظفين والأعوان والكتاب والأقسام ما يقوم بسببه بأشغال القي له بعهدتها، لتجري الأشغال على نسق دائم فلا تتعذر المصالح ولا تضيع الحقوق، حتى لا تقع واقعة إلا ويقابلها من هو في وظيفته بكل استطاعة واطمئنان، ولا تضيع فرصتها في الوقت المناسب لها، ويكون مولانا قد علم وقوعها في وقتها، وعلم كيفية مباشرتها على الوجه المطلوب مع راحته، وعدم مشقة موظفيه، فتقل الشكاوي، وتضمحل الدعاوي، وتنعدم المظالم" على السلطان ان"...ينظم إدارته فيختار لها ألأمثل من الموظفين الأكفاء ويحد لكل موظف سلطته، ويخوله التفويض فيها، ويلقي عهدتها عليه ويجعل عليه المراقبة الشديدة في اعماله، ويكون مولانا أيده الله مراقبا على الكل وفيا" . ويتساءل الحجوي عن فعالية هذه المقترحات فيجيب بان كل دولة يقع فيها تضعضع لا يمكن تداركه إلا بهذه الإصلاحات التي لا ينفع فيها مال على كثرته ولا جيش على خدمته. "...وهكذا فإن الدول الأوروبية والأمريكية واليابان إنما نهضت من سباتها ووصلت الى ما وصلت اليه بتنظيم إدارتها، واحترام الحقوق وضبط الأموال وتدريب الجيوش، ونشر العلوم والمعارف، ففي التاريخ القديم والجديد عبرة وذكرى".

الأوضاع الداخلية وضرورة معالجتها:

يرى الحجوي ان الوضعية أصبحت من الصعب السكوت عنها حيث جالت الأيدي الضاربة في أشلاء الأمة الفقيرة والضعيفة، فمزقت أحشاءها وفرقت كلمتها

وبغضت اميرها اليها ، كل هذا بسبب الظلم الفادح واللعب بالرقاب والدماء، وبيع الوظائف جهارا. اما عن الحالة العلمية التي يرى الحجوي انها أساس تقدم الأمم ومقياس رقيها فبعدما كان العرب والمسلمون أساتذة لأوروبا صاروا اليوم اقل درجة من التلميذ. فالمؤسسات التعليمية بالمغرب بما فيها جامعة القروين لا تقاس بما يوجد في مصر وتونس فضلا عن البلاد الأوروبية :

الأوضاع الداخلية وضرورة معالجتها. اما عن المستوى الخارجي فيرى الحجوي ان أوروبا احكمت الخناق على المغرب بموجب المعاهدات التي أبرمها معها ، والامتيازات التي حصلت عليها بموجب هذه الإتفاقيات. وعن هذا الموضوع يوضح الحجوي: "... وهكذا عقدت الأوقاف المجحفة للحقوق وباستقلال البلاد والقروض العظيمة باسم الأمة، والأمة لا علم لها ولا رأي. وأعطيت المشاريع الكبرى للأجانب الذين لم يكونوا يحلمون بنيل اقل جزء منها فصارت لهم مهذاة... فمن له مسك من عقل أو طرف من غيره، أو وطنية يتأمل الإتفاقات." ويختم الحجوي مذكرته بتوجيه نصيحة الى السلطان جاء فيها: "... وليقم السلطان بما اوجب الله عليه لأمته خير قيام، وليشد على التمسك لاستجلاب قلوب رعيته بالعدل والإنصاف... وإياك ان تصغي لمن يشر عليك بمعاندة الأمة، وحملها على الرضى للظلم والإستبداد، فإنما يريد استئصال ما لديك".

ترك الحجوي آثارا علمية مهمة تزيد على المائة بين مخطوط ومطبوع اهمها على الإطلاق (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي) في أربعة اجزاء معتمد تدريسها بالجامعات المغربية وإسلامية كبرى. وما يميز الحجوي عن غيره من دعاة الإصلاح والتجديد والتحديث في المغرب جراته وتحرره الفكري واستقلاله المالي عن المخزن. هذه الخاصيات جعلت المؤرخ المغربي عبدالله العروي يقول عنه: "...إنه صاحب فكر حر. كانت لديه رغبة أكيدة وإرادة قوية للدفاع عن مكتسبات الحضارة العربية الإسلامية، ولهذا فإن مؤلفاته كثيرا ما إعتمد عليها الوطنيون لمواجهة الفكر الإستعماري الإستيطاني والثقافي والرد على أطروحاته" [30].

II-الرحلة إلى الغرب : الوعي بالتفاوت وتفوق حضارة الغرب الحديثة

الرحلة الى الغرب، او بالمفهوم المغربي: الرحلة السفارية تكون الغاية من سفر صاحبها القيام بمهمة ديبلوماسية لدى دولة اجنبية، وتكون أحيانا من إنشاء السفير نفسه، إن كان في نفس الوقت من رجال الأدب والعلم واحيانا اخرى يقوم بتأليفها احد الكتاب المخزنيين الذين رافقوا السفير. وكلمة سفير مأخوذة من السفارة بمعنى إصلاح ذات البين بين الناس كما اجمعت عليه معاجم اللغة العربية، وهي مشتقة من سفر كعرف او اسفر كأكرم وليس من السفر بمعنى الرحيل[31].

هذا النوع من الرحلات سيعرف في مغرب منتصف القرن التاسع عشر والى نهايته نشاطا مكثفا وملحوظا عندما بلغت التحديات الأوروبية اوجها على إثر احتلال فرنسا للبلاد الجزائرية سنة 1830م، وتوقف جيوشها الإستعمارية على عتبة المغرب تنتظر الفرصة المواتية للانقضاض عليه. هذه الفرصة هي معركة إيسلي (1845م) التي انتهت بانهزام شنيع للقوات المغربية التقليدية أمام القوات الفرنسية المحكمة التسيير والتدبير والتدريب، المتوفرة على آليات حربية من باكورة إنتاج الفكر الأوروبي الحديث الذي أشعل فتيل الثورة الصناعية والتقدم العلمي. وتأتي الحرب ألإسبانية المغربية التي مكنت القوات الإسبانية من احتلال مدينة تطوان في شمال المغرب سنة 1860م ، وشرع الإسبان في تغيير معالمها الحضارية والإسلامية الى كنائس ومؤسسات خيرية للتبشير والتنصير ليذكر هذا الإحتلال بما كانت تصبوا الى تحقيقيه الحروب الصليبية. عن هذا الحدث كتب المؤرخ المغربي خالد الناصري: "... ووقعة تطاوين هذه هي التي أزلت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب، واستطال النصارى بها، وانكسر المسلمون إنكسارا لم يعهد له مثله وكثرت الحمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة."[32] اما المؤرخ عبدالله العروي فيعلق على هذه الحرب واستيلاء الإسبان على مدينة تطوان فيقول: "... كل شيء في هذه الحرب يرمز الى أزمة الدولة والمجتمع في القرن التاسع عشر.

ففي نظر المؤرخين المغاربة المعاصرين كانت حرب تطوان تقرع أجراس الأسى على أحلام المغرب. لم يعد في نظر هؤلاء ممكنا ان تجري حرب حقيقية مع الدول الكبرى لأن التفاوت صار عظيما."[33] وكما حدث في المشرق العربي حيث لم تبدأ بوادر الوعي النهضوي الحديث في التبلور والتشكل إلا بعد الإصطدام مع الحضارة الغربية الحديثة بفعل حملة نابلون على مصر فقد حدث نفس الشيء في المغرب حيث لم يبدأ التساؤل، على مستوى الحكام والفئات الواعية عن أسباب هزائم الجيش المغربي إلا بعد ان اصطدم الوعي المغربي بصدمة التفوق الأوروبي . "...ومنذ هذه الساعة انتبه المغاربة الى ان انظمتهم العتيقة في الجيش وأجهزة الحكم وآلياته المختلفة لم تعد مجدية إزاء التقدم الأوروبي الحديث، وتكون في نفوس القادة والنخبة المتنورة شعورهم بالحاجة والتجدد وانتحال وسائل النهوض"[34].

اقتنع الحكام المغاربة بان اية مواجهة عسكرية في البر او البحر مع الدول الإستعمارية: فرنسا ، انجلترا ، اسبانيا ، ألمانيا ، لن تكون مجدية، ولا يمكن مطلقا التفكير فيها أو التعويل عليها لضمان استقلال البلاد والحفاظ على ما تبقى من كيان الدولة المغربية وسيادتها . من هذا الوعي لجأ الحكام المغاربة الى اعتماد العمل الديبلوماسي كسلاح بديل لإذكاء روح التنافس بين هذه الدول كوسيلة لمواجهة طموحاتها . وهذا ما يفسر النشاط المكثف لهذا العمل الديبلوماسي من سنة 1845م الى 1906 م. خلال هذه الحقبة وجه الحكام المغاربة الذين تعاقبوا على الحكم خلال هذه الفترة من تاريخ المغرب الحرجة عدة بعثات ديبلوماسية الى فرنسا وأسبانيا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا والفاتكان[35]. من مهام هذه البعثات الديبلوماسية تقديم رسائل الى الحكام الأوروبيين تذكرهم بمضمون المواثيق والمعاهدات التي أبرمها المغرب مع بلدانهم. كما كانوا يقترحون عليهم تجديد هذه المواثيق وتنشيط مجال التعاون بين المغرب المستقل وهذه البلدان ذات التوجهات والطموحات الإستعمارية. بجانب هذه المهمة الديبلوماسية كان على السفراء أو كتابهم تدوين تقارير حول البلدان المزارة مسجلين الجديد والغريب والنافع من المؤسسات والعادات االتي بفضلها أصبح

للأوروبيين هذا الجانب من القوة والغلبة[36] وذلك قصد تقديمها لأصحاب الحل والعقد للإستفادة منها والإسترشاد بها للقيام بالخطوات والمبادرات الإصلاحية التي تفرضها تقلبات الأحوال، وتحث عليها العقول المتنورة والمتفتحة في كل من المغرب والبلدان العربية والإسلامية. فما هي أوجه الإنتفاع من الرحلات السفارية الى الغرب وما مدى مساهمتها في خلق تيار فكري نهضوي في مغرب منتصف القرن التاسع عشر، وكيف عبر السفراء المغاربة او كتابهم عن هذا الوعي؟ من الرحلات السفارية التي سنعتمدها في هذا الباب :

- رحلة السفير إدريس ابن ادريس العمراوي إلى فرنسا (يونيو 1860م)
- رحلة الكاتب أحمد الكردودي الى اسبانيا (نوفمبر 1885م)
- رحلة الفقيه الحسن الغسان الى لندن (يونيو 1902م)

1- رحلة السفير ادريس بن ادريس العمراوي[37]

الحاج ادريس بن عبدالله بن إدريس العمراوي اصله من مراكش الحمراء وللرباط كان مآله ومغرب شمسه. استفاد ابن ادريس من مكانة أبيه العلمية والوظيفية إذ كان وزيرا في حكومة السلطان مولاي عبدالرحمان بن هشام لينكب الإبن على الدراسة والتحصيل. سافر الى الحج وتوقف بمصر، شانه في ذلك شان كل الفقهاء والعلماء المغاربة الذين يتوجهون الى المشرق العربي كما أشرنا الى ذلك. خلال مقامه بالقاهرة اتصل ابن ادريس بعلمائها وأدبائها من رواد النهضة العربية الحديثة، فاطلع على أولى مؤلفاتهم ومن بينها طبعا رحلة رفاعة الطهطاوي (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) التي تأثر بها السفير المغربي شكلا ومضمونا عندما دون رحلته السفارية الى فرنسا والتي اسماها: (تحفة الملك العزيزبمملكة باريز).

لما عاد السفير الى المغرب عينه السلطان مولاي عبدالرجمان كاتبا في صفوف المحزن، وبعد تولية السلطان سيدي محمد بن عبدالرحمان (1859م-1873م) إتخذه

كاتبا له، وكلفه بمهمتين سفاريتين الأولى الى اسبانيا والثانية الى فرنسا. عن هذه الرحلة الأخيرة ترك لنا ابن ادريس تقريرا يحمل عنوان: (تحفة الملك العزيز بمملكة باريز) دون فيه كل ما شاهده وسمعه ولاحظه خلال إقامته بالديار الفرنسية من 17 يوليوز 1860م الى غاية 2 غشت 1860م، أي مدة أربعين يوما. وبالرغم من قصر هذه المدة فقد تمكن السفير من التغلغل في الأوساط المجتمعية الفرنسية والتعرف على جوانبها المختلفة. تطرق ابن ادريس الى عالم التجارة، والاقتصاد، والفكر، والتعليم. كما أعطانا فكرة واضحة عن اهم المؤسسات الحكومية موضحا وظائفها وتنظيماتها وفوائدها. ومن الجوانب التي استرعت انتباهه:

دار الطبــاعة والكــتــب:

"....هي دار كبيرة اكبر من دار الضرب بكثير وخدماتها اكثر عددا منها. وفيها أيضا الالة التي تحرك بالبخار وسطها، وفيها أقلام عديدة ولغات كثيرة يطبع بها ما يريده الإنسان باي قلم شاء وبأي لغة أراد. رأينا فيها الخط العربي على نوعين، الخط المبسوط الأندلسي مكتوب به اول سورة البقرة في غاية ما يكون من الإتقان والجودة، والخط الآخر المركب، وخط أهل الواسطة، والخط الكوفي والتركي والمصري والعجمي الى غير ذلك من خطوط الأمم من الهند والصين والإفرنج...وقد كنت وقفت في خزانة مولانا أمير المؤمنن قدسه الله على كناش كبير مجلوب من هذا المحل فيه جميع أمثلة الخطوط التي تطبع في هذه المطبعة التي هي فوق جميع مطابع الأرض، وهي تقدر ان تخرج افكار الناس بكل اللغات والأوراق، وهي تحيا بقوتها بلا ثقل عن بيت المال وتطبع فيها الشرائع كلها غير ذلك. وهذه الالة التي اتخذوها للطبع هي في كل الأمور عامة النفع معينة على تكثير الكتب والعلوم وأثرها في ذلك ظاهر ومعلوم. وقد اتخذوها في جميع بلاد الإسلام واغتبط بها مشاهر العلماء والأعلام ويكفيك من شرف وحسن موقعها رخص الكتب التي تطبع بها...ونطلب من الله بوجود مولانا أمير المؤمنين ان يكمل محاسن مغربنا لمثل هذه المطبعة ويجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة."

عن درا الكتب يقول السفير: "...إنها مشحونة بكتب جميع الأديان واللغات حتى كتب اليهود. فيها كثير من كتب الإسلام مما كانوا جلبوه من خزانة مصر والأسكندرية لما تغلبوا عليهما ومما جلبه ملوكهم من البلاد. وقد ذكر لي الترجمان الذي كان معنا أسماء كتب عديدة غريبة من كتب التواريخ والفقه والحديث واللغة والتفسير مما هو عندهم. وهناك مما نسمعه ولم نره، ولم نسمعه ولم نره. ذكر لي من أسماء كتب تواريخ المغرب سبعة أسماء لم نعرف منها واحدا. ومنها المغرب عن ممالك المغرب، والإحاطة بأخبار غرناطة... أخبرونا أن من جملة ما عندهم في هذه الخزينة مصحف صغير الجرم مكتوب بالخط الكوفي أهداه هارون الرشيد العباسي لملكهم المعاصر له ومعه سفرة شطرنج من العاج عظيمة القطع مكتوب أسفل الرخ منها هذا ما صنعه لأمير المؤمنين هارون الرشيد المعلم فلان ذكر لي إسمه ونسيته ومكانة (ساعة) تخدم بالماء وغير ذلك، واستغربت كون هارون الرشيد يهدي لملكهم المصحف مع مكانته في الدين المشهورة وهمته السامية المسطورة مع أن الإسلام كان في ذلك الوقت في عنفوان الشباب، والكفر في غاية الهوان، ولعل هذا من افتراءاتهم وزخارفهم التي يموهون فيها ادعاءاتهم."

الكومديات والغناء والرقص والهزليات

"...هي عبارة عن محال عندهم يلعبون فيها بأنواع من اللعب في ركوب الخيل وطيران الهواء وقلب الأعيان والغناء والرقص وحكايات الأخبار والأشعار بلغتهم، والمحاجات والأسئلة والأجوبة. وهذه مسائل هزليات لكنهم مغرمون بها كل الغرام ، ومولعون بها كل الولوع. وكنت أضحك من ذلك وأعده من جملة المزاح الذي لا يعبأ به ولا يؤبه له، وأنه ليس من الجد في شيء حتى وقفت على كلام الشيخ رفاعة المصري في رحلته. حاصله إنها أمور جدية في صفة الهزل."

المرأة الفرنسية بأعين السفير ابن ادريس

"...وطاعة النصارى لنسوانهم ومبالغتهم في اتباع مرادهن أشهر من أن تذكر. ويقولون إن لهذه المدينة زيادة في ذلك حتى أنهم يقولون في أمثالهم باريز جنة النساء

وجهنم الخيل. والمرأة هي رئيسة البيت والرجل تابع لها حتى ان من دخل عندهم بيت أحد قاد به أن يقدم السلام على المرأة قبل زوجها وهي التي تقابل الضيوف وتكلمهم وترحب بهم سواء كانوا رجالا أو نساء. والرجل ساع في طاعتها ممتثل لأمرها متأدب معها بأحسن الآداب لا يخالفها في شيء ومن كان بخلاف ذلك عدوه اوباش الناس وسفهائهم مع قلة العفة فيهن. فقد بلغنا أن جلهن يتعاطين الفواحش، والغيرة في أزواجهن نادرة جدا. فيرى رجل زوجته آخذة بيد رجل آخر ذاهبة معه تتحدث في الخلا والملأ، فلا ينكر عليها ذلك وربما وجه بعضهم زوجته مع جاره أو صاحبه لمتنزه او فرجة إن كان له هو شغل ولا يقدر ان يذكرها بشيء من ذلك ولا يسمها به ولو سمعه عنها. وعندهم لذلك قوانين واحكام مرتبة....وعوائدهم في هذا الباب يثقل سماعها على الآذان ولا يجمل بالأديب ذكرها في السر ولا في الإعلان، وإنما أشرنا إلى هذه النبذة منها تنبيها للعاقل وتنكيتا للجاهل"

التجارة والتجار ودور البيع في باريز

"....وأكثر تكسب أهل هذه المدينة من التجارة. والتجار عندهم معتبرون اعتبارا زائدا وهم ركن من أركان الدولة. وكلما زاد مال الرجل عندهم ونجحت تجارتهم كان أرفع منزلة وأعظم مكانة والعكس بالعكس. ويذمون الباطل عندهم ذما بليغا ويتهاجون بالباطل. وقد بلغنا ان لهم دارا يتعلمون فيها كيفية التجارة كما يتعلمون الكتابة والحساب وغير ذلك فيدفع الرجل ولده لذلك الدار على جعل سنوي يعطيه عليه ومن لم يكن له مال فالمخزن يؤدي عنه. ولهم دار يجتمع فيها التجار ساعة في كل يوم يتعاطون فيها أخبار السلع النافذة والكاسدة وأخبار السكك وكيفية رواجها في البلدان واختيار الفابريكات والكونترادات وغير ذلك. واعتناء دولتهم بأمور التجارة كبير وذلك لأن مستفاداتهم جلها منهم. فكلما صلحت تجارتهم كثر الدخل على خزانتهم وكل ما بين النصارى من طرق الحديد وأخبار السلك ومراكب وغير ذلك فالتجار هم الذين يقومون به والمخزن إنما يشد عضدهم ويعينهم بالكلمة

لا غير. فأما دكاكين التجارة عندهم بباريز فشيء من وراء العقول سلعها مرتبة ترتيبا جيدا تزينها في أعين الناظرين، ويرتبون السلع في أبواب الحوانيت ويجعلون وراءها الزجاج ويوقدون داخل الحانوت وخارجها الضوء الكثير فتظهر لذلك بهرجة تحمل الناظر على عشق تلك السلعة والتغالي في ثمنها. ولهم سعة اخلاق عند البيع وادب في المعاملة فيدخل أطراف الناس بحانوت التاجر الكبير ويسأله عن سلع متعددة ويقول له: اريد ان ارى كذا وكذا بكل ما يطلبه منه او يأمر الخادم بالإتيان بذلك ولا يضجر منه ولو بقي ما بقي. فإن توافق معه على شيء اشتراه منه وإلا فيقول له سامحني، فيجيبه بانك لم تفعل معي ما يثقل علي حتى تطلب مني المسامحة او ما هذا معناه ويذهب لحال سبله."

الصحافة اليومية ودورها في المجتمع الفرنسي:

".... يسمونها أيضا الجرنالات والكازيطات. وكيفيتها ان لهم دارا يكتبون فيها أخبار ما يقع في العالم كله بحسب ما يروج سماعه من حروب ومهادنات ونوادر وما يتعلق بالدول وما عزمت عليه وما ينبغي ان يكون في الوقت بحسب ما يظهر لهم، ويذكرون فيها السلع التي تباع وأسوامها وما هو نافذ وما هو كاسد وما هو متوسط وما طلع ناقصا وما طلع كاملا والدور التي تباع او تكرى والأرضون والأجنات والحوانيت. ويذكرون من أفلس من التجار وسبب فلسه وغير ذلك. والناس المعتبرون عندهم يرتبونها بان ياتيهم بها خادم تلك الدار بكازطة في كل يوم الى محله على ان يعطي في السنة خرجا معلوما فيقرأها فيعلم خبر الدنيا كلها قبل ان يخرج من داره. فإن كانت عنده سلعة مطلوبة باعها او عن كان له غرض في كراء دار او شراءها عرفه من هناك. وسائر الناس يشترونها من حوانيت معدة لبيعها في كل سوق وهي صنفان: صنف يصدر بإذن الدولة ولا تعلق له بالتجارة وإنما هو ترغيبات وترهيبات وتحريضات وتسهيلات وأعذار عن امور صدرت وتمهيدات لأمور أرادوا إحداثها وتحسينات لأمور انكرها بعض الناس وإظهار وجهها وغير ذلك...

وذكروا لنا ان الوزراء الذين يكون الكلام عنهم في ذلك يكونون في تعب كبير في الأجوبة عما يلقى عليهم فيها وربما عزلوا الحكام والوزراء بسبب ما يظهر من زلات ومعائبهم، فيها ولها أثر كبير في السياسة والتجارة. وكل من تأمل ما ذكرناه من حالها وموضوعها يستحسنها ويعرف قدر نفعها ولا تسأل عن عورات تفضحها ومساوي تبديها ومهاوي تنبه عن الوقوع فيها... ولقد أحدثوا نوعا منها باللسان العربي يخرج على رأس كل خمسة عشر يوما يذكرون فيه لب ما تضمنته تلك، وكانوا ياتوننا منه بنسخة عند خروجنا فكنا نرى فيها العجب وكنا نعرف خبر العلم وحقائق البلدان وتفاصيل دولهم وغير ذلك ونحن في البيوت"

الجيش الفرنسي والجيش المغربي: اوجه المقارنة والتفاوت:

عاش السفير ابن ادريس هزيمة الجيش المغربي في معركة تطوان، وعاش احتلال هذه المدينة من طرف السلطات الإسبانية وما قاموا به من أعمال ضرت بمظاهر الحضارة العربية الإسلامية. وها هو اليوم يتفقد الجيوش الفرنسية في باريز، زيارة رسمية ومقصودة. يقارن ابن ادريس الجيش المغربي والجيش الفرنسي فيقول: "...أما قاعدتهم في ضبطه فقرروا احكاما ككل جريمة تجري على فاعلها حتما، وقطعوا الطمع على ان يتولى احد مرتبة فيه برشوة او قربة. ولم يطلقوا للمتولين اليد في العسكر بالتعدي والضرب والسجن، ولا بأخذ شيء من مرتبهم. فما يحدث في قلوب العسكر حنق عليه حتى يطلبون بعزله وولاية غيره، ولذلك وقف كل عند حده فآمنوا بواثقه وفتنه."

2-رحلة الكاتب احمد الكردودي إلى إسبانيا (نوفمبر 1885م)[38]

في 26 دجنبر 1884م احتلت اسبانيا رأس بوجدور بالصحراء المغربية وفرضت على قبائل هذه المنطقة حمايتها وسيطرتها. في الحين وجهت السلطات الحاكمة في مدريد منشورا الى الدول الأجنبية تعلن فيه احتلالها لهذه المنطقة من التراب

المغربي. وما ان علم الحكام المغاربة بهذا الحدث حتى قاموا يواجهونه بالأسلوب الديبلوماسي المعتاد. وضمن هذا التوجه وجه السلطان الحسن الأول بعثة ديبلوماسية الى الملك الإسباني ألفونس الثاني عشر. السفارة كانت برئاسة السيد عبدالصادق الريفي يصاحبه امين سره احمد الكردودي. عن هذه الرحلة السفارية الى اسبانيا دون الكردودي رحلة سماها " التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الأسبنيولية" والمقصود بالحضرة السنية السلطان مولاي الحسن الأول (1873م-1894م) وعلى غرار سابقيه تعرض الكردودي في رحلته الى الحياة العامة في اسبانيا في عهد الملك ألفونس الثاني عشر. ومما استرعى انتباهه:

نظام تولية الحكم وولاية العهد:

لاحظ السفير عدم وقوع فتن بعد وفاة الملك يوم 18 فبراير 1885م. واندهش الكردودي اندهاشا كبيرا لهذا، فحاول فهم السباب التي حالت دون وقوع فتن وصراعات على الحكم وهو يستحضر طبعا المغرب في مثل هذه الظروف. يفسر السفير هذه الأسباب قائلا: "... لم يصدر بينهم شيء مما ظنناه، بل بقي امرهم على حاله ....ولم يختلف أحد منهم في شيء. فأول ما فعلوه هو تأخير الوزراء وتعين غيرهم، ثم الإتفاق على من يتولى امر ملكهم. وبعد تمام الأمر وإبرامه لتأسيس الملك واحكامه، اشاعوا ذلك في ورقات اخبارهم واخبروا بمن ولي السلطنة والوزارة منهم، ولم ينقل لنا عن احد منهم انه خالف في ذلك ولا انكره، بل جميعهم امتثل وأذعن لذلك وقبل واعترف."[39] أما عن تولية العهد فقد تتم حسب ما أورده السفير حسب الطريقة الآتية:

"....فإذا كان ولي العهد صغير السن فيسند الأمر الى الأم الحاضنة حتى يبلغ سن الرشد، وإذا لم يكن الأمير ولدا يرجع العرش لأكبر بنات المتوفى، مع العلم ان الوزراء يتكلفون بتسيير شؤون المملكة، وليس على متولي الملك إلا الإمضاء". [40]

وعي السفير بالأطماع الأوروبية:

يرى السفير بأن هذه الأطماع أصبحت واضحة بعد ان احتلت بعض الدول الأوروبية الجزائر وتونس ومصر. أما بالنسبة للمغرب فهي تبحث عن الأسباب وتختلق المناورات لتبرير تدخلها في شؤونه الداخلية كمقدمات لاحتلاله عسكريا. بهذا المعنى كتب: "...واشتدت شوكتهم في هذا العصر، صاروا يجعلون لما يريدونه أسبابا يرتكبونها وأمورا يريدونها ويدبرونها وعليه تعين على من جاورهم من أهل الإسلام ان يكونوا من امرهم على بال، وأن لا يرتكبوا ما يوذن بالتواني والانحلال، بل يسارع الى مزيد من الأهبة والاستعداد بما يقمع الكفرة ويأمن البلاد"[41].

الكردودي والمآثر الإسلامية في الأندلس

لقد دخل الكردودي في اتصال مع المآثر الإسلامية التي ما زالت قائمة في الأندلس، وما زالت هذه المعالم شاهدة على وجود ماض إسلامي مجيد، وحاضر ملعون بسبب ما يعاني منه المغاربة من ضغوط وويلات اوروبية. تألم الكردودي لما آلت اليه هذه الأمور وازداد المه عندما رأى المآثر الإسلامية قد تحولت الى كنائس فصرخ من منطلق الفقيه ومن منطق المومن الرافض لطمس هذه المعالم الإسلامية واستبدالها بمؤسسات الكفر والبهتان. عبر الكردودي عن هذه المشاعر والالام بالعبارات التالية: "....وقد أداهم كفرهم الى جعل صور كصور الادميين لها أجنحة يزعمون انها صور الملائكة، كما جعلوا صورة زعموا انها صورة آدم عليه السلام، عاري الجسد إلا عورته مستورة بشبه أوراق الشجر، واخرى يزعمون انها صورة حواء، وغير ذلك كصور مريم وعيسى رضيعا وشابا وقتيلا.وقد ضقنا ذرعا حيث رأينا ما رأينا من استيلاء الكفار على أماكن المسلمين وشاهدنا من تصرفات الأقدار من نقلها الى أيدي الكفار فليبك الباكون عليها من غير حصر ولا عد" [42].

3-رحلة الحسن بن محمد الغسال إلى لندن (يونيو 1902م)[43]

بمناسبة تولي الملك إدوارد السابع العاهل البريطاني الجديد بعث السلطان مولاي عبدالعزيز في يونيو 1902م بسفارة لتهنئته، برئاسة باشا مدينة فاس القائد

عبدالرحمان بن عبدالصادق الريفي وعضوية الكاتب الحسن بن محمد الغسال. عن هذه المهمة السفارية الى لندن دون الكاتب الغسال رحلة نشرها الدكتور عبدالهادي التازي.

يعطي الغسال فكرة عن انجلترا في بداية القرن العشرين، وهي الدولة الإستعمارية التي امتد نفوذها شرقا وغربا، تأتيها الخيرات عبر الأساطيل البحرية من كل بقاع المعمور، فازدهرت اقتصاديا وتجاريا وفكريا واجتماعيا وعسكريا. عن مظاهر هذا الرخاء والرقي والتقدم كتب الغسال يصف بعض مظاهره. "... وبهذه البلدة دور كبار للبيع والشراء يصعد لطبقاتها بالمكينة فلا تشعر إلا وانت في الطبقة التي تريد الصعود اليها. وبالجملة فقد انفردت لوندرة على مدن قطر المعمور بشدة الحركات في أشغال التجارة، وقدر سكانها على قدر ما يحررونه في هذا التاريخ بما يقرب من ستة ملايين نسمة. ويرى مصداق ذلك في الطرقات والأسواق والحدائق سيما في محطة طرق سكة الحديد التي هي مبسوطة في الأرض كالجداويل متفرعة الى جميع الجهات، وبابورات البر بها صادرة وإرادة عليها ليلا ونهارا بحيث لا يسافر الإنسان باحدها ولو ساعة إلا وتمر عليه عدة بابورات ما بين صادر ووارد وكلها مشحونة بالركاب والسلع وغير ذلك. ويتحير العقل كيف لا تقع بينها مصادمة بسبب غلط من سلوك بعضها في طريق غيره" [44].

دار مجمع نواب الأمة (البرلمان)

اهتم الغسال أكثر من غيره من الكتاب بالحياة السياسية الأوروبية. ولعل هذا الاهتمام قد يفسر بالظرفية التاريخية للرحلة وتكوين صاحبها حيث استفاد من باقي الرحلات ومذكرات زملائه الذين سبقوه في هذا المجال. عن مجلس الأمة ونشاط النواب البرلمانين كتب : "....ذهبنا للديوان الاجتماعي الرسمي المسمى بدار مجمع نواب الأمة على مصالح الرعية يعني يحضر بها نائب عن كل إيالة او عمالة وكيلا عنها في جميع مصالحها ودفع مضارها. وهي دار كبيرة جدا متقنة البناء محكمة

الصنعة، قدر الأعيان الذين يجتمعون بها ما يقرب للسبع مائة. وهذا المجلس مؤلف من فرقتين، فرقة في جانب المخزن يحضره كبرا ء الدولة والوزير المناسب وصفته لتلك المسألة التي تقع المفاوضة فيها ، فإن كانت من أشغال الداخلية فيحضر وزيرها ، وإن كانت من قبيل أشغال الخارجية فيحضر وزرها أيضا وهكذا العمل في كل قضية. والفرقة الأخرى مقابلة لهم تسمى بحزب الأحرار. وكيفية المفاوضة في سائر القضايا ان يقوم خطيب من إحدى الفرقتين يخطب على رؤوسهم بورقة بيده متضمنة لما دار في المسألة، ثم يقوم خطيب من الفرقة مقابلا لها أو مسلما بحسب ما يقتضيه المقام. وفي صدر هذا المجلس محل مرتفع على هيئة المنبر يجلس رئيس للمجلس وعلى رأسه قلنسوة بيضا ء يتميز بها عن غيره وأمامه كتاب يرسمون ما يتلقونه من أفواه الخطبا ء في سرعة باهرة، ثم يقوم هذا الرئيس ويخطب خطبة متضمنة لما فيه من الخلاف الواقع بين الفريقين، ويقيم على كل فصل من الفصول أدلة راجحة وبراهين قاطعة تشهد على ترجيحه حتى تكون المسألة واضحة كالشمس في الظهيرة، وقريب من هذا الإيوان محلات رفيعة معدة عندهم للأكل والشرب ولترويح النفس" [45].

ما هو تعليق الكاتب محمد الغسال على مظاهر الرقي والحياة السياسية في انجلترا ؟ وما هي الجوانب التي استحسنها واستفاد منها ؟ يجيب فيقول: "....وبالجملة فرؤية هذه الأمور فيها مواعظ وحكم لا تبصر ومتعة للنفس لمن كان حظه النظر، وذلك كله من آيات الله الدالة على عظمته وقدرته الباهرة. وهذا ما يسر الله جمعه في هذه الوجهة الميمونة حفظا لما اشتملت عليه هذه الغارة السعيدة مما ينبغي ان يحفظ ويعتنى به، وتنبيها لمن يتهيأ في المستقبل لمثله ليكون على بصيرة مما في هذا التقييد كله وليقاس ما لم يقل، ولكل مقام مقام." [46]

خلاصة :

مكنت الرحلة إلى الشرق الحجاج المغاربة من الاطلاع على أهم التحولات السياسية والإجتماعية والثقافية التي كانت تعرفها اسطمبول، ومصر، وبلادالشام،

وتونس، منذ منتصف القرن التاسع عشر. كما مكنت الفقهاء والتجار ورجالات العلم والمعرفة من اكتشاف والوقوف على مظاهر مختلفة من الحضارة الأوروبية التي اخذت تغزوا المشرق العربي وتظهر آثارها وملامحها في المجالات الاقتصادية والإجتماعية والسياسية. منهم من استحسن بعضها، ومنهم من رفض بعضها. كما مكنت الرحلات الحجازية رجالات الفكر والقلم المغاربة من الإستفادة خلال مقامهم أو توقفهم بأهم مراكز الحضارة العربية الإسلامية من الاتصال والتواصل برواد النهضة العربية والإسلامية، فحضروا دروسهم، وتحاوروا معهم في شؤون الدين والدنيا. هذه المحطات كلها ساهمت في خلق وعي فكري جديد لدى هؤلاء الرحالة المتنورين. وعند عودتهم الى بلادهم لم يبخلوا على أبناء وطنهم، ولا على الفئات المتعلمة منهم، وعلى حكامهم بإفادتهم مما حصلوا عليه من ألوان المعرفة، وما حصدوه من أفكار جديدة دونوها في رحلاتهم الحجازية أو قيدوها في مذكرات قدموها لأهل الحل والعقد للاسترشاد بها والأخذ عنها من أجل القيام بالإصلاحات التي كانت مطروحة على الدولة وأجهزة الحكم لمواجهة التحديات الأوروبية.

أما الرحلات السفارية الى الغرب والتي قام بها سفراء مغاربة الى البلدان الأوروبية والتي نشطت منذ منتصف القرن التاسع عشر والى نهايته، فتعطينا نصوصها فكرة واضحة عن الصورة التي تكونت لدى السفراء أو كتابهم الذين رافقوهم، صورة عن أوروبا الثورة الصناعية، وأوروبا القوة العسكرية، وأوروبا الأنظمة الاقتصادية والفكرية والاجتماعية، وأوروبا التوسعية والاحتفالية. لقد عبر الكاتب المخزني أو السفير المثقف عن مشاعر التفاوت والتفوق، وردود فعله تجاه هذه الحداثة الأوروبية في كتاباته التي دونها، أو في التقارير الديبلوماسية التي رفعها الى السلطات الحاكمة. كما عبر عن مشاعر التفاوت والتفوق هذه في تآليف تاريخية، ودواوين شعرية نبه فيها السلطات الحاكمة بما يشكله هذا التفوق من تهديد على مستقبل البلاد وحضارتها وقيمها، موصين ومطالبين حكامهم بالأخذ بالجوانب المفيدة من التي لا تتنافى والعقيدة الإسلامية، من أجل سد الهوة التي تفصل بين

رقي الغرب وتقدمه والبلاد المغربية. وقد أوصى الكاتب المخزني بالبدء والإسراع في تحديث الجيش والجهاز الإداري والأنظمة الاقتصادية. غير أن الإشكالية التي طرحت على الحكام ورجاله ورواد التحديث والإصلاح تجلت في كيفية التوفيق والمؤالمة بين الأصالة والمعاصرة والتحديث. عن هذه الإشكالية كثرت الاجتهادات، وتعددت الرؤى، وخصبت الحوارات والمشاورات أغنت المكتبة المغربية بنصوص فقهية، وفتاوي شرعية ومقدمات في علم السياسة والاقتصاد والإجتماع. هذا الإنتاج الفكري الغزير بتبايناته وخصوصياته هو الذي يؤرخ لميلاد حركة التنوير والتحديث بالمغرب. وقد رأينا أن الرحلة إلى الشرق والرحلة إلى الغرب، تعد رافدا من روافد هذه الحركة.

* * *

هـــوامـــش:

1 ـ زكي مبارك: من ادب الرحلات: تحفة الملك العزيز بمملكة باريز. للأديب الكاتب ادريس العمراوي – مطبعة طنجة – 1989.– ص 5. اعتمدنا على كتاب: الإكسير في فكاك الأسير للسفير ابن عثمان المكناسي – حققه الأستاذ محمد الفاسي، من مطبوعات المعهد الجامعي للبحث العلمي.

2 محمد الكحلاوي: آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلس–الدارالمصرية اللبنانية – القاهرة – 1993م– ص 12 و 13. لقد أشار الباحث في دراسته هذه الى مجموعة من الرحلات التي ألفها المغاربة فأعطى عنهم وعنها نظرة تعريفية وذكر أسباب ودوافع رحلة المغاربة الى المشرق العربي (ص 15)

3 ـ محمد الفاسي: الرحلات السفارية – مجلة «وحي البينة» المغربية –دار الكتاب – الدارالبيضاء – 1970م – ص 71

4ـ سعيد ابن الأحرش: الرحلات المغربية الى الديار المقدسة وتركيا خلال القرن التسع عشر وبداية القرن العشرين : مصدر للمعلومات عن العالم الإسلامي. بحث قدمه الباحث في ندوة: مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي التي احتضنتها المملكة العربية السعودية في أكتوبر 1999.

5 ـ سعيد ابن الأحرش: المصدر السابق ذكره ص 19

6 ـ سعيد ابن الأحرش: المصدر السابق ذكره ص 19 و20

7 ـ سعيد ابن الأحرش: المصدر السابق ذكره ص 20

8 ـ سعيد ابن الأحرش: المصدر السابق ذكره ص 18. يتعلق الأمر بالتليغراف الذي تم اختراعه سنة 1794م من طرف الفرنسي 1805–1763 (Claude Chappe)

9. سعيد ابن الأحرش: المصدر السابق ذكره ص 18

10 ـ عبدالوهاب بنمنصور: أعلام المغرب العربي. الجزء الأول – المطبعة الملكية – الرباط–1979 ص 172. عن الرجل وعن حياته الفكرية الرجوع الى كتاب العلامة عبدالله الجراري: شيخ الجماعة العلامة أبو اسحاق التادلي الرباطي. – مطبعة النجاح الجديدة – الطبعة الأولى – الدار البيضاء– 1980م . يمكن كذلك الإعتماد على ما كتبه عن الرجل الفقيه محمد المنوني: مظاهر يقظة المغرب الحديث– الجزء الأول – مطبعة بيروت ص: –323–322–321 وعلى هذه المصادر الثلاثة اعتمدنا في هذا البحث.

11 ـ محمد المنوني : يقظة المغرب الحديث – المصدر السابق ذكره– يشير الكاتب الى ان نسخة من هذه المخطوطة ما زالت في حوزته ونسخة أخرى محفوظة بالمكتبة الصبيحية بمدينة سلا المغربية.

12ـ عبدالله الجراري: شيخ الجماعة العلامة ابو اسحاق التادلي الرباطي – مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الأولى – الدارالبيضاء – 1980م – ص 27و28.

13ـ عبدالوهاب بنمنصور: أعلام المغرب العربي – المطبعة الملكية – الرباط –1979ص 173

14ـ المنصف الشنتوفي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك – الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب الجزائري – الطبعة الثانية – –1986 ص 85

15ـ محمد المنوني : مظاهر يقظة المغرب الحديث – المصدر السابق ذكره – ص 298

16 ـ عبد الله الجراري: شيخ الجماعة العلامة أبو اسحاق التادلي الرباطي –المصدر السابق ذكره ص 36 و44

17ـ اعتمدنا للتعرف على مختلف اطوار العلامة الحاج علي زنيبر على ما كتبه عنه كل من الأستاذ المنوني في مؤلفه: مظاهر يقظة المغرب الحديث – الجزء الثاني من ص 399 الى 421. وما كتبه عنه احد أفراد عائلته المؤرخ المغربي محمد زنيبر في مجلة « دار النيابة –المغربية» تحت عنوان: « وقفة مع شخصية الحاج علي زنيبر ودلالاتها التاريخية» – السنة الثانية – العدد السادس – ربيع 1985م – ص 17 الى 20. والعدد الحادي عشر من نفس المجلة – صيف 1986م – ص 14 الى 19. كما اعتمدنا على الدراسة التي انجزها باللغة الفرنسية تحت عنوان:

Nation et Nationaliseme au Maroc – P 471-472. للباحث: جاك كاني Jaques cagne

18ـ محمد زنيبر: وقفة مع شخصية الحاج علي زنيبر –مجلة دار النيابة – المصدر السابق ذكره ص 18.

19ـ في هذا المؤتمر واجه المغرب وحدة أزيد من 10 دول أوروبية وتمسك خلال مداولات المؤتمر باستقلاله وسيادة سلطانه وأقر على إدخال الإصلاحات التي تقترحها أوروبا شريطة ان تكون بإشراف السلطان المغربي وغير مقيدة لسلطاته الدينية والدنيوية، على ان يقتصر دور الدول ألأوروبية على تقديم الخبرات والمساعدات التقنية والمالية التي تتطلبها هذه الإصلاحات.

20 ـ تناولت دور هذه الصحف في بحث بعنوان: مساهمة لبنان في دعم الثقافة العربية والفكر التحرري بالمغرب .– قدم في الندوة التي احتضنتها بيروت أيام 3و4 دجنبر 1998م. أشرت في هذا البحث الى الصحافة العربية بطنجة ودورها ففي مواجهة الصحف والإعلام الاستعماري والدفاع عن الحقوق المغربية وسيادة سلطانه.

21 ـ محمد زنيبر: مجلة دار النيابة –المصدر السابق ذكره – ص 19

22 ـ اعتمدنا في هذا الباب على ما نشره الباحث محمد المنوني في كتابه: المظاهر– ص 400. وما كتبه كذلك في مجلة دار النيابة المصدر السابق ذكره، وتحليل هذه النصوص التي قدمها الأستاذ محمد زنبر في مجلة دار النيابة – المصدرين السابقين ذكرهما.

23 ـ يوجد نص هذا الدستور بكامله في كتاب: مظاهر يقظة المغرب الحديث – ملحق 67 – ص 408. وفي مجلة دار النيابة يعطي نفس الكاتب نظرة عن هذا الدستور تحت عنوان: مشروع دستوري يقترحه الحاج علي زنيبر السلاوي – مجلة دار النيابة – السنة الأولى – العدد الرابع – خريف 1984م – من ص 9 الى 17.

24 ـ محمد زنيبر– المصدر السابق ذكره – ص 19.

25 ـ محمد زنيبر– المصدر السابق ذكره – ص 18.

26 ـ محمد الصغير الخلوفي: انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره مذكرة الفقيه محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي. تقديم الدكتور زكي مبارك – مطبعة المعارف – الرباط 1994. في مقدمة الكتاب ذكر الباحث مجموعة من المصادروالمراجع حول الرجل وفكره وأعماله.

27 ـ سعيد بنسعيد: المثقف المخزني وتحديث الدولة في المغرب – مجلة المستقبل العربي – عدد 58 – دجنبر 1983م – ص 27. وقد اتخذ الباحث الفقيه الحجوي كنموذج لهذا الفقيه من خلال كتاباته السياسية والإصلاحية.

28 ـ أحمد عسة : المعجزة المغربية – دار القلم للطباعة – بيروت – –1975 الطبعة الأولى– ص 146–145–144.

29 ـ اعتمدنا الدراسة التي أنجزها الأستاذ الخلوفي حول هذه المذكرة كما اعتمدنا الدراسة الثانية عن هذه المذكرة التي تحمل عنوان : انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره : دعاوي الإصلاح والتنظيم. وقد قدمت شخصيا هذه الدراسة وترجمتها من اللغة العربية الى الفرنسية.

30 ـ عبد الله العروي: الأصول الإجتماعية والثقافية للوطنية المغربية –1912–1830م– ماسبيرو 1992م – ص 121–115 (الكتاب باللغة الفرنسية).

31 ـ عبد الهادي التازي : التاريخ الديبلوماسي للمغرب – المجلد الأول – مطبعة فضالة – المحمدية – المغرب – 1986م– ص 179.

32 ـ خاد الناصري : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى – الجزء التاسع – دار الكتاب – الدار البيضاء – 1956 – ص 101.

33 ـ عبد الله العروي : تاريخ المغرب، محاولة في التركيب – (باللغة الفرنسية) ترجمه الى العربية دوقان قرطوط – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الطبعة الأولى – بيروت – –1977 ص 250.

34 ـ محمد عابد الجابري : الأصالة والتحديث في المغرب – مجلة الثقافة، الجزائرية – السنة الثالثة عشرة – العدد –77 سيبتنبر –1983 ص 55 الى 92.

35 ـ عبد العزيز بنعدالله : السفارت والسفراء بالمغرب عبر التاريخ – المعهد الوطني للدراسات القضائية – الرباط – مطبعة الساحل – 1985م.

36 ـ عبد السلام حيمر : المغرب: الإسلام والحداثة الكاتب المخزني – مطبعة سوندي – مكناس– 1997م – ص 18 و 19.

37 ـ قمنا بدراسة وتحليل ونشر وترجمة هذه الرحلة من اللغة العربية الى الفرنسية. وفي المقدمة والحواشي أشرنا الى كل الجوانب المتعلقة بالسفير وحياته ونشاطه والمصادر التي تعطي معلومات عنه. انظر زكي مبارك : من ادب الرحلات. على نص هذه الرحلة اعتمدنا فاخذنا منها فقرات التي احتوتها هذه الدراسة.

38 ـ حقق الرحلة الأستاذ عبدالوهاب بنمنصور ونشرها ضمن مطبوعات القصر الملكي الرباط – 1963م. من الباحثين الذين درسوا هذه الرحلة الأساتذة: سعيد بنسعيد العلوي : أوروبا في مرآة الرحلة. وعبدالسلام حيمر: صورة الآخر من خلال تقارير الرحلات السفارية المغربية الى أوروبا. مجلة بصمات عدد خاص حول: الخطاب النهضوي بالمغرب. العدد الخامس – كلية الاداب بن امسيك الدار البيضاء– مطبعة النجاح الجديدة – 1990م. كما تناول هذه الرحلة ادكتور عبدالهادي التازي: التاريخ الديبلوماسي للمغرب. المجلد الأول والعاشر. والدكتور عبدالمجيد القدوري في كتابه : سفراء مغاربة في أوروبا. المصدر السابق ذكره. عن هذه المراجع اعتمدنا لإنجاز ما يتعلق برحلة السفير الكردودي.

39 ـ عبد المجيد القدوري : سفراء مغاربة في أوروبا 1922–1610م – المصدر السابق ذكره ص 35–36

40 ـ عبد المجيد القدوري : المصدر السابق ص 97–96

41 ـ عبد المجيد القدوري : المصدر السابق ص 98.

42 ـ عبد المجيد القدوري : المصدر السابق ص 98.

43 ـ عبد الهادي التازي : سفارة عن السلطان مولاي عبدالعزيز الى لندن. مجلة (البحث العلمي) المغربية – عدد 30–29 – سنة 1979م– ص 191. انظر كذلك التاريخ الديبلوماسي – المجلد الأول من ص 75 الى 76. وكذلك عبدالسلام حيمر : صورة الآخر من خلال تقارير الرحلات السفارية – مجلة بصمات، المصدر السابق ذكره – ص 158.

44 ـ عبد الهادي التازي : المصدر السابق ص 202.

45 ـ عبد الهادي التازي : المصدر السابق ص 203.

46 ـ عبد الهادي التازي : المصدر السابق ص 208.

* * *

الخطاب الإصلاحي في مغرب القرن التاسع عشر
بين الانتصار للموروث والانبهار بالوافد
الدواعي والخلفيات

ودان بوغفالة *

إن السؤال الجدير بالمناقشة عند طرح موضوع الموروث والوافد في الثقافة بالوطن العربي عموما وبمنطقة المغرب العربي على وجه الخصوص، وهو لماذا هيمن الخطاب الإصلاحي السلفي وتغلب على الخطاب الإصلاحي التحديثي في المغرب العربي خلال القرن الثالث عشر هجري التاسع عشر ميلادي؟ وهذا على الرغم من أن الخطاب الأول تراجعي نصي جامد، كان يعتمد على العاطفة والمثالية وعلى النموذج التاريخي، ومثله تيار العلماء المصلحين الذين نادوا بالعودة إلى الكتاب والسنة ونهج السلف، وتحفظوا عن الانفتاح على الغرب، أما الخطاب الثاني فهو تراجعي أيضا، ولكنه متحرر حيوي معجب بالغرب وبحضارته وفكره، وكان يطمح لتحقيق مجتمع متمدن، ومثله وصف العلماء الذين زاروا أوروبا ووقفوا على جانب كبير من تطورها وتقدمها، فانبهروا وتمنوا ذلك لأوطانهم.

هل لأن العاطفة تدفع بسرعة والعقل يحرك ببطء؟ أم لأن الفريق الأول كان يمتلك آليات الخطاب ويحسن تقنياته ويختار منابره الفعالة، فكان يصل بسرعة، أما الفريق الثاني فإنه فقد ثقة الشعوب، لأنه طعن في بعض مقدساتها وتموقع

* أستاذ باحث، جامعة معسكر، الجزائر.

في مؤسسات متهمة مثل الوظيفة عند الاستعمار، ولم يقدر على أن يتقدم بصفة المنقذ، ولم يكن عمله مؤسساتيا بل كان فرديا مبعثرا. أو لا هذا ولا ذلك ولكن الشعوب المغاربية هي التي لم تكن في مستوى الخطاب الثاني، لأنها ورثت نسيجا اجتماعيا معقدا، وتكوينا ثقافيا صوفيا سلفيا مغلقا، وتاريخا حلقاته كلها دارت بين الإسلام وأعدائه النصارى الذين لا يريدون بالمسلمين خيرا، وهم دوما يتربصون بهم الدوائر.

تمايز النخبة وانقسامها :

لم تشكل النخبة المغاربية قبل القرن التاسع عشر ميلادي كتلة واحدة، موحدة ومتجانسة في الثقافة كما في المواقف، وإنما كان الانقسام قائما بين صفوفها وقد توارثته في طبيعته وفي أسسه بين فقهاء مسالمين ومتصوفة ثائربن. وتكرس هذا الانقسام خلال القرن التاسع عشر وانضافت إليه عناصر جديدة أطرته وميزته، وذلك عندما انتقل صدى الثورة الفرنسية الكبرى إلى منطقة المغرب العربي، وانتقل إليها أيضا الاستعمار، فلقيت فلسفة التنوير استحسانا واستقبالا متحمسا من طرف البعض، وتحفظا وهجوما من طرف البعض الآخر.

إن من كان محافظا ومتحفظا عن هذه الثقافة الجديدة، ومن كان متفاعلا معها ومبشرا بها، لم يكن لهما الخيار في تحديد نوع الجهة التي ينتميان إليها. وإنما الظروف التي أحاطت بالجميع، والعلاقات التي نشأت بين الأفراد العفوية منها والمقصودة هي التي وضعت التصنيف وتحكمت في آليته.

فكان المحافظ يقبل التنازل عن موقفه الفكري والسياسي الأول (رفض فرنسا الثورة ورفض فرنسا الاستعمار في آن واحد = الموقف العام)، ويتحول إلى داعية وطني متنور (قبول فرنسا الثورة ورفض فرنسا الاستعمار = حمدان خوجة بالجزائر)، عندما تتطور الملابسات على نحر معين. وكان العنصر المتفاعل يقبل مراجعة مواقفه

الفكرية والسياسية والاندفاعية (قبول الثورة وقبول فرنسا الاستعمار في آن واحد = دعاة الاتحاد مع فرنسا)، والعودة بها إلى الاعتدال (قبول فرنسا الثورة ورفض فرنسا الاستعمار = محمد بن عثمان السنوسي بتونس) بعد تلقي الانتقادات واتضاح الصورة. ومن هذين القسمين اتحد قسم ثالث وتكون لديه وعي فكري وسياسي.

وكان المحافظ لا يقبل أحيانا أخرى أن يتنازل إطلاقا (الثورة على الاستعمار)، ولا المتفاعل يقبل أن يتراجع هو الآخر إطلاقا (مساندة الاستعمار)، ويستقل كل طرف بقسمه وبموقعه في قراءة الواقع واستشراف المستقبل. كما حدث أيضا أن رفض المحافظ التنازل عن ثقافته ولكنه قبل احتلال الآخر له (رفض فرنسا الثورة وقبول فرنسا الاستعمار = موقف بعض الزوايا والطرق الصوفية).

لق كانت العلاقة بين هذه الأطراف سيئة على العموم، حيث تبادل الخصوم التهم فيما بينهم وساد القذف والتعيير. فالذين رفضوا فرنسا في ثورتها وفي استعمارها اعتبروا أنفسهم حماة الدين والوطن، واعتبرهم غيرهم جهالا مضللين، والذين قبلوا فرنسا في ثورتها وفي استعمارها ظنوا أنفسهم هم السباقون والمنقذون الحقيقيون، ونعتهم الجميع بالخونة المرتدين والمنتصرين.

والذين تقبلوا الاستعمار ولم يتفاعلوا مع فلسفة الثورة الفرنسية رفضا لها أو جهلا بها أصلا، اعتبروا فرنسا أمرا واقعا وقدرا محتوما سيزول، فلا داعي للفتنة، فكانوا في عين غيرهم مستسلمين ومتقاعسين عن الجهاد، أما من تشرب الثقافة الإسلامية واطلع إلى دولة مستقلة وإلى مجتمع متحضر يملك القوة الاقتصادية والعسكرية، ويملك الحرية السياسية والفكرية. غير أن هذا الطرف من النخبة كان في نظر معاصريه متميعا أو مثاليا مسوفا، ووصفت مهمته بالمهمة الصعبة والمتأخرة.

لم تلغ كل هذه الانقسامات والانتقادات والاعتراضات ولم تمنع قيام علاقات الصداقة والاحترام وتبادل رسائل الاستفسار والاهتمام بين أفراد مجموعات النخبة

المغاربية، وهذا رغم اختلاف نوع المجموعة، أو تباعد أماكن الإقامة داخل القطر الواحد وما بين الأقطار المغاربية قاطبة[1]. وكانت هذه الاتصالات غالبا ما تخفف من حدة الاختلاف وسوء التفاهم وتقلص من هوة الانقسام الفكري والسياسي والقطري. حيث كان السياسي المتنور والمفاوض يتصل بالعسكري المحافظ والثائر في قضايا كثيرة، والعكس حدث كذلك، ومثال هذا بالجزائر رسالة حمدان خوجة إلى أحمد باي قسنطينة ورسالة الأمير عبد القادر إلى حمدان[2]. ولم تكن القطيعة نهائية ولا المشاعر عدائية بين من كان يعادي الاستعمار ومن كان مساندا له أو موظفا لدى إدارته؛ وهو ما تميزت به العلاقة بين أفراد النخبة التونسية (بيرم، خير الدين، السنوسي، الحشائشي).

هذا، وبغض النظر عن الزيارات التي كان يقوم بها البعض، وعلى مستوى دوائر مختلفة، في المناسبات الدينية والسياسية كالحج والسفارة وفي الرحلات العلمية والاستطلاعية والاستشفائية، حيث كان الزائر يؤثر ويتأثر. ومنه عادت نتيجة الزيارات التي تمت في دائرة العالم الإسلامي لصالح القسم المحافظ، أما الزيارات التي تمت في دائرة العالم الأوروبي فعادت نتيجتها لصالح الطرف المتفتح والمعجب بالمنظومة الغربية، وكان الانتقال يتم من الطرف الأول إلى الطرف الثاني؛ أي من محافظ إلى متنور وليس العكس.

إن تأكيد صفة الانتماء إلى طرف ما، وتجديد الوفاء له، كان التعبير عنهما من طرف عناصر النخبة المغاربية يتم من خلال المواقف السياسية والقضايا الفكرية، ومن خلال المشاركة في السلطة أو مقاطعتها، كطلب الوظيفة وقبولها، أو رفض المنصب ومتطلباته، وكذلك كشفت وأكدت علاقات الصداقة الثنائية على نوع هذا الانتماء، هذا من مثل الصداقة التي جمعت بين حسونة الدغيس الطرابلسي وحمدان خوجة الجزائري[3].

ويعتبر الانتماء إلى الدين الإسلامي هو القاسم المشترك الذي التفت حوله كل الأطراف، لأنه لم يقدم أي أحد على تغيير دينه إلى دين آخر، ولم يجرؤ على

مهاجمته الإسلام أو الانتقاص منه حتى من كان من أشد المخلصين للاستعمار. والذين طرحوا العلمانية من خلال مضمونها لا من خلال عنوانها لم يتورطوا هم أيضا[4]، بل دافعوا عن تمسك الشعب المسلم بدينه وطالبوا باحترام هذا الدين.

إن أحمد ولد قاضي هو النموذج الذي يصلح أن نقدمه من النخبة الجزائرية، عمَّن كان يرى من المغاربة أن الانقسام والتشرذم لا مبرر له في جميع الحالات. لأنه لا تعارض في نظر ولد قاضي بين ما تدعو إليه الثورة الفرنسية والإسلام الذي نتمسك به، ولا تناقض بين الدفاع عن مصالح الوطن وعن حقوق الشعب، والولاء للدولة الفرنسية وقبولها في منطقة المغرب العربي. فالتعايش ممكن بين هذه الأزواج المتقابلة ومطلوب في تقدير ولد قاضي، الذي جاء في رحلته ما يلي : «ثلاث كلمات : ليبرطي، إقاليطي، فرطرنيطي، اعني الحرية والأخوة والمساواة... كلمات يحق أن تكتب بماء الذهب، ويا ليت الناس تعرف قدرها ويعلم ما ضمنته من معاني، وحقيق أن الخير مجموع بها إن عمل بها، فلما استفسرناها وتأملناها ازدادت قلوبنا تعلقا بمحبة الدولة الفرنسوية... نحمد الله تعالى على دولة من الله بها علينا، ونجتهد بواسطتها في إنحاء الأسباب التي سنعود بها لسيرة أوائلنا... وليس للعرب ما يروعهم وتفر منه أنفسهم غير أمر الديانة... إنما الأديان طرف والأعمال زاد المسافر بها... المرجو حسن التفاتة نحو العرب من رجال الدولة... لا ينسونا في رفع المضرة علينا... اليوم حل بالعرب مضرات يشكون منها... أفلا تكون مصالح العرب... تستحق النظر أكثر من مصالح الأوروباوين...»[5].

ولم يختف هذا الانقسام النخبوي مع نهاية القرن التاسع عشر، رغم التكرار الذي طبع المشهد الفكري والسياسي والعسكري، ورغم تعدد ألوان الرفض والقبول للآخر. وبرز هذا التفكك أكثر خلال القرن العشرين وأخذ أبعادا أخرى بعد نشأة الحركة الوطنية وتباين وجهات نظرها عند مناقشة المسألة الوطنية.

1 ـ الضاغط التاريخي والحضاري :

تنوعت ثقافة النخبة بمغرب القرن التاسع عشر، ولم تحافظ على وحدتها المرجعية وتجانسها الابستيمولوجي الذي ورثته من القرون الماضية، وذلك عندما أدخلت عليها مواضيع جديدة مست بما كان يعتبر حقيقة مقدسة ومطلقة. وخضع من سيظل نوعا محافظا ومن سيصبح نوعا متنورا متفتحا لظروف معينة، واندرج الجميع ضمن دوافع وأسباب عامة وخاصة، فكان لا يمكن أن تصنع منهم هذه الظروف والدوافع والأسباب إلا ما صنعت. حيث تمسك البعض بالموروث المألوف والسائد، وتحمس البعض الآخر للمستحدث المستغرب والغائب، وهو الأمر الذي طرح إشكالا في الخطاب الإصلاحي المغاربي للقرنين التاسع عشر والعشرين.

لا أحد يستطيع أن ينكر أو يستبعد تأثير مواقف الشرق الإسلامي في مواقف وثقافة الغرب الإسلامي، فعلاقة التأثير والتأثر بينهما تاريخية ومنطقية لارتباطهما سياسيا ودينيا. وليس أدل على ذلك من انقسام نخبة العالم الإسلامي ككل في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر ميلادي، إزاء أحداث الثورة الفرنسية وفلسفتها التنويرية، إلى محافظين متحفظين وإلى متفاعلين متحمسين. ومنه يمكننا القول، وبلا شك، بأن المغاربة تأثروا في مواقفهم بما كان يجري في المشرق العربي وعلى مستوى مركز الدولة العثمانية، ولم يكن ذلك بإعادة إنتاج نوع الخطاب، وإنما بالتفاعل مع ذلك النوع والإحساس بالإجماع القائم حوله. فالإنتاج كان محليا في الأصل نظرا لتوفر ظروف مشابهة مثل الاعتداءات الأوروبية على بلدان المغرب العربي أو انتقال المغاربة إلى أوربا.

وما يعزز وجهة نظرنا هذه هو تشابه التصريحات وتعاطي نفس المواقف في أوقات واحدة ومتقاربة كما في فترات زمنية متباعدة، والإتيان على ذكر أسماء الشخصيات وإحاطتها بعبارات القدح والاشمئزاز عند البعض، وبعبارات المدح والتأييد عند البعض الآخر، فالدعاء الذي رفعه ابن سحنون الراشدي[6] عام 1207هـ/1793م في

خاتمة حديثه عن الثورة الفرنسية «... والله المسؤول أن يبقى بينهم كيدهم ويشغلهم بأنفسهم آمين»[7]؛ هو نفسه الدعاء الذي رفعه من قبل عام 1892م أحمد أفندي الكاتب الخاص للسلطان سليم الثالث (1789-1807م) عندما قال: «اللهم اجعل ثورة فرنسا تصيب مثل مرض الزهري (la syphilis) بقية أعداء الإمبراطورية، وتلقى بهم في صراع طويل فيما بينهم...»[8].

ولغة التسفيه التي عبر بها ابن العتابي عام 1826 م «...في غنى عنه...»[9] والناصري السلاوي عام 1881م «...الحرية... هي من وضع الزنادقة قطعا»[10] عن موقفهما من فلسفة الثورة الفرنسية وتجلياتها (الفكر، الحرية) هي نفسها اللغة التي اختارها قبلهما التيار المحافظ في الدولة العثمانية منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عندما طُرح موضوع الثورة الفرنسة للنقاش. حيث قال عاطف أفندي. وكان يومئذ رئيس الكتاب في ديوان السلطان سليم الثالث: «إن جان جاك روسو وغيره من مشاهير الزنادقة والدهريين قد قاموا بتأليف الكتب الإلحادية المفسدة في سب الأنبياء وأبطال الأديان وذم الملوك والأشراف... ثم حرضوا على الإلحاد ونبذ الدين والشرع والمذاهب وبذلك مهدوا لانقلاب سكان فرنسا إلى هيئة البهائم...»[11]. وهو ما قال به كذلك الكاتب أحمد أفندي، والمؤرخان عاصم أفندي وأحمد سليم أفندي، وخالد أفندي سفير الدولة في فرنسا (1803-1806م)[12].

ومما يؤكد لنا استمرار تأثير التيار المحافظ العثماني علي النخبة المغاربية ما ذكره حمدان خوجة (1773-1845م) في «إتحاف المنصفين...» من أن أحد أعضاء هذا التيار وهو الحاج خليل أفندي قد قدم من اسطنبول عام 1245 هـ/1829-1830م) إلى الجزائر وروج للأفكار المتزمتة الساقطة « وأطال لسانه، بما لا نلوث به رسالتنا... وتخبط في ذلك جهلة الناس وأهل الفضول في الجزائر...»[13]. لقد انتقد حمدان هذا التيار وتوجهاته، لأنه كان يناصر التيار النخبوي المتحمس للإصلاحات على النمط الأوروبي، والذي كان من أبرز دعاته الأوائل السفير أو بكر راتب أفندي الذي زار أوربا

عام 1792م وعام 1793م، وسفير السلطان سليم الثالث إلى لندن محمود رئيف الذي كتب كتابا باللغة الفرنسية سماه : «جدول التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية»، والكاتب سيد مصطفى صاحب كتاب «نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية» الذي طبع في إسطنبول عام 1802م باللغة الفرنسية أيضا.

لم يكن التيار المحافظ العثماني هو وحده فقط صاحب التأثير في ثقافة المنطقة المغاربية، فالتيار التجديدي كان له هو الآخر نصيبه من ذلك، وهذا ما كشفه لنا على سبيل المثال خير الدين باشا التونسي (1822-1890م) عندما أشاد بمجهود المصلح المتفتح أحمد عارف حكمت بك (1786-1859م) الذي كان شيخ الإسلام للمذهب الحنفي بالآستانة، وكذلك أخبر ابن الضياف (1802-1874م) بأنه اتصل به لما زار عاصمة الخلافة وتناقش معه[14]. إن العمل الجليل الذي قام به المجدد أحمد عارف حكمت بك في نظر خير الدين، هو أنه قبل المهمة التي أسندتها إليه الدولة العثمانية وتوجه إلى مناطق الثورات وبين أن : «التنظيمات ليست خارجة عن المنهج الشرعي، وما هي إلا ضبط للسياسات الشرعية التي كانت أهملت...»[15]، وتعتبر شهادة الأستاذ إبراهيم الرياحي (1767-1850م)[16] للشيخ عارف بالكفاءة وموافقته على هذا المنحى من أقوى الأدلة على شرعية هذه الإصلاحات وأهميتها[17].

وسجل حسونة الدغيس الطرابلسي (ت.1836م) هو الآخر من جهته إعجابه بنشاط التيار التحديثي على عهد السلطان العثماني محمود الثاني (1808-1839م)، وأعلن في رسائله إلى رجال الدولة العثمانية عن تأييده لذلك، وعن استعداده غير المشروط للمساهمة في عمل الصحافة الفرنسية بإسطنبول. وذكر حسونة بالعمل التأسيسي الذي قام به في هذا المجال صديقه مظهر أفندي والوضعية التي آلت إليها تلك الجهود[18].

من الأسباب العامة التي لابد من ذكرها، لأنها كانت قابعة هي كذلك وراء تنوع النخبة المغاربية ما بين أغلبية محافظة وأقلية مجددة متنورة، طبيعة المناخ الفكري

لمغرب القرن التاسع عشر، لقد جثم على العقول الفكر الفقهي والصوفي الطرقي إلى الحد الذي أصبح فيه سمة العصر، وخلف هذا الفكر أوضاعا فكرية واجتماعية وسياسية متضامنة بالانتماء، فلا تتقبل ما يخالفها ولا تسمح بالانتشار لغيرها من الأوضاع التي لا تنتمي إلى جنسها. ووجه السبب في هذه النقطة هو أن عملية تفكيك تلك البنية الفكرية الجامدة لم تكن سهلة بالنسبة للتيار التحديثي، ولم تكن عملية وضع بنية جديدة بديلة عن الأولى بالممكنة. ومن خلال هذا الصراع والتجاذب استطاع الفكر التنويري خلال القرن التاسع عشر إحداث ثغرات فقط وفرض تنوع ثقافي محدود، ولم يستطع نظرا لتظافر عدة عوامل كقلة دعاة التنوير رعدم إنشائهم للمؤسسات والاستعمار أن يصبغ الحقل الثقافي بصبغته ويلغي الصبغة الأولى، ومن عدم تمكن أي أحد منهما (الفكر الفقهي والصوفي، والفكر التنويري) من استبعاد الآخر كلية والانفراد بالساحة، نشأ التعايش ولو على مضض، بين محافظين يمثلون الأكثرية ومنتشرين في أجهزة الحكم، وحداثيين يمثلون الأقلية متهمين ومهمشين.

2 ـ الأنساق الخطابية والمجتمع :

كان أنصار التحديث فرادى، وأكثر قربا في بعض الحالات إلى الإدارة الاستعمارية منه إلى الشعب الذي ينتمون إليه من مثل ما حدث بالجزائر وتونس. وحتى قبل الاستعمار لم يملكوا المؤسسات القارة التي تتبنى مشاريعهم، ويتجلى هذا بوضوح في كل من ليبيا والجزائر والمغرب، أو كان بعضهم في الخارج ولا يتمتع إلا ببعض الصلات بالوطن، ومثل هذه الوضعية خاصة حسونة الدغيس وحمدان خوجة، وحتى من كان داخل الوطن اعتبر جاهلا أو ملحدا أو منتصرا، ومثال ذلك بعثات السلطان المغربي مولاي الحسن 1873–1894 إلى أوربا[19].

وعلى نقيض وضعية هؤلاء، كان المحافظون فقهاء وصوفية يتحركون جماعيا ويؤثرون في المجتمع، فبينما تحالف الفقهاء مع السلطة السياسية لتعلقهم بطوبى

الخلافة كما قال الأستاذ عبد الله العروي[20]، فضل الطرقيون وزعماء الحركات الصوفية الارتباط بالمجتمع وتوجيهه نحو الزاوية ونحو الشيخ. فمن لم يكن في المجتمع المغاربي سنوسيا[21]، كان درقاويا أو قادريا أو تجانيا أو رحمانيا، ومن لم يكن لا من هذا ولا ولا من ذاك، كان من آخر ثقافته من ثقافة الجميع، الثقافة التقليدية البسيطة المغلقة؛ والتي كانت تزعج الاستعمار وتمثل مصدر خوفه.

3 ـ التدفق الأجنبي :

إن الاستعمار الفرنسي في المنطقة المغاربية، يعد هو الآخر سببا من أسباب التنوع الثقافي وانقسام النخبة. ذلك أنه وإن كان دفع بالأفراد وبالدول إلى العزلة وإلى التشبث بالثقافة القديمة، حفاظا على الدين وعلى الاستقلال؛ وهو ما حصل بالمغرب الأقصى خاصة، إذ أصبح هذا الأخير يعيش بعد استعمار الجزائر عام 1830م وتونس عام 1881م، في غيبة عما يجري من تطور علمي وفكري في أوروبا التي يتاخمها[22].

لقد أحدث الاستعمار جيوبا في النسيج الاجتماعي والثقافي للمجتمعات التي احتلها، عندما شرع في استقطاب رموز النخبة واستمالتها إليه في كل من الجزائر وتونس. ففي الجزائر أوعز الاحتلال الفرنسي إلى مصالحه الإدارية بالتقرب من الأعيان والعلماء والاهتمام بهم، فقام مثلا مدير المكتب العربي بقسنطينة الضابط الفرنسي بواسوني (Boissonnet) وحاكم وهران الجنرال سيراس (Cérès) بما كان يجب عليهما فعله.

واختارت الإدارة الفرنسية من تشاء للوظائف الحساسة في المجتمع كالقضاء والإدارة، وأكثر من ذلك أشرفت، وعلى نفقتها، على رحلات منظمة باتجاه فرنسا لوفود جزائرية، من أجل المشاركة في الاحتفالات وفي المعارض الدولية. وكان من نتائج هذه السياسة أن انفتح خاصة هؤلاء الرحالة على مظاهر الحياة الفرنسية وعلى التيارات الفكرية العصرية بدرجات متفاوتة، وهو ما صنع منهم طبقة متميزة في المجتمع ومتصالحة مع

الاستعمار. ومن لم يكن متنورا بأفكاره وفي المستوى المطلوب، كان متنورا بمظاهر حياته وتصرفاته، كما وصف بذلك الأديب الشاذلي القسنطيني[23]. ما حدث بالجزائر، تكرر بتونس بشكل أو بآخر، ومثال ذلك العلاقة التي كانت تربط القائد الفرنسي أليغرو (J. Allègro) بالشيخ محمد بن عثمان السنوسي، وما ترتب عن ذلك من تحول في سلوك الشيخ ونظرته إلى فرنسا[24].

ومما كان بشد في عضد هذه السياسة الاستعمارية، ويساهم هو الآخر كذلك في تفكيك الطابع التقليدي للنخبة، أو على الأقل لفت انتباهها وإثارة النقاش بين أعضائها حول مواضيع جديدة، هو تلك التأثيرات المتفاوتة للأجانب، المتدفقين بصفة حرة في الدول غير المستعمرة (طرابلس، المغرب)[25]، والوافدين مع الاستعمار والمتمتعين بحمايته في الدول المستعمرة (الجزائر، تونس)، ومن مثل تلك التأثيرات، الرسالة التي بعث بها جمع من الشباب التونسي المنتمي إلى عائلات أرستقراطية إلى الأب لوازون (H. Loyson)، والمتضمنة تعابير الإعجاب بفكرة التقارب بين الديانتين الإسلامية والمسيحية التي كان يدعو لها هذا الأب، وهي الفكرة التي تحمس لها الحشائشي كذلك وناقشها العلماء في تونس[26].

4 ـ الشحـن الذاتـي :

هناك أسباب ودوافع خاصة تفاعلت مع الأسباب العامة التي من جنسها ووجدت فيها الحماية، وهي تعني البعض دون البعض الآخر، وتتعلق بالظروف العائلية والمحيط الأسري، وبالمصالح الخاصة وبعض المهام المؤقتة كالسفارات والبعثات باتجاه أوربا وباتجاه مركز الخلافة العثمانية.

والتأثير الأسري، كواحد من هذه الأسباب الخاصة، صورته هي ما كان يتلقاه الفرد من شحنة تربوية قوية، أو ما كان يحظى به من رعاية عائلية خاصة، وبالتالي

تحدد المسار العام للشخصية انطلاقا من تلك الشحنة القوية أو من خلال هذه الرعاية الخاصة، ويمكننا الوقوف على نماذج من هذه الحالات من خلال قراءة متأنية في سيرة حياة المحافظين والمجددين على حد سواء، ومن خلال ما كتبوه كذلك، فهذا حسونة الدغيس الطرابلسي مثلا كتب يقول : « لقد شجعني والدي على السفر إلى أوربا للاطلاع على حضارتها... وهو مدفوع إلى ذلك تحت تأثير وتبجح عائلته، التي ترى أنه ستعهد إلي يوما ما مقاليد الحكم بالبلاد. »[27].

أما صورة المصالح الذاتية وعلاقتها بالتنوع النخبوي، فهي التي تحدث عنها أكثر من واحد، ولكن يعتبر خير الدين هو أهم من توقف عندها وبين شكلها. ففي حديثه عن التنظيمات قال إن بعض من عارضها بحجة الغيرة على الدين هو في حقيقة أمره «ممن له فائدة في التصرف بلا قيد ولا احتساب...» وأن هؤلاء المعارضين لما تأكدوا من تهديد هذه التشريعات الدستورية التحديثية لمصالحهم الشخصية «دسوا للعامة من قول الزور والغش ما ينفرهم منها، مثل قولهم : «هذا شرع جديد مخالف لشريعة الإسلام»[28]. ويعزى سبب هذه الظاهرة عند خير الدين إلى ضعف التدين أصلا لا إلى الغيرة على الدين[29]. لقد كان هناك فعلا من يدافع عن الأوضاع القائمة ويدعو إلى المحافظة عليها (السلطة القائمة، الثقافة العامة)، لأنها هي الأطر الوحيدة التي تضمن بقاء الامتيازات واستمرارها.

قد تبدو لنا مواقف المحافظين من مختلف القضايا تطرفا وغيرة دينية زائدة وانتهازية ووصولية، وقد تبدو لنا كذلك مواقف المجددين استسلاما وانهزامية مفرطة وانبهارا غير متوازن، ولكن علينا ألا نتطرف. فالمواقف الأولى لعبت دورا هاما في المحافظة على الدين وعلى الدولة بمغرب القرن التاسع عشر، والمواقف الثانية عبرت بقوة عن حاجة المجتمع المغاربي إلى التطور والتجديد والانطلاق.

* * *

هوامـش :

1. ومثال ذلك رسالة الأمير عبد القادر إلى علماء فاس، راجع :
محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، جزآن، تعليق ممدوح حقي، ط 2، دار اليقظة العربية، بيروت، ص ص 316-330.
2. أحمد باي، مذكرات، ترجمة وتعليق محمد العربي الزبيري، ط 2، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1981م، ص ص 33-37.
- عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، تونس، الجزائر، ليبيا، من 1816م إلى 1871، ط 1، الدار التونسية للنشر، 1972، ص ص 217،228.
3. للتعرف أكثر على هذه الصداقة انظر :
- المصدر نفسه، ص ص 138-142.
- علي مصطفى المصراتي، مؤرخون من ليبيا، مؤلفاتهم، ومناهجهم، عرض ودارسة، ط 1، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1977، ص ص 145-150.
4. لم تطرح العلمانية صراحة وبالمفهوم الذي جاءت به الثورة الفرنسية (فصل الدين عن الدولة)، وإنما طرح ضمنيا معنى إبعاد الحياة عن المفاهيم الإسلامية المهيمنة والتقاليد السياسية الموروثة.
5. أحمد ولد قاضي، «الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية»، جريدة المبشر، ع 1973، 21 ديسمبر 1878، ص 2 وما بعدها.
6. هو أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، توفي بعد عام 1796م، فقيه وأديب ومؤرخ، تولى الكتابة لدى محمد الكبير باي الغرب الجزائري من المدافعين عن الدولة العثمانية، انتهى من كتابه المسمى : «الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني» في أبريل 1793م/5 رمضان 1207 هـ، لذلك لم يذكر أحداث الثورة الفرنسية التي وقعت بعد هذا التاريخ، من مؤلفاته الأخرى «عقود المحاسن».
7. أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973، ص 226.
انظر تحليل هذه النقطة في :
وادن بوغوفالة، الثورة الفرنسية في الاسطوغرافيا المغاربية، دراسة تاريخية تحليلية في نماذج من كتابات القرن 13 هـ/19م، ط 1، مطبعة الرشاد، سيدي بلعباس، 2004م، ص 76.
8. Bernard LEWIS, Comment l'Islam a découvert l'Europe, traduction d'Annick PELISSIER, La découverte, Paris, 1984, p. 44
9. هو محمد بن محمود ابن العنابي (1775-1851)تولى القضاء الحنفي بالجزائر وولاه محمد علي الفتوى الحنفية بالإسكندرية، سافر إلى دول المغرب والمشرق العربيين وإلى إسطنبول، يسميه الأستاذ أبو القاسم سعد الله برائد التجديد في العالم الإسلامي، وكتابه «السعي المحمود...» ألفه بالقاهرة عام 1826.
محمد بن محمود ابن العنابي، السعي المحمود في نظام الجنود، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص203-204.

10. هو الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (1834-1897)، درس الفقه واللغة وتولى عدة وظائف حكومية،له عدة مؤلفات أشهرها «الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى».
أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، 9 أجزاء، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج9، ص 114.
11. رئيف خوري، الفكر العربي الحديث، أثر الثورة الفرنسية في توجيه السياسي والاجتماعي، ط 1، دار المكشوف، بيروت 1943، ص 95.
12. LEWIS: op. cit., pp. 50-51

- Faruk BILICI, « La révolution française dans l'historiographie turque (1789-1927) », in La Révolution Française et le monde arabo-musulman, Colloque international, (Tunis 9-11 novembre 1989), Alif, Tunis, 1991pp. 155-165.

- خالد زيادة، تطور النظرة الإسلامية إلى أوربا، ط 1، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1983، ص ص 82-84.
13. حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص 151.
14. أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ترنس وعهد الأمان، 8 أجزاء، «دولة أحمد باي»، تحقيق أحمد عبد السلام ، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1971، ج6،ص ص 94-96.
15. خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق المنصف الشنوفي، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 142.
16. كان مفتي المالكية بتونس، وأحد أصدقاء أحمد عارف حكمت بك، أيد حركة التنظيمات وشجع البايات على قبولها.
17. خير الدين : المصدر السابق، ص 143.
18. التميمي : المصدر السابق، ص ص 321-324.
19. عبد القادر جغلول، وآخرون، الإنتلجانسيا في المغرب العربي، ط 1، دار الحداثة والنشر والتوزيع، بيروت، 1984، ص 16.
20. عبد الله العروي، مفهوم الدولة، ط3، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء، 1984، ص 102.
21. أي الحركة السنوسية التي أسسها محمد بن علي السنوسي (1787-1859م) وانتشرت بقوة في ليبيا، وبلغت ذروة قوتها وانتشارها على عهد السيد المهدي (1859-1902م).
22. عبد الله گنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء. 1978م، ص ص 17-18.

23. أبو القاسم سعد الله، القاضي الأديب القسنطيني، دراسة ونصوص، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 54.

24. لمزيد من المعلومات حول هذه القضية انظر :

ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، «تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين»، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص 575، وص ص578-580.

25. للاطلاع على هذا الموضوع راجع :

- عبد الإله بلقزيز، الخطاب الإصلاحي في المغرب، التكوين والمصادر (1844-1918)، ط1، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1997، ص ص 77-79.

- أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي أو طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني الثاني (1882-1911م)، ط1، مطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1971م، ص 301.

26. عن الرسالة وموقف علماء تونس، انظر :

محمد بن عثمان الحشائشي، الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق، ترجمة محمد المرزوقي، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1988، ص ص 42-45.

27. انظر الوثيقة رقم 4 عند :

التميمي : المصدر السابق، ص 305.

28. خير الدين، المصدر السابق، ص 141.

29. المصدر نفسه، ص 162.

* * *

البعثات التعليمية المغربية : 1845-1912
سـؤال الإصـلاح والتحديــث

يحيى بولحية*

مقدمــــة

أثار التحدي الغربي الحديث العديد من التساؤلات، وفتح المجال واسعا أمام أنواع الآراء والاجتهادات داخل البلدان التي تعرضت للهجوم الغربي العنيف والمنظم خلال القرن التاسع عشر. كما شكل هذا التحدي صدمة حقيقية للذات من خلال الحملات التي اكتوت بنارها العديد من الأقطار العالمية كمصر والشام أثناء حملة نابليون أو اليابان في فترة ما يسمى يالسفن السوداء للكومودور الأمريكي بيري Perry سنة 1853، أو الصين من خلال حرب الأفيون، وكذا المغرب أثناء معركتي إيسلي وتطوان. فكان ذلك -في حالة المغرب- باعثا على التفكر والتدبر في "النوازل" التحديثية المستجدة، وعلى البحث في أسباب "الغمة" والتأسيس لمطلب الإصلاح، واللحاق بالغالب، بإدراك أسباب تمدنه وقوته، وبالتأثيث المناسب للفعل التحديثي بطرق وأساليب معينة.

رحلة الصفار و موضوع البعثات التعليمية أي علاقة؟

في هذا الإطار التاريخي الدقيق والحرج، تندرج رحلة الصفار(1260-1261هـ /1845 - 1846م)، ضمن سفارة أشعاش، إلى باريس.

صحيح أن مهمة الصفار لم تكن ذات منحى تفاوضي، لكن اختياره ضمن أعضاء الوفد لم يكن عبثيا، ذلك بأن مهمته كانت وصفية استخبارية، وهو ما

* باحث، وجدة

يتضح من خلال ملاحظاته الدقيقة وأسئلته المتعددة الاستفسارية عن كل ما له علاقة بأسباب القوة الفرنسية. ولا شك أن هذا الدور قد حدد له سلفا من قبل الهيئات المخزنية العليا ، ويعترف الصفار بذلك قائلا: «لولا مساعدة من تجب إجابته وتتحتم طاعته لما عدت ولا قررت أن أفعل شيئا من ذلك، لكن بركة الامتثال عادت على كنافة الفكر بالانتثال[1] ».

وضمن هذا السياق، لفت انتباه الصفار وجودُ بعثة علمية مصرية؛ ففي أثناء حديثه عن احتفال الفرنسيين بأول يوم من العام، أشار إلى وجود «سبعة من أهل مصر... ومعهم هنالك غيرهم جملتهم نحو 60، أرسلهم محمد بن علي لهنالك لتعلم العلوم التي لا توجد إلا عند هؤلاء القوم»[2]. وهي إشارة لم ترق إلى قوة دلالتها ما أوردته الرحلة المشرقية التي قام بها أبو العلاء إدريس إلى مصر حيث جاء الخبر عن موضوع البعثات التعليمية المصرية تقريريا وبعيدا عن التعليق، فقال عن محمد علي: «وبعث رجالا من أهل العلم لبر النصارى، يتعلمون الطب والتوقيت والهندسة والحساب وعلوم البوصلة وصناعة المجانات وغير ذلك، وأجرى لهم المؤونة لعيالهم وأوصى بالاحتفاظ بهم في بلد النصارى، ومن تعلم منهم يرجع لبلده»[3].

أشار الصفار في رحلته إلى البعثة المصرية التي شاهد بعضَ أفرادها سنة 1845م، في مرحلة تراجعت فيه قوة محمد علي أمام القوة الإنجليزية؛ ومن هنا يمكن اعتبار إشارة الصفار مقدمة موضوعية نبهت المخزن إلى ضرورة اتباع نفس المسلك المصري، أي إرسال بعثات تعليمية إلى أوربا ، خاصة إذا علمنا أن رحلة الصفار لم تكن سوى تقرير رُفع إلى الدوائر المخزنية العليا للدراسة والاستثمار. ويمكن الاستدلال على ذلك بما أورده صاحب العز والصولة؛ فقد ذكر أن مولاي الحسن «اهتم اهتماما خاصا بتوجيه البعثات العلمية إلى أوربا لتعلم اللغات والفنون والصنائع مثلما فعل محمد علي بمصر»[4] ليدشن بذلك، أو بالأحرى ليتم مسلسل البعثات التعليمية المغربية، التي ابتدأت مع السلطان محمد الرابع، ففي عهد هذا الأخير وجه المخزن ست بعثات طلابية إلى الديار المصرية لتلقي علوم الصناعة الحربية والعصرية[5].

البعثات التعليمية المغربية والرحلة إلى المشرق.

تصعب مقاربة موضوع البعثات التعليمية المغربية، دون استحضار مؤسسة المخزن، أو بالأحرى مؤسسة السلطان، فهي الجهة الوحيدة التي تكلفت بالموضوع، من مقدماته وأهدافه إلى تمويله وتحديد اختصاصاته واستثمار نتائجه، ويبدو ذلك جليا من مختلف المراسلات السلطانية الخاصة بالموضوع.

أسهمت هزيمتا إيسلي وتطوان في بداية تبلور فكرة ضرورة تكوين أطر الدولة والجيش المخزنيين: ففي 28 صفر 1269هـ/1852م، وجه السلطان الخطاب الآتي إلى عامل سلا :

« ... وبعد فبوصول كتابنا هذا إليك عين عشرين من الولدان النجباء لتعلم علم تطبجيت، وانظر لهم معلما ماهرا أو معلمين من طبجية البلد، يعلمهم ويشرعون في التعلم الآن، فيبدأون بمقدماته، ثم يتدربون منها إلى الأخذ في تعلم رماية المدفع والمهراس، وهكذا حتى ينجبوا ويمهروا في الصنعة ويصيروا قادرين على الخدمة...

وهؤلاء العشرون يكونون زائدين على من هنالك من الطبجية، ونأمر الأمناء أن يرتبوا لهم -إعانة على ذلك- خمس عشرة أوقية في كل شهر للواحد، ثم من ظهرت نجابته وفاق غيره فإننا نزيده في المرتب، كما نأمرهم أن يرتبوا لمعلمهم واحد أو إثنين: ثلاثين أوقية للواحد في كل شهر زيادة على راتبهم المعلوم، واعتن بأمرهم غاية الاعتناء، وقد كتبنا لغيركم من المراسي مثل هذا وسننظر من تظهر ثمرته واعتناؤه »[6].

يبدو من خلال النص حضور فكرة التكوين بالاعتماد على الكفاءات المحلية، كما أن العملية لم تقتصر على مدينة سلا، بل امتدت لمختلف المراسي المغربية، وركزت الرسالة السلطانية على تعليم فن المدفعية، ورتبت السلطة اعتمادات مالية للمكونين والمتعلمين، وحفزتهم على المنافسة والابتكار وخصت المتفوقين بالتحفيزات المادية.

وفي 1284هـ/1867م وجه السلطان محمد بن عبد الرحمن رسالة إلى الحاج محمد بن سعيد قائلا: «...، وبعد فقد وصلنا كتابك جوابا عما أمرناك به من انتخاب ثلاثة من أولاد خدامنا ءال سلا وتوجيههم لحضرتنا الشريفة ليتعلموا من جملة من عيناه لتعلم العلوم الجهادية، وعرفنا أنك عينت الثلاثة المقيدين بالطرة بعد أن وعدتهم ووالديهم بالإحسان من جانبنا العالي بالله وعرفنا ما وصفتهم به من النجابة ومعرفة بعض الحساب وما هو لائح عليهم من توقد الذهن وحسن الأداء، فقد وصلوا لحضرتنا الشريفة، والسلام»[7].

لكن هل كانت المؤهلات التقنية لهؤلاء المعلمين كافية لتدارك خلل البناء الداخلي للجيش المغربي الذي لم يصمد طويلا أمام القوات الفرنسية سنة 1844م؟ ألم تتعرض حركات المولى الحسن الأول لمجموعة من العثرات أقنعته بضرورة الاعتماد على الخبرة الأجنبية باستقدام البعثات العسكرية الأوربية الفرنسية والإنجليزية؟ ألا يمكن القول إن فشل الاعتماد على الخبرة المحلية المفقودة أقنع المخزن بضرورة تغيير الأطر المحلية بالخبرة الأجنبية؟ وإن إيفاد البعثات التعليمية إلى أوربا نوع من المراجعة النقدية لمحاولات الإصلاح الأولى التي لم تمنح نتائج إيجابية في هذا المجال؟

ومن جانبه تحدث الأستاذ محمد المنوني عن أربع بعثات تعليمية أوفدها محمد الرابع إلى مصر[8] وأورد من وثائق آل بن سعيد بسلا، رسالة صادرة عن محمد الرابع، تستدعي التوقف والتأمل والتحليل؛ فقد ورد فيها:

«خديمنا الأرضى الحاج محمد بن سعيد السلاوي، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وبعد فإن هذه الخطط الجهادية من علم البحر وتطبجيت ضعفت في الغرب حتى كادت أن تفقد، وقد اعتنى بها ملوك الإسلام في هذا الوقت فانتفعوا بها انتفاعا بينا، وأدركوا منها ما لم يدركه غيرهم.

وقد بلغ إسماعيل باشا اهتمامنا بالأمور الجهادية، حيث وجهنا له من يتعلم عمل البارود وغيره على الكيفية المعروفة عندهم، فأجاب بأنه اعتنى بأمرهم، وطلب تكليفه بما يتعلق بهذا الأمر، ووعد بالوقوف فيه، غير أنه طلب أن يكون المتعلمون صغارا نجباء، وأسرع نجابة من الكبار.

فاقتضى نظرنا تعيين ثلاثين من الأولاد الصغار النجباء، وتربيتهم بحضرتنا في تعلم ما لا بد منه من مقدمات ذلك: من حساب وتوقيت وهندسة وشبه ذلك، ثم نوجههم لمصر وأردنا انتخابهم من أولاد البخاري وأهل فاس وأهل العدوتين وأهل الصويرة.

فنأمرك أن تنتخب من أولاد خدامنا أهل سلا الصغار ثلاثة، وقد أمرنا عامل الرباط بانتخاب ثلاثة من أولاد الرباط، ليكون ثلاثة طبجية، وثلاثة بحرية.

وليكن سنهم من أربع عشرة إلى خمس عشرة، ممن يعرف الكتابة والقراءة، وظهرت عليهم مخايل النجابة والذكاء والفطنة.

وعدهم وأهلهم بالإحسان التام من جانبنا العالي بالله في حال التعلم، زيادة على ما يترقبونه من إحراز المزية، والمرتبة العلية، لمن برع منهم فيما عين له. وحين تعينونهم وجهوهم لحضرتنا الشريفة، بعد أن يدفع لهم الأمناء ما يتزودون به ويكتروا لهم ما يركبون عليه، واصلين لحضرتنا العالية بالله، فأطلعهم على كتابنا هذا ليعلموا بمقتضاه، والسلام، في 5 حجة الحرام، عام 1283هـ»[9].

فصلت الرسالة في دوافع البعثة، وقدمت لها بالإقرار بحجم التأخر المغربي في علوم البحر وفنون المدفعية، مقارنة مع مصر وتركيا.

ويبدو أن المخزن تنبه لبعض أخطائه السابقة، عندما اختار فئات كبيرة السن، فاستدرك ذلك، وعين ثلاثين من الأولاد الصغار النجباء، ولإنجاح مهمتهم التعليمية أخضعهم لتكوين قبلي في علوم الحساب والهندسة والتوقيت.

فرض غياب مؤسسات تربوية فاعلة على السلطان اختيار أفرادها من أولاد جيش البخاري، ومن بعض المدن ذات الحضور المخزني على المستوى الإداري والتجاري، كفاس والعدوتين والصويرة.

وبالإضافة إلى شرط حداثة السن، أشارت الرسالة إلى ضرورة اختيار من ظهرت عليهم مخايل النجابة والذكاء والفطنة؛ وختمت موضوعها بتحمل المخزن تكاليف الرحلة وبتقديمه منحا لمن برع منهم فيما عين له. بيد أن معيار النجابة لا يمكن قياس درجة نجاعته في غياب قواعد تربوية ومؤسساتية، فالنجابة والذكاء المطلوبان في هذه الحالة، يستدعيان نوعا من الانتظام التربوي، ويتطلبان تقويما على فترات محددة من حياة المتعلم وممارساته الدراسية. ولاشك أن غياب ذلك أوقع المخزن في العديد من التناقضات،؟ فقد ظهر في بعض البعثات التعليمية المنتقاة بعض الأشخاص الذين لم تتوفر فيهم الشروط الدنيا من التواصل اللغوي. وكان المخزن يضطر إلى إرجاعهم، بعد عملية انتقاء بالمواصفات السالفة.

وإذا كانت عناصر الإلحاح التحديثي بادية من ثنايا الرسالة، من خلال توفر البعثة، ظاهريا، على أبرز شروط التكوين المادية والمعنوية، إلا أنها فقدت الأساس التربوي العميق المتمثل في غياب مدرسة وطنية حقيقية ممتدة وفاعلة.

تحدث المشرفي عن محمد بن عبد الرحمان بأنه كان «متشوفا لعلم الهندسة والتنجيم والهيئة.. ووجه لتعليم الهندسة والحرب عددا من الطلبة وأبناء المسلمين لبلاد الإفرنج، فتعلموا ما يكفي من ذلك، وما يحتاج إليه في تعليم كيفية النظام، واستغنى بهم عمن عداهم من الأجانب»[10]. ونتساءل عن حقيقة نجاح الوفود التعليمية المغربية في تعويض الخبراء الأجانب، وهل حققوا، بالفعل، النتائج المرجوة منها بشكل يجعل من الخبرة الوطنية عنصرا أساسا في تحقيق الاكتفاء العلمي والعسكري؟ وبالنظر لحقيقة الأمر يبدو أن المشرفي لم يكن دقيقا في استنتاجه، ذلك بأن التدخلات الأجنبية ووصاية الخبراء العسكريين الأوربيين ظلتا تتزايدان طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولم يفسح المجال أمام الكفاءات

المغربية لتقلد المسؤولية المناسبة لتخصصاتهم العلمية والتقنية، وهو موضوع نفصل فيه الحديث لاحقا.

ويظن أحد الباحثين أن المخزن اعتمد في «بداية الأمر على أطر أوربية أسلمت (علوج)، وتلك ظاهرة معروفة في التاريخ المغربي منذ القديم، كما اعتمد على عناصر تركية، وكان الهدف من ذلك أن يظل التأطير مرتبطا بالعالم الإسلامي، وبعيدا عن التأثيرات الأوربية»[11].

تنبهت الإيالات العثمانية، وبالتحديد مصر في عهد محمد علي لمأزق الدولة العثمانية، وانفتحت على التجربة الغربية بإيفاد المتعلمين وتأسيس المدارس ووضع معالم اقتصاد يقوم على أساس الاحتكار وسيطرة الدولة على القطاعات الإستراتيجية للبلاد.

تأسست التجربة المصرية استعانة بالتأطير الأوربي، أثناء بعثة رفاعة الطهطاوي وغيرها. وكان المخزن المغربي مدركا لخصوصيات المسألة، وهو الذي اطلع على التقارير السفارية، ومن أبرزها تقرير/رحلة محمد الصفار أثناء مهمته بفرنسا، وإشارته إلى وجود أفراد بعثة تعليمية «أرسلهم محمد بن علي لهنالك لتعلم العلوم التي لا توجد إلا عند هؤلاء القوم»[12].

وفي عهد محمد بن عبد الرحمن، وجه الوزير الطيب بن اليماني بوعشرين رسالة إلى أمين الأمناء الحاج محمد بن المدني بنيس تتعلق بإرسال شاب إلى مصر لتعلم الطباعة.

ويثار أمامنا إشكال يتعلق بالسبب الذي دفع المخزن المغربي إلى اقتفاء النموذج المصري، وإرسال بعثات تعليمية إلى مصر، وهو الذي كان يعرف تماما أن هذا المثال المشرقي ما كان له ليتأسس دون بعثات محمد علي إلى أوربا.

هل عجز المغرب عن إنتاج نموذج ثقافي وحضاري بمنأى عن الترجمة المصرية للتحديث الغربي، وهو الذي لم تكن تفصله عن أوربا سوى مسافة قصيرة؟ ألا تدل

هذه الخطوة على سياسة الحذر والتوجس من الطموحات الإمبريالية الأوربية في شمال إفريقيا؟ وبالمقابل هل كانت مصر، بعد فشل تجربة دولة محمد علي، نموذجا فاعلا وصالحا للتمثل والاقتداء؟ ألم يكن هذا الاقتفاء هدرا للوقت والجهد، ألم يكن منهج التنمية فاقدا للمقدمات السليمة والفاعلة؟

ويمكن القول إن إرسال البعثات إلى مصر مثل هروبا من مواجهة الحقيقة، والارتماء في أحضان مشروع المماثل الثقافي، الذي عجز هو نفسه عن تأسيس مشروع تنموي مجتمعي منذ زمن حكم محمد علي والأسرة الخديوية التي رهنت البلاد للديون والاحتكارات الأجنبية.

يمكن الاستدلال على ذلك بالنتائج الهزيلة التي حققتها هذه البعثات، وربما كان ذلك سببا في مراجعة المخزن لمواقفه النمطية السالفة والاتجاه نحو الأقرب جغرافيا وتحديثيا (الغرب الأوربي)، وهي خطوة لم تتوفر لها خاصيات العمق والتراكم التاريخيين الضروريين لإدراك طبيعتها ودلالاتها الرمزية.

التخلي عن المشرق والتوجه نحو أوربا.

من هذه الزاوية يمكن مقاربة موضوع إرسال البعثات التعليمية المغربية إلى دول الغرب الرأسمالي: فقد أرسلت بعض الوفود التعليمية في عهد محمد الرابع إلى أوربا وتعلموا «ما يكفي من ذلك وما يحتاج إليه من علم الهندسة وكيفية حرب النظام»[14]، إلا أننا لا نتوفر على معطيات مفصلة بشأنهم، ومع ذلك يمكن القول إن البعثات التعليمية نحو أوربا لم تزدهر إلا في عهد الحسن الأول، وتميزت بخاصيتي الاستمرار والتواتر. وفي هذا المجال نتوفر على معلومات في هذا الموضوع، بفضل كناش سُجلت تفاصيله بأمر سلطاني، في تاريخ غير محدد ما بين 1304-1305هـ/ 1887-1888م، وهو الكناش الذي اعتمد عليه ابن زيدان في تدوين أفواج الوفود التعليمية إلى أوربا طيلة عهد الحسن الأول. وعنه أخذ معظم من تطرق لمسألة البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول، بدء من محمد المنوني، وعبد الله العروي

وغيرهما. إلا أن المعلومات التي أوردها صاحب الإتحاف تتطلب نوعا من التدقيق بالاعتماد على وثائق موازية مغربية وأجنبية، لعل أهمها ما ورد في وثائق الخزانة العامة بتطوان ومديرية الوثائق الملكية والخزانة الحسنية بالرباط؛ علما أن ابن زيدان اعترف بقلة معلوماته حول وفود تعليمية توجهت نحو إيطاليا في أواخر عهد الحسن الأول[15].

تتضح معالم الاعتماد على الغرب في تكوين الكفاءات التعليمية المحلية من خلال الرسائل السلطانية الواردة في الموضوع، ومنها رسالة السلطان الحسن الأول إلى باشا طنجة الجيلاني بن حمو البخاري، مؤرخة في 25 رجب عام 1292 هـ/ 1875م وقد ورد فيها:

«.. وبعد فقد وجهنا صحبته خمسة عشر من نجباء الطلبة بقصد التوجه لبر النصارى لتعلم تطبجيت والهندسة وغير ذلك من أمور الحرب بعد تعلم الكتابة واللسان بطنجة ليسهل عليهم مباشرة التعلم ببر النصارى، وأمرنا خديمنا الطالب محمد بركاش بأن يقر كل فريق منهم بالمحل الذي يناسبه حتى يتعلموا ذلك ويوجه كل فريق منهم للمحل المعين له، كما أمرنا الأمناء بأن ينفذوا مؤونتهم مدة إقامتهم بطنجة، وأعلمناك لتكون على بال وتنزلهم بالمحل الذي يناسبهم، والسلام»[16]. وقد أفصحت الرسالة عن مقدمات أول بعثة انتقي أفرادها للدراسة بأوربا، كما حددت آليات التمويل ومهدت سبل تعليمهم ودراستهم بتعلم لسان الدول المستهدفة.

ركز المخزن الحسني، في بناء عناصر القوة المغربية، على الجانب العسكري. ولا شك أن القوة الغربية، وما أفرزته من تدمير لبنى المغرب العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، أفهمت صناع القرار ضرورة معالجة المسألة العسكرية والأمنية وخاصة بعد مسلسل الحركات السلطانية التي أبان، من خلالها، الجنود عن جهل تام بقواعد الحروب والمواجهات، مع القبائل المتمردة.

ومن جانبه، أورد الناصري خبر هزيمة المحلة السلطانية أمام القبائل الثائرة بالمنطقة الشرقية، قائلا: «وتكاثر الرصاص على موكب السلطان حتى سقط حامل الراية

وجرح المولى عرفة أخو السلطان، وأما الجيش وقواده فإنهم لما انهزموا صرفوا وجوههم إلى المهواة »[17].

ويصدر جاك كايي مقالته حول موضوع البعثة الدراسية المغربية نحو مونبولييه (1885-1888م) بالحديث عن رغبة السلطان في تحسين أداء جنوده[18].

هو البحث، إذن عن حرب النظام، لتجديد محيط مؤسسة السلطان وبعث الحياة في مخزن يريد إعادة إنتاج مؤسساته ورموزه؛ من جانب آخر يقول أحد الدارسين إن الحركة الإصلاحية التي بدأها السلطان محمد بن عبد الرحمن وتابعها مولاي الحسن...كانت نتيجة لكل هذه الكتابات الكثيرة التي كان يضعها كتاب السفارات في الرحلات التي يؤلفونها وفي التقارير التي كانوا يرفعونها للمسؤولين »[19].

قضايا وإشكالات تحديثية.

أشار الحجوي في بداية القرن العشرين إلى «عدم وجود ضباط مدربين على الحروب ..وإنما الذي كان يقود تلك الجيوش الجرارة ضباط أميون غالبا لا يقرأون ولا يكتبون ولا معرفة له بجغرافية الأرض »[20]. وهو ما يدفعنا إلى التساؤل حول الدور الذي أسهمت به البعثات التعليمية في تحديث جيش، فَقَدَ أفراده وضباطه المعرفة بفنون الحرب، بل كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة.

يثير نص الحجوي التساؤل حول هؤلاء الضباط الأميين الذين لم تكن لهم معرفة بفنون القتال. ومن جانبنا نقول أين اختفى المتعلمون المغاربة الذين صرفت عليهم مبالغ مالية مهمة، ما الذي منعهم من تأطير هذه الجيوش وهم الذين تعلموا وتدربوا في مؤسسات ومعاهد عسكرية ألمانية وفرنسية وإيطالية وبلجيكية وإنجليزية بارزة، ولم تفسح أمامهم إمكانية التغيير والإصلاح؟ أين يكمن الخلل؟ هل ترتبط المسألة بالقدرات الذاتية لهؤلاء المتعلمين في هذا البلد أو ذاك، أم إن القضية برمتها متعلقة بالإطار السياسي والثقافي الذي أطر موضوع البعثات التعليمية المغربية؟ هل كان أفراد البعثات التعليمة المغربية واعين بالدور الذي حدده المخزن لهم؟

أجمل ابن زيدان حكمه على مآل البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول متحسرا: «... فإنه -الحسن الأول- لما نظر إلى الأمم الراقية وما أفادها العلم الرياضي والطبيعي من القوة والسلطان والشفوف على الأقران في معترك الحياة، أراد أن يزج ببلاده في ذلك الميدان الواسع فعضد إرسالية الشبان المتخرجين من مدرسة والده وتوجهوا لعواصم أوربا لتتميم دروسهم وملئوا بكل نافع حقائبهم، فعين لكل فريق رجلا من أهل الدين والعلم لمرافقتهم وصيانتهم وأجرى عليهم النفقات الكافية، ولما زاولوا دروسهم وملئوا بكل نافع حقائبهم، يمموا بلادهم ليبثوا فيها ما ينفع مستقبلهم فلم يعدموا معاكسا وقف في سبيلهم وحرم البلاد والعباد ما كان يرجى من فوائد معارفهم بفتح المدارس وسلوك هذا السبيل كما سلكه أهل اليابان لذلك العهد الذين رافقوهم في دروسهم فكانت النتيجة أن تقدم اليابانيون وتأخرنا ولله في خلقه شئون»[21].

اقتبس ابن زيدان مفردات نصه مما ذكره صاحب زبدة التاريخ، ويبدو أن الأعرج السليماني كان أكثر حذرا من ابن زيدان، وتجنب إصدار حكم على «تأخر» اليابان و«انحطاطه» الفيودالي.

وبصفة إجمالية تحدث صاحب الإتحاف عن المعاكسين لمشروع البعثات التعليمية المغربية نحو الخارج، والمؤكد أنه أشار إلى رجال المخزن الذين كانوا يبذلون الجهد لثبات المؤسسات واستمرار المصالح، ويعارضون رؤى التغيير والإصلاح التي قد تعصف بامتيازاتهم ومصالحهم المتوارثة. وقد يكون ذلك أحد العناصر التي أشار إليها الناصري، قائلا: «.. »إلا أن ذلك لم يظهر له كبير فائدة، إذ كان ذلك يحتاج إلى تقديم مقدمات، وتمهيد أصول»[22].

أشار ابن زيدان، في سياق حديثه عن دار السلاح بفاس، إلى موضوع إدماج بعض أفراد البعثات التعليمية الموفدة إلى أوربا ضمن أطرها، «وكان ابتداء العمل في بنائها سنة 1305هـ، وانتهاؤه سنة 1308هـ»[23]. وبعد التفصيل في المراسلات التي وجهها الحسن الأول إلى الممثلين الدبلوماسيين الإيطاليين، ختم صاحب الإتحاف

ذلك بالقول: «وقد استخدم بهذه الدار طلبة البعثة المتخرجة من مدارس فرنسا وبلجيكا السالف الكلام عليهم قريبا وكان رئيسها الكولونيل الإيطالي بريكليف وكباوها (كذا) السيد محمد الصغير* والسيد المختار الرغاي** والسيد محمد بن الكعاب*** والسيد إدريس الفاسي**** والسيد الطاهر بن الحاج الأودي*****، وعدد جميع العملة الذين كانوا بها ثلاثمائة عامل من فاس ومكناس ومراكش والرباط وسلوان وغير ذلك... »[24].

والكلام السالف الذي أورده ابن زيدان بخصوص البعثة هو ما سجله قائلا: «ثم وجه بعثة حربية لفرنسا وبلجيكا، فمكثت هناك سبع سنوات، أربع منها بفرنسا وثلاث ببلجيكا تخرجت فيها في صناعة الذخائر الحربية ثم عادت للمغرب سنة 1305هـ، فلحقت بالحضرة الشريفة برباط الفتح وأتت معه مكناسة الزيتون وأقامت بها ستة أشهر ثم توجهت لفاس لتطبيق العلم على العمل فدخلت للعمل في دار السلاح»[25]. ويضيف ابن زيدان قائلا: «وكانت هذه البعثة تتركب من الطاهر بن الحاج الأودي رئيس العملة بدار السلاح ومعه من فاس محمد المنقري رئيس قسم الزنادات بالدار ومحمد بن علي الحداد ومن مكناس عباس بن قاسم رئيس قسم صناعة الجعاب بالدار المذكورة والمعلم أحمد بن صالح وإدريس بن الحداد ومحمد بن أحمد المدعو المشطون والمعلم حمان وبسلهام بن حمو ومحمد بن العباس وكلهم نجحوا في علومهم واستخدموا بدار السلاح»[26].

يمكن اعتبار دار السلاح –المكينة– المؤسسة الإنتاجية الوحيدة التي نجحت في إدماج أكبر عدد من المتعلمين الذين درسوا بالخارج؛ فقد حاول الحسن الأول» تجهيز المغرب بما يساعده على صنع السلاح وإصلاح العدد الحربية داخل المغرب...حيث أسند هذه المأمورية عام 1306هـ/1888م إلى جماعة من الضباط الإيطاليين»[27]. وورد بشأنها رسالة وجهها الحسن الأول إلى النائب محمد الطريس ذكر فيها قائلا: «...، وبعد فقد أمرنا أمناء مرسى الدار البيضاء بأن يوجهوا لك عن طريق البحر بطرفته سبعة وعشرين ألف ريال وخمسمائة ريال وخمسة وثمانين ريالا 27585 من

سكة الصبنيول بحيث تكون عندك في أول رمضان الآتي من قبل ثمن مكينات للسكة كلفنا بجلبها الكرنيل بريكل الطلياني معلم الفبريكة بفاس... »[28].

ومن جانبه اجتهد المشرفي في وصفها مستخدما ترسانة المحسنات اللغوية قائلا: »..المكينة الفائقة الشكل، البديعة المثل، المنبئة بالنصر والنجاح المعروفة بدار السلاح.. »[29].

«ومع ذلك لم يكن المصنع ينتج أكثر من خمس بندقيات في اليوم»[30] في بداية الأمر. ويبدو أن الدوائر المخزنية أسهمت بقسط وافر في وضع العراقيل أمام هذا المشروع التحديثي/العسكري، ويتضح ذلك مما ذكره الطاهر بن الحاج الأوديي، قائلا عن وزراء وكتاب وأمناء: «... وفي ذلك الزمان بطلو لنا إنشاء دار السلاح السعيدة، مانتجت إلا بتداخول السفارة الناصحة الطاليانية مدة تسع وعشرين سنة من عام 1305هـ إلى عام 1334هـ»[31]. ويبدو أن صفقات السلاح المستورد وما كانت تدره على خزائن هؤلاء تسببت، بشكل كبير، في معارضة أي مشروع تنموي بسواعد وطنية. وهو ما دل على بعض مظاهر أزمة النخبة المخزنية الحاكمة في مغرب القرن التاسع عشر، حيث يمكننا، بيسر، استنتاج غياب الأدوات الإدارية الفاعلة والمحتضنة لمشروع الإصلاح الذي بدأ متعثرا وفاقدا للشروط الموضوعية والذاتية الكفيلة بمنحه شحنة النجاح والإيجابية.

لم تحقق البعثة الأولى (1291-1294هـ/1874-1877م) كافة الأهداف المرسومة، وفي مقدمتها البعثة الإنجليزية، التي أسهم دريموند هاي في اختيار أفرادها وأصبح بمقتضاها محمد الجباص وزيرا للحربية والزبير اسكيرج خبيرا عسكريا، بَيْد أن بعضها الآخر تجاوز مدة التكوين المخطط لها إلى ثلاث سنوات إضافية، وهي نفس الحالة التي يمكن تسجيلها بخصوص بعثة 1301هـ 1884م إلى مونبولييه Ecole de génie-، وكذا البعثتين اللتين أرسلتا إلى ألمانيا وبلجيكا، ومن بين 62 متعلما لم يدخل مجال العمل سوى 23 فردا بعد سنتين من الغياب[32].

من جانب آخر أسهمت المدارس العسكرية بإيطاليا في تكوين جيد لأغلب المتعلمين المغاربة؛ حيث أتقنوا اللغات الأجنبية وبرعوا في العلوم البحرية وصناعة السلاح وتدريب الجنود.

حاول المخزن الحسني -من خلال البعثات التعليمية المذكورة- اكتساب خبرات متنوعة، وتزويد البلاد بأطر تقنية وعسكرية تستجيب لمتطلبات العصر[33]. وهو ما تفصح عنه المراسلات السلطانية المنظمة لهذه البعثات.

تعترف هذه المصادر بأن المخزن المغربي وظف بعض هذه الأطر التعليمية في مناصب تقنية بمعمل باب المكينة بفاس لصناعة الأسلحة والعملة، وفي الأشغال الطبوغرافية كرسم خرائط المناطق المتنازع عليها مع القوى الاستعمارية الأوربية، وفي إقامة الأبراج وإصلاحها، وفي المفاوضات المخزنية مع الأجانب[34]. ويتحدث الزبير اسكيرج في مذكراته عن تعيينه في «السفارة الموجهة لمدريد لعقد الشروط المعروفة»[35]. أثناء مؤتمر مدريد 1296هـ/1880م ويتابع قائلا: «وفي سنة(1881-1297م) رشحت لمساعدة المهندس الإنجليزي المكلف بتشييد أبراج طنجة، وتركيب المدافع الستة المجلوبة من معمل (أرم سطرونك) بانجلترا...(و) قمت بتركيب المدافع ببرج المرسى أتم قيام»[36]. وقد ترجم رسالة صادرة من المهندس الإنجليزي ماك ماهيو في موضوع المدافع المعدة لتحصين طنجة، وورد فيها:

«...، أما بعد فقد طلب مني حاكم الطبجية الإنجليزي ومعلمهم أن أترجم له المكتوب الأنجليزي حوله إلى العربية وأسلمه لسعادتكم لتطالعوا عليه العلم الشريف، وهو مشتمل على ما استحسنه المعلم المومى إليه وما تقتضي المصلحة إجراءه»[37].

ويبين المهندس الإنجليزي من خلال ترجمة اسكيرج «أن المدافع الجديدة متوقفة ومفتقرة على من يقم بواجباتها حق القيام. ولو فرضنا أن هذه المدافع كلها مركبة بمحلاتها على التمام دون من يقم ويحسن خدمتهم بالتحقيق والتدقيق، فهم حينئذ

والوجود والعدم على حد سوى»[38]. وربما يكون ذلك أحد الأسباب الرئيسة التي دفعت المخزن الحسني إلى توجيه بعثات تعليمية نحو ألمانيا وفرنسا وإيطاليا لتوفير الأطر اللازمة لاستعمال السلاح المستورد من بريطانيا وألمانيا وبلجيكا.

ترجم مييج لمحمد الجباص قائلا: «اضطلع محمد الجباص، بعد فترة تكوين بالمدرسة العسكرية بشاتهام ببريطانيا ما بين 1880-1877م، بالعديد من المهام والمسؤوليات، ومنها مرافقته لسفارة بن سليمان إلى باريس سنة 1901م وكُلف برئاسة اللجنة المشتركة الفرنسية المغربية لضبط الحدود، واستدعي لشغل منصب الحربية بدل المهدي المنبهي في عهد المولى عبد العزيز وتدخل ضد الريسوني في نهاية سنة 1905 وبداية 1906م، وأصبح صدرا أعظم سنة 1913م»[39]. ونعتقد أن محمد الجباص كان المتعلم الوحيد الذي نجح في الوصول إلى منصب الوزارة، مما يجعل منه حالة استثنائية شذت عن القاعدة المتحكمة في تعيين الوزراء وإسناد المناصب السامية التي كانت حكرا على بعض الفئات المنتمية لدائرة الأعيان والمتلكة للثروة والحظوة المخزنية. فقد كان، مثلا، «معظم أمناء المدن من أهل الغنى»[40].

ومن الطلبة النوابغ محمد بن الكعاب الشرقي، فقد تلقى تكوينا عسكريا لمدة 14 سنة، وراكم خبرة عسكرية مهمة في تقنية بطاريات المدافع وصناعة الخراطيش وتلفيفها، وعين في المكينة التي أنشأها الحسن الأول بفاس لصنع الأسلحة الخفيفة، «وكان تحت إدارة الأجانب المشرفين على المعمل، رغم طول خبرته العلمية والعملية. وترك مجموعة من التصاميم الخاصة بالآلات الصناعية لإنتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة»[41].

في رسالة مخزنية بدا محمد بن الكعاب شاهدا على صائر المتعلمين ببلجيكا؛ وفي ذلك قال المولى الحسن الأول: «...، وقف أمرنا الشريف بمحضر الطالب محمد بن الكعاب لكونه على بال من سائر الصائر وتفصيله...»[42].

وأثناء ترجمته للطاهر الأودي، يشير صاحب الدرر الفاخرة إلى أنه «تخرج بفرنسا واستخدم بدار السلاح بفاس ولم يزل به إلى أن تعطل العمل فيه عند انتهاء الدولة العزيزية»[43].

وأشار الأودي في الاستبصار قائلا: «وبباريز كنت أنا ترجمان السفير بركاش... عام 1299 موافق سنة 1880»[44] وهو نفس الدور/الترجمة، الذي أداه رفيقه في الرحلة محمد بن الكعاب.

تعطل، إذن، مشروع المخزن الإصلاحي الذي بدأه محمد الرابع، وطوره المولى الحسن الأول ولقي حتفه النهائي مع المولى عبد العزيز.

البعثات التعليمية وتعويض الأطر الأجنبية.

من جانب آخر ظنَّ المخزن في نجابة بعض المتعلمين، واستطاع، من خلالهم، الاستغناء عن خدمات بعض المهندسين الإنجليز عندما بدأت تتوتر العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وإنجلترا قبيل سنة 1886م؛ ونقرأ ذلك من رسالة وجهها دريموند هاي إلى الوزير محمد بن العربي النجار، ورد فيها:

«...، وبعد وصلنا كتابك تاريخ 22 جمدى الأولى، أخبرتنا فيه بأن السلطان... جعل على خطره الشريف بتعيين الزبير اسكيرج، بالوقوف على تمام أشغال الأبراج بطنجة في موضع سيلبه، وعبد الواحد الفاسي في موضع القائد مكيوا ليكون كبير الطبجية في طنجة»[45]. وهما متعلمان أوفدهما الحسن الأول إلى إنجلترا بمقتضى رسالة سلطانية عام 1291هـ – 1874م.

وردت الرسالة في سياق عتاب الدبلوماسية البريطانية على قرار المخزن الاستغناء عن خدمات المهندسين الإنجليزيين؛ واقترح هاي، من خلالها، التريث وحسن معاملتهما، كما أشار إلى ضرورة الإعلام المبكر بقرارات الاستغناء ودفع التعويضات المناسبة لهما.

من جهة أخرى يتضح من سياق الأحداث تتبع المولى الحسن الأول لأشغال إنجاز الأبراج بطنجة وتذمره من إخلال المهندس الإنجليزي سلفا بشروط العقد؛ فقد ورد في رسالة وجهها السلطان إلى القائد عبد الصادق الريفي ما يلي: «...، فقد

أخبر المتوجهون لاختبار الأبراج والآلة الجهادية بأنهم لما شرعوا في اختبار الخزائن والإقامة وجدوا بعضها في يد الحراب النصراني(سيلقا) وضاعت أمور منها. وأن محال المدافع كلها بيد الحراب المذكور يتصرف فيها كيف يشاء، وهو الحاكم على الطبجية جميعا، والأبراج مفرطة مملوءة بالأوبال والمدافع مشتتة والإقام منتشرة، والحراب لا يحضر إلا في الصباح والمساء...»[46] ولاشك أن العامل الدبلوماسي والتقني أسهما في الإطاحة بالمهندسين الإنجليزيين، وتعويضهما بالزبير اسكيرج وعبد الواحد الفاسي. ويبدو من شهادة أحمد بن محمد الكردودي درجة الإتقان التي تمتعا بها المهندسان المغربيان في إنجاز عملهما، حيث قال: «...، ولما تبين له أن أحد المهندسين من النصارى ارتكب التراخي في خدمته لتطول المدة، ويستفيد من ذلك ما لا يحصل لأحد بعده، وجه (السلطان الحسن الأول)... من عملة أرضنا، ومعلمي قطرنا، (يقصد بهما الزبير اسكيرج وعبد الواحد الفاسي) من أخلصوا لله في عملهم، وعلموا أن المولى جل علاه مثيبهم ومطلع عليهم، وقد يُظن بهم عدم المعرفة، فصاروا -بعد أن كانوا نكرةً- معرفةً، وأجادوا وأتقنوا، جاءوا بما لم يأت به من قبلهم وأحسنوا، حتى أن النصارى حيث شاهدوا عملهم استغربوا صدور ذلك منهم واستحسنوه وسلموه لهم، وقد فاق علمهم عمل النصارى بشدة الإتقان... كل ذلك في مدة يسيرة لو وُكل فيها الأمر فيها للمهندسين النصارى لما كمل في أضعافها، وضوعف الصائر عليها أضعافا مضاعفة»[47].

ما يهمنا، في مضمون الشهادة، قدرة المخزن على تعويض الخبراء الأجانب ببعض أفراد البعثات التعليمية؛ وهو ما يدل على كفاءة العديد من المتعلمين الذين درسوا ببريطانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وأهليتهم في تقلد المناصب العسكرية العليا. إلا أن ذلك لم يأخذ بعدا استراتيجيا محكما في استثمار الكفاءات الموجودة؛ بل ارتبط، في الحالة التي أوردتها، ببداية توتر العلاقة الدبلوماسية مع بريطانيا.

وترد في بعض المراسلات السلطانية إشارات تدل على محاولة استثمار الكفاءات الوطنية لتعويض مثيلتها الغربية، ومن ذلك رسالة وجهها الحسن الأول إلى محمد

بن العربي الطريس قال فيها: «...، فقد اقتضى نظرنا الشريف زيادة أربعة من مهرة المعلمين البنائين من أهل الصويرة وآسفي ومراكش وتطوان إلى المعلمين الفاسي والرباطي الذين بطنجة بقصد مباشرة بناء الأبراج معهما والاطلاع على كيفيتها وهيئتها وعمل بناء أساساتها وجدراتها، بحيث إذا أريد بناء الأبراج بغير طنجة، يوجدون عارفين بذلك متقنين لعمله مغنين فيه عن جلب الأجانب لمباشرته...»[48].

لكن هل كان بمقدور المخزن الحسني بناء استراتيجية محكمة ومدروسة لتوظيف المتعلمين بالخارج وتعويض الخبراء العسكريين الأجانب؟ هل تشبه هذه المحاولة ما قام به اليابان في أواخر عهد التوكوجاوا وبداية عهد الميجي عندما انفتح على الخبرة الأجنبية في مختلف ألوان المعرفة العلمية ونجح في الاستغناء عنها أثناء رجوع الوفود التعليمية من أوربا والولايات المتحدة، التي تقلد أفرادها المناصب الاستراتيجية في الإدارة اليابانية الحديثة؟

كان للمغرب نوابغه والنجباء من طلبته، مثلما كان لليابانيين كفاءاتهم الفردية والجماعية. لكن ما الذي جعل من محمد الكعاب والأودي والزبير اسكيرج والحسين الزعري والعيدوني أرقاما وكفاءات مبعثرة داخل نسق سياسي وإداري ومجتمعي يتسم بالفوضى والاضطراب؟ وأي مقدمات حولت الطلبة اليابانيين الموفدين نحو الخارج إلى أرقام أساسية في بناء قوة عالمية برزت ملامحها في فترة وجيزة، وأذهلت العالم بانتصاراتها المدوية على الصين وروسيا القيصرية؟

أبان بعض المتعلمين المغاربة عن نبوغ ومعرفة دقيقين بالعلوم الحديثة بأوربا، لكنهم "بقوا مجرد مساعدين للأطر الأوروبية العاملة بالمغرب"[49]. كما أن عددا من الخريجين لم تسند إليهم مسؤوليات محددة في نطاق تخصصهم، فكانوا يشتغلون، أحيانا، في قطاعات لا تمت بصلة بتعليمهم الأوروبي.

لا يمكن أن نعدم وجود كفاءات مغربية متميزة رافقت إرسال البعثات التعليمية إلى دول أوربا الغربية، لكن أفرادها " تركوا مهملين لا يلتفت إليهم ولا يسمع لقولهم ولا لأفكارهم"[50].

هي أزمة بنيوية، إذن، تكشف عن الثابت في المؤسسات السياسية والإدارية التي لم يكن في قدرتها التقاط عناصر النجاح وتوظيف آلية البعثات التعليمية لإنجاح مسيرة الإصلاح.

ومن بين العديد من المتعلمين العائدين إلى المغرب، لم يتقلد منهم منصب الوزارة سوى محمد الكباص. وكُلف باقي أفراد البعثات بأدوار هامشية وملحقة بالمؤسسات والخبراء العسكريين الأجانب.

وفي مقابل ذلك كانت المناصب السامية حكرا على أمثال المهدي المنبهي ومحمد بركاش ومحمد العربي الطريس ومحمد بن المدني بنيس وعلي المسفيوي وأولاد الجامعي أخوال السلطان وآل بنموسى الذين توارثوا الحجابة والوزارة وغيرهم، وهم نخب لم تمتلك ناصية العلم الإداري والسياسي والعسكري كما كان سائدا بالغرب الأوربي، وشكلوا أدوات البيرواقراطية المخزنية التي حجبت الأدوار المحتملة لأفراد البعثات التعليمية المغربية.

أشار الأعرج السليماني، في سياق حديث مجمل عن بعض المتعلمين، إلى فشل البعثات التعليمية بالخارج، قائلا: « ...وكل منهم حصل على إجازة في التفوق فيما اختص به...، على أن الحكومة لم تتمكن من السير على ذلك السبيل المفيد لما جبل عليه القابضون على زمام الأعمال من الجمود على بقاء ما كان على ما هو عليه...والحديث شجون إذا فتحت المدارس أغلقت السجون »[51].

وضعنا السليماني أمام ثنائية/معادلة متناقضة: فإذا دلت البعثات التعليمية، من جهة، على عنصر من عناصر الحركة وعلى آلية من آليات التغيير، فإن الإدارة القابضة على زمام الأمور والمنظمة لهذه البعثات بقيت على ما كانت عليه من الجمود. ولا شك أن ذلك في نظره مسؤول عن فشلها.

وبإشارة نقدية لمنظومة التعليم اعتبر إغلاق المدارس دليلا على جمود الإدارة وعلى عدم قدرتها على الدفع بمفردات المجتمع إلى الانخراط الفاعل في مسيرة التنمية المنشودة.

توخت المؤسسة السلطانية الحفاظ على نفس البنية الإدارية والإبقاء على رموزها البيروقراطية. وكانت تهدف من موضوع البعثات تجديد مقاساتها بشكل يمكنها من مواجهة سرعة عمليات التحديث الغربي الذي برزت تحدياته منذ معركة إيسلي.

من جانب آخر تعرضت البعثات التعليمية المغربية لمجموعة من الانتقادات العنيفة من قبل بعض مكونات المخزن الحسني -والتي كانت ترى في هذا العمل التحديثي خطرا على مواقعها ومراكز نفوذها؛ ومن هذا الجانب فالطاهر بن الحاج الأوديي- أحد أعضاء هذه البعثات- كتب كتابا سماه «الاستبصار في عجائب الأمصار والجبال والأنهار...» ذكر فيه «أنه نصح بالاستعداد لمواجهة التدخل الأجنبي، ولكن الوزراء والكتاب رموه بالإلحاد، و في سنة 1888م يتحدث الأوديي، بلغة ركيكة، قائلا: "وفي عام 1305هـ بفاس رءيت بعين القلب وزراء وكتاب وأمناء دائرة النفاق، كفار بالرزة والشاشية، حين قالوا لأمير المسلمين: كنا ببر النصارى سنين جئنا منها حمور متنصرين، وتصدروا لنا الأعادي الموروتين إلى هد الساعة..."[52].

يثير النص الذي بين أيدينا، رغم ركاكته، قيمة تاريخية متميزة، ذلك بأن الأودي انفرد من دون المتعلمين الآخرين بنقد عنيف لبعض رموز الإدارة المخزنية، وأبدى مجموعة من الملاحظات ودوَّن بعض المعلومات حول فساد الجهاز المخزني، كما أنه حصر عناصر المعارضة في الكتاب والوزراء والأمناء، وأن هؤلاء كان لهم كلام مسموع وإشارات مقبولة لدى السلطان.

وبالكشف عن خفايا النص -الخطاب- لم يوجه الأوديي نقده لفئة العلماء، مما ينبئ أن الفئة المعارضة من الدوائر المخزنية وظفت اللافتات الدينية لتبرير استمرار المصالح والمقاصد الدنيوية.

وترتبط القضية بالمصالح والمغارم التي كانت تجنيها البيروقراطية المخزنية من مستنقع الأزمة ومعارضتها أي توجه إصلاحي يهدد كينونتها وينال من رأسمالها الرمزي والمادي. ومن هذه الزاوية أثار موضوع البعثات سخط تيار المحافظين، الذين اعتبروها مروقا عن الدين، واتصالا ببلاد الكفر.

من جانب آخر، تحفظت بعض النخب الفكرية من نتائج هذه البعثات، بالنظر لبعض نتائجها المتمثلة فيما ذكره الناصري، قائلا: «من أهم ما يعتنى به في شأنهم أن لا يتخلقوا بأخلاق العجم ولا يسلكوا سبيلهم في اصطلاحاتهم ومحاوراتهم وكلامهم وسلامهم، وغير ذلك، فقد عمت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم، فيريدون تعلم الحرب ليحفظوا الدين فيضيعون الدين في نفس ذلك التعلم، فلا تمضي على أولاد المسلمين سنتان أو ثلاث حتى يصيروا عجما متخلقين بأخلاقهم متأدبين بآدابهم، حتى أنهم تركوا السلام المشروع في القرآن وبدلوه بوضع اليد خلف الأذن»[53].

تشوف المخزن، من خلال إيفاد البعثات التعليمية إلى دول العالم الغربي، إلى إنقاذ امتيازاته، وتجديد مؤسساته؛ ولم تكن بنيته الداخلية، ونمط العلاقة التي رسمها لنفسه ولرموزه مع أطياف المجتمع المختلفة منذ زمن بعيد، تسمحان له بتحقيق نتائج تناسب التحديات الخارجية المتزايدة.

نقرأ في رسالة الحسن الأول إلى محمد الطريس ما يلي: «خديمنا الأرضى محمد بن العربي الطريس...، وبعد فقد وصل كتابك في شأن خدمتك هناك وصار جميع ما ذكرت بالبال. فها نحن عينا لإعانتك والأخذ بيدك خديمنا الطالب عبد السلام أحرضان وكتابنا له بذلك يصلك طيه، فادفعه له، والسلام»[54].

وردت الرسالة السلطانية غامضة ولم توضح ما ذكره محمد الطريس وصار ببال المولى الحسن الأول، لكننا نطمئن إلى أن الطالب أحرضان لم يكلف بمسؤولية استراتيجية في الإدارة المخزنية التي كانت حكرا على فئة تدرك تفاصيل الإدارة البيروقراطية وتشعباتها.

لم تحقق هذه البعثات، إذن، أهدافها. وهي نتيجة تم الإجماع على قطعيتها في أغلب المصادر والمراجع التي تناولت الموضوع بالدراسة والتحليل؛ ومنها ما ذكره ابن زيدان بطريقة محتشمة وسريعة، قائلا عن الفئات المتعلمة الوافدة إلى المغرب: «... ولما زاولوا دروسهم وملئوا بكل علم نافع حقائبهم يمموا بلادهم ليبثوا فيها ما ينفع

مستقبلهم فلم يعدموا معاكسا وقف في سبيلهم وحرم البلاد والعباد ما كان يرجى من فوائد معرفهم... »[55] لم يذكر ابن زيدان ومن قبله الأعرج السليماني[56] هؤلاء الذين حرموا البلاد والعباد أسباب الترقي والتمدن، فغابت عنا معلومات كانت ستمكننا من تحديد دقيق لعناصر الخلل الإداري المسؤول عن أحد جوانب الأزمة المغربية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. أما في العلائق السياسية فيظهر ابن زيدان أكثر تكتما وحذرا من توجيه اللوم إلى الذهنيات المعرقلة لعملية الإصلاح، فلندعه يتحدث، مقارنا مخزن الحسن الأول مع دولة اليابان في عهد الميجي، التي كانت، في نظره، «أحط من المغاربة بكثير، بل لا نسبة إذذاك بين المغرب واليابان في الانحطاط. في ذلك الوقت اتجه ملك اليابان هذا الاتجاه نفسه، فوجه المتعلمين من اليابانيين، وأعانته بطانته الحسنة الطيبة القصد، فحصلت النتيجة المنتظرة»[57].

لا نعلم المعايير التي اعتمدها ابن زيدان في حكمه الذي قال فيه إن اليابان كان أحط من المغرب، وهل كانت لديه معلومات كافية للخروج بهذا الحكم الذي يستدعي التريث والتحقيق؟ والأكيد أن ابن زيدان وغيره كانت لهم معلومات قليلة حول حقيقة المقدمات التي أنتجت التفوق الياباني خلال عهد الميجي والفترات التي تلته.

ومن جانبه أورد محمد السايح، رحمه الله، انطباعه الذاتي حول تجربة البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول قائلا: «ولما كانت أيام المولى الحسن الأول الذي درس الحالة من كثب واهتم بنشر المدنية الجديدة، أراد أن يرجع بالمغرب إلى مركزه ويرفعه على مستواه، فقام بوسائل مهمة، منها بعثه البعثات العلمية إلى الأقطار الأوربية وكان ذلك في العهد الذي أوفدت فيه اليابان البعثات أيضا، ولكن لم يتم له في ذلك أمر ولم تعقبه نتيجة مفيدة، لأن الشعب المغربي إذاك لم يكن يدرك ما كان يدركه سلطانه، وما كان الناس يبعثون أولادهم لأوربا عن رغبة، ولما مات المولى الحسن وخلفه ابنه المولى عبد العزيز على العرش قام بتدبير الملك حاجبه باحمد وذلك لصغر الملك، وهذا الحاجب سياسي محنك ولكن في خصوص سياسة داخلية

البلاد التي درسها من قديم على عتبة القصر، أما المدنية الجديدة والتطور العصري فلم يكن نضج في فكره، ولما ورد عليه بعض المتعلمين من تلك البعثات وقد أتموا دراستهم، لم يجعل لهم قيمة ولم يقدر لهم قدرا وألقاهم في زوايا الإهمال فضاعت معارفهم وخسرت صفقة المغرب، وقد عرفت كثيرا منهم يستعين على معاشه ببعض الحرف ولله الأمر من قبل ومن بعد»[58].

تفصح الشهادة عن إهمال الحاجب المستبد لأفراد البعثات التعليمية الذين يمموا وجوههم نحو بلدهم المغرب للانخراط في مشروع تحديثي فاشل، ولم يكن منتظرا من باحماد القيام بذلك لأن اهتمامه الأساس انصرف إلى ضبط مفردات الداخل ودعم البيروقراطية المخزنية من أتباعه وحاشيته ومناصريه. وسيطر هاجس ضبط الأمن على مشروعه، واستعان في تحقيق ذلك بعصبيته من الجيش المخزني بمكناس؛ ولم يكن بناء عليه، في حاجة إلى كفاءات اسكيرج ومحمد النجار ومحمد بن الكعاب الشرقي والعيدوني والحسين الزعري وغيرهم، بسبب عدم نضج فكره وقلة إداركه لأهمية المدنية الجديدة والتطور العصري كما قال محمد السايح.

لم تكن بنية المخزن الجديد قادرة على إدماج الكفاءات المغربية، التي استعانت على معاشها ببعض الحرف، كما يشهد على ذلك محمد النجار، أحد أفراد البعثات التعليمية الذي اشتغل آخر أيامه في الفلاحة وقال «النصارى كيعلمو العقل والمسلمين كيحفيوه».

وموازاة مع ذلك نقرأ في مراسلة مخزنية نفورَ بعض الآباء من إيفاد أبنائهم للدراسة بالخارج ، فقد خاطب محمد بركاش النائب الحاج محمد العربي الطريس قائلا: «...، وهؤلاء المتعلمون هم غاية ما تيسر في الوقت مع طول المدة وكل من توفرت فيه الشروط لا يسمح به أهله ولا يخفاك كثرة الشفعاء الذين يتعين قبول شفاعتهم...»[59].

وتتضح المسألة من خلال بعض الأسماء الواردة طرة الرسالة ولم نجدها ضمن الوفد الذي سافر إلى إيطاليا سنة 1888م مما يدل على حذفها إما بسبب طلب الشفاعة أو بفعل عدم نجابة بعض المتعلمين.

وبالموازاة مع العوامل المالية والمجتمعية والعسكرية... ودورها في إفشال هذا العمل التحديثي، فإن التنافس الأوروبي، وتداعياته على الدولة والمجتمع المغربيين كان لهما دور بارز في تعميق عناصر الخلل في هذه المجالات؛ «فقد كانت فرنسا تفضل مغربا ضعيفا عوض أمة مسلمة قوية... وطبقت إسبانيا نفس السياسة... مستهدفة تفقير المغرب، وتفكيك بنياته تمهيدا لإخضاعه بيسر»[60].

توقف إرسال البعثات التعليمية مع وفاة الحسن الأول واكتفى العهد العزيزي بتحرير المراسلات المتعلقة بالوفود التي أنهت مهمتها بالخارج ومن ذلك رسالة وجهها المولى عبد العزيز إلى الحاج محمد بن العربي الطريس، ورد فيها: «...، وبعد وصل جوابك بتوجيهك الطالب المكي الرباطي الذي كان توجه من جملة الطلبة الموجهين لإيطاليا في الرفقة الثانية بقصد التعليم وفق ما أمرناك وصار بالبال فقد وصل، ونظم في سلك طلبة الألسن والسلام»[61].

ويبدو أن الرسالة جاءت جوابا على رسالة سلطانية أمر فيها المولى عبد العزيز بتوجيه الطالب المذكور وورد فيها: « ...، وبعد فنأمرك أن توجه لحضرتنا الشريفة المكي ابن مبارك الرباطي أحد الطلبة الذين كانوا توجهوا في الرفقة الثانية لإيطاليا بقصد التعليم، والسلام»[62].

خاتمـــــة

بالرغم مما قلناه عن تجربة إرسال البعثات التعليمية المغربية إلى الخارج وما اعتبرناه خللا في المقدمات التي أحاطت بها وأطرتها فنحن أمام جهد مخزني غير مسبوق في الانفتاح على مظاهر التحديث الغربي، ولا شك أن المخزن لم يكن يروم التسلية من عملية كلفته العشرات من المراسلات ومبالغ مالية مهمة.

نعتقد أن المخزن أسس، بذلك، لبداية تجربة تحديثية تميزت عن تجربة محمد علي في قضايا كثيرة ومن أبرزها توجيه المتعلمين المغاربة نحو بلدان أوربية عديدة في الوقت الذي اقتصرت فيه البعثات المصرية على التكوين بفرنسا.

أصاب المخزن باعتماد البعثات التعليمية وسيلةً لتدارك خلل الإدارة المغربية وتزايد النفوذ الأجنبي. ويبدو، من خلال الوثائق التي أوردناها، الحرص الشديد الذي أبداه المولى الحسن الأول تجاه مسألة التحديث؛ ونقرأ من ثناياها الرغبة الجامحة التي أبدتها الإرادة السلطانية تجاه المتعلمين وتتبع مسيرة تعليمهم وآليات إدماجهم.

لكن هل تكفي الرغبة والحرص لإنجاح مشروع ضخم يتطلب مقدمات سليمة ومناسبة؟ وهل ساعدت بنية الدولة المغربية وآليات اشتغالها على إنجاح المشروع التحديثي الذي انتهى إلى الفشل في نهاية القرن التاسع عشر؟

لم تفشل البعثات التعليمية المغربية لذاتها، بل بالمحيط السياسي والمجتمعي والتعليمي... الذي أطرها وتفاعل معها.

وبالرغم من الجهود التي بذلها الحسن الأول لإصلاح الاختلالات وخاصة في موضوع إرسال البعثات التعليمية إلى الخارج، استمرت ودامت وتناسلت الأزمة؛ وجاء التحديث معكوسا ومشوها وتجلى أثر ذلك في مذكرات ومراسلات المتعلمين المغاربة الذين أوردنا بعض أقوالهم وشهاداتهم في هذا البحث؛ ونقرأ من ثناياها سمة القلق النفسي(محمد بن الكعاب الشركي) والنقد السياسي والثقافي (محمد النجار والطاهر الأوديي) وعدم الانضباط الأخلاقي(بعثة مونبلييه) والارتماء في أحضان الحمايات القنصلية...

وهو اضطراب يدل على غياب قيمة التناغم بين الإصلاح ومقدماته السياسية والإدارية والثقافية والمجتمعية.

يعد إرسال البعثات التعليمية المغربية، زمن الحسن الأول، خطوة تربوية وتعليمية غير مسبوقة في العالم العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ فقد دلت على جرأة في الانفتاح على دائرة التعليم الغربي، بالرغم من عدم نضج المقدمات السياسية والإدارية والمجتمعية والذهنية.

تلقى المتعلمون المغاربة تكوينهم بدول غربية متعددة (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وألمانيا وإسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية). في وقت اقتصرت فيه البعثات المصرية، زمن محمد علي، على فرنسا.

وبالرغم من الصعوبات المالية وإكراهات الضغوط الخارجية نجح المخزن الحسني في إرسال المئات من المغاربة إلى الخارج وحقق بعضهم نتائج متميزة علما ولغة وإنجازا، تضاهي أحيانا ما حققه المتعلمون اليابانيون بأوربا وأمريكا.

قد نفشل أحيانا في إنجاز إصلاحات بنيوية وتحقيق التنمية المنشودة، لكن المحاولة تبقى مع ذلك نقطة مضيئة في تاريخنا وذاكرتنا.

تظل صور الزبير سكيرج ومحمد بن الكعاب والطاهر الأوديي ومحمد النجار والحسين الزعري وأحمد العيدوني شاهدة على إمكانية نجاحنا في معركة التحدي الحضاري إن توفرت لأفراد مجتمعنا، في المغرب كما في العالم العربي والإسلامي، المقدمات السليمة ذات النجاعة والفعالية التنموية.

* * *

هوامش :

1- محمد الصفار ،رحلة الصفار إلى فرنسا ،(1845-1846) دراسة-تحقيق سوزان ميلار، تعريب ومشاركة في التحقيق خالد بن الصغير ،منشورات كلية الآداب ،الرباط ،مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ،الطبعة الأولى ،1995 ،ص.227

2- نفسه ،ص ص.185 :

3- أبو العلاء إدريس ،الابتسام عن دولة ابن هشام أو ديوان العبر في أخبار أهل الثالث عشر، تحقيق نور الدين بيطاري ،أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب ،جامعة محمد الأول2006 ،م، ص.164-163

4- محمد الصفار ،مصدر سابق ،...ص.185

5 -عبد الرحمن بن زيدان ،العز والصولة في معالم نظم الدولة ، ،العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية ،الرباط1382 ،هـ1962/م ،الجزء الثاني ،مصدر سابق ،...ص.148 :

6- محمد المنوني ،مظاهر يقظة المغرب الحديث ،الجزء الأول ،مرجع سابق ،...ص ،ص150-149 :

7- رسالة السلطان محمد بن عبد الرحمن إلى الحاج محمد بن سعيد السلاوي ،بتاريخ 10 محرم 1284هـ 14 / ماي1867 م ،م.و.م ،الترتيب العام

8-محمد المنوني ،مظاهر يقظة المغرب الحديث ،الجزءان الأول والثاني ،دار الغرب الإسلامي، بيروت ،الطبعة الثانية ،1985 ،ص.157-156

9- نفسه ،ص.ص.158-157

10- محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي ،الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية ،دراسة وتحقيق :إدريس بوهليلية ،منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ،المملكة المغربية ،الطبعة الأولى ،2005 الجزء الثاني ،ص.92

11- بهيجة سيمو ،العلاقات المغربية الإيطالية1912-1869) م (منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري ،مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ،طبعة أولى2003 م ص.303 :

12-محمد الصفار ،رحلة الصفار ،...مصدر سابق ،...ص.185 :

13-وردت في مجموعة الوثائق ،العدد الثاني1396 ،هـ1976/م ،ص ،421-420:ومما جاء فيها:
« ...وبعد فإن طالبا من أهل الشاون وجهه سيدنا ..لمصر بقصد تعلم كتابة المطبعة... »

14- محمد المنوني ،مظاهر يقظة المغرب الحديث ،الجزء الأول ،مرجع سابق ،...ص166

15-عبد الرحمن بن زيدان ،العز والصولة في معالم نظم الدولة ،الجزء الثاني ،المطبعة الملكية، الرباط1382 ،هـ1962/م ،ص.160

16-مجموعة الوثائق ،العدد الثالث ،المكتبة الملكية ،الرباط ،1976-1396 ،ص.442

17-أحمد بن خالد الناصري ،الاستقصا ..الجزء التاسع ،مصدر سابق ،...ص.159-158

18- Jacques Caillé,les Marocains à l'école du Genie de Monpellier (1885-1888), Hesperis Tamuda,TomeXLI, Année 1954.Librairie Larose Paris. page :131-145, page :131.

19 -محمد الطاهر بن عبد الرحمن الفاسي ،الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية سنة 1276هـ1860/م ،حققه وعلق عليه محمد الفاسي ،مطبعة جامعة محمد الخامس ،فاس 1387هـ1967/م ،تقديم محمد الفاسي ،ص :ث

20-أورده محمد الصغيرالخلوفي ،انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره ،مذكرة الفقيه محمد بن الحسن الحجوي-1956-1874-مطبعة المعارف الجديدة ،الرباط ،1994،ص.36

21 -عبد الرحمان بن زيدان ،إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس ،الجزء ،2 المطبعة الوطنية، ط ،1990 ،2:ص.465

22 -أحمد بن خالد الناصري ،زهر الأفنان ،ج 2 :ص ،304 :ورد عند الأستاذ محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث ،الجزء الأول ،مرجع سابق ،...ص.386

23-عبد الرحمن بن زيدان ،إتحاف أعلام الناس،...الجزء الثاني ،مصدر سابق ،..ص.495 :

*محمد الصغير ،لم نعثر على إسمه ضمن أفراد البعثات التعليمية التي أوفدها الحسن الأول إلى أوربا.

**المختار الرغاي ،أحد أفراد البعثة الحسنية الأولى التي توجهت إلى إيطاليا.

***محمد بن الكعاب ،الشرقي ،أحد أفراد البعثة التي توجهت نحو فرنسا وقضى بها مدة طويلة وتكلف بالترجمة لبعض الوفد التعليمية التي أرسلها الحسن الأول ،وترك مجموعة من التصاميم وترك" مجموعة من التصاميم الخاصة بالآلات الصناعية لإنتاج الأسلحة الثقيلة والخفيفة" بتعبير إبراهيم حركات ،الحركات ..مرجع سابق ،ص.38

****إدريس الفاسي ،ربما يقصد به إدريس بن عبد الوهاب بو عزة المزداد بفاس ،وكان أحد الثلاثة الذين توجهوا إلى إنجلترا ،إضافة إلى اسكيرج والجباص.

*****الطاهر بن الحاج الأودي ،أحد أفراد البعثة التي اتجهت نحو فرنسا ،كان سنه آنئذ 13 عاما ، تكلف بدوره بالترجمة لبعض الوفود التعليمية التي أرسلها الحسن الأول إلى بلجيكا.

24-عبد الرحمان ابن زيدان ،إتحاف أعلام الناس ،الجزء الثاني ،مرجع سابق ،...ص.498

25 -نفسه ،ص.468

26-نفسه ،ص.468

27-عبد العزيز بنعبد الله ،الجيش المغربي عبر العصور ،المطبعة والمكتبة العالمية ،الرباط، 1406هـ1986/م ،ص.144

28-رسالة الحسن الأول إلى الحاج محمد بن العربي الطريس ،بتاريخ 5 شعبان1309 هـ 5/مارس 1892م ،خ.ع.ت ،محفظة.10/114

29 -محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي ،الحلل البهية ،الجزء الثاني ،مصدر سابق ،...ص: 199.

30-نفسه ،ص.144

31 -أوردها جمال الحيمر ،البعثات التعليمية في عهد السلطان مولاي الحسن ،بحث بنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث والمعاصر ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس-1407 ، 1408هـ/1988-1987م ،ضمن ملاحق بحثه ،ص.225

32- Abdallah Laroui,op.Cit, page : 287.

33 -محمد البكراوي" ،الطلبة المغاربة بالجامعة الفرنسية خلال الفترة ما بين الحربين،"1939-1927 مجلة أمل ،عدد مزدوج ،28/29 ص105 :

34-حيمر عبد السلام ،المغرب والحداثة ،مجلة أبحاث ،عدد ،26 ص.49

35 -عبد الغني اسكيرج ،سكيرج عبد الغني ،مذكرة الزبير سكيرج :(1932-1850) وثيقة جديدة حول البعثات الطلابية إلى أوربا في عهد المولى الحسن ،مجلة دار النيابة ،السنة الثانية، العدد الثامن ،1985 ،ص.29 :

36-نفسه ،ص.29 :

37-رسالة من المهندس الزبير بن عبد الوهاب اسكيرج إلى الأمين الحاج محمد الزبدي ،بتاريخ11 ربيع الثاني1298 هـ 12/مارس1881 م ،م.و.م ،سجل ،35909 الترتيب العام .وفيها ترجمة لإشارات المهندس الإنجليزي ،مع أصلها الإنجليزي.

38 -نفسها.

39- Léonard Karow,Neuf années au service du Maroc(1900-1908),Traduction et notes :Monique Miége et Jean-Louis Miége, Editions Laporte. Imprimerie Almaarif Aljadida, Rabat, 1998, page 161.

40-نعيمة هراج التوزاني ،الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن الأول ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ،مطبعة فضالة1979 ،م ،الأمناء بالمغرب في عهد السلطان مولاي الحسن الأول ،ص.61

41 -إبراهيم حركات ،حركات إبراهيم ،التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية ،مطبعة الدار البيضاء ،الدار البيضاء ،الطبعة الأولى1405هـ1986-م.ص.38

42-رسالة الحسن الأول السالفة إلى الحاج محمد الغسال بتاريخ 4 ذي القعدة1304 هـ 25/يوليوز 1887م ،خ.ع.ت ،مح: 110/5.

43ـ الرحمن ابن عبد زيدان ،الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة ،المطبعة الاقتصادية بالرباط ،1938م-1356ه ،ص105

44ـالاستبصار في عجائب الأمصار والجبال والأنهار والبحور ومنافيس النار في الأراضين خلقها الله الواحيد القهار للحيوانات والاطيار وللجن والإنس قرار مومن للجنة وكافر للنار ونزول البلاء على من طغى وتجبر وللعادل رحمة الله الكريم الغفار ،أورد جزءاً من مخطوطه ،جمال حيمر،/ البعثات التعليمية في عهد الحسن الأول ،مرجع سابق ،ص.224

أوردت النص على أخطائه اللغوية ،وهي القاعدة العامة التي كتب بها الأودي مخطوطه؛ واختار له هذا العنوان الطويل الذي يدل على التاثر بمشاهداته لعجائب دار الكفر وعلى نقد مستتر لما سماه بالطغيان والتجبر الإداريين.

45-رسالة دريموند هاي إلى محمد بن العربي بن المختار ،بتاريخ 6 مايه عام 21) 1885 رجب (1302وثيقة F.O 174/144 أوردها خالد بن الصغير ،المغرب في الأرشيف البريطاني، مرجع سابق ،...ص.523-522

46 -رسالة السلطان الحسن الأول إلى القائد عبد الصادق الريفي ،بتاريخ 28 محرم1301 م/28 نونبر1883 م ،الكناش ،348 خ.ح ،أوردها :خالد بن الصغير ،المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر ،1886-1856 منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ،مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ،الطبعة الثانية ،1997 ،ص.457

47-أحمد بن محمد الكردودي ،التحفة السنية بالمملكة الإصبنيولية ،تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية1383 هـ 1963/م ،ص.28

48-رسالة وجهها السلطان الحسن الأول إلى محمد الطريس13 شوال1302 هـ 26/يوليوز1885 م، خ.ع.ت ،مح.3/140:

49 -الحيمر عبد السلام ،مقال سابق ،...ص.49 :

50 -محمد حجي ،موسوعة أعلام المغرب ،مرجع سابق ،الجزء الثامن ،دار الغرب الإسلامي بيروت، 1996م -1417هـ

51-محمد بن محمد بن الأعرج السليماني السليماني1344-1285)هـ1925-1868/م (زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ ،إعداد عبد الرزاق بنواحي ،رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ المعاصر ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ،السنة1417 هـ1997/م ،ص.ص386-385

52 -الطاهر الأودي ،الاستبصار ،أورده جمال حيمر ،البعثات التعليمية ،...مرجع سابق ،...ص: 225.

53-أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،تحقيق وتعليق ،جعفر الناصري ومحمد الناصري ،دار الكتاب ،الدار البيضاء ،1956 ،الجزءان الثامن ،ص.106

54-رسالة الحسن الأول إلى محمد بن العربي الطريس ،بتاريخ فاتح محرم1303 هـ10/أكتوبر 1885م ،خ.ع.ت ،محفظة.4/1

55-عبد الرحمن بن زيدان ،إتحاف أعلام الناس ،...مصدر سابق ،...ص.465

56 -محمد بن محمد بن الأعرج السليماني ،زبدة التاريخ ،...مصدر سابق ،...ص.392

57 -عبد الرحمن بن زيدان ،العلائق السياسية للدولة العلوية .تحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية ،الرباط ،1999 ص.149

58 -العلامة محمد السايح ،المولى إسماعيل العلوي ،مجلة دعوة الحق ،العدد الثاني ،السنة الثالثة 29 ،ربيع الثاني1379 هـ/فاتح نونبر1957 م ،من ص 27 :إلى ،31 ص.31

59-رسالة محمد بركاش السالفة إلى النائب الحاج محمد الطريس السالفة بتاريخ 11 شوال 1303هـ 13 /يوليوز1886 م ،خ.ع.ت ،محفظة.99/71

60- Jean Brignon et autres, Histoire du Maroc,Hatier, librairie nationale, Casablanca , p :320.

61-رسالة السلطان عبد العزيز إلى الحاج محمد بن العربي الطريس بتاريخ 13 رمضان1313 هـ/ 27فبراير1896 م ،خ.ع.ت ،محفظة.14/145

62-رسالة المولى عبد العزيز إلى النائب محمد الطريس بتاريخ 2 جمادى الثانية1313 هـ20 / نونبر1895 م ،خ.ع.ت ،محفظة.14/102

* * *

الجهود الإصلاحية للوطنيين في شمال المغرب خلال ثلاثينيات القرن العشرين

محمد العبوتي *

يكتسي مفهوم الإصلاح دلالة معرفية وحمولة تفسيرية قد لا تضاهيه مفاهيم أخرى، فلا مغالاة إذا تم ربطها ببداية خلق الإنسان الذي ظل يسعى دائما إلى التغيير نحو الأفضل. كما ارتبط مفهوم الإصلاح بزخم من المعاني اللغوية متقاربة يتداولها الناس في أحاديثهم وبحوثهم كاليقظة والنهضة والتغيير والتقدم والتطور والرقي والتجديد والتحديث والحداثة...[1] حتى أصبحت مترادفات للإصلاح بمعناه الشمولي. في هذا الإطار تدخل الجهود الاصلاحية في شمال المغرب خلال ثلاثينيات القرن 20 التي ارتبطت بالكفاح الوطني من أجل تغيير واقع الهيمنة الاستعمارية عبر بلورة مجموعة من الأفكار ساهمت في إرساء فكر نضالي إصلاحي تحت تأثير عوامل خارجية وداخلية.

1- منابع الفكر الإصلاحي في شمال المغرب.

قبل الحديث عن أهم محطات الفكر الإصلاحي في المنطقة الخليفية، يجب الإشارة إلى روافد هذا الفكر منذ أوائل القرن 20 وتكون نخبة مثقفة استطاعت أن تستثمر ما اكتسبته من الأفكار في إصلاح الواقع وإحداث مجموعة من التغييرات ساهمت في رسم خريطة الشمال في كفاحه ضد الأجنبي، روافد داخلية، عبر إرسال بعثات طلابية إلى القرويين وانتشار المدارس العتيقة والعصرية، وروافد خارجية من

*- باحث، الرباط

خلال ربط المنطقة الشمالية بالمشرق العربي، إرسال بعثات طلابية، استقدام مكونين مشارقة نحو المنطقة، زيارات لزعماء مشارقة للمنطقة، كلها روافد مكنت نخبة الشمال من الاطلاع والتشبع بفكر الحركات الوطنية في البلاد العربية، دون نسيان الروافد الأوربية العصرية التي كانت وراء بلورة أفكار حداثية انتبهت النخبة الوطنية إلى أهميتها محاولة إخراج المنطقة من حالة التخلف التي كانت عليها[2].

تتجلى الجهود الأولى في الدور الكبير والسباق الذي قام به الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي في طرح مجموعة من الأفكار الإصلاحية، رغم أن الظروف الوقتية لم تكن تسمح بالتعبير عن الآراء بكل حرية أمام توغل الاستعمارين الفرنسي والاسباني. لقد تمكن من خلال تعايشه مع نخبة من علماء القرويين أثناء دراسته، والاحتكاك بالأوربيين خلال عمله في مدينة مليلية وطبيعة مهنته كقاضي شرعي، من تكوين شخصية مستقلة زاوجت في عملها بين تحرير الوطن و«ناء مشروع الدولة التأسيسية وجيشها النظامي ومؤسساتها الاجتماعية»[3]. انتقد اتفاقيات الحماية والتحكم الفرنسي خاصة في دواليب الدولة المغربية، واعيا بالمشاكل الناجمة عن الاحتلال، يقول في هذا الصدد: «إن الأمة المغربية ما فتئت بعيدة كل البعد عن المشاركة في إدارة شؤون البلاد، رغما عن المشاكل الكبيرة التي تجتازها بلادنا، ولم يفكر أحد من المسؤولين في إنشاء مجلس شرعي يمثل الأمة تمثيلا صحيحا نزيها، هو المتحكم..»[4] تحدث عن وجوب مشاركة المغاربة في رسم مستقبل بلادهم من خلال هذا المجلس، الذي هو بمثابة برلمان في وقتنا الحالي، يتحمل فيه كل واحد المسئولية والقيام بالواجب ومعالجة القضايا، ويضيف في هذا الصدد : «إنشاء مجلس للأمة لحل المشاكل المتراكمة المستعجلة، والقضاء على الفساد والفوضى التي حلت بالبلاد، والتي كانت السبب فيما مضى لاحتلال الأجنبي الذي دام على البلاد خمسين سنة..»[5] كما وجه انتقاده للعلماء المتقاعسين عن خدمة بلادهم وإصلاح الحالة المتردية التي عاشها المغرب خلال هذه الفترة. لقد كانت مواقفه الإصلاحية

والمعادية للاستعمار وراء دعوات تلقاها لحضور المؤتمر الذي تقرر في القاهرة خلال 1925 حول «مشكل الخلافة الإسلامية» والذي أجل إلى سنة 1926 لينعقد في مكة، غير أن سلطات الحماية الاسبانية والفرنسية عرقلت حضوره بشتى الوسائل، دبلوماسيا وعسكريا، مما جعل الخطابي يرسل برقية إلى منظمي المؤتمر عين فيها من ينوب عنه[6]. إن مشروعه السياسي الإصلاحي الذي ما فتئ أن جهر به قبل الحرب الريفية أو خلالها هو الذي ألهم نخبة من العلماء المغاربة في إعادة النظر في التعامل مع الاستعمار وتكون أفكارا جديدة ساهمت في بزوغ فجر الحركة الوطنية مع بداية سنوات الثلاثينيات من القرن العشرين.

1-1- البعثات الطلابية إلى فاس

كان جامع القرويين في بداية القرن يعج بعلماء في مختلف التخصصات العلمية، والتوجه إليها كان هو الشغل الشاغل لكل من يتوخى العلم والمعرفة، كانت معظم نخبة تطوان تتبع هذه السنة الحميدة رغم الظروف الصعبة لبعض العائلات التطوانية ورغم الإجراءات الصارمة لسلطات الحماية الفرنسية لمنح الترخيص لطلبة تطوان للتوجه نحو فاس للدراسة أو للشباب الوطني لحضور المؤتمرات العلمية في فاس أو مدن أخرى تحت نفوذ الحماية الفرنسية، يقول محمد داود عن مكانة فاس في هذه الفترة: »في فاس العلم والعمل، وفيها الأدب والشعر، وفيها الصنائع والفنون، وفيها الثروة الوطنية والثورة النفسية، وفيها الخير والصلاح، وفيها الشر والفساد، وفيها من المغريات ما هو أشد تأثيرا من الماء والخضرة والوجوه الحسان»[7] تيقنت نخبة الشمال بهذه المكانة العلمية لجامع القرويين لاكتساب العلم الذي هو سبيل الإصلاح يضيف محمد داود في هذا الباب قائلا: » والبلاد وخدمتها؟ ومستقبل الأمة وتحسين حالها؟ والسياسة والإدارة؟ »[8] لقد أدرك الطلبة التطوانيون والمناطق الأخرى القاصدين فاس عددا من كبار العلماء المدرسين والمؤلفين المشهود لهم بأفكارهم الإصلاحية منهم أبي شعيب الدكالي وابن الخياط ومحمد الحجوي

والمهدي الوزاني وعبد الله الفاسي وأحمد بن المواز وأحمد سكيرج...، علماء أثروا في هذه النخبة التي قادت مجموعة من الإصلاحات عرفها شمال المغرب مع بداية سنوات الثلاثينيات. أخذ ميدان التعليم الأولوية من خلال إصلاح المناهج والمنظومة المتخلفة التي كانت سائدة وإحداث مدارس جديدة لمسايرة الواقع المتغير آنذاك كإحداث المدرسة الأهلية في 1925 «كبازغة عهد جديد في مجال التعليم، حيث كانت ثورة فيما يتعلق بالأساليب الدراسية من جهة وفيما يتعلق بالبرامج الدراسية من جهة أخرى»[9].

1-2- جهود النخبة المحلية

كما انفردت نخبة شمال المغرب خلال هذه الفترة بتأسيس جمعيات مدنية لعبت دورا كبيرا في طرح مجموعة من المطالب الإصلاحية ك»جمعية الدفاع عن المطالب المغربية في الخارج» في 1930 و»الجمعية الخيرية» في تطوان في شتنبر 1931 وتأسيس «جمعية الطالب المغربية» في مارس 1932 وتأسيس «جمعية حقوق الإنسان بشمال المغرب» في 1933. شكلت هذه الجمعيات نقلة نوعية في الفكر الإصلاحي لدى مثقفي الشمال انبثقت عنها أحزاب سياسية قادت المسيرة النضالية والإصلاحية. كما لعبت بعض الإصدارات التي صدرت في الشمال دورا هاما في التعبير عن هذه الأفكار، نذكر منها مجلة السلام(صدرت لأول مرة خلال 1933 تحت إدارة محمد داود وهي مجلة إسلامية عربية مصورة جامعة، أنشئت لخدمة الأقطار الإسلامية على العموم، والشمال الإفريقي على الخصوص. وعملت على نشر الثقافة العربية، ونشطت النهضة المغربية، وكانت تصدر مرة كل شهر في تطوان) ومجلة المغرب الجديد(صدر العدد الأول في يونيو في 1935 في تطوان، وهي مجلة علمية لخدمة الثقافة المغربية تحت إدارة محمد العربي بن جلون)، جريدة الحياة(أسبوعية صدرت سنة 1934 بإدارة عبد الخالق الطريس وهي أول صحيفة وطنية باللغة العربية، وتعتبر لسان حال الحركة الوطنية المغربية)، وشجع إدخال المطبعة في وقت مبكر للمدن الشمالية على التأليف والنشر والترجمة[10].

إضافة إلى الدور الذي لعبته حاضرة تطوان، كصلة وصل بين المشرق العربي ومغربه من جهة وبين الثقافة الأوربية والثقافة المغربية من جهة ثانية، فقد كانت الرحلات المتوجهة للحج من بين المنابع الأساسية للفكر الإصلاحي سواء بالتقاء العلماء في المشرق أو الوفود التي تعبر تطوان. في هذا الباب نستحضر الرحلة المتوجهة إلى مكة خلال 1937 والتي كتب عنها الفقيه الرهوني في كتابه «الرحلة المكية»، ثم الرحلة التي جاءت من الصحراء المغربية، والتي جسدت الدور الوحدوي الذي حاولت المندوبية السامية تكريسه عبر «فرق تسد». في 1938 استقبلت تطوان وفدا من أبناء الجنوب المغربي ذاهبا للحج على رأسه الشيخ مربيه ربه ماء العينين ومعه أخوه محمد الإمام، وضمت وفودا من جل قبائل الصحراء وكانت مناسبة لالتقاء علماء تطوان وأعيانها وممثلين عن المخزن المغربي في الشمال[11]. لعبت هذه اللقاءات العلمية دورا مهما في التعرف على الآراء والمواقف ذات صلة بالمعرفة والثقافة المتنوعة التي توحد المغاربة، خاصة ما يتعلق بالإصلاح من جهة، ومن التعرف أكثر على رجال الحركات الوطنية وفكرهم بمناسبة الحج من جهة أخرى.

1-3- صلات المنطقة الشمالية بالمشرق العربي.

تميز القرن التاسع عشر بحركة نهضة كبيرة عرفها المشرق العربي، التفت حول السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، الذي حاول ترسيخ فكرة الجامعة الإسلامية. ظهر رواد كبار ناضلوا من أجل هذه الفكرة وأعطوا نفسا جديدا للفكر الإسلامي، محاولين تفنيد كل الأفكار الدخيلة على الإسلام ومنهم جمال الدين الأفغاني، رفاعة الطهطاوي، الكواكبي، محمد عبده، رشيد رضا، وعبد العزيز الثعالبي في بداية القرن العشرين... إلا أن التوغل الأوربي في المنطقة، انتدابا واستعمارا، ومسلسل الانفصال عن الدولة العثمانية ثم اندلاع الحرب العالمية الأولى انعكس بشكل كبير على مسار الحركات الوطنية في المشرق، التي رأت في إصلاح الأوضاع كسبيل للتخلص من الأجنبي. وامتدت أفكارهم إلى جميع البلدان الإسلامية والعربية، بما فيها بلدان شمال إفريقيا.

كانت المنطقة الشمالية من المغرب على اتصال دائم بالمشرق العربي، قبل اندلاع ثورة فرانكو في إسبانيا ، وذلك على عدة واجهات:

أولها: إرسال البعثات الطلابية نحو المشرق التي استفادت منها نخبة الشمال، حرصت مجموعة من عائلات تطوان الميسورة على تعليم أبنائها تعليما عصريا متشبعا بالروح الوطنية والكفاح ضد المستعمر الذي ساهم في تردي الأوضاع الاجتماعية في المنطقة، خاصة ميدان التعليم. فكانت البعثة الأولى نحو فلسطين في 1928 التي ضمت كل من الطيب بنونة ومحمد بن مصطفى أفيلال إلى مدرسة النجاح الجديدة في نابلس وذلك بمبادرة من الوطني الكبير عبد السلام بنونة، كما كانت بعثة ثانية ضمت عشرة طلبة في سنة 1929[12]، تلقوا تعليمهم على يد كبار أساتذة المشرق المعروفين بنضالهم الوطني، أمدهم هذا التعليم بمبادئ وأصول الإدارة والتسيير، واتصلوا بشخصيات عربية وإسلامية قادت النضال الوطني في بلدانها وفي العالم العربي والإسلامي بصفة عامة[13]. فلا غرابة إذا تمت المناداة بالنموذج المشرقي والمصري على الخصوص للنهوض بالتعليم: «إن جميع الذين يشعرون منا بنقص تربيتهم العقلية يرون أن التعليم يجب أن يتقدم خطوة في بلادنا نحو الأمام، وأن أمتنا لا يمكنها أن تعد في صف الأمم الراقية لمجرد أن يعرف أغلب أفرادها القراءة والكتابة، أو أن يتعلم بعضهم شيئا من الفنون والصناعات كالطب والهندسة والمحاماة، بل يلزم أكثر من ذلك... شبابنا الذين يجدون في أوقاتهم سعة ومن نفوسهم استعدادا يصعدون بعقولهم ومداركهم إلى حيث ارتقى علماء تلك الأمم»[14].

ثانيها: تتجلى في زيارات شخصيات مشرقية للمنطقة من جهة واستقدام الأساتذة للاستفادة من خبرتهم والتدريس في المراكز التعليمية في تطوان والنواحي من جهة ثانية. لقد تركت الزيارات المتكررة لشكيب أرسلان إلى المنطقة أثرا كبيرا في نفوس نخبة الشمال وأعطت دفعا قويا نحو إصلاح الأوضاع في المنطقة

والاستفادة من خبرتها في التعامل مع الاستعمار. كانت الزيارة الأولى لتطوان في غشت 1930 ذات صبغة سياسية فتحت قنوات الاتصال بين الأمير بالوطنيين المغاربة في منطقة الحماية الفرنسية وعناصر فرنسية معادية للاستعمار ووطنيي تونس والجزائر خاصة المنتمين ل «جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا» و «نجم شمال إفريقيا» وبزعيمه مصالي الحاج[15]، وقد سعت سلطات الحماية الفرنسية إلى إفشالها من خلال حث الاسبانيين على طرده[16]. كما كانت زيارته لتطوان خلال 1936 ذات دلالة خاصة من خلال رعايته للمفاوضات التي جرت بين وفد من الوطنيين من الشمال مع الحكومة الشعبية عند اندلاع الثورة الفرنكوية، خاصة عندما وجد الوطنيون أنفسهم في وضع حرج أمام الموقف الذي يجب اتخاذه في هذا الصراع. وأمام الموقف الايجابي الذي أبداه الثوار تجاه مطالب الوطنيين، فقد نصحهم الأمير بتأييد ودعم الثورة مقابل نيل مجموعة من الحريات التي ستفضي للاستقلال الداخلي والضغط على فرنسا نظرا لتحكمها في الاتفاقيات المبرمة. جاء في إحدى رسائله الموجهة للسيد عبد السلام بنونة : «وأنا كنت كتبت لكم مرتين أني لا أبغي في الرقت الحاضر خروج إسبانيا التام من هناك إذ لو خرجت لجاءت فرنسا بجميع الغطرسة المعهودة، ولكن مع بقاء الاسبانيول كان يمكن أن أهل المنطقة يحصلون على استقلال داخلي وبرلمان ووزارة مسؤولة مثل كتالونيا، وهذا الأمر لم ينقطع منه الأمل ولكن يلزم له شغل وبث أفكار ومضي وقت»[17] في نفس السياق جاء على لسان الزعيم الوطني عبد الخالق الطريس في ذكرى تأبين شكيب أرسلان : «ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أسجل أمامكم أن الأمير رحمه الله كان إحدى الشخصيات الإسلامية الكبرى التي تنصحنا بسلوك سياسة الاعتدال حيال الاسبانيين باعتبارهم الشر الصغير الذي تنبغي الاستفادة من مجاملته للقضاء على الشر الكبير»[18]، هذه المجاملة أعطت للوطنيين مزيدا من الحريات لفتح قنوات الاتصال بالمشرق، حتى بدت المنطقة الشمالية موضوع اهتمام في معظم الصحافة المشرقية، خاصة المصرية منها التي قامت بإرسال وفود صحفية للمنطقة. في هذا الإطار كانت زيارة الأديب اللبناني أمين الريحاني للمنطقة الشمالية حيث سجل انطباعاته حول المنطقة في

كتابه » المغرب الأقصى »[19]. وامتدت هذه الحريات إلى استقدام أساتذة للتدريس في المنطقة[20]، كما هو الشأن بالنسبة للأساتذة القادمين من مصر للتدريس في « معهد مولاي الحسن »[21] ومعهد « مولاي المهدي »[22] كخطوة عملية للنهوض بالتعليم العربي والإسلامي ومظهر من مظاهر ربط الصلة بالمشرق.

2-تجليات الفكر الإصلاحي في المنطقة الخليفية

وخلال الثورة الفرنكوية، والانفتاح الواسع على العالم العربي والإسلامي الذي بدأ به الثوار حكمهم، استفادت المنطقة الشمالية من حريات واسعة سواء على المستوى السياسي أو على المستوى الاجتماعي. أولى الثمار خلال هذه الفترة هي تأسيس الأحزاب التي احتضنت النخبة المثقفة التي تشبعت بالأفكار الإصلاحية، كتأسيس حزب الإصلاح الوطني في 18 دجنبر 1936، الذي قاد المسيرة الإصلاحية في المنطقة والتي برهنت عليها قوانينه الداخلية ومواقفه من مجمل القضايا المطروحة، زيادة على المفاهيم التي تبناها على المستوى الداخلي حول الحزب والوطنية والاستقلال، وتصورات اجتماعية حول الشباب والمرأة والفقر والعالم القروي والتعليم والنهوض بالاقتصاد والثقافة في المنطقة[23]، استقلال القضاء والتفكير في رسم دستور عصري للبلاد يستمد القوانين والأحكام من الشريعة الإسلامية التي تساير روح العصر الحديث من نمو وتجديد ويعكس الواقع المغربي ويتماشى مع تاريخه وتقاليده. وأن لا يكون دستورا مستوردا يعكس ديمقراطية الغير. التفكير في إعداد دستور عصري من القضايا التي شغلت بال الوطنيين المنتمين لحزب الإصلاح، وتم الاجتهاد فيها السنوات اللاحقة حتى ظهرت أول مسودة لمشروع دستور أعدته اللجنة المركزية لحزب الإصلاح بتاريخ فاتح ماي 1954[24]. أما على المستوى الخارجي فللحزب مواقف نضالية متعددة، مشاركته في المحطات السياسية الخارجية للمغرب وفي مناسبات عديدة تبرهن على الانفتاح والتوجه الإصلاحي لهذا الحزب سواء على مستوى تعامله مع الاحتلال الاسباني والاحتلال الفرنسي، وربط المنطقة الشمالية

بالمشرق العربي والجامعة العربية والأمم المتحدة. في سنة 1937 تأسس حزب الوحدة المغربية بزعامة محمد المكي الناصري، مستهدفا القضاء على أية فكرة انفصالية تمس البلاد المغربية مركزا على الوحدة والوطنية، عبر التجمعات والمظاهرات وتقديم المطالب والإصلاحات، موظفا صحيفة الحزب في هذا الشأن، كما اهتم الحزب بميدان التعليم كسبيل نحو الرقي، من خلال عمل زعيمه في المنطقة و «تأسيسه لمعهد مولاي الحسن للأبحاث المغربية في تطوان(1937) الذي زاوج بين الثقافة المغربية والاسبانية الأندلسية جمع حوله نخبة من العلماء والأساتذة الأكفاء. كما أنشأ «معهد مولاي المهدي» الذي كان أول مركز حر للتعليم العربي تجاوز إشعاعه مدينة تطوان إلى المدينتين اللتين احتضنت فرعه، وهما طنجة والقصر الكبير»[25]. وفي 1938 ترأس بعثة مولاي الحسن للطلبة المتوجهة إلى مصر للدراسة، هذه البعثة التي أوحت إليه بفكرة تأسيس «بيت المغرب» في القاهرة. جاءت مبادرة إحداث مركز «بيت المغرب» ضمن الخطوات الإصلاحية للاستفادة من التجربة المصرية في ميدان التعليم سواء بإرسال البعثات الطلابية أو استقبال الأساتذة من مصر، كتبت صحيفة الأهرام عن هذه المبادرة قائلة: « بعث الأستاذ محمد المكي الناصري مؤسس «الوحدة المغربية» بتطوان بالمغرب الأقصى، كتابا إلى وزير المعارف نوه فيه بما لمصر من مركز ممتاز بين الأمم الإسلامية والناطقين بالضاد من سكان المعمور وما للثقافة المصرية من أثر في الأقطار الشرقية. ويطلب إلى الوزارة بذل المعونة الممكنة للتمكن من إيفاد لفيف من أبناء تلك البلاد في بعثات علمية للجامعة المصرية، ومعهد التربية، والجامعة الأزهرية ودار العلوم... »[26]. حظي ميدان التعليم باهتمام كبير خلال هذه الفترة التي عرفت انفتاحا واسعا على المشرق العربي، ما بين أكتوبر 1936 و نهاية 1938 اتخذت الحكومة الفرنكوية بعض الخطوات، لإضفاء الصبغة العملية على نوعية التعليم كإحداث مدارس فلاحية ومدارس للتكوين المهني على نحو ينسجم مع رغبات الطبقات الاجتماعية. ومبادرات أخرى كان أهمها منح عبد الخالق

الطريس إدارة مراكز كانت مهيأة مسبقا لتكون مدارس إسبانية عربية والتي أصبحت تعرف ب»المعهد الحر»، وإنشاء مدارس أخرى سميت بالمدارس المغربية كل المواد تدرس فيها باللغة العربية، كما أحدث «المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي» برئاسة أحمد الرهوني الذي كانت مهمته بالأساس وضع البرامج التعليمية للمدارس المغربية واختيار الأشخاص المسلمين المؤهلين للتدريس فيها وفي المساجد مع إعادة تنظيم التعليم الإسلامي في زوايا ومساجد المنطقة[27].

تجليات الجهود الإصلاحية تميزت بالدرجة الأساسية في ميدان التعليم والوعي بأهمية إصلاحه في سبيل رقي المجتمع، وطرح رؤى إصلاحية منسجمة مع الكفاح الوطني من أجل التحرر وعدم بقاء المنطقة رهينة ثقافة المستعمر، وفي نفس الوقت أخذ الأصلح من هذه الثقافة.

انطلاقا مما سبق، يمكن استخلاص بعض الملاحظات منها: أن النموذج المشرقي كان هو الطاغي على الجهود الإصلاحية التي عرفها شمال المغرب خلال هذه الفترة، خاصة ما تعلق ب»الإصلاح العقائدي» و «الرقي بالتعليم»[28] ، غير أن جهودا أخرى شملت النواحي الاقتصادية والسياسية، أشرفت عليها الأحزاب القائمة بالدرجة الأولى، توخت مأسسة الحياة العامة كطرح إحداث «مجلس للأمة» وتقديم اقتراحات حول «مشروع الدستور»، ثم الاهتمام بالإنسان كفاعل رئيسي في التغيير نحو الأفضل في ظل تحكم المستعمر في كل دواليب الحياة العامة.

* * *

هوامـش :

1-عبد الجليل الميساوي، ما الإصلاح؟ وكيف السبيل إليه؟. دراسة تحليلية لمسيرة الإصلاح والتغيير في التاريخ العربي الإسلامي، د.م.، د.ن.، ص.8

2- بعض الطلبة الذين تابعوا دراستهم في المشرق العربي، انتقلوا فيما بعد للدراسة في أوربا من بينهم : محمد الفاسي الحلفاوي الذي تخرج مهندسا من تركيا، والطيب بنونة تلقي دراسته في استانبول في الجامعة الامريكية، ومحمد مصطفى أفيلال الذي تابع دراسته في إسبانيا.

3 - محمد أمزيان، محمد عبد الكريم الخطابي: آراء ومواقف، منشورات تفرازن اء ريف، مطبعة دار النجاح الجديدة، الطبعة الثالثة،2010، ص 18

4 -محمد الباقر بن محمد بن عبد الكبير الكتاني، ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد المسماة: أشرف الأماني بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني، تقديم محمد بن عبد الكريم الخطابي، تحقيق نور الهدى عبد الرحمن الكتاني، مركز التراث الثقافي المغربي(الدار البيضاء) ودار ابن حزم(بيروت)، 2005، ص 54

5 - نفسه، ص.55

6- jacque Cremadells, « la France, Abd-el-Krim et le problème du Khalifat : 1924-1926 », Cahiers de la Méditerranée, n° 6 juin 1973, p.57-58.

ظهر الحرب العالمية الأولى وتحكمت فيه القوى الاستعمارية، بعدما انهارت الدولة العثمانية كليا ، لكن فكرة الجامعة الإسلامية ظلت طاغية في مجال الإصلاح، وتجادل حول أحقية الخلافة علماء المغرب والمشرق، وتدخلت سلطات الحماية الفرنسية في هذا الجدال:«ذلك أن ليوطي الراغب في إيجاد خلافة في المغرب منفصلة عن تلك الموجودة في المشرق تجمع تحتها-على حد قوله-مسلمي شمال إفريقيا قد أبدى معارضته الشديدة لمشروع خلافة لا تخضع مباشرة للنفوذ الفرنسي». كما ناهض غالبية علماء المغرب فكرة الجامعة الإسلامية التي عملت من أجل إعلان الخليفة على عموم العالم الإسلامي.

7 - على رأس الأربعين. الجزء الأول. مذكرات، تطوان. دار العالم الثالث. جمعية تطاون -أسمير، 2001، ص.186

8 -نفسه، ص.187

9 - حسن الصفار، حزب الإصلاح الوطني. 1936-1956م: دراسة تحليلية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، 2006، ص.15

10 - أول مطبعة كانت في تطوان تعود إلى سنة 1860 باسم Imprenta de Garcia y Contilló و Contillo Imprnta militar تطبعان بالاسبانية، وبالعربية كانت المطبعة المهدية(1933) ومطبعة الوحدة المغربية(1937) ومطبعة محمد الوزاني(1936)...

حول ظهور الطباعة في الشمال انظر كتاب: Vicente FERRANDO LA HOZ, Apuntes para la Historia de la Imprenta en el Norte de Marruecos, Publ. del tetuan, 1937 instituto General Franco, imprenta del Majzen

11- ماء العينين بن العتيق، الرحلة المعينية: 1938، تحقيق وتقديم محمد الظريف، دار السويدي للنشر والتوزيع (الامارات العربية) والمؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)، 2004،ص.76-102

12- هذه البعثة ضمت السادة : محمد الفاسي الحلفاوي، الطيب بنونة، محمد مصطفى أفيلال، عبد السلام بن جلون، محمد بن عبد السلام الخطيب، محمد محمد الخطيب، عبد الله الخطيب، محمد بن عبد الكريم بن جلون، المهدي بنونة والحسين بن عبد الوهاب.

13- A.B.G.R. , Dossier C467, Ecole de Enseignement Supérieur indigène Naplouse (Palestine), 1933

14 -«من مشروعات عبده وسعد: مثال يحتذى في النهضة المغربية»، مجلة المغرب الجديد، تطوان، عدد 6، نوفمبر 1935، ص.34

15- J. Bessis, « Chekib Arsalan et les mouvements nationalistes au Maghreb », in Revue historique, paris, Tome CCLIX, 1978, p 480

16 - من خلال وثائق محمد بن عزوز حكيم «أن الحكومة الاسبانية عندما علمت بأن الأمير ينوي القيام بزيارة للمغرب أبرقت إلى مقيمها العام بتطوان تقول له أنها لا ترى مانعا في السماح له بالدخول إلى منطقة الشمال إذا ما رغب الأمير في ذلك» وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب، مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر، تطوان،1980، ص.17

17 - طيب بنونة، نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة، دار الأمل، طنجة، 1980، ص 214.

18- جريدة الريف، العدد 518، 29 يناير 1947.

19- منشورات دار الريحاني ودار الثقافة، بيروت، ط.2، 1975.

20 -كان مشكل التعليم مطروحا بشدة، قبل ثورة فرانكو في 1939، أنشئت بعض المدارس في المنطقة، لكنها لم ترق إلى المستوى المطلوب، كانت أول مدرسة إسلامية أحدثت في 1927، سميت بالمدرسة الأهلية والتي أنشأها عبد السلام بنونة ومحمد داود، عرفت هذه المدرسة نجاحا نسبيا جعلت المندوب السامي يقوم بإحداث «مجموعة دراسية» أخرى في تطوان تحولت فيما بعد إلى مدرسة بسيطة «مغربية-إسبانية» لم يتعد عدد تلاميذها 50 تلميذ، وأغلبهم من عائلات الجنود. ما بين سنتي 1932 و1936 تمت بعض المحاولات في هذا المجال، كتأسيس «مركز الدراسات الإسلامية» في قرطبة، حيث كان يرسل إليه طلبة المنطقة بمنحة دراسية، زيادة على إحداث مدارس إسبانية عربية في بعض المدن كالعرائش وشفشاون وبعض البوادي. وابتداء من 1936 بدأ هذا القطاع يعرف نوعا من التحسن في إطار الخطوات التنظيمية الكبرى في المنطقة.

salas labazaral p 212-A.B.G.R.,)D.A.P., S.P.E., Z.E., Février 1939.

21 - ومنهم محمد وهبي وحسين أمين

22 - ومنهم السيد أمين، محمد حمدي وإبراهيم عبد العزيز

23 - حسن الصفار، م.س.، ص.ص. 98-158

24 -نفسه،ص.119-120

25 – عباس الجراري،«الشيخ محمد المكي الناصري جهاد متواصل وواجهات وطنية متعددة»، ندوة تكريمية نظمتها جمعية رباط الفتح تحت عنوان»فضيلة الشيخ العلامة محمد المكي الناصري جهاد الفكر والدين والتحرير»، الرباط، 2004، ص.53

26 – جريدة الأهرام، عدد 12 غشت 1938.

27 – A.B.G.R., D.A.P., S.P.E., Z.E., Février 1939.

28 – تشجيع تعلم مختلف العلوم العصرية والقديمة منها كما يبين ذلك هذا المقتطف من النشيد الخليفي الذي كان ينشده شباب وتلاميذ المنطقة الخليفية :

هيا بعزمنا العظيم نحيي علوم العرب
ونرجع المجد القديم لدين الله والنبي
في ظل...
نكرع من العلوم على اختلاف الألسن
لندرك العز المروم لكل حر وطني
في ظل...
نسلك سيرة الجدود في مصدر ومورد
يوم المعارك أسود وبالعلوم نهتدي

* * *

بيبليوغرافيا :

1. عبد الجليل الميساوي، ما الإصلاح؟ وكيف السبيل إليه؟. دراسة تحليلية لمسيرة الإصلاح والتغيير في التاريخ العربي الإسلامي، د.م.، د.ن

1. محمد أمزيان، محمد عبد الكريم الخطابي: آراء ومواقف، منشورات تفرازن اء ريف، مطبعة دار النجاح الجديدة، الطبعة الثالثة،2010

2. محمد الباقر بن محمد بن عبد الكبير الكتاني، ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد المسماة: أشرف الأماني بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني، تقديم

3. محمد بن عبد الكريم الخطابي، تحقيق نور الهدى عبد الرحمن الكتاني، مركز التراث الثقافي المغربي(الدار البيضاء) ودار ابن حزم(بيروت)، 2005.

4. محمد داود، على رأس الأربعين. الجزء الأول. مذكرات، تطوان. دار العالم الثالث. جمعية تطاون –أسمير، 2001

5. حسن الصفار، حزب الإصلاح الوطني: 1936-1956م دراسة تحليلية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، 2006

6. مجلة المغرب الجديد، تطوان، عدد 6، نوفمبر 1935

7. محمد بن عزوز حكيم، وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب، مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر، تطوان، 1980

8. عباس الجراري، «الشيخ محمد المكي الناصري جهاد متواصل وواجهات وطنية متعددة»، ندوة تكريمية نظمتها جمعية رباط الفتح تحت عنوان «فضيلة الشيخ

9. العلامة محمد المكي الناصري جهاد الفكر والدين والتحرير»، الرباط، 2004

10. جريدة الأهرام، عدد 12 غشت 1938

11. ماء العينين بن العتيق، الرحلة المعينية: 1938، تحقيق وتقديم محمد الظريف، دار السويدي للنشر والتوزيع (الامارات العربية) والمؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)، 2004

جريدة الريف، العدد 518، 29 يناير 1947

12- **Jacques Cremadells,** « la France, Abd-el-Krim et le problème du Khalifat : 1924-1926 », Cahiers de la Méditerranée, No 6,juin 1973.

13- **Vicente FERRANDO LA HOZ**, Apuntes para la Historia de la Imprenta en el Norte de Marruecos, Publ.del instituto General Franco, imprenta del Majzen, Tetuan, 1949.

14- **A.B.G.R**. (archives de la bibliothèque Générale de Rabat) , DossierC467, Enseignement Supérieur indigène : Ecole de Naplouse (Palestine), 1933

-**A.B.G.R., D.A.P.** (direction des affaires politiques), S.P.E.(situation politique et économique), Z.E.(Zone Espagnole), Février 1939)

15- **J. Bessis,** « Chekib Arsalan et les mouvements nationalistes au Maghreb », in Revue historique, paris, Tome CCLIX, 1978

16- **Ramón Salas Larrazabal,** El Protectorado de España en Marruecos, éd. MAPFRE, Madrid, 1992.

* * *

محمد بن الحسن الحجوي

محمد بن الحسن الحجوي
النهضة والكبوة

الجيلالي كريم*

عرف المغرب أواخر القرن 19م وبداية القرن 20م مجموعة من الاضطرابات والأزمات، إذ مباشرة بعد معركة إسلي وإلى حدود وصاية باحماد، تعرض المغرب لعدة ضغوطات عسكرية واقتصادية أفضت إلى تلاشي الدولة العزيزية، وإلزام المغرب بمعاهدات لم يكن مؤهلا لمقتضياتها كمعاهدة 8 أبريل 1904م بين فرنسا وإنجلترا لتحديد مصير المغرب، ثم مؤتمر الجزيرة الخضراء، كما أن تكالُبَ الناس على الرياسات الوهمية، وانتشار الثورات الداخلية، تسبب في فقر مالية المغرب وثقل الديْن الأوربي، وزاد في تكريس الأزمة أكثر بالبلاد، فلما قامت الدولة الحفيظية لم تكن لتمنع الاحتلال، فأُعْلنت الحماية سنة 1912م، تَلتْها سنوات قاسى خلالها المغاربة من الأهوال والشدائد ما تكلُّ الألسن عن وصفه على حد تعبير الحجوي[1].

في ظل هذه الظروف المضطربة، انبرت فئة من المفكرين السلفيين في محاولة لرأب الصدع الوطني واحتواء الأزمة، حاملين عددا من الأفكار والمشاريع الإصلاحية بهدف توعية المواطن المغربي، وإطلاعه على حجم المشاكل التي فرضت نفسها في هذه الفترة للنهوض بهذا البلد، سالكين في ذلك مناهج مختلفة ووجهات نظر متباينة أحيانا حول القضايا الكبرى المطروحة، مما أفرز ثلاث فئات إصلاحية: فئة تشبثت بالتقليد واحتذاء نموذج السلف، وفئة على قِلَّتها مالت إلى التجديد والاقتباس من الآخر، وثالثة صُنفت ضمن الداعين إلى طمس الهوية الإسلامية وخدمة الآخر (المستعمر).

* باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أبي شعيب الدكالي، الجديدة

ومن أهم الرجالات الذين كان لهم دور بارز في تأطير الفكر الإصلاحي بمغرب هذه الفترة، نجد محمد بن الحسن الحجوي، الذي ترك بصماته في كثير من الأوراش الإصلاحية بالمغرب، إلا أن هذا الرجل غالبا ما كانت أفكاره تُواجَه بالنقد والرفض، مما يطرح علامة استفهام كبرى حول هذه الشخصية. هل كان ذلك لجرأة أفكاره وآرائه؟ أم هو رفض للشخصية ذاتها لحساسية المواقع السياسية التي شغلتها؟ أم أن الأمر يتعلق بكون الظرفية العامة للمغرب لم تكن تتلاءم وما أعلن عنه من تنظيرات وأفكار إصلاحية؟ أم أن المسألة لا تعدو أن تكون نتيجة حتمية لتلك التفسيرات التعسفية التي فُسرت بها بعض مواقفه تجاه القضية الوطنية؟

هذه الأسئلة وغيرها هي ما سنحاول معالجته في هذا المقال، من خلال الوقوف على بعض أفكاره وآرائه الإصلاحية في عدة مجالات، لكن قبل ذلك لا بد من الوقوف عند أهم محطات حياة هذه الشخصية.

1- محمد بن الحسن الحجوي: النشأة والعقيدة

1-1 الأصل الأول :

ينتمي آل الحجوي إلى الثعالبة الجعفريين المنتسبين إلى جعفر بن أبي طالب وزينب بنت علي، دخل أجداده إلى المغرب في القرن 6 هـ/12م، فاستوطنوا بجوار وادي سبو شرق المكان المدعو مشرع بلاَّرج، ثم بمكان حجر الوقاف بضواحي فاس. وأخيرا، استقروا بناحية سيدي قاسم. وينسب إليهم مكان احجاوة بين قبيلة أولاد عيسى ونهر ورغة بالضفة اليمنى لنهر سبو. وفي بداية حكم المولى إسماعيل، بعد انتفاضة محلية، تم نقل جدهم عبد السلام الحجوي مع ذويه إلى تازة، فاشتغل بعضهم بالتجارة وبعضهم بالعلم وبعضهم جمع بينهما كأب الفقيه موضوع الدراسة[2].

1-2 مسار حياته:

ولد محمد بن الحسن بن العربي الحجوي الثعالبي في 4 رمضان 1291هـ/22 شتنبر 1874م بجرنيز قرب الحرم الإدريسي بفاس. تربى تربية دينية في حجر والديه

وجدته الفقيهة، إذ كان يتردد بين المكاتب الخصوصية لتعلم القرآن وفن القراءة والتجويد، وبين الدروس العلمية التي كان والده يلقيها في بيته، وذلك تحت إشراف جدته التي اشتهرت بالعلم والصلاح، فكان لهذه البيئة ونمط التربية الأثر البالغ في تنشئته الاجتماعية وتكوين شخصيته وبناء فكره.

التحق في سن السادسة عشرة بالقرويين، ودرس على خيرة علمائها[3]، فتخرج منها عالما، ثم شرع في إلقاء الدروس في جامعها سنة 1316هـ/1898م بعدما أذن له شيوخه. وفي سنة 1318هـ/1900م تولى أول وظيف، حيث عين عدلا في صوائر دار المخزن بمكناس، وكان ذلك إبان حكم السلطان المولى عبد العزيز. ثم رُقي في 1320هـ/1902م إلى وظيف أمين ديوانة وجدة على الحدود المغربية الجزائرية، فلما ظهر للمخزن العلوي ثمرة أعماله بارتفاع مدخول الديوانة إلى ثلاثة أضعافه، حصلت ثقة المخزن به فزاده وظيفة مفتش الجيش الذي كان مرابطا لصيانة وجدة من هجوم أبي حمارة الزرهوني، وكان ذلك سنة 1321هـ/1903م، فكان بهذه الصفة يمثل نائب وزير المالية في أمور الجيش المالية، ونائب وزير الحرب في أمور الأسلحة والذخائر الحربية، فضبط مهمته حتى إنه أسقط كثيرا مما كان زائدا من أسماء وهمية باطلة في قوائم الجيش، مما وفر لخزينة الدولة مبالغ مهمة وصلت إلى خمسة عشر ألف بسيطة عزيزية في اليوم، وكان يسعى من وراء ذلك كما قال: « إلى إنقاذ الوطن المهدد، وإصلاح ما فسد »[4].

ولتفانيه في عمله هذا أيضا رقاه المخزن إلى وظيفة نائب السلطان في الحدود، وكُلِّف بتنظيم جيش لحراسة الحدود المغربية، كما أسندت له سفارة المغرب بالجزائر. ولما عزم المخزن على عقد مؤتمر الجزيرة، استقدمه السلطان، فقدم إلى فاس وعُرِضَ عليه أن يكون عضوا في المؤتمر، فاعتذر بذريعة المرض، واستعفي من مهامه[5] سنة 1323هـ/1905م، والحقيقة أنه اعتذر – كما قال – لِما رآه من تكدر الأحوال واختلاط الحابل بالنابل، وظلمة جو السياسة[6].

هنا زهد الحجوي في الوظيفة، وانعزل متفرغا لنشر العلم بفاس والعمل في التجارة، فكانت تُعرض عليه وظائف مهمة، لكنه كان يرفضها اختيارا للسلامة،[7] إلى حدود سنة 1330هـ/1912م، حيث سُمي نائبا للصدارة العظمى في وزارة العلوم والمعارف أول ما أُحْدِثت في المغرب أيام السلطان المولى عبد الحفيظ.

بعد توليه هذا المنصب، سعى إلى فتح عدد من المدارس الابتدائية، وإدخال الدروس العربية والدينية إليها، فأقبل الناس على التعليم، وانتشرت المدارس حتى في البوادي وذلك أيام السلطان مولاي يوسف، فكان هذا - حسب الحجوي - أول شرف فكري يناله المغرب[8].

وفي سنة 1332هـ/1914م، باشر تأسيس المجلس التحسيني لإصلاح نظام التعليم بالقرويين لكن فشل مشروعه أدى إلى استعفائه من منصبه في السنة نفسها، بل أُسقط هذا الوظيف من الوظائف المخزنية وألحق بالعدلية التي تولاها أبو شعيب الدكالي، في حين أُعطي الحجوي رتبة مستشار للحكومة شرفا، فرجع إلى فاس، وأقبل على الدرس والتأليف مكتفيا بالتجارة[9].

بعد سبع سنوات (1339هـ/1921م)، رجع إلى وظيفته في نيابة الصدارة العظمى في وزارة العلوم والمعارف، فشرع في تفقد المدارس من أجل بث روح النهضة فيها، حيث عمل على إحياء العلوم العربية والدينية وإدخال بعض العلوم العصرية، فالعلم والأخلاق ومكارم الدين من خير الأعمال التي يتسنى بها التجديد في نظره، وبموازاة ذلك أخذ يلقي دروسا في الحديث والتفسير في كل من الرباط وسلا وفاس كلما عاد إليها في رخصة أو عطلة، كما عين فيما بعد رئيسا للاستئناف الشرعي، ثم وزيرا للعدل عام 1362هـ/1944م، إلى أن وافته المنية يوم الاثنين 3 ربيع الأول 1376هـ/ 8 أكتوبر 1956م.

1-3 عقيدته وفكره:

لم يكن الحجوي يخفي عقيدته، بل كان يصرح باتجاهه السلفي كلما دعت الضرورة لذلك، فهو يقول: «وأما عقيدتي فسنية سلفية أعتقد عن دليل قرآني برهاني ما كان عليه النبي (ص) وأصحابُه الراشدون، مالكي المذهب ما قام دليل"[10]. وهذا يعني أن سلفية الحجوي لم تكن مستغرقة في تقليد السلف، وإنما يضع شرط قيام الدليل الشرعي والعقلي، وهذا ما جعله يحمل فكرا استقلاليا متحررا، مبنيا على البرهان والدليل والعقل، غير مكترث بأقوال تعتمد على الخيال[11].

وقد قاده اتجاهه الفكري المتحرر إلى كثير من المواجهات والاصطدامات الفكرية مع ثلة من العلماء والمفكرين. وتبادَلَ مع معارضيه تُهَمَ القصور والجهل وعدم القدرة على الفهم والتحليل ومعالجة مستجدات العصر[12]. والواضح أن الجهل الذي كان الحجوي يتهم به غيرَهُ لا يتعلق بالأمية الأبجدية، وإنما هو نوع آخر من الجهل، يصيب على الخصوص الفئة المحسوبة على العلماء عند ما لا يولون الاهتمام بأصول الاجتهاد ومقاصد الشرع، مما يفقدهم آليات الاستنباط والتأويل والتحليل فتراهم يكتفون فقط بالاتكال على الموروث القديم فلا يقومون إلا بالتقليد.

ونظرا لهذا الفكر التحرري الاستقلالي الذي امتلكه الحجوي، تولدت لديه جرأة وشجاعة كبيرة في طرح آرائه ومواقفه دون أن يبالي بإنكار الآخرين ولا بردود فعلهم، وهو ما أوقعه في كثير من الأحيان في مواقف حرجة[13]، بل إن آراءه التجديدية، وفتاويه الاجتهادية بدت للبعض ضربا من البدعة وتجاسرا على الدين[14]، ويعني هذا مما يعنيه أن سلفية الحجوي الاستقلالية وفكره التحرري التجديدي لم يكونا مستساغين من لدن عدد من الفقهاء المحافظين، بل حتى رواد التيار السلفي الكلاسيكي أنفسهم، مما جعله يدخل في مساجلات ومشاحنات معهم، لكن الواقع أن أفكاره الإصلاحية كانت جريئة لحد زعزعتها لما كان يعتقد حينذاك أنها ثوابت

ومسلمات، ولذلك تمَّ التصدي لها، لأنها جاءت متعارضة تماما مع السياق الذي وُلِدت فيه، فلم يكن المجتمع ولا الفقهاء (المحافظون) ولا حتى المخزن – في كثير من الأحيان – مستعدا لقبول هذه الأفكار مما أدى إلى تهميشها في حينها، لكن ما فتئت أن عرفت طريقها إلى النور وأثبت الكثيرُ منها صحتَه بعدما تغيرت أحوالُ المغرب وظروفُه، وصار يحكمه سياقٌ آخر غير الذي كان سائدا زمن الحجوي.

4-1 تآليفه:

لقد ترك الحجوي أزيد من مائة مؤلف موزعة على مختلف فروع المعرفة كالتعليم والاقتصاد والفقه والأصول والتفسير والحديث والسيرة والأدب والتصوف، وأغلبها محاضرات ودروس ألقاها في مختلف المنتديات والملتقيات، وطورها فأصبحت كتبا ومجلدات، وقد ذكرها في آخر فهرسته المسماة مختصر العروة الوثقى في مشيخة أهل العلم والتقى[15]. وأغلبها تتسم بالتجديد والجرأة والصراحة، وربما كان هذا أحد أسباب عدم نشر أغلب مؤلفاته. لكن المثير هو أن هذه المؤلفات التي تعرضت لانتقادات شديدة من قبل بعض علماء القرويين والأطر المخزنية، لقيت ترحيبا كبيرا في العديد من الدول العربية وتحديدا تونس ومصر والجزائر[16]، مما يعني أن رفض بعض مؤلفاته أمْلَته عدة أمور ذاتية وأخرى موضوعية فرضها السياقُ العام الذي كان سائدا بالمغرب حينذاك.

2 – مفهوم الإصلاح، وأهم آلياته ومرتكزاته عند الحجوي

2-1 مفهوم الإصلاح وآلياته عند الحجوي

كان الحجوي يرى أن الإصلاح الحقيقي لا يرتكز على التقليد دائما بقدر ما يجب أن ينطلق من الواقع، فالإحالة إلى السلف ليست دائما برنامجا للعمل، وإنما الإصلاح الفعلي في نظره، هو تثبيتُ نظام ديموقراطي يستلهم معطيات العصر، وفَتْحُ باب الاجتهاد في ما يُناسِب حاجات المجتمع والأمة عملا بفقه الأولويات

والضروريات، فبالنسبة إليه « ... من اتكل على مجد الآباء وظنه مجدا للأبناء، فقد اغتر بالخيال ووقع في الخبال، فمجد الآباء مَجْدُ لهم ... أما مجدنا الحقيقي فهو ما نحصله من كدِّنا ... والكل عليه أن يُدْخِل النظامَ في كل شيء ليحفظ وقته الذي هو أنفس ما يُحفظ »[17].

فالإصلاح عند الحجوي لا يمكن إذن أن يَتِمَّ دون نظام، ودون فتح باب الاجتهاد، وكذا تحرير العمل الإصلاحي من الالتصاق بنموذج السلف، وإسقاط مستجدات العصر على الماضي دون إعمال للفكر وللعقل، مع اعتبار ما قام به الأولون رمزا لشحذ الذاكرة الحية وحفز المصلحين على الخلق والإبداع، لأنه يستحيل أن نعثر في كل مرة على حلول جاهزة لكل ما يطرحه الزمن في ما تركه السلف، ثم إن «كل نظام قابل للتطور بحسب تطور الأحوال والأزمان والعوائد والمألوفات وتغيير الأفكار، فكم من نظام يكون صالحا لأمة في وقت لا يكون صالحا لها في وقت آخر »[18]. كما أنه يؤكد أن ما وصلت إليه الأمة سببه الرئيس هو الأمية والجهل، ولا سبيل للخروج من هذه الأزمات إلا بنشر التعليم وإصلاحه وتعميمه في البلاد، فالتخلي عن الاجتهاد والتربية والتعليم والركون إلى التقليد، كان من بين الأسباب التي ساهمت في تأخر الأمة. ومن هنا يمكن القول إن الحجوي كان يحمل مشروعا إصلاحيا نهضويا يرتكز بالأساس على إصلاح التعليم وتطويره، وإشاعة النظام في كل مناحي الحياة مع إعطاء مجال أرحب للاجتهاد حتى يستطيع المصلحون حل مشاكل العصر وفق ما تقتضيه الظرفية، وهو ما حاول تطبيقه في كل أفكاره ومساهماته الإصلاحية.

2-2 أهم القضايا الفكرية التي عالجها الحجوي

لقد حاول الفقيه الحجوي ملامسة أغلب القضايا الدينية والوطنية في زمانه إن لم نقل كل القضايا التي كانت مطروحة حينذاك، ونجد من أهم ما تطرق إليه:

أ- العلم والتعليم: وقد مثل هذا الموضوع أهم عناصر المشروع الإصلاحي للحجوي، بل احتل مكان الصدارة في مشروعه النهضوي، وقد ألف فيه أكثر من مؤلف وألقى في شأنه عدة محاضرات[19]. ولم يشكل الحجوي في هذا الاتجاه الاستثناء، بل إن معظم رواد السلفية المغربية تبنوا هذا الموقف، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر محمد السليماني، وأحمد الصبيحي، وإبراهيم الرافعي، وأحمد بن العربي العلوي، مما يجعلنا نقر أن المسألة التعليمية شكلت إحدى ركائز الفكر الإصلاحي السلفي بالمغرب زمن الحجوي.

ب- مسألة النظام: هي نقطة مركزية في مشروع الحجوي الإصلاحي، حيث تعرض لها في كثير من مؤلفاته ومحاضراته، خاصة كتابه النظام في الإسلام، الذي أكد فيه أن تأخر المسلمين راجع إلى انعدام النظام وانتشار الفوضى، وأن تقدم غيرهم كان نتيجة لتنظيم هياكل دُولِهم ومؤسساتهم. ولذلك نجده يدعو إلى ضرورة وضع أسس النظام في الأمة إن أردنا لها الرقي، وهذا لا يعني في نظره إعادة تمثل نظام السلف، ولكن تثبيت نظام يستجيب لمتطلبات العصر تُؤَسَّس أركانه انطلاقا من الاجتهاد والتكييف الفقهي مع شؤون هذه الأمة حتى تتوفر لها أسباب النهضة والرقي.

ج- إحياء الاجتهاد الفقهي: ألف فيه الحجوي أكثر مؤلفاته، وعلى رأسها كتابه الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، الذي أكد فيه أن الفقه في زمانه يعيش حالة الشيخوخة والهرم، مما يجعله بحاجة للتجديد، والوسيلة الوحيدة لذلك هي التحرر من قيود التقليد وولوج باب الاجتهاد، ولهذا عرض في هذا الكتاب أصول الاجتهاد وكيفية التدريب عليه، لأن هذا الأخير في رأيه يمثل الحل الأسمى لتحديث الفقه وتجديده، ومن ثَمَّ الخروج من دوائر التخلف إلى عوالم النهضة.

د- مسألة التأمين: تضاربت آراء العلماء المفتين حول هذه المسألة بين التحليل والتحريم، لكنه أفتى بجوازها، لعدم وقوفه على ما يمنعها من الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاجتهاد، كما أنه استغل خبرته في ميدان التجارة في فتواه، حيث وقف على حاجة التجارة للمعاملة بالضمان وقاعدة التأمين.

وانطلاقا من اجتهاده في هذه الفتوى، يمكننا أن نحدد منطلقاته في أغلب فتاويه، إذ تتحدد في أمرين أساسيين هما: الدين والمصلحة العامة المكفولة بمبدأ الاجتهاد، واللذان يتَّحِدان في المقصد العام للشرع الإسلامي وهو مساعدة الأمم على النهضة والتقدم.

وقد شكلت مسألة الاجتهاد لدى الحجوي إحدى أهم الحلول القادرة على إخراج المجتمع المغربي مما هو فيه، بل إن الاجتهاد - في نظره - هو الكفيل بجعلنا ننخرط في قالب الظرفية دون الخروج عن حدوده الإسلامية، وإلا تكرَّست الأزمة إن نحن بقينا متشبثين بالموروث الجامد. ولذلك كان الحجوي يوظفه في معالجة عدد من المواضيع والإشكالات الفكرية، وفي حلِّ أعقد إشكالات عصره، كمسألة تعليم الفتاة، ومسألة ترجمة القرآن، وزكاة الأوراق المالية، وهو الأمر الذي يوضح مدى اتساع إطلاعه على مشاكل عصره وقدرته العلمية على التحليل والاستدلال مع بُعْد نظر لم يُدْرَك في حينه إلا بعد هدوء الأوضاع واستقرارها.

3- الحجوي والمسألة التعليمية: خطوة جريئة للإصلاح

3-1 إصلاح نظام القرويين: دواعي الإصلاح وحيثيات الرفض

شكل جامع القرويين أعظم معهد في إفريقيا الشمالية للعلوم العربية والدينية، لاسيما بعد سقوط الأندلس. وبما أن دروسه كانت محل تطوع، فإن ذلك كان يتم من غير نظام، ولا ترتيب لسير الدروس، ولا للموظفين المتخرجين منه، الذين كانوا

يضطرون لممارسة حرف موازية لهزالة الرواتب التي كانوا يتلقونها، مما أدى ببعضهم إلى الانقطاع عن الجامع لعدم قدرتهم على التوفيق بين التدريس والعمل الحر، ومن ثَمَّ تعطيل دروس وتخصصات.

تلك هي حالة الجامع زمن الحجوي، ولذلك كان أول ما شغله لما عُيِّن على رأس وزارة المعارف والعلوم سنة 1330هـ/1912م كأول موظف بها هو أمر الجامع، وفي هذا يقول: « ... فكان أمر القرويين أول ما همني قلبا وقالبا، لأنها أمي وظئري ومن ثديها العذب ارتضعت وبها أُميطت عني التمائم»[20].

عمِل الحجوي على استصدار أمر شريف لإدخال النظام إلى جامع القرويين، فتم له ذلك سنة 1332هـ/ 1912م، وتكلف بنفسه، رفقة المستعرب مَرْسِي، لدراسة المسألة وإيجاد الحلول لها، فتوجها إلى فاس، وجمعا علماءها الأعلام، ثم شرح لهم الحجوي المشروع، وأشار عليهم بتكوين لجنة لتحسين حال القرويين من بينهم بالانتخاب، فتكون المجلس الذي أطلق عليه المجلس التحسيني لإصلاح جامع القرويين.

أخذ الحجوي يجتمع معهم يوميا لوضع قانون أساسي للقرويين، فيستمع لآرائهم ويسجل ملاحظاتهم بعدما يطرح عليهم مسألة مما كان يريد إدراجه من التنظيم، ثم يتم الاقتراع على الرأي المقبول فيُثْبَتُ في سجل التقريرات. وكان السير على هذه الخطة إلى أن تجمع من تلك القرارات مائة واثنتان من المواد مقسمة على عشرة أقسام[21]، تهدف إلى إصلاح أنماط التدريس وتنظيم الدروس ورفع فعاليات المدرسين والطلبة باختيار الكتب الأهم والمفيدة دون الاقتصار على المختصرات، بل ضرورة إحياء العلوم العربية والإسلامية، مع الاهتمام بالعلوم العصرية ومسألة النظام والتنظيم في التعليم.

لقد جاء الحجوي بمشروع إصلاحي مهم، لكن بالرغم من قيمته وأهمية مواده، فإنه لم يطبق إلا في بعض جوانبه الهامشية لعدم تحمس عدد من العلماء له بدعوى مخالفته لمألوف الناس. وأغلب الذين عارضوا هذا الإصلاح: «كانوا في نفس الوقت يعارضون مبدأ التجديد بالرجوع إلى الأصول والتركيز على الفروع والإبقاء على التقليد»[22]. كما رفضوا هذا الإصلاح بدعوى أنه يُخْضِع أطراف المشروع وخاصة العلماء لضوابط هذا التقنين، فرفضوا هذا النوع من التقييد متبنين ما يسمى باستقلالية جامع القرويين بذريعة إنقاذه من الوقوع تحت سيطرة الموظفين المخزنيين الذين سيمارسون ضغوطاتهم على الجامع ومكوناته تحت غطاء تطبيق القوانين الجديدة. هذا إضافة إلى كون هذا التغيير - حسب رأي المعارضين- جاء ليضرب كل ما تعارفت عليه الأجيال، فكانت هذه المبررات وغيرها سببا في عدم قبول الاقتراحات الإصلاحية المقدمة[23].

في مقابل ذلك، لم يكن يؤيد الإصلاح غير ثلة من العلماء، وهم دعاة النهضة والتجديد، وهو ما يجعلنا نفترض أن فشل هذا المشروع مرده بالأساس إلى الصراع القائم بين المحافظين على القديم والمنتصرين للجديد، حيث شكلت فترة ما بين إعلان الحماية (1912م) والظهير البربري (1930م) مرحلة صراع قوي بين دعاة التقليد والمجددين، وبالتالي خضعت معظم الإصلاحات في هذه الفترة لتنازع طرفي هذه الثنائية، مما عرقل أغلب الأوراش الإصلاحية، كان من بينها إصلاح نظام القرويين الذي جاء به الحجوي.

ولا يجب أن ننسى دور سلطات الحماية في فشل هذا المشروع؛ فرغم أن الإصلاح كان يتماشى وسياستها التعليمية، لكنها لما خشيت من إفلات أمر القرويين من يدها إن تم إصلاحها من الداخل مما قد يمثل خطرا على توجهاتها، تذرعت بالعجز المالي وعدم ملاءمة الظروف، فسعت إلى توقيف المشروع، كما ضغطت على الأحباس لعرقلة تنفيذ الجوانب المالية للإصلاح بعدما اقترحت عليها

تحمل المصاريف المادية للمشروع لوحدها. ولهذا يمكن القول إن سياسة الإقامة العامة تجاه هذا الإصلاح كانت ذات وجهين، فهي تريد الإصلاح حينما لا يمس مصالحها في البلاد، لكنها ضده عندما يكون من الداخل، ولذلك كانت تضغط بورقة المبرر المالي لتوقيف كل مشروع إصلاحي لا يتوافق ومنظورها الاستعماري.

وقد تأسف الحجوي لمآل هذا الإصلاح قائلا: « وأقول من غير تمدح أو تبجح: إن ذلك النظام لو خرج من حيز الخيال إلى حيز الأعمال، لكان محييا للقرويين مجددا لهيأتها التدريسية تجديدا صحيحا متينا ... ولكن مع الأسف المكدر تداخل في القضية ذووا الأغراض الشخصية، فبينما نحن نبني ونصلح ونرمم بفاس، وقد شرعوا في الهدم والتخريب في الرباط بغير فاس، وما كدنا نختم القانون المشار إليه حتى صدر أمر شريف برجوعنا، ولم يبق من مشروعنا إلا أن راتب المدرسين ضُعِّفَ أضعافا ... وهكذا يفعل التحاسب وحب الأثرة بين نبلاء المغاربة الذين أُشْربوا في قلوبهم حب إيثار الأغراض الشخصية على المصالح العمومية بل والدينية »[24].

3-2 الحجوي وتعليم الفتاة: شجاعة في المبدأ وسبق في الطرح

عرف عصر الحجوي اضطرابات كثيرة في جميع مناحي الحياة بالمغرب، وقد زاد الاستعمار من تدهور الأوضاع وتكريس الأزمات الاجتماعية مستغلا ضعف التعليم بهذا المجتمع وأمية أغلب شرائحه، حيث انعدم التعليم بأكثر مناطقه، ولم يكن الأمر يتعدى وجود الكتاتيب القرآنية.

ومنذ أن دخل الفرنسيون إلى المغرب أسسوا المدارس لتدريس أبنائهم، في حين كان أبناء المغرب يغْشَون الكتاتيب فارين من هذه المدارس لما تزرعه من إلحاد وتنصير، إذ لم يكن يدخلها إلا بعض أبناء الأثرياء. لكن لما كانت هذه المدارس تخدم المخططات الاستعمارية، كان الحكام الفرنسيون يجبرون الآباء على إدخال أبنائهم إليها، بل سُجِن بعضهم لامتناعه عن ذلك[25]. وفي مقابل ذلك شددوا على

الكتاتيب القرآنية بدعوى ضيقها وظلمتها وقذارتها، وانعدام الشروط الصحية، إضافة إلى ارتفاع مستوى التعذيب بها (الفلقة)، مما أدى إلى تنفير عدد من الصبيان منها فتناقصت قيمتها وانحط شأن المؤدبين بها.

وأمام هذا الواقع المتردي، أخذ المغاربة يفكرون في وسيلة لإنقاذ النشء وتعليمه تعليما يحافظ على الهوية العربية الإسلامية، فجعلوا يفتحون معاهد للتعليم وكتاتيب قرآنية نظامية عُرِفت بالمدارس الحرة. وهكذا أُنْشِئت أولى المدارس بفاس والرباط والبيضاء، وقد أقلق ذلك الحكومة الفرنسية فحاولت طمس هذه البذور التعليمية الأولى، لكن إصرار المغاربة على هذا النهج جعلهم يمضون فيه، فَفُتِحت مدارس أخرى في أنحاء البلاد، وأُسِّست فروع ثانوية للمدارس الأولى سميت مدارس تكميلية، فكان لهذه النهضة التعليمية دور كبير في الحفاظ على اللغة العربية ومبادئ الدين الصحيحة.

وعلى الرغم من هذه اليقظة التعليمية وأهميتها، فإنها بقيت دون جدوى كبيرة، لكونها أغفلت أحد العناصر الأساسية في النهوض بالأمة، وهو العنصر النسوي. وقد تفطن عدد من المصلحين المغاربة إلى ضرورة تعليم الفتاة حتى تكتمل ركائز النهضة، وعلى رأس هؤلاء محمد بن الحسن الحجوي الذي انتبه لهذا الأمر مبكرا، وقد كان ذلك ردَّ فِعْلٍ طبيعي من جهته نظرا للدور المهم الذي كان للمرأة في تربيته وتكوين شخصيته[26]. ولهذه الأسباب الذاتية والموضوعية، كان الحجوي من السبَّاقين إلى طرق هذا الموضوع، ولَفْتِ نظر المغاربة إلى ضرورة الاهتمام به إن هم أرادوا استكمال أسباب النهضة.

وهكذا بمجرد توليته منصب مندوب المعارف، عمل على تطبيق أفكاره في الموضوع. وفي ثاني مشاركة له في المسامرات والمحاضرات التي كانت تنظمها حكومة الحماية الفرنسية بالمعهد العلمي بالرباط، ألقى محاضرة حول: تعليم الفتاة ومشاركتها في الحياة، إلا أنه اصطدم برفض الحاضرين لآرائه في الموضوع، خصوصا

من قبل الصدر الأعظم (الوزير الأول) الحاج محمد المقري الذي أوقفه ومنعه من إتمام المحاضرة قائلا: إن الدين الإسلامي لا يساعد على تعليم البنت تعليما يجعلها تشارك الرجل وتزاحمه في الحياة[27]. والغريب في الأمر أن أبا شعيب الدكالي المحسوب على التيار السلفي المتفتح وافق المقري في الرأي، فأكد - بعدما أشار إليه المقري طالبا رأيه في الموضوع- أن تعليم الفتاة إلى الحد الذي قال به الحجوي لا تقره مبادئ الإسلام، وهو موقف غريب لا نفهم حقيقته، هل هو نابع فعلا من قناعة أبي شعيب الدكالي؟ وهو أمر يبدو مستبعدا بحكم أن الرجل كان حافظا محدثا عالما بمبادئ الإسلام، أم هو مجرد مسايرة للصدر الأعظم ليبقى جوابا سياسيا أكثر منه اجتهادا فقهيا؟ وعلى أية حال يبقى موقفا غامضا اضطر معه الحجوي إلى التوقف عن إتمام المحاضرة، أو بالأحرى تم توقيفه دون أن يتمها[28].

وهكذا نلاحظ، أن سلفية الحجوي المتحررة أملت عليه الاجتهاد والصدع بما يراه مناسبا عملا بفقه الواقع، واستنادا للخبرة والتجربة الذاتية دون أن يركن إلى التقليد، في حين ينم موقف كل من المقري والدكالي عن رأي آخر حول الموضوع، وهو الرأي السائد آنذاك، فللمرأة -حسب رأيهم- دورها وحدودها، وللرجل دوره وحدوده، والغريب في الأمر أن رأي هؤلاء لم يكن حينها شاذا، بل كان يعكس رأي أغلب المغاربة، الذين كانوا يتذرعون بحماية كرامة المرأة، وتحصينها مما قد يلحقها بمخالطة تعليم الذكر، وإنما الرأي الشاذ كان هو رأي الحجوي الذي عَاجَل بالفكرة وصدع بها بكل شجاعة دون مبالاة بالرأي المخالف.

وإذا ما علمنا أن ذلك كان في سنة 1925م/ 1344هـ، أي في الربع الأول من القرن العشرين، فإننا نستحضر أهمية هذا الموقف في الدفاع عن حقوق الفتاة في التعليم، وبالتالي مكانة المرأة في المجتمع، والذي ينِمُّ عن بُعْدِ نظر هذا المصلح، وسَبْقِه في تقدير الأشياء وفق منهج عقلي، كما ينِمُّ عن شجاعته النادرة التي كانت

تبعثه على الصدع بكل ما يراه إصلاحا ونهوضا بما في ذلك العنصر النسوي الذي كان مهمشا، بيد أن الظروف العامة بالمغرب لم تكن حينئذ قادرة على استيعاب الفكرة الصريحة التي جاء بها[29].

ولشجاعته وتمسكه بمبدئه، عاد الحجوي لطرق الموضوع نفسه في محاضرته التي خصصها لموضوع إصلاح التعليم خاصة بالقرويين عام 1931م، حيث دعا إلى تعليم الفتاة المغربية معضدا آراءه بأدلة شرعية في تعليم المرأة، وممثِّلا لذلك بأمهات المؤمنين اللواتي كن يُخْبَرن بكل ما ينزل من القرآن، ويُعلِّمْن دينَهن، فاستنتج أنه ما من سبيل لنهوض هذه الأمة إذا أغفلت تعليم بناتِها[30].

وعلى الرغم من هذه الدعوات المتكررة من قبل الحجوي، بقي الموضوع معتَّما بين أخذ ورد إلى حدود العقد الرابع من القرن الماضي، حيث بدأت الأصوات تتعالى محذرة من مخاطر أمية المرأة وجهلها، وبدأت تُلْقى دروس ومحاضرات في هذا المجال كتلك التي ألقاها محمد بن العربي العلوي في 3 أكتوبر 1943م على أمواج الإذاعة المغربية[31]، كما برزت أسماء أخرى دافعت عن الطرح نفسه كمحمد الزغاري والعربي بن الحسن العلوي والمهدي بن بركة[32].

وبالفعل، أخذ المشروع في التطبيق أواخر سنة 1944م، حيث أُجريت بالقصر الملكي مباراة لاختيار مدرسين من مختلف مدن المغرب، وأُنشئت مدارس خاصة لتعليم الفتيات على غرار مدارس تعليم الفتيان. أي أن المجتمع المغربي، لم يقتنع بالفكرة التي طرحها الحجوي إلا بعد الحرب العالمية الثانية[33]، لكن مع ذلك يبقى تبني المجتمع لهذا المشروع دليلا على بُعد نظره، وسبق أفكاره لأفكار معاصريه في هذا الباب.

4- الحجوي وسلطات الحماية: حدود التعامل وردود الفعل العامة

4-1 حدود التعامل

لقد كان للحجوي حضور مهم في عهد المولى عبد العزيز بسبب الوظائف التي شغلها، فكان لا يتوانى في نصح السلطان ورجالاته المخزنية لإصلاح أوضاع

البلاد. وهذا ما فعله مع خلفه المولى عبد الحفيظ لأنه كان يشعر أن دوره كفقيه يحتم عليه إسداء النصح إلى أولي الأمر، حيث وجه له رسالتين، الأولى على يد الخضر الشنقيطي، والثانية على يد الشيخ أبي شعيب الدكالي[34]، ذكَّره فيهما بالأوضاع المزرية التي أصبح عليها المغرب والتي جعلته يسقط في أيدي الأوربيين الذين أصبحوا يتدخلون في كل شؤون البلاد[35]. ولم تعد فرنسا تحترم سيادة المغرب، وأفسدت على المخزن كل طرق السياسة والتصرف[36]، وهنا طلب منه بجرأة كبيرة أن يباشر أمور الرعية بنفسه ويعاقب المفسدين وينظم هياكل الدولة[37]. فلفت نظره للأيدي المغرضة التي تبيع البلاد أقساطا وجملة للأجانب[38]، وألح عليه بإدخال إصلاحات دستورية وسياسية تقوي البلاد[39]، وتجعلها منيعة حتى إذا جاء المستعمر وجدها قوية الهياكل والمؤسسات فيضطر إلى المحافظة عليها، هذا بالإضافة إلى إرضاء الأمة ولو بما يسخط أوربا[40]، كما ألح عليه بعدم إبرام أي اتفاق أو معاهدة مع أوربا إلا باتفاق الأمة ومشاورتها.

فالحجوي إذن كان يرفض رفضا قاطعا الوجود الفرنسي بالمغرب، وكان يأمل أن يكون إصلاح البلاد من الداخل، ويظهر ذلك جليا من خلال انتقاده الشديد للمولى عبد الحفيظ عندما لم يفعل شيئا مما نصحه به، منددا بتقاعسه عن الجهاد، وبقبوله بالاتفاقات الموقعة مع أوربا والتي تسببت في اندلاع الأزمة بالمغرب، إضافة إلى إغفاله للعلم والتربية مما فسح المجال لعائلتي المقري والكلاوي للهيمنة على الوظائف المخزنية، وممارسة الاستبداد على الرعية التي أصبحت في نظره بين أسد وذيب «... الأسد تسلط على الداخلية، والذيب على الخارجية والمالية»[41]، وصار النفوذ إلى أيدي الجهلة[42].

كما زاد انتقاده للسلطان المولى عبد الحفيظ بعد أحداث فاس سنة 1911م التي استنجد فيها بفرنسا، معتبرا ذلك ارتماءً في أحضانها وذريعة أعطاها لها للتدخل في البلاد[43]، محذرا إياه من أن ما تقوم به فرنسا من سياسات تجاه المغرب

«إنما هي سفاسط للتوصل للمقصود »[44]. وستزيد خيبة أمل الحجوي عندما خضع السلطان للضغوطات الفرنسية ووقع عقد الحماية، مما جعله ينتقده انتقادا لاذعا بكل صراحة وجرأة[45]. وهكذا حمَّل الحجوي مسؤولية التغلغل الفرنسي للسلطان بسبب سوء تصرفاته، وللمغاربة قاطبة خاصتهم وعامتهم، حيث نعتهم بالجهل والتعصب، وبالافتراق في الرأي وحب النهب والسلب[46]. ورأى أن أكبر مظهر من مظاهر هذا الجهل هو استقبالهم للجيوش الفرنسية بإقامة الحفلات، وكأنهم لم يفقدوا ولدا كريما واستقلالا عظيما[47].

لم يكن الحجوي يخفي تذمره من توقيع معاهدة الحماية، حيث أعرب عن خوفه وحسرته عند إعلانها، والتي كانت حسب رأيه نتيجة لعدد من المعطيات الداخلية[48]، كما كان متذمرا من الأوضاع العامة للبلاد. لكن لما رأى أن الاستعمار أضحى وجوده أمرا واقعا في المغرب وقدرا مقدورا، ووقف عن كثب على ما تقوم به فرنسا كحامية للمغرب، وخاصة ليوطي الذي تبنى سياسة اللين مع المغاربة باعتبار المغرب محمية لا مستعمرة، أخذ يشعر تدريجيا بالاطمئنان إلى فرنسا، فوصل به اقتناعه إلى أنه بالإمكان الاعتماد على هذه الدولة لتحديث البلاد وإصلاح هياكلها، وهو الأمر الذي جعله فيما بعد يتعاون مع سلطات الحماية علَّها تقوم بما عجز عنه أهلُ الدار، أي أن تعاقده مع هذه السلطات كان على أنها عامل نهضة وإعمار لا أداة تخريب وإقفار، ولذلك أشاد في السنوات الأولى للحماية بما أدخله الفرنسيون إلى المغرب، كما أشاد بالمقيم العام الجنرال ليوطي الذي اعتبره حبيب المغرب والمغاربة، ورجل السيف والسياسة والعلم، ومحيي مآثر الإسلام لجدية أفكاره الإصلاحية ونزاهتها[49].

ويبدو أن تفتح الحجوي هذا ونظرته لسلطات الحماية، جعلته يربط علاقات مهمة مع أفرادها خاصة الجنرال ليوطي[50]، ويتعامل كغيره ممن تعاملوا مع فرنسا بمنطق التعاون مراهنين عليها في تحديث المغرب، بل وصل به الحدُّ إلى اعتبار المغرب

مدينا لفرنسا بعدة أشياء[51]، وهذا اعتراف صريح منه وإقرار بيِّن بمهارة الأوربيين وتفوقهم، وعليه فمن النجابة والكياسة - حسب رأيه - أن نقتبس من معارفهم وعلومهم ما يشكل عنصر قوتهم. ولهذا كان غالبا ما يحيل على النموذج الغربي في آرائه الإصلاحية، فمسألة النظام مثلا والتي طالما دعا إليها كنقطة مركزية في مشروعه الإصلاحي، جاءت من انبهاره وإعجابه بديمقراطية النظام الأوربي، وهو ما أكده بقوله: «إن نظام المجالس الشورية الانتخابية الموجودة في أوربا، وإن لم يكن بعينه عند الإسلام، لكن كان لهم نظاما وافيا كافيا بحاجياتهم الوقتية، مناسبا لأفكار أمم ذلك العصر، لكون هذا النظام العصري لم يتكون دفعيا، بل كان نتيجة قرائح أمم أوجدته تدريجيا في أجيال متطاولة»[52]. وهو إقرار منه بأن النظام الذي يراعي مستجدات الوقت لابد أن ينجح معتنقوه، وكأنه يدعو إلى تقفي الأثر الأوربي في مشروعه النهضوي الإصلاحي، فالدولة لا يمكن أن تنهض دون إصلاح وتنظيم هياكلها السياسية والاجتماعية والمالية والاقتصادية والإدارية، إذ أن تخلف المسلمين لا يرتبط فقط بالابتعاد عن الدين الإسلامي، بل أيضا لانتشار العبث والفوضى وانعدام النظام، والنموذج الأوربي خير مثال شاهد على ذلك.

وإضافة إلى دعوته تبني النموذج الأوربي على مستوى النظام، كان يدعو إلى تمثل هذا النظام في كل الأوراش الإصلاحية بالمغرب، ومنها التعليم، حيث دعا إلى تنظيم المنتديات والمسامرات الفكرية، والتخلي عن نمط الثقافة الأحادية بفتح حوار مع الآخر، ومناقشته في أفكاره وآرائه، حيث يقول: « وغير خفي على أحد أن منتديات أوربا هي السبب الأكبر في رقي أفكار أهلها، وبالمنتديات يبتدئ الرقي الفكري في كل الأمم قبل المدارس، بل هي بذرة المدارس، وبالمسامرات والمحاضرات التي تكون بتلك المنتديات زخرت أوربا بالعلوم، وعمت الحركة العلمية سائر الطبقات... وطرق المدن المغربية ضيقة تضيق عن إمكان المفاهمة»[53].

وهكذا لم يعد الحجوي يتورع أو يخفي إعجابه بما لدى الأوربيين، بل كان يدعو المغاربة إلى أن ينظروا إليهم ويتأملوا أسباب رقيهم[54]. فهو كغيره ممن ساروا على نهجه كانوا يقرون بتفوق الغرب، لذلك اضطروا لمجاراته والانفتاح على ثقافته والتعايش معه كواقع مفروض، والانخراط في المنظومة الإصلاحية التي جاء بها أملا في إصلاح هذا المجتمع، محاولين في ذلك التوفيق بين الدين والاقتباس من الآخر على أساس أن الدين لا يتناقض مع الحداثة والتجديد، فهناك كما قال الحجوي: «تعاضد متين بين العقل والعلم والدين»[55].

لكن يبدو أن هذا الموقف المشيد بالإدارة الاستعمارية، لم يدم طويلا؛ ذلك أن الحجوي بعد الحرب العالمية الأولى، أصيب بخيبة أمل في فرنسا، خاصة ليوطي الذي بدا له « أنه سحر الشعب المغربي ونومه تنويما مميتا لا مغناطيسيا، فأحبه محبة بني إسرائيل للعجل، وقبض على أعصاب المغرب بأصابع فولاذية تحت قفاز من حرير»[56]. ففي نظره، لم تكن ادعاءات ليوطي سوى وعود معسولة وكلمات مُسْكِرة خلابة، ولم تكن فرنسا سوى مجرد مستنزف للثروات، هذا مع استمرار استحواذ عائلات محدودة على الحكم مثل المقري والتازي والمعمري، وهو مخزن لا علاقة له بأمور الدين، ولا يتقن إلا نظام الوجاهة والمحسوبية[57].

وسيزيد انتقاد الحجوي لسلطات الحماية بعد إعلانها الظهير البربري[58]، حيث ندد بسياسة التفرقة التي حاولت بثها بين المغاربة، داعيا في الوقت نفسه سلطات الحماية أن تبتعد عن التمويهات، وأن تلتزم بعهودها وتقوم بإصلاحات حقيقية، واقترح عليها مرة أخرى العديد من الإصلاحات، والتي أصبحت فيما بعد المطالب الأساسية التي نادى بها زعماء الحركة الوطنية. وخاب أمل الحجوي أكثر في سلطات الحماية لما استغلت المغاربة أثناء الحرب العالمية الثانية التي عرف المغرب خلالها أزمات اقتصادية خانقة أفقرت السكان واستنزفت خيرات البلاد لتغطية نفقات الحرب، وتفاحش الغلاء وفرضت ضرائب مجحفة على المواطنين[59].

بعد هذا، أصبح الحجوي معارضا لسياسة فرنسا منددا بها، حتى إنه أعلن مساندته لعريضة المطالبة بالاستقلال. لكنه رغم ذلك كان يرى أن الوقت لم يحِن بعد للاستقلال، لعدم وجود أطر قادرة على مباشرة أمور البلاد بعد الاستقلال، وهو الموقف الذي ألب عليه بعض رجال الحركة الوطنية خاصة مندوب المعارف ووزير العدلية آنذاك محمد بن العربي العلوي، وزاد في تأليب الناس عليه موقفه من المظاهرات المطالبة بالاستقلال سنة 1944م، حيث اعتبر أنها مجرد تهور، لكونها تفتح حربا بين مغاربة عزل من السلاح، وفرنسيين مدججين بالأسلحة الأمريكية، وأن الأفضل كان «إخراج الشوكة بدون دم» وعدم الاعتماد على عهود واهية[60]. وهذا ما وسع دائرة الاحتجاج عليه، لكنه رد على ذلك بقوله: « إن بعض المتطرفين –لاسيما وزير العدل محمد بن العربي العلوي ومندوب المعارف– ظلوا متشبثين برأيهم وصارا ينشران دعاية ضدي ويرمیانني بما يعلم الله أني بريء منه، وأن لا غرض لي إلا حفظ الماء»[61].

وهكذا تغيرت علاقة الحجوي بالسلطان وبسلطات الحماية منذ 1946م، حيث أصدر السلطان قرارا بإبعاده عن القصر مع إبقائه في منصبه، ومنذ ذلك الحين تعرض للتهميش من لدن كل القوى الفاعلة في المجتمع المغربي. لكن المفارقة أنه حافظ على منصبه بالرغم من هذا التهميش، بل إنه تمسك به حتى بعد تنصيب ابن عرفة سلطانا على المغرب، حيث صدر اسمه في جريدة السعادة عدد 8843، ليوم 23 غشت 1953م ضمن من بايعوا ابن عرفة[62]، ولهذه الأسباب تم عزله سنة 1955م ليعين إسماعيل الإدريسي محله، فكانت هذه بداية نهايته التي تأكدت في 6 أكتوبر 1956م، حيث توفي في أحد مستشفيات الرباط.

2-4 ردود الفعل العامة:

لقد أدت أفكار الحجوي حول الاستقلال، ومواقفه إزاء الثورات المطالبة به، إلى تأليب فئة عريضة من المغاربة ضده، وأذكى ذلك ما كان يذيعه عنه زعماء الحركة

الوطنية، خاصة محمد بن العربي العلوي وباقي أعضاء حزب الاستقلال، إلى درجة اتهامه بالخيانة العظمى. وزاد من تأكيد رفض العامة موقفُه من الأزمة السياسية لسنة 1953م، حيث احتفظ بوظيفته بعد إعلان ابن عرفة سلطانا على المغرب وكأنه كان موافقا على هذا المصير، مما جعل أغلب مكونات المجتمع تصنفه ضمن الخونة وعملاء الاستعمار.

لهذه الأسباب، ساءت حالته النفسية والجسمية بعد هذه الفترة إلى حين وفاته. ووصلت النقمة عليه إلى حدها الأقصى بعد وفاته، حيث امتنع الحزابون من القراءة عليه، فلم يحضر جنازته أحد، بل إن السكان امتنعوا عن أداء الصلاة في قصبة ابن دباب التي دفن بها، مما اضطر معه المسؤولون إلى إخراجه من قبره، ونقله إلى مكان مجهول[63]. ويبدو أن النقمة على الرجل كانت عامة، حيث تمت إدانته رسميا بعدما أثبتت لجنة البحث التي أحدثت بظهير شريف في 6 رمضان 1377هـ/ 27 مارس 1958م، عدم أهليته الوطنية، وحكمت عليه بالتجريد من كافة حقوق المواطنة لمدة خمسة عشر عاما موقوفة التنفيذ لوفاته، كما حكمت عليه بمصادرة ثلاثة أرباع أملاكه[64].

وإذا كان هذا هو المصير الذي آل إليه هذا الفقيه، فهل يمكن اعتباره مصيرا عادلا لرجل مثل الحجوي؟ أم أنه مآل حتمي كان مفروضا أن يصله الحجوي لشجاعته الأدبية وتحديه للمقلدين في طرح ما يراه مناسبا دون مبالاة بتبعاته؟ وهل كان فعلا – كما قيل– خائنا للقضية الوطنية وعميلا لفرنسا؟ أم أن الأمر لا يتعدى سوء فهم طروحاته ومواقفه؟ وهل هناك أيدي خفية كانت تحاول تشويه أفكار الرجل وتحوير مقاصده خدمة لأهدافها ومصالحها؟ أم أن ما أصابه لا يعدو أن يكون شكلا آخر من أشكال الظلم والحيف الذي أصاب عددا من الرجالات والمفكرين عبر التاريخ؟ وأن تلك الالتفاتات – وإن كانت محتشمة – لفكر الحجوي في عدد من الكتابات والندوات اليوم هي نوع من رد الاعتبار لهذا الرجل بعدما ظلمه معاصروه وبخسوه

حقه؟ أسئلة ستبقى معلقة عسى أن يجيبنا عنها البحث الجاد والموضوعي في المسار الفكري لهذه الشخصية.

وصفوة القول، ومن خلال إطلاعنا على عدد من كتابات هذا الفقيه المصلح المجدد، فإن مسألة الخيانة التي ألصقت به تبقى في حاجة إلى إعادة نظر قبل إطلاقها، لاسيما وأن الفحص العلمي الدقيق لمواقفه وأفكاره لا ينم إلا على عكس ذلك، وربما كان «ذنب» الحجوي أنه عالم مصلح ومجتهد مجدد ظهر قبل أوانه.

* * *

هوامـش :

1ـ محمد بن الحسن الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1416 هـ / 1995م، ص 15.

2ـ للمزيد من الإطلاع على أصل ونسب آل الحجوي، راجع: عبد الاله الفاسي، مادة الحجوي، معلمة المغرب ، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مطابع سلا 1419هـ/1998، ج 10، ص 3336-3337.

3ـ التحق بالقرويين سنة 1307هـ/1889م، أما العلماء الذين تتلمذ على أيديهم، فأشهرهم: أحمد بن الخياط الزكاري ومحمد بن التهامي الوزاني ومَحمد بن محمد بن عبد السلام جنون، ومَحمد القادري، والحاج احمد بنسودة وعبد السلام الهواري، وغيرهم.

4ـ الحجوي محمد بن الحسن، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1416 هـ / 1995م، ج 1، ص 17.

5ـ الإعفاء من مهامه كان من بين أسبابه كذلك الزوبعة التي أثارتها زيارته للجزائر لتدشين مدرسة إسلامية بها سنة 1905م.

6ـ محمد بن الحسن الحجوي، الفكر السامي ... مصدر سابق، ج 1، ص 18.

7ـ المصدر نفسه، ج 1، ص 18.

8. نفسه، ج 1، ص 18.

9. نفسه، ج 1، ص 10.

10. نفسه، ج 1، ص 10.

11. استقينا هذا الوصف من الحجوي نفسه، حيث قال عن كتابه صفاء المورد في عدم القيام عند سماع المولد: « أول ما طبع من تواليفي بفاس سنة 1337هـ[1919م]، وأول كتاب ظهر من نوعه بالمغرب على عهد النهضة الأخيرة عن فكر استقلالي سلفي مستند للكتاب والسنة، غير مكترث بأقوال تعتمد على الخيال». راجع: محمد الحجوي، الفهرسة: مختصر العروة الوثقى في مشيخة أهل العلم والتقى، تحقيق: محمد بن عزوز، سلسلة علماء القرويين رقم 2، مركز التراث الثقافي المغربي، البيضاء - دار ابن حزم بيروت، ط 1، 1424 هـ/2003 م، ص 125. وهذا إعلان صريح عن اتجاهه الفكري الذي يتسم بالشجاعة والجرأة، فقد أثار هذا الكتاب ضجة، وردّ عليه عدد من العلماء، كأحمد بن المواز بكتاب حجة المنذرين. وأيضا العابد أبي عبد الله الفاسي، وأبي عبد الله الرافعي الجديدي. راجع ذلك عند: عبد الله الجراري، التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين، مكتبة المعارف، ط 1، 1985، ص 138.

12. من ذلك مثلا ما قاله عن علماء الرباط في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم التادلي (ت 1311هـ) حيث أكد أن هذا المترجم هو من نشر العلم بالرباط بعدما كان صفرا، وصيره زهراً بعدما كان قَفراً، وأضاف أن الرباط ما كان به من يستحق أن يقال له عالم قبله، وأن علماءها كانوا قبل 1300هـ إذا مات أحد لم يعرف العدول هناك قسم تركته، وإنما يقسمها لهم الطبجية حتى نشره فيهم المذكور. راجع: محمد الحجوي، الفكر السامي ... ، مصدر سابق، ج 4، ص 366. وقد أثار هذا الاتهام عددا من العلماء فتصدوا له بقوة مثل محمد بن عبد القادر فرفرا الرباطي في كتاب سماه حجة الغيور في الذب عن أرباب الصدور، وعبد الله الجراري في كتابه أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا، حيث قال بعد ما أورد أسماء عدد من العلماء الرباطيين: « من هنا نفهم القولة التي صدرت من المرحوم السيد الحجوي في تأليفه الفكر السامي حيث ... نجده حاد عن الصواب فرمى أهل الرباط بوصمة الجهل والانحطاط، والتاريخ الأمين شاهد عدل يفند كل ذلك، ويحكم بأن المؤلف كان بعيدا عن الحقيقة». راجع ذلك عند: عبد الله الجراري، التأليف ونهضته بالمغرب ....، م س، ص 138.

13. مثال ذلك ما وقع له في المناظرة الثانية التي شارك فيها لسنة 1925م إلى جانب أبي شعيب الدكالي، وعبد الحي الكتاني، ومحمد السائح وغيرهم تحت رئاسة الصدر الأعظم محمد المقري، حيث مُنِعَ من إتمام محاضرته لما تجرأ على الخوض في مسألة تعليم المرأة التي كانت موضوعا شائكا

لا يستطيع أحد طرحه أو التكلم فيه. انظر: عبد الله الجراري، من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا. مطبعة الأمنية الرباط، ط 1، 1971م، ج 1، ص 68.

14. راجع قولة العباس بن عبد الرحمن الشرقي الرباطي في دروس الحجوي، عند: عبد الله الجراري، من أعلام الفكر المعاصر...، م س، ج 2، ص 364.

15. راجعها في مختصر العروة الوثقى...، م س، ص ص 125-131.

16. طبعت أغلب مؤلفاته في تونس ومصر والجزائر، بل إن أهمية كتابه الفكر السامي جعلت كُلِّيتا تونس ومصر تقررانه ضمن مناهجهما.

17. محمد بن الحسن الحجوي، النظام في الاسلام، المطبعة الوطنية الرباط، 1928 م، ص 56.

18. نفسه، ص 16.

19. نذكر منها مثلا محاضرته لسنة 1922م بمعهد الدروس العليا بالرباط حول تعليم المغاربة، ومحاضرته بالمعهد نفسه في مؤتمره الرابع حول تقييم التعليم العام في المغرب، ومحاضرته حول تعليم المرأة تعليما عربيا، ثم كتابه تعليم الفتيات لا سفور المرأة، وغيرها.

20. الحجوي، الفكر السامي ... مصدر سابق، ج 4، ص 226.

21. انظر هذه الأقسام في الفكر السامي، ج 4، ص 228-227.

22. محمد الفلاح العلوى،القرويين في مطلع القرن العشرين بين التقليد والتجديد، دعوة الحق،ع364، ذوالحجة 1422هـ/فبراير2002م، السنة43، ص20.

23. محمد عمراني، جامع القرويين فيما بين 1914م و 1934م، د.د.ع في التاريخ، 1987 م، مرقون بكلية الآداب بالرباط، ص 162. وقد أشار الباحث إلى أسباب أخرى خفية زكت جناح المعارضة، أهمها ما يتعلق بالعلماء الذين صُنِّفوا في درجات لم يرضوا عنها، أو أولئك الذين لم يستفيدوا ماديا من عطايا المخزن والأحباس والإقامة العامة، مع احتجاج البعض على تعيين رئيس المجلس التحسيني، وعدم خضوعه لمبدأ الانتخاب كبقية أعضاء المجلس، كل هذه العوامل ساهمت في اندلاع حملة احتجاجية توقفت معها الدراسة إلى حين تدخل السلطة. المرجع نفسه، ص 161.

24. الحجوي، الفكر السامي ...، مصدر سابق، ج 4 ص 229-228. كما تأسف لهذا الإخفاق عدد من رواد السلفية الجديدة، أمثال أبي عبد الله محمد الأعرج السليماني الذي كتب قصيدة طويلة تحسر فيها على الموقف الذي اتخذه دعاة التقليد متهما إياهم بالقصور والجمود، مشيدا بمجهودات الحجوي في هذا المجال. أورد الحجوي أبياتا كثيرة منها في الفكر السامي، ج 4، ص 229.

25. عبد الله الجراري، من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا، مصدر سابق، ج 1، ص 49.

26ـ يقول الحجوي متحدثا عن مكانة المرأة في تربيته: « إن تأثير هذه التربية الأولى على حياتي هي التي أوضحت لي أن تربية الأمهات لها دخل كبير في تهيئة الرجال النافعين، وإعداد الأمم للنهوض، لذلك أرى وجوب تعليمهن وتهذيبهن تعليما يليق بديننا، ويزين مستقبل أولادنا، ويصيرهن عضوا نافعا في هيأتها الاجتماعية، فلا غنى لنا عن إعانتهن في تربية رجال المستقبل الذين عليهم مدار حياة البلاد، وتعليمهن فن التربية ونظام البيت وقواعد الصحة والدين، وحفظ القرآن أو بعضه والحساب والجغرافيا والتاريخ والعربية والأدب الحقيقي لا الخيالي ونحو ذلك مما يعينهن على مهمتهن ويضيء لهن الطريق». محمد الحجوي، الفكر السامي ...، م س، ج1، ص 12.

27ـ عبد الله الجراري، من أعلام الفكر ....، م س، ج1، ص 68.

28ـ راجع تفاصيل أكثر حول هذه الواقعة عند: عبد الله الجراري، من أعلام الفكر ....، م س، ج1، ص 68.

29ـ لم تكن مسألة منع البنت من التعليم في المغرب فقط، بل في أغلب البلدان العربية والإسلامية، ودليلنا في ذلك ما لاقاه الإصلاحيون في الوطن العربي أمثال قاسم أميم، والطاهر حداد، والشاعر جميل صادق الزهاوي الذي نشر مقالا في « المؤيد « سنة 1926م في الموضوع نفسه، حيث أحدث ضجة في العالم العربي، وتجمهر الناس ضده، ورفعوا أمره إلى الوالي ناظم باشا. ونرى أن الحجوي قد سبقه إلى ذلك، مما يشهد له بقصب السبق في هذا الباب.

30ـ توجد نسخة من هذه المحاضرة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، رقم 118 ح.

31ـ عبد الله الجراري، من أعلام الفكر المعاصر ... ، م س ، ج 1، ص 69.

32ـ أسس المهدي بن بركة جمعية قدماء اليوسفية بالرباط والتي تبنت مشروع تعليم الفتاة، وقدمت تقريرا في الموضوع إلى السلطان محمد الخامس، ومما جاء فيه: « مولاي تلتمس جمعيتنا من جلالتكم الكريمة وضع اللبنة الأولى في تعليم الفتاة المغربية بأن تولوها عنايتكم السامية ... لقد أصبح من الضروري تعليم الفتاة المغربية لإصلاح حالها وتقويم اعوجاجها حتى تكون عاملا قويا في رقي مجتمعنا وسعادته، فنحن وإن كنا لا نتطلب منها الآن ثقافة عالية، فإننا نود أن تصبح في القريب العاجل لأسرتها خير مثال يحتدى، ولزوجها أحسن مساعد يستشار، ولأولادها أكبر مرب خير». المصدر نفسه، ج 1، ص 70.

33ـ علق الجراري على تأخير تنفيذ هذه الفكرة، وفرضها نفسها فيما بعد قائلا: «ويبدو أنها لو أخذت طريقها المبكر ساعته، لسارت يحذوها الوقار، وتحوطها هالة الحشمة وكرامة الأنوثة في تدرج لائق،

لكنها فرضت نفسها بعد عشرين سنة من إعلانها، فاندفعت في فورة ثائرة تتعثر هنا وهناك، وتميع بعض جنباتها ميعة مخجلة».عبد الله الجراري، التأليف ونهضته بالمغرب... ، م س، ص 55.

34ـ توجد منهما نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، رقم ح 123، ص 117.

35ـ المصدر نفسه، ص 113.

36ـ نفسه، ص 117.

37ـ نفسه، ص 113.

38ـ نفسه، ص 113.

39ـ راجع المقترحات الإصلاحية التي قدمها الحجوي للمولى عبد الحفيظ في الرسالة المذكورة، وهي تهم العدل والتنظيم الجيد، واختيار الموظفين الأكفاء، وإحصاء كل شيء، وذلك بضبط الأمور المالية والأحباس، والاهتمام بالعلم والعلماء، واعتماد مبدأ الشورى ...وغيرها.

40ـ الرسالة نفسها.

41ـ محمد الحجوي، الخبر عن دولة المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ح 128، ص 47 .

42ـ محمد الحجوي، المنتخبات الجعفرية، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ح 198، ص 76.

43ـ محمد الحجوي، الخبر عن دولة المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ، م س، ص 58.

44ـ نفسه، ص 61.

45ـ اتهم الحجوي السلطان بأكل أموال الناس، وتكديس أموال طائلة بمختلف الوسائل: بيع أراضي الأحباس والمخزن، وجل معادن المغرب، وبيع الوظائف... وغيرها. راجع ذلك عند: محمد الحجوي، الخبر عن دولة المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ، م س، ص 94.

46ـ أسية بنعدادة، الفكر الإصلاحي في عهد الحماية: محمد بن الحسن الحجوي نموذجا، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط1، 2003، ص 153.

47ـ محمد الحجوي، الخبر عن دولة المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ، م س، ص 56.

48ـ أهمها حسب رأيه هي: سياسة الحاجب با احماد الذي نهب مداخيل المغرب وتقاعس عن منع احتلال توات وفكيك. وسلوك المولى عبد العزيز المتسم بالليونة الزائدة، والميل إلى الراحة، والثقة المفرطة في الأجانب (جاكلين) والحضارة الأوربية. وفساد المؤسسة المخزنية المتمثل في الرشوة وبيع

الوظائف. وعدم الاهتمام بتنظيم الجيش وفق الأساليب العصرية. وسوء تدبير المولى عبد الحفيظ وعدم قيامه بأمور البلاد كما يجب. وجهل الرعية والمسؤولين ولجوئهم إلى نظام الحمايات والتستر وراء الأجانب.

49ـ أكد الحجوي أن ما وصل إليه المغرب على مستوى التعليم مثلا هو مساعدة « من جانب المقيم العام المرشال اليوطي الذي أنهض المغرب، وكان من الشغف بإحياء مآثر الإسلام بمكان رفيع لائق بما له من سعة المدارك ونزاهة الأفكار الإصلاحية». محمد الحجوي، الفكر السامي...، م س، ج4، ص 231.

50ـ كان قد بعثه لحضور احتفالات 14 يوليوز بفرنسا سنة 1919م.

51ـ كان الحجوي يعتبر أن فرنسا هي من نشر العلم، وأحيى العدل بالمغرب، وعمر هذه البلاد، وبث فيها الأمن والاستقرار والنظام، وأخرج خيراتها، ورصف طرقاتها، وغرس الأشجار، وأجرى المياه، واعتنى بالحِرف والصنائع فأدخل المستجدات التقنية السلكية واللاسلكية، ومد الطرق والسكك الحديدية. وفي هذا الصدد يقول: « والمغرب مدين بمنة كبرى لدولة الحماية التي أخذت على نفسها انتشاله من هوة تأخره والنهوض به لمستوى العلم والعرفان». محمد الحجوي، خطب تبين أهمية التربية والعلم، م خ ع بالرباط، رقم ح 156، ص 3.

52ـ محمد الحجوي، النظام في الإسلام، م س، ص 20.

53ـ محمد الحجوي، مختصر العروة الوثقى، م س، ص 46.

54ـ لقد كان الحجوي يدعوا دائما إلى تمثل النموذج الأوربي، انظر مثلا تقريضه لكتاب اللسان المعرب لأبي عبد الله السليماني، مطبعة الأمنية بالرباط، ط1، 1971م، ص 192-191.

55ـ هذه القولة هي عنوان لمحاضرة ألقاها الحجوي بمكناس، ونشرتها جريدة السعادة بالرباط، ثم مجلة الزيتونة بتونس، توجد منها نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، رقم ح 113. وقد نشرت مؤخرا سنة 2005م في كتاب مستقل بتحقيق محمد بن عزوز، صدر بشراكة بين دار ابن حزم ببيروت ومركز التراث الثقافي المغربي بالدار البيضاء.

56ـ محمد الحجوي، المغرب والحماية، مخطوط الخزانة العامة، رقم ح 254، ص 11

57ـ المصدر نفسه، ص 26.

58ـ على الرغم من أن الحجوي كان يرى أن الظهير البربري نقمة حاولت فرنسا إنزالها بالمغرب، إلا أنه كان يقول إن إعلانه كان نعمة للمغاربة، حيث أفاق من كان من المغاربة نائما، وأفصح عن النوايا الحقيقية لفرنسا. المصدر نفسه، ص 24.

59- لقد بسط الحجوي الكلام في هذه الأزمات في: أهم الأخبار عن حرب الثأر والاستعمار، م خ ع، رقم ح 122، وهو تأليف في حوالي ثمانية أجزاء.

60- نفسه، ج 8، ص 29.

61- نفسه، ج 8، ص 29.

62- تشير المصادر إلى أن الحجوي في تلك الفترة كان فاقدا لقدراته العقلية، وأن حالته السيئة كانت تنسيه حتى اسمه فيوقع باسم آخر، إلى درجة أن موظفيه كانوا يكرهونه لحالته النفسية المتدهورة ولانفعالاته الحادة والمتكررة بلا سبب. راجع: أسية بنعدادة، الفكر الإصلاحي في عهد الحماية: محمد بن الحسن الحجوي نموذجا، م س، ص 211.

63- عبد السلام ابن سودة، إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، موسوعة أعلام المغرب، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996م، ج9، ص 3320/ محمد حجي، مادة: الحجوي محمد بن الحسن الفاسي، ضمن معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مطابع سلا، 1419هـ/ 1998م، ج 10، ص 3338.

64- أسية بنعدادة، الفكر الإصلاحي في عهد الحماية: محمد بن الحسن الحجوي نموذجا، م س، ص 212. وهذا الإجراء لم يلحق الحجوي وحده، بل مس عددا من أفراد عائلته، خاصة ابنه المهدي الذي كان قد تقلد مناصب مهمة إبان الحماية (الكتابة في المحكمة العليا- باشا مدينة وجدة)، حيث ورد اسمه ضمن اللائحة الأولية للأشخاص الذين شملهم قرار الحرمان من التصرف في أملاكهم باعتبارهم متعاونين مع الاستعمار، حسب ما نشر في البلاغ الصادر عن رئاسة الحكومة المغربية بتاريخ 6 صفر 1376هـ/ 2 شتنبر 1957م، بجريدة العلم بتاريخ 4 شتنبر 1957م.

* * *

البعد الاقتصادي والاجتماعي للإصلاح
عند محمد الحجوي*

محمد الصمدي**

لقد بدأت المجتمعات الإسلامية المعاصرة تدرك بعمق ووضوح أن التقدم الحضاري أصبح ضرورة ملحة في حياتها، وأنه لا سبيل للوصول إلى ذلك إلا بواسطة الاستفاذة من علوم العصر وتقنياته، ولذلك فإن الفكر الإسلامي المعاصر يرحب بدارسة النظريات الغربية كافة في إطار المنظومة الحضارية الإسلامية بغية تحقيق التوازن والعدل والوسيطة، ومن أجل ذلك دعا الإسلام الإنسان إلى الانخراط في عملية التنمية الاجتماعية الشاملة على أسس علمية سليمة انطلاقا من مقاصد الدين الكلية ولذلك يتوجب إعادة صياغة الفكر الإسلامي حتي يتسم بالوضوح والعمق والتطور، واتباع أسلوب الاقناع والحجة والحوار وقبول الاختلاف في الرأي والانفتاح على الآخر.

إن تطوير المجتمعات الإسلامية يمر عبر تطوير الفقه العام، وهذا الأخير يمر عبر فتح باب الاجتهاد، وذلك يقتضي ضمان حرية المجتهدين وبما أن مهمة المفكر محدودة بحدود أمانه ومكانه فينبغي أن لا يخشى الخطأ والقصور، والحوار والنقاش والاختلاف في الرأي مع غيره «فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها».

* قدمت هذه الدراسة ضمن أعمال الندوة العلمية حول «المسألة التعليمية في الكتابات الإصلاحية في المغرب الحديث» والتي نظمتها كلية الآداب بتطوان - شعبة التاريخ أسام 22 و 23 **دجنبر** 2005.

** أستاذ باحث، كلية أصول الدين، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان.

سنحاول من خلال هذه الورقة التنقيب عن بعض النصوص في تراثنا الفقهي لنرى إلى أي ساهم علماء المغرب في تطوير الفقه على ضوء ما جد من أنماط اجتماعية واقتصادية، مؤكدين على نموذج فريد طبع تاريخنا الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بالعقلنة والتحديث. ذلكم هو الفقيه المجدد محمد بن الحسن الحجوي، فإلى أي أحد ساهم هذا العالم الغيور والمجتهد المصلح الواعي بمسؤولياته الدينية والوطنية في بلورة رؤية فقهية معاصرة تستجيب لخدمة الإنسان المغربي وإنقاذه من السقوط الحضاري ووضعه على طريق التغيير والبناء الجديد؟ هل يمكن القول بأن فقيهنا أراد أن يؤسس معالم مدرسة جديدة في الإصلاح باكتشاف الأسباب الحقيقية للانحطاط الطويل الذي أدى بالمجتمع المغربي إلى الاستسلام، في النهاية، للاستعمار مع مطلع القرن الماضي؟ كيف يمكن تقوية المجتمع المغربي بتحديث أجهزته الاقتصادية وتنمية موارده المالية والبشرية؟

بالرجوع إلى كتابات الرجل نرى أنه كان يولي عناية بالغة بالمجتمع بعناصره الحية ويؤكد على دورها في عملية التنمية الشاملة من المجلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، خاصة عندما تتردى الأوضاع ويزداد خطر التجزئة والتبعية، وهكذا تصبح عملية توظيف التراث العربي الإسلامي وخاصة التراث الفقهي في عملية العقلنة والتغيير مطلبا ضروريا، حسب الحجوي - باعتبار أن الفقه سجل اجتماعي لحياة المسلمين، وهو فقه متطور حركي يصور الظواهر الاجتماعية التي أحاطت وعاش فيها المسلمون، فمثلا : دافع الفقهاء عن قضية الت،ازن الاقتصادي، وأكدوا على وظائف الدولة الاقتصادية، وعدالة توزيع الثروة، فوضعوا لذلك اجتهادات تحافظ على حقوق العمال وتحدد حرية الأفراد في إطار القواعد والمقاصد العامة للشريعة، ومنع التعسف في استعمال الحقوق، انطلاقا من أهم أهداف الإسلام وقواعده وهو تحقيق مصالح العباد حتى إنهم صاغوا القاعدة الفقهية المشهورة «حيثما كانت مصلحة المسلمين فثمة شرع الله».

ضمن هذا النمط يمكن أن نخضع كتابات محمد بن الحسن الحجوي، وهو الفقيه، المجتهد والمصلح المثقف والسياسي الغيور، التي تلقي أضواء كاشفة على مرحة خطيرة من مراحل تشكل التاريخ المعاصر في المغرب. إننا نميل إلى الاعتقاد أن إعادة استغلال وقراءة أفكار الحجوي حول المجتمع المغربي كفيلة بمراجعة بعض الأطروحات الكولونيالية التي حاولت طمس معالم الحضارة المغربية الإسلامية. وأن المغرب لم يكن شيئا يذكر، وأن الرسالة الاستعمارية هي التي أخرجته إلى الوجود مبالغين مثلا في الكلام عن أطروحة (عزلة المغرب)[1] وسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، مبررين بذلك أسباب الوجود الفرنسي بالمغرب، ونذكر على سبيل المثال كتابات هنري تيراس وميشو بلير ولويس ماسينيون ولوي مييج وغيرهم.

لقد آن الآوان لكي نضع الأمور في نصابها ونفرق بين التاريخ الوطني والتاريخ الاستعماري. إن الصراع الذي خاضه مؤرخر الاستعمار فرض عليهم أن يخلصو في دراستهم إلى نتيجة مسبقة، وهذه الخلاصة هي أن المغرب لم يكن قادرا في يوم من الأيام على القيام بذاته كدولة قارة، فهو غارق في الفوضى إلى الأبد لولا تدخل دولة أوربية تضطلع بمهمة إدخاله في طور الحضارة، هذا طبعا لتبرير الغزو المقصود[2] وإذا كان هذا صحيحا فكيف استطاع المغرب «المنهوك القوى المتأخر، في نهاية المطاف التغلب على المحاولات المتكررة التي بذلتها الدول المسيحية للسيطرة عليه كما أنه نجا نهائيا من سيطرة الأتراك، حتى إذا كان عهد الإمبريالية وجد المغرب من بين تلك البلدان القليلة التي قاومت مقتومة أطول وكانت استماتة، بحيث أنه عندما تم الإعلان عما يسمى بالحماية سنة 1912 كان العالم كله تقريبا قد خضع للقوم الاستعمارية»[3].

إن الدراسات العديدة حول العلاقات بين المغرب وأوروبا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كثيرة ومتعددة لا تخلو من افتراءات كما لا تخلو من حقائق، لقد عملت بعض الأطروحات على تغييب دور الإنسان المغربي في عملية التنمية

عبر التاريخ وطمس كل ما من شأنه أن يساعده على الانطلاقة من جديد في معترك الحضارة معتمدا على أصالته الدينية ويقظته الوطنية، بالمقابل وجدنا وثائق لمؤرخين مغاربة أمثال محمد الكردودي وعلي السملالي السوسي، ومحمد الصبيحي، وأحمد الناصري وابن زيدان وغيرهم تشهد الدولة المغربية بالحيوية والنظام قبل الحماية، وهو نفس الاتجاه الذي صار عليه محمد بن الحسن الحجوي، حيث ألف كتابه «الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي» موحيا بذلك إلى بزوغ مرحة جديدة من الوعي بالتاريخ.

1. الدعوة إلى يقظة المجتمع المغربي

لاشك أن الفقيه محمد الحجوي كان في طليعة العلماء المغاربة الذين بحثوا عن عناصر القوة والتجديد في الحضارة الإسلامية من أجل بعثها واستغلالها في عملية الإصلاح والتحديث.

إن المجتمع المغربي حمل في طياته منذ القرن 19 م أسس يقظة فكرية وسياسية، كان من المفروض أن تنفذ البلاد من انحطاطها وتجنبها السقوط في مخالب الاستعمار، لذلك قام بعملية استقراء للحضارة العربية الإسلامية ولمؤسسات الاجتمهاد في الفقه الإسلامي ليؤكد على حضور الإنسان في عملية التنمية الاجتماعية من خلال ممارسته للفكر العقلاني الحر ضمن مقاصد الدين الكلية؛ فمن أجل بروز يقظة مغربية جديدة دعا الحجوي إلى تكوين الإنسان المغربي وإبراز دوره واستغلال طاقاته في خدمة المجتمع وأن الفقه الذي عطل حركة الإنسان والمجتمع إنما هو بسبب ما طرأ عليه من جمود وتعصب، تلك الظاهرة التي تحمل وزرها مجموعة من الفقهاء خلال عصر الانحطاط. لذلك دعا الحجوي إلى إخراج الفقه في ثوبه الجديد وإعادة النظر في بعض الفتاوى الفقهية التي طالما تحكمت فيها العادات والأعراف وانطلقت من مبدأ «الترحيم» الذي أصبح بعتبر أصلا في كل حالة من غير دليل شرعي

قاطع أو حتى قوي مع أن الأصل في الأشياء الإباحة[4] يقول في محاضرة «تجديد الدين»: «وإنما تجديد الفقه تدارك ما تدتعى من قواعده أو كاد، بسبب إغلاق باب الاجتهاد، فيما سبيله الاجتهاد، والحال أن كل مفت في زماننا الذي كثرت فيه المكتشفات والمخترعات مضطر لأن يجتهد...»[5].

ويؤكد الحجوي على ضرورة النهوض بالمجتمع المغربي، وإيجاد صيغ جديدة للتعامل من أجل الرقي والبناء، يقول : :لقد غاب نجك الحق في سحاب التقليد والتعصب المذهبي ولاسيما في فروع المعاملات المبنية على مصالح تليق بزمن مضى ولا توافق الزمن الحاضر، وتصلح أحكامها لأحوال دون أحوال وبيئة دون بيئة، مع ما تجدد في عصرنا من مبتكرات ومخترعات ونشأت معاملات لم يكن لها نظير في الزمن الغابر»[6] وهو بذلك يريد أن يصحح الصور المشوهة عن الإسلام والمجتمعات الإسلامية لدى الغرب الذي عمل على نشر الكتابات الاستشراقية الممهدة والمرافقة للحملا الاستعمارية[7].

يتضح ذلك من خلال قوله : «سمعت بعض الفضلاء المدرسين يقول يوما في ناد علمي « إن الإسلام لم يعرف نظاما منذ ثلاثة عشر قرنا فتلطفت معه إلى أن أقنعته بأن الإسلام جاء بالنظام وأن حقيقة شريعة الإسلام هي نظام المجتمع العام» وكانهذا الرد سبب قيامه بمحاضرة عنوانها ب : «النظام في الإسلام» مستعرضا فيها صفحات مشرفة للحضارة العربية الإسلامية في شتى ميادين الحكم والإدارة والعلوم والفنون والصناعات... ومحاولا التأكيد على إبراز الطاقات الإنسانية في الحضارة الإسلامية واتباعه كل الوسائل والقواعد في عالم العمران المادي والبشري. والنظام في الإسلام هو رمز القوة والتقدم والإسلام شريعة «النظام وضبط الحقوق» و«الأمم بقدر تمسكها بالنظام وأحكامه وقيام رجالها بمراقبة العمل به والتمشي عليه، وتأخرها بقدر انحلاله والتفريط فيه». فإذا كان الإسلام قويا في الماضي فذلك لأنه : «لا يتصور فكر عاقل أن تمتد الأمة الإسلامية هذا الامتداد الطويل في الكرة

الأرضية من شرقها إلى غربها وارثة تراث أمم نظامية كالفرس والروم إلا إذا كانت تامة النظام أحسن من نظام من قبلها ». أما الأدلة على ذلك فكثيرة : «ومن نظام الإسلام الاعتناء بسقي الأرض وجر المياه وفتح الترع لنفع البشر والفلاحة كما صنعوا في البصرة وبين النهرين ومصر وآثارهم ماثلة ترى بالأبصار »[8] و«من نظام الإسلام المحافظة على الصنائع وترقيها فقد حافظوا على ما وجدوه واخترعوا غيره كصنعة الصيدلة والكيمياء الصحيحة »[9].. وهكذا يصبح مفهوم «النظام» أساسيا ومحوريا في المشروع التحديثي عند الحجوي، فهو يقول : «أما مجدنا الحقيقي فهو ما محصله من كدنا ، وعليه فلينتظم العالم منا دروسه وكتابته والتاجر تجارته والفلاح فلاحته والصانع صنعته ورب البيت بيته والكل يتعين عليه أن يدخل النظان في كل شيء ليحفظ وقته الذي هو أنفس ما يحفظ »[10] ويقول أيضا : «وأقبح الخصال التي أوردت بالإسلام هو جمود متأخريهم عن كل قديم وتفريطهم في حفظ النظام وإهمالهم إصلاح الأنظمة القديمة التي لم تبق مناسبة للأحوال المتجددة وغلبة الوهم على أفكارهم حتى عدوا المحافظة على القديم من فروض الدين... فالدين يقدم فيه حفظ المصلحة العامة وصون البيضة وارتقاء الأمة »[11].

2 ـ الذاتي والخارجي في عملية تطوير التعليم عن الحجوي

نعتقد أن مشروع الحجوي في هذا الجانب انطلق من التأكيد علي وجود رصيد ثقافي تربوي للأمة أراد استحضاره كجزء من الجواب عن التحدي الغربي، لذلك نراه في جل كتاباته يرجع إلى تحليل الواقع الاجتماعي، فيقدم تشخيصا دقيقا لأمراضه ومشاكله، وكيف انحرف عن معاني الأصالة والعفة والأنفة والشخصية المستقلة إلى داء الجهل والأمية والشعود بالهزيمة فانبهر بكل ما أتى من الغرب وأصبح يتوجس خفية منه، يقول الحجوي : «غير خفي أن علة العلل في تأخر الأمة العربية أو الأمم الإسلامية هو داء الأمية وكل يعلم مضارها العظمى وأثرها الشيء فينا... لذلك أرى أن أول داء نبادر لعلاجه وحسم مادته هو ذلك الداء العضال داء الأمية، ولا

تزول جراثيمه إلا إذا تساوى أفراد الأمة ذكرانا في قدر من العلم الأدبي... ولا سبيل بحسب العادة إلى الوصول إلى هذا القدر إلا بتسهيل تعليم القراءة والكتابة وبه زوال غشاوة الأمية عن أبصار الأمة (لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة)[12].
وهكذا أدرك الفقيه الحجوي أنه من الصعب نجاح أي تنمية في مجتمع غير متعلم، فجعل ركائز مشروعه الإصلاحي الدعوة إلى تطوير المجتمع بتطوير مناهج التربية والتعليم لأنه الباب الذي يلج منه المجتمع من البداوة إلى الحضارة ومن الفوضى إلى التخطيط والنظام، والقضاء على الأمية ومحاربة العقلية الخرافية، يقول : «لا ريب أن انتشار العرفان في الأمة حتى ينال حظه منها التاجر والصانع وغيرهما عنوان «ذكاء الأمة ورقي فكرها وحسن مجتمعها»[13].

ومرة أخرى يحاول الحجوي أن يرجع أسباب الأزمة إلى ضعف العلم وتراجعه وسيطرة عقلية التقليد محاولا طرح الحلول الممكنة لها[14]، وهكذا يرى ضرورة تجاوز المناهج التقليدية في التعليم التي يفني الطالب عمره فيها والإقبال على تعلم المناهج العلمية واللغات الحية حتى يستطيع بناء حضارته على أساس علمي، يقول: «ينبغي أن يقتصر في التعليم الإبتدائي على القدر الضروري الي يحتاج إليه من يريد أن يتوقى اللحن فيها يعبر به عما في ضميره والغلط في فهم عبارة غيره، وهذا القدر لا يلازم فيه أن يدرس ألفية ابن مالك وشروحها ولا كافية ابن الحاجب وشافيته فضلا عن التوضيح والتسهيل أو نحوها مما كانت تسميته من باب الأضداد»[15]. ويضيف قائلا : «إن من يريد أن يمر بالمعلمين ليتزود منهما زاد مسافر يوصله لغيرهما من المقاصد غير محتاج إلى دراسة أمثال هذه الكتب المسهبة بكثرة اختصارها واحتياج رموزها إلى شرح، وشروحها ؤلى حواش وأخذ ورد وقبول ونقد، فالدراسة بها تحتاج إلى أن ينقطع الطالب إليها ثلاث سنوات أو أربعا لا يزاول غيرها. وأنى لأبنائنا أن يجدوا هذا الوقت في المدارس الثانوية فضلا عن الابتدائية... لأنهم مطالبون بعلوم دينية وأدبية أخرى مع العلوم العصرية التي أصبحت ضرورية لمعاشهم وازدهار مستقبلهم»[16].

والملاحظ أن ظاهرتي الاختصار والحفظ طبعت المناهج التعليمية منذ العصر الوسيط، وكانت موضع انتقاد من طرف أعلام المغرب الكبير أمثال ابن خلدون وابن القباب الفاسي وعلي بن ميمون الغماري وأبي العباس الونشريسي وغيرهم إلا أن محاولاتهم لا تبق أذانا صاغية، الأمر أخيرا إلى أن طغت المختصرات على كثير من المواد الدراسية، وكانت سببا في جمود الدراسات وتأخرها ، كما طبعت المادة العلمية بنوع من العقم فانعدم الابتكار وأثر هذا بالتالي في الطلاب فأصبحوا يعيدون ما يسمعون ويعنون بالمسائل الشكلية التافهة ويعتمدون على الاستذكار والحفظ عن ظهر قلب دون الفهم أو الوعي السليم»[17].

وهذا ما قصده بالضبط محمد الحجوي بقوله : «لا أريد كتبا تختصر من الكتب السالفة الذكر اختصارا بل أريد ممن يؤلف في النحو كتب الدارسة أن يثور ثورة مهولة جريئة على النحويين فيكسر السجن الذي سجنونا وسجنوا فيه أنفسهم ويطلقنا من ربقة أفكار المؤلفين ولاسيما المتأخرين فينبذ وراء ظهره الأسلوب الذي التزموه وهو تضخيم علم النحو وتكثيره وصيرورته علما عظين الجثة بالعمامة والثياب حتى صار شبحا مخوفا فحرموا من النفع به عموم الأمة وكانوا سببا في إبعادها عن لغة القرآن وعن لغتها المحبوبة وحرموها من التقدم وزوال الأمية»[18].

ويقترح الحجوي ضمن إصلاح المناهج التعليمية إثبات الذات المغربية وتفنيد مزاعم الاستعمار، وذلك لن يتأتى إلا بمعرفة التاريخ الوطني لأنه مقدمة لنهضة الضمير الوطني، ولا شك أن الصدمة الاستعمارية قد أزعجت وأيقظت في نفس الوقت درجة من الوعي في وسط المجتمع المغربي وهو ما يتضح من قوله :«عجبا لأمة ليس لها كتب دراسية لتاريخها المجيد، أليس من العيب المزري بنا أن نأخذ تاريخ بلادنا عن غيرنا ممن لا يمكن أن يعرفه كما نعرفه نحن فربما أضرنا في تاريخنا وأعز ما لدينا من حيث لا يشعر ومن حيث يظن نفعا»[19] ويقول : « ...فمن النقص البين فينا أن نبقى عالة على غيرنا فيما هو ضروري لنا جامدين على الدراسة في القرويين إلى يومنا هذا غالبها بالكتب القديمة ولا يتم نظامها إلا بالكتب الموافقة لروح العصر وبذلك تنتعش اللغة والأدب وتدب في علومنا حياة قوية ويختصر بسببه زمن الدراسة ويرتقي المعهد إلى المستوى المطلوب»[20].

3 ـ علاقة النظام التعليمي بالتنمية الاقتصادية

كان الحجوي واعيا تمام الوعي بضرورة شمولية التعليم وتعميمه حتى يشمل كل شرائح المجتمع المغربي من فلاحين وحرفيي وتجار وجيش، لأنه المدخل الرئيسي لتنمية اجتماعية واقتصادية شاملة، وهو في هذه الحالة يستحضر حاله الشعوب الأوروبية التي سبقتنا بفضل الثورات المتنوعة التي مرت منها وانتهت إلى درجة من الوعي. يقول : «التعليم من الأشياء القابلة للترقي دائما ولا ينحصر في دور من الأدوار، ولا يمكن أن يصدق عليه قول الغزالي : ليس في الإمكان أبدع مما كان»[21].

وبمناسبة حديثه عن ضرورة تعلم اللغات الأجنبية من أجل التقدم يأتي بنموذج التجارة والفلاحة والصناعة التي لا سبيل لترقيتها وزيادة ثروتها إلا بمعرفة اللغة الأجنبية ولا شك أن الفقيه التاجر لا يجد مانعا من تطوير أساليب التجارة على الطراز الأوروبي إذا كان في ذلك مصلحة، لأن الشريعة الإسلامية ما جاءت إلا لخير الأمة ولرقيها ورفاهيتها، ولم يجعل الله شريعة قط ضد الرقي وضد صيانة بيضة الإسلام ولذلك يتساءل في محاضرة له عن «مستقبل تجارة المغرب» لماذا تقدم الأوروبيون وتأخر المسلمون : «تقدموا لأنهم قدمهم العلم بالتجارة وآخر الجهل بعلمها[22] علامة التأخر هي الجهل : فحيث كانت دولة أوروبا تفتح أقساما ومعاهد عليا للتجارة يقبل عليها الآلاف من أبنائنا، تظل الأقسام التجارية في المدارس ولم ينفقوا من أموالهم ولو دانقا واحدا في سبيل العلم، فما شيدوا مدرسة ولا ناديا علميا ولا مكتبة»[23].

ولم ينس الحجوي الإشارة إلى بعض النماذج من الشباب المغربي الذين استفادوا من البعثات الأولى الموجهة إلى الخارج فكانوا دعاة للثقافة والمدنيج الغربية في بلادهم، وذلك «بسبب رحلتهم إلى أوروبا والشرق وأمريكا وغيرها، تفيده عقلا وقانونا في التفكير، بل تجد منزل كل تاجر به منتدى من منتديات الأدب والسياسة فتجد فيه جرائد ومجلات الشرق والغرب وكل كتاب حديث في الاجتماع والاقتصاد أو غيرها»، ويذكر على سبيل المثال : أبو العباس بن جعفر العمراني، والحاج الطاهر

مكوار، والحاج محمد القباج، ومحمد المنجرة[24]، وكان هذا الأخير قد نشر عدة مقالات في «مجلة المغرب» الصادرة سنة 1933-1934 يدعو فيها إلى تعلم اللغة الأجنبية وتطوير أساليب التجارة يقول : «ينبغي للتاجر معرفة لغة أجنبية لاتعينه إعانة فعلية لا يستهان بها في تعاطيه التجارة خارة بلاده إذ به تكون له اليد الطولى مع الدول التجارية والمعامل الصناعية وبها يستورد البضائع رأسا ويخابر أهلها ويخرج من تحت أسر النواب والسماسرة والوسائط الذين يستخدمون التاجر المجهول لمصالحهم ويحصلون على الغنى بمجهوداته وأمواله بطريقتهم العلمية التي لا حجاب بيننا وبينها سوى تعلم العلوم العالية واللغة» وفي فقرة أخرى يرى المنجرة كما سبق أن أرى الحجوي أن المسؤولية ملقاة على أغنياء الأمة «الذين عددهم كثير ببلادنا ولكنهم مع الأسف أغنياء لأنفسهم فقراء القلب من الشفقة والإحسان ضعفاء الهمة على عكس أغنياء الأمم الذين يسعون بكل ما أوتوه من قوة مالية في نفع أبناء جلدتهم بل وبني الإنسانية جمعاء... الذين نظروا للمصلحة العالية الدائمة ولا مصلحة أعظم من التعليم.. إذ من ألقي نظرة علي المغرب بأسره لا يجد أثرا جديدا لأبناء العصر في سبيل العلم وتجديده ولا يوجد من تبرع تبرعا يستحق الذكر في سبيل العلم وإحيائه وتقدمه... وغاية ما يقال وأن المغرب محتاج إلى نشر التعليم، فلا طمع في التقدم ما لم يعم التعليم سائر الطبقات، فالرجاء أن يستيقظ الناس لهذه المهمة العظمى ويعلوا للمصلحة العمومية ويجتهدوا فيها يوصل أبناءهم إلى مصارف الأمم الراقية...»[25].

وهكذا ينطلق محمد المنجرة من نفس المعطيات التي سبق وأن أكد عليها محمد الحجوي أي أن النهضة المنشودة تبدأ ببعث ذلك الشعور الذاتي والجماعي والتجربة الطويلة مؤكدا على تطوير المجتمع المغرب بالعلم لتجديد هياكله الاقتصادية حتى يستطيع إفشال مخططات التوغل الاستعماري لذلك يرى أن «العلم روح التجارة بل أساس العمران ومقامه من التجارة بمنزلة الرأس من الجسد والتجارة بلا علم كالجسد بلا روح، فتعلم الناشئة العلوم النافعة العالية واجب قبل كل شيء ثم تدريبهم على العمل والتجارة وإفهامهم مقامها وحضهم على الأخلاق المؤهلة لها...وأكبر عار على

المرء البطالة وأفضل امرء على وجه البسيطة من وصل نفعه لبني جلدته والباطلون هم العبء الثقيل على كاهل الأمة، وعلى المجتمع الإنساني أجمع، فهم كالبيداء القاحلة لا نبات فيها بنتفع به، فليحذر العقلاء وليحذروا أبناءهم ومواطنيهم من سم ذلك الداء الفتاك العضال داء الجهل والعجز والخمول... »[26].

وأعتقد أن الجديد بالنسبة لمحمد الحجوي هو التركيز على العناصر الداخلية والذاتية للإصلاح، أي استغلال الرصيد الحضاري والثقافي للأمة، والدفاع عنه وتصحيحه وتوظيف عناصره الإيجابية في عملية التحديث، فهو مثلا حين يتحدث عن التجارة يقرر مبادئ مستوحاة من صميم الفكر الاقتصادي الإسلامي والمقاصد العامة للشريعة الإسلامية وهو جلب المصالح إلى الناس ودرء المفاسد، وترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وارتكاب أخف الضررين، ورفع الضرر، وتقديم الحاجات الضرورية، وتكريم الإنسان، ومنع استغلاله بأي شكل من الأشكال، لذا كان الرجل واعيا تمام الوعي بمخطط التسرب الاستعماري الذي بدأ يزحف للانقضاض على العالم الإسلامي متخذا أشكالا عسكرية واقتصادية ومالية، فنبه رحمه الله، على خطورته ومواجهته باستغلال الطاقات البشرية وحفظ خيرات الأمة بما يقوي اقتصادها ويحفظ كرامتها واستقلالها[27].

ويحث الصانع المغربي على الجد في العمل والاستثمار والتفاني لحماية الاقتصاد الوطني ووفرة الإنتاج، ويقول : «كان الصانع المغربي مذ كان نافق الصنعة نشيط النفس غير كسلان وَلاَ وَكِلْ بعيد الغور في التفكير غير جامد ولا غبي، صاحب طريق أخرى بأن تقاوم تيار الفقر الذي تجلى في البلاد بإحياء الصنائع ومساعدة الصناع كي نستغني بمصنوعات البلاد عن الخارج شيئا فشيئا. ولا كلا على الناس وهو يمتصون دماءنا، سارعوا إلى مسابقة الأمم لما يحيي بلادكم من الاقتصاديات، ففقر البلاد بفقر صنائعها وغناها باستغناءها... »[27].

* * *

هوامـش :

1. لقد بلغت الكتابات الاستعمارية في التأكيد على مسألة «عزلة المغرب» وأنه ليس سوى مجموعة من القبائل المتناحرة تفتقد إلى أبسط أنواع التنظيم، كما أنها غير خاضعة للسلطة المركزية، ولقد حاول الأستاذ جرمان عياش من خلال دراسته المختلفة أن يفند الأسس النظرية التي قامت عليها الاستوغرافية الكولونيالية، لمزيد من التفاصيل، راجع كتابه « Etudes d'histoire marocaine1983
2. جرمان عياشو اتجاه جديد للبحث التاريخي في المغرب، أعمال ندوة : البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة ندوات ومناظرات رقم 14، ص 31.
3. جرمان عياش، نفسه ص 33.
4. مثال ذلكو قوله : «وقد يبنون الحكم على سد ذريعة عارضها ما هو أقوى منها، فقد أفتى بعض المفتين بمصر بحرمة قراءة القرآن العظيم أمام المذياع بل زعم أنه من الكبائر معللا بعلتين. الأولى إفساد الراديو لحروف القرآن، الثانية سد ذريعة سماعه في محلات اللهو والفساد، وهي فتوى خاطئة، فأما الحروف فإنها لا تتغير، وأما الذريعة التي ذكر فيهي معتبرة حيث عارضها ما أقوى منها...» انظر، محاضرة تجديد علوم الدين ص 14، مطبعة الثقافة، سلا 1357.
5. محاضرة تجديد علوم الدين ص 11.
6. نفس المصدر السابق ص 12.
7. حول بعض الكتابات التي تلقفتها المجتمعات الأوروبية المتعطشة للخيال والاستغراب وأضبحت المزود الرئيسي لوصف المجتمعات العربية بالتخلف والرجعية انظر أمثلة على ذلك في كتاب : عيد الجليل الحجمري بالفرنسية، صورة المغرب من خلال الآداب الفرنسية L'image du Maroc dans: la littérature française de loti à Montherlant -Alger 1973
8. الحجويو محاضرة النظام في الاسلام ص 22، مطبوعات معهد المباحث العليا المغربية بالرباط، 1928م - 1346 هـ.
9. الحجوي، المصدر نفسه ص 22.
10. نفسه ص 56.
11. المصدر السابق ص 56.
12. الحجوي، نقد كتب الدراسة للعلوم العربية بإفريقيا الشمالية، ط، تونس 1931، ص 1-2.
13. الحجوي، مختصر العروة الوثقى، ط. سلا 1937، ص 19.
14. راجع على سبيل المثال، الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي، الجزء 1، ص 270-271. والجزء 2، ص 174-412-413 و 431 و 449.
15. نقد كتب الدراسة... ص 3.

16. نفس المصدر السابق، ص 3.

17 ـ محمد حجي، الحركة الفكرية في المغرب على عهد السعديين، الجزء 1، ص 84، ط. المحمدية 1987.

18. نقد كتب الدراسة للعلوم العربية...ص 24.

19. نفس المصدر السابق 28، وحول الكتابات الاستعمارية حول تاريخ المغرب راجع : إبراهيم بوطالب، البحث الكولونيالي حول المجتمع المغاربي، حصيلة نقدية : ضمن أعمال ندوة : البحث الغربي حول المجتمع المغاربي فب الفترة الاستعمارية، منشورات كلية الآداب بالرباط 1989.

20. الحجوي، نقد كتب الدراسة...، ص 28-29.

21. محاضرة في إصلاح التعليم العربي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ص 152.

22. مستقبل تجارة المغرب، محطوط الخزانة العامة بالرباط.

23. نفس المصدر السابق، وراجع أيضاو سعيد بن سعيد العلوي، المثقف المخزني وتحديث الدولة بدايات السلفية الجديدة في المغرب، مجلة كلية الآداب بالرباط، العدد 10، 1984 ص 59.

24. ويضيف قائلا : ولقد كان سيدي الوالد قدس الله روحه يحضني على المجالسة والاحتماع بطائفة من هؤلاء الأذكياء ذوي التفكير الدنيوي والآداب، انظر للمؤلف مختصر العروة الوثقي، ص 19-21.

25. محمد المنجرة، التجارة والتجار، مجلة المغرب، عدد ماي 1933، ص 15 وكذلك عدد يوليوز 1934.ص 14-16.

26. روح التجارة بل أساس العمران، مجلة المغرب عدد 14 نونبر 1933 ص 34-35.

27. كانت الإدارة الاستعمارية قد بدأت بالتغلغل الاقتصادي والسيطرة على الأرض سلميا قبل الاحتلال وبعده، وكان لتلك السيطرة انعكاس سلبي على شرائح هامة من المجتمع المغربي، كما أن تغلغل النشاط التجاري الأوروبي انعكس على أوضاع السكان الاقتصادية مما زاد في فقرهم وتعرضهم لأبشع أنواع الاستغلال، حول هذا الموضوع راجع على سبيل المثال أبحاث الأساتذة : محمد خلوق التمسماني، وعبد الله العروي، وعبد الكريم غلاب، وحول ظاهرة بيع الأراضي للمعمرين بأبخس الأثمان هروبا من الفقر أو التعرض للسيطرة عليها بالقوة انظر : محمد هرورو، علم الاجتماع السياسي والحقل الكولونيالي بمجلة أبحاث، العدد 9-10، السنة الثالثة، شتاء 1986، ص16-17.

* * *

كتاب الحجوي للسلطان عبد الحفيظ
خطاب إصلاحي حول أوضاع المغرب في بداية القرن العشرين

عبد الحفيظ حَمّان*

بحلول القرن التاسع عشر ، اتسعت الهوة بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، شمالها وجنوبها ،وأضحى التفاوت واضحا بين عالم أحرز على تطور علمي وصناعي وأصبحت قواته البرية والبحرية تتطلع إلى السيطرة والاستيلاء ، وبين بلاد يطبعها الجمود والتفكك تعيش تحت هاجس هذه السيطرة .

وإذا كان المغرب ، الذي ينتمي إلى الضفة الجنوبية ، قد استطاع الحفاظ على كيانه بعد هزيمتي إيسلي وتطوان ، إلا أنه فقد الكثير من قدراته على مواجهة الأطماع التوسعية الأجنبية، حيث أضحى عرضة لمؤامرات الدول الاستعمارية وتسابقها إلى بسط سيطرتها على المغرب خاصة فرنسا التي ، وانطلاقا من الحدود الجزائرية ، بدأت تنتشل أجزاء من التراب المغربي وتعمل ضمن برنامج ومخطط استعماري على تطويق المغرب من جميع الجهات .

ورغم أن السلاطين الثلاثة عبد الرحمان بن هشام ومحمد بن عبد الرحمان والحسن الأول ، الذين عايشوا بالتعاقب كارثة إيسلي وتطوان وتأثروا بعواقبها السياسية والمالية ، استمروا في بذل الجهود للحفاظ على نوع من التوازن بين الأزمات الداخلية والأطماع الخارجية ، إلا أنه بحلول العقد الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أصبحت الدول الأوربية تمارس ضغوطا على المخزن

* أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان

المغربي حتى يفسح لها المجال لإدخال « إصلاحات » على أجهزة الدولة تمكنها من مزاولة أنشطتها التجارية وتنمية مشاريعها الاقتصادية على نمط تريد فرضه على المغرب تحت مظلة ما أسمته «الرسالة التمدنية» أو ما سمتها الكتابات الاستعمارية الفرنسية «أوربة المجتمع المغربي» Européanisation de la société marocaine

في خضم هذه الأزمة الخانقة والأوضاع المتردية التي عمت المغرب منذ الهزيمتين قامت نخبة من علماء ومثقفين ووجهاء (أمثال الناصري، السليماني، الصبيحي، الحجوي وغيرهم) تنادي بالإصلاح لجعل أجهزة الدولة قادرة على رد الخطر الاستعماري وترى بأن أفضل وسيلة لمقاومة التغلغل الأجنبي هو المبادرة بإصلاح الأوضاع المتردية.

اخترنا في هذا السياق محمد بن الحسن الحجوي (1874 ـ 1956) نموذجا لهذه النخبة المثقفة وانتقينا ، من مؤلفاته الكثيرة والمتنوعة ، كتابا هو عبارة عن رسالتين وجههما مباشرة إلى السلطان عبد الحفيظ[1] يصف فيهما الأوضاع الداخلية بالمغرب ويبرز أسباب الأزمة التي يعاني منها البلد ويطرح الحلول والمقترحات بأسلوب يتسم بالصراحة والجرأة .

وجّه الفقيه محمد الحجوي رسالته الأولى للسلطان على يد الفقيه الخضر الشنقيطي كما يخبرنا بذلك في رسالته الثانية ويقول عنها : « فليعلم مولانا أعلى الله قدره أنّا وجهنا لسدته الكريمة كتابا مفتوحا مشتملا على ثلاثة ورقات على يد الفقيه أحمد الخضر الشنكيطي وهو نصيحة خالصة لله حملتنا عليه محبة الجناب الشريف العالي بالله ومحبة الوطن العزيز »[2].

لما رأى الحجوي أن هذه الرسالة / النصيحة أهملت ولم تؤخذ بعين الاعتبار، أرسل بعد ثلاثة أشهر رسالة أخرى من مدينة وجدة سنة 1911 على يد أبي شعيب الدكالي مبرزا ، في افتتاحية الرسالة روح المسؤولية بقوله : «وحتى لا يقال إن الأمير لم يجد ناصحا ولا معينا على الخير » ومؤكدا على هذه المسؤولية والأمانة

وموجها خطابه مباشرة للسلطان بأسلوب يتميز بالصراحة والجرأة فقال : « إن أحق الناس وأولاهم بالمحافظة على هيئة الحكومة وكيان المملكة واستقلالها أميرها وارث كرسيها وصاحب أمرها ونهيها «وبيّن في الأخير أنه لم يقصد بذلك» : إلا وجه الله تعالى وخدمة البلاد والإسلام اللذين أعدّ منهما وخسارتهما خسارتي وأعزّ ما لي في الحياة عزّتهما ومجدهما »[3].

كيف وصف الحجوي في خطابه الإصلاحي الوضعية الداخلية للمغرب في بداية القرن العشرين؟

نجده قد تطرق في هذا الوصف إلى مختلف الجوانب ، السياسية والعسكرية والاجتماعية والمالية والإدارية مما يبرز قدرته على الفهم العميق للأوضاع ومحاولته إيجاد الحلول الجذرية للأزمات والمشاكل.

الميدان السياسي : يصف الحجوي الوضعية التي أصبح عليها المغرب، حيث فقد أجزاء مهمة من ترابه، بقوله : «وإذا تأملنا خارطة المغرب من جهة الجنوب، رأينا ذهاب الصحراء وضياعها ؛ ثم من جهة الشرق ضاع جزء عظيم بما فيه جبل بني يزناسن ووجدة والسعيدة والعيون وقصبة وادي الزاك إلى وادي ملوية، والأظفار ناشبة بدبدو وتافيلالت . ومن جهة الشمال الشرقي ضاع الصقع المربع بما فيه قصبة سلوان وجنادة وبرج كبدانة وجزيرة البحر الصغير ويتبع ذلك بني ورياغل وبقيوة وغيرهما كما يشير إليه الوفق الإسباني المغربي، وزد على ذلك ما ضاع من حدادة سبتة ومن جهة الغرب الدار البيضاء وأرض تامسنا التي هي أخصب أرض بالمغرب وأجودها ومنبع ثروة الحكومة؛ ومن جهة الغرب الجنوبي أرض شنقيط وما والاها .. وهذه الأراضي إذا قيست بما بقي تناهز الثلثين أو تزيد.. فقد بقيت خريطة المغرب شبه مثلث مستطيل عرضه من جبل درن باستثناء أرض تامسنا. هذا ما بقي حاليا من الاحتلال أو انتشاب الأظفار »[4]. ويختتم هذا الوصف باستنتاج مفاده : «إن هذه الأمة قد وقعت في شَرك القانص الأوربي وتمكنت منها مخالبه».

الميدان العسكري : أفاض الفقيه الحجوي في وصف حالة الجيش المغربي من ناحية التعليم والتدريب والمأوى والتدخل الأجنبي في التسيير ومن كلامه ما يلي: «عدم وجود ضباط مدربين على الحروب ولهم معارف بفنونها، وإنما الذي كان يقود تلك الجيوش الجرارة ضباط أميون ، غالبهم لا يقرأ ولا يكتب، ولا معرفة له بجغرافية الأرض ليكون تحريك العساكر على كيفية يؤمن فيها العطب ، لأن مسألة تحريك العساكر ومطابقتها لما تقتضيه الفنون العسكرية عليه مدار الانتصار في الحروب.. والذي كان عند المغاربة هو ضباط أجانب يعلمون العساكر من أجناس مختلفة من إنجليز وفرنسيس وغيرهم وكل يعمل حسب لغة بلاده والعساكر جاهلة بها »[5] ؛ ويختم كلامه باستنتاج يقول فيه : «وإذا أردنا أن نصرح بالحقيقة قلنا لم يكن للمغرب معسكر منظم على الأسلوب العصري، وإنما وضع إسم نظام في غير محله».

ما هي نتيجة هذه الأوضاع ؟

على الصعيد الداخلي يقول الفقيه الحجوي : « جالت الأيدي الضاربة في أشلاء الأمة الفقيرة الضعيفة ، وقُطّعت أوصالها ، ومزقت أحشاؤها ففرقت كلمتها وبغضت لأميرها وأميرها إليها ، كل هذا بالظلم الفادح وعدم انتظام الأحكام وبيع الوظائف جهارا ، واختلاس الخونة للمكوس وبيت المال في عسر شديد ، واستظلالهم بظل الحماية الأجنبية»[6].

وعلى الصعيد الخارجي، ينتقل الخطاب الإصلاحي إلى التذكير بتهديدات الدول الأوربية طمعا في المزيد من الاستيلاء على أجزاء أخرى من التراب المغربي فيعلن قائلا : «هكذا عقدت أوربا الأوفاق المجحفة بالحقوق وباستقلال البلاد، والقروض العظيمة باسم الأمة، والأمة لا علم لها ولا رأي ولا خبرا. وأعطيت المشاريع العمومية الكبرى للأجانب الذين لم يكونوا يحلمون بنوال أقل جزء منها فصارت لهم مهداة».

ما هو السبب وراء ذلك ؟

في رأي الحجوي يؤكد أولا على ما يلي : « أما نحن فليس لدينا ما يطلق عليه اسم قانون ولا يكاد هذا الإسم مسمى عندنا أصلا ، فكلما دخل الأجنبي أرضنا إلا وكان مطلق التصرف حسب إرادته وشهواته وكنا تحت رحمة استبداده »[7].

ثانيا يرى السبب في الجهل وانعدام إدارة المعارف وعدم وجود مدارس ، وهنا يوجه كلامه الصريح للسلطان قائلا : «ولا تقل يا سيدي هذه مدرسة المصباحية ومدرسة العطارين والشراطين والصفارين وأساتذة القرويين ، فهؤلاء لا يقومون بما يوجد في مصر وتونس فضلا عن البلاد الأوربية من المدارس « . ويتساءل الحجوي بكل حسرة : «ماذا حلّ بنا ، فبعدما كنا أساتذة الأورباويين صرنا الآن لم نصل درجة التلميذ بعد »[8].

ما هي الميادين التي اقترح الحجوي إصلاحها ؟

ـ التنظيم الجيد للجهاز الحكومي والإدارة : « على السلطان أن يجعل كل وزارة مستقلة في نفسها ، قائمة بموظفيها ويجعل لها من الموظفين والأعوان والكتاب والأقسام ما تجري بسببه الأشغال على نسق دائم ... فلا تتعذر المصالح ولا تضيع الحقوق، حتى لا تقع الواقعة إلا ويقابلها من هو في وظيفته بكل استطاعة واطمئنان.. فتقل الشكاوي وتضمحل الدعاوي، وتنعدم المظالم »[9] ولا يتأتى ذلك في نظر الحجوي إلا بشيء واحد «وهو بروز مولانا أيده الله لعيان رعيته والتحبب إليها بالبحث عن الحقوق الضائعة والضرب على أيدي الظالمين والمرتشين وسهره الليل والنهار على ذلك وهجر كل لذة، وتعهد بنفسه مجالس القضاة والعمال والمحتسبين، وحضهم على العدل والمساواة بين العباد في الحقوق والضرائب، وحسم مادة الزور ومعاقبة من يخالف ذلك ، وسماع شكاوي المظلومين وتخفيف آلام البائسين »[10].

ـ وفي قطاع المالية والأحباس نصح الحجوي السلطان بالبحث في أمورها وجميع المداخل «وإحصاء الشاذة والفاذة «ليتوفر لديه» ما يقيم به أود الجيش».

ـ أما في الميدان العسكري فقد حث الحجوي السلطان على الانتباه الشديد للجيش « وتنظيمه على النسق الأوربي وتوفير معداته من أكل وشرب وكسوة وسلاح وتحسين مسكنه وفراشه إلى غير ذلك »[11].

ـ وفي ميدان التعليم نصح الحجوي السلطان بالاهتمام بالعلم والعلماء وطلب منه تفقد المعاهد وترتيب مجالس العلم بما يناسب الحال والوقت ، واختيار أساتذة للتدريس «بحسب الامتحان لا بحسب الجاه والقربى » ، وتنظيم الكتاتيب على نسق تكون أشبه بمدارس ابتدائية وتنقيتها من المعلمين الجهلة ، وبناء المدارس أو إحياء المعطلة منها لتلقي المعارف الوقتية المفقودة من المغرب مع حاجته إليها »[12].

ـ وفي سياق هذا الخطاب الإصلاحي نجد الحجوي قد شدد على سن مبدأ الشورى ووجّه كلامه الصريح للسلطان قائلا : «اجمع رعيتك وألف منهم مجلسا مركبا من أعضاء بانتخابهم وشاورهم في أمورهم. وإني أؤكد عليك محبة في جدك ومنصبك الشريف أن تسترضي أمتك وتستجلب خاطرها وتسالمها وتزيل سوء التفاهم بينك وبينها ولو بما يسخط أوربا في الوقت الحاضر .. ولا تبرم أمرا مع أوربا إلا بمصادقة أعيان الأمة عليه ولا تفرض عليها مكسا ولا ضريبة إلا بالمشاورة أيضا »[13].

ويختتم الحجوي رسالته محذرا السلطان بقوله : «وإياك أن تصغي لمن يشير عليك بمعاندة الأمة، وحملها على الرضا بالظلم والاستبداد فإنما يريد استئصال ما لديك والله يوفقك لصلاحك وصلاح أمتك » [14].

خلاصـــة واستنتـــاج :

هذا الخطاب الإصلاحي الذي وجهه الحجوي للسلطان عبد الحفيظ (بداية القرن العشرين) يجعلنا نستنتج منه ثلاثة أمور :

1 ـ الوضعية الداخلية المزرية التي كان يمر بها المغرب ، وهي ليست وليدة هذه الفترة (بداية القرن العشرين) بل تمتد جذورها إلى النصف الثاني من القرن

التاسع عشر وبالأخص بعد معركة إيسلي التي كانت ، كما قال عنها الناصري «مصيبة عظيمة وفجيعة كبيرة لم تفجع الدولة الشريفة بمثلها » [15]. فبرزت صيحات تنادي بالإصلاحات وخصوصا ما يتعلق بالميدان العسكري. وفعلا ، بدأت محاولات الإصلاح مع السلاطين عبد الرحمان بن هشام وولده محمد واستمرت لتهم بعض الميادين الأخرى وبالأخص في فترة السلطان الحسن الأول. غير أن هذه المحاولات الإصلاحية اصطدمت من جهة بالواقع المغربي الذي كان جله (وبالأخص فئة العلماء) رافضا لها لأنه كان يرى فيها قنطرة أو جسرا للتسرب الأوربي وبالتالي مد هيمنته وسيطرته على المجتمع المغربي والأراضي المغربية[16]. ومن جهة أخرى بالصراع والمنافسة الأوربية حيث كانت كل دولة أوربية تريد احتكار الإصلاحات لنفسها وترمي إلى التغلغل في الداخل المغربي ليكون لها نفوذ وهيمنة على أجزاء من التراب المغربي.

2 ـ بروز نخبة من الفقهاء والمثقفين بصفة عامة اجتهدت في حث السلطة المغربية على القيام بإصلاحات تهم مختلف الميادين [17]، وأصدرت كتابات ومؤلفات كثيرة في هذا الشأن .

3 ـ عدم قدرة السلطة المغربية على الاستجابة لهذه الخطابات الإصلاحية وبالأخص في الفترة التي نحن بصددها (بداية القرن العشرين) وهنا يجوز طرح التساؤل التالي : لماذا لم يستجيب السلطان عبد الحفيظ لهذا الخطاب الإصلاحي للفقيه الحجوي[18]، وهو السلطان الذي رفع شعار الجهاد وطرد المحتل وتغيير الأوضاع؟

يرجع ذلك في نظرنا إلى الأوضاع السياسية التي كان يمر بها المغرب في هذه الفترة، والمتمثلة بالأخص في الأطماع الاستعمارية الفرنسية على المغرب. فقد اجتهدت فرنسا منذ بداية القرن العشرين على أن يكون المغرب مستعمرة فرنسية تستكمل بها إمبراطوريتها الاستعمارية في شمال غرب إفريقيا. ولهذا قامت بتطبيق خطة على المستويات المالية والعسكرية والدبلوماسية تمكنها في الأخير من فتح أبواب المغرب على مصراعيها أمام السيطرة الفرنسية.

قامت على المستوى المالي بإغراق المغرب في قروض ضخمة تجعله رهينة لدى البنوك الفرنسية. كما طوقت المغرب على المستوى العسكري من ناحية الشرق والغرب والجنوب وجعلته محصورا، كما قال أحد رواد الإدارة الاستعمارية، «بيننا وبين البحر». وأبرمت على المستوى الدبلوماسي اتفاقيات مع الدول المنافسة لها على المغرب، وبالأخص إنجلترا، مكنتها من الاستفراد بالمغرب[19].

ومن جانب آخر عندما أعلن عبد الحفيظ سلطانا شرعيا على المغرب بعثت له الدول الأوربية - التي كانت قد عقدت مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 - رسالة تبين له بصراحة أنه لا يمكن الاعتراف به سلطانا على المغرب إلا إذا اعترف بمقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء، أي كل ما كان وراء خلع أخيه عبد العزيز. وبناء على ذلك نؤكد أن مصير المغرب في فترة السلطان عبد الحفيظ ، لم يعد متوقفا على ما تمليه سياسة السلطان بقدر ما أصبح متوقفا على ما تنهجه السياسة الاستعمارية الفرنسية اتجاه هذا البلد. فكان ذلك ، في نظرنا، من بين الأسباب التي كانت تمنع أي خطة إصلاحية إيجابية يريد تطبيقها السلطان عبد الحفيظ.

* * *

هوامش :

1- دراستها : الفكر الإصلاحي في عهد الحماية ، منشورات المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء الطبعة الأولى 2003 .

2 - انتحار المغرب.... ، نفسه .

3 - نفسه .

4 - نفسه .

5 - نفسه . سبق للناصري أن وصف وضعية الجيش المغربي في عهد محمد بن عبد الرحمان وتعليمه وتلقينه الأشياء بلغات البعثات العسكرية الأجنبية ، وبيّن هذه المعضلة بقوله : « فقد عمت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم فيريدون تعلم الحرب ليحفظوا الدين فيضيعون الدين في

نفس ذلك التعلم ، فلا تمضي على أولاد المسلمين سنتان أو ثلاث حتى يصيروا عجما متخلقين بأخلاقهم متأدبين بآدابهم حتى أنهم تركوا السلام المشروع في القرآن وأبدلوه بوضع اليد خلف الأذن ، فيجب على معلمهم في حالة تعليمه إياهم أن يعدل عن الاصطلاح العجمي إلى العربي ويعبر عن الألفاظ العجمية بالعربية ، وإن كان أصل العمل مأخوذا عن العجم فليجتهد المعلم الحاذق في تعريبه وليس فيه إلا إبدال لفظ عجمي بلفظ عربي ... فإذا مرنوا عليه شهرا أو شهرين كان أسهل شيء عليهم لأن تلك هي لغتهم التي فيها نشأوا وعليها ربوا « . الاستقصا ج. 9 ص. 106 ـ 107 .

6 ـ نفسه .
7 ـ نفسه .
8 ـ نفسه .
9 ـ نفسه .
10 ـ نفسه .
11 ـ نفسه .
12 ـ نفسه .
13 ـ نستحضر هنا بيعة علماء فاس للسلطان عبد الحفيظ سنة 1908 على إثر خلع أخيه عبد العزيز، وهي البيعة المشروطة التي أكد فيها العلماء أمورا أساسية من بينها : « فلا يبرم (السلطان عبد الحفيظ) أمر منها (يعني المعاهدات التجارية مع أوربا) إلا بعد الصدع به للأمة « . وكذلك من بين الشروط « وأن يقر بفضله العيون والنفوس ، برفع ضرر المكوس . » انظر نص البيعة في : مظاهر يقظة المغرب الحديث ، محمد المنوني ، ج 2 ، ص. 349 .
14 ـ نفسه .
15 ـ الاستقصا ، ج.9 ، ص. 53 .
16 ـ نسوق هنا نصا لصاحبه أبو عبد الله السليماني يعبر فيه عن هذه النظرة المزدوجة اتجاه المدنية الأوربية : « وأما ما بقي من آداب الأورباويين وأخلاقهم وعوائدهم ومداركهم واختراعاتهم وجدهم واجتهادهم ومحاسن قوانينهم فهي مما يغبطهم عليها كل عاقل ويتمناها كل فاضل ، إذ هي بغيتنا وضالتنا . فظهر من هذا أن المدنية الأورباوية الوقتية مغبوط فيها من جهة ، ممقوتة من وجهة أخرى ، فليحذر العاقل وليحترز من ذلك السم الذي في الدسم وليكن من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب . أرى دول الاستعمار في هذا الزمان مهما عمروا بلادا ونزلوا بساحتها بثوا فيها الأمنية واستنتجوا خيراتها وربطوا بين مدنها أسلاكا تلغرافية لجلب الأخبار وفتحوا طرقا جادة مرصفة للمارة والعربات والمركبات وغيرها . وبنوا على جميع الأنهار ومجاري المياه والشعاب جسورا في غاية الإتقان محكمة البناء. وغرسوا الأشجار المتنوعة وأجروا المياه حتى لقد صارت الجبال والسهول في العمارة والزراعة سواء آهلة متقاربة المساكن والديار تتخللها السكك الحديدية والمناطد الطيارة والعساكر الجرارة والمعدات الباهرة والمعاقل القاهرة . إلآ أنهم مع هذا كله يشينون هذه الأعمال المفيدة بنشر مفاسدهم بين العامة فيفتحون في جميع الأنحاء حانات لبيع الخمور ويبنون بأطراف المدن بيوتا للفجور وبوسطها بيت اللهو والمقامرة وهذه أمور تخجل منها المدنية بل لا ترضاها الإنسانية . زد على هذا منازعة

الوطن في موارد رزقه ومزاحمته في ساحة بيته يخادعونه بزبرجهم ويبهرونه ببهرجهم حتى يستولوا على بلاده ويعمدوا إلى فساده . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون».

17 ـ نخص بالذكر منهم : أبو عبد الله السليماني (ت 1926) ، أحمد بن محمد الصبيحي (ت 1917) ، محمد بن الحسن الحجوي (1874 ـ 1956) ، أحمد بن خالد الناصري (1835 ـ 1897) وغيرهم.

18 ـ تفيدنا الأستاذة آسية بنعدادة في الدراسة التي أعدتها حول الحجوي ، أنه ـ يعني الحجوي ـ عند التقائه بالشيخ أبي شعيب الدكالي سأله عن أمر الرسالة فأجابه : « أسمعت ، لو ناديت حيا ، ولكن لا حياة لمن تنادي . أنت أديت ما وجب عليك لله ولوطنك وأنا بلغت الأمانة ، ولكن القلوب بيد الله ، يضل من يشاء ويهدي من يشاء « . ، انظر ، الفكر الإصلاحي في عهد الحماية (محمد بن الحسن الحجوي نموذجا) منشورات المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى سنة 2003، ص. 150 .

19 ـ عقدت مع إيطاليا اتفاقية سنة 1902 ، ومع إسبانيا اتفاقية سنة 1904 ، ومع إنجلترا ما سمي بالوفاق الودي سنة 1904.

* * *

ملحق

الكتاب المفتوح الأول
للسدة العظمى دام علاها مولانا عبد الحفيظ

الحمد لله،

من بديهيات الأمور المقررة لدى الأفراد والجمهور، إن أحق الناس وأولاهم بالمحافظة على هيئة الحكومة وكيان المملكة واستقلالها أميرها، وارث كرسيها وصاحب أمرها ونهيها، كما أنه من المشاهدة للعيان ما وقعت فيه هذه الإيالة الشريفة من انتشاب مخالب افرانسا والإسبان منذ سنة 1317هـ / 1900م ، حيث ابتدأت الفتوح بنواحي الصحراء في توات ، ففجيج، ثم، ثم، ثم، إلى أن وقعت أوفاق عامين 1901 و1902م، ثم السلف الأول، ثم معاهدة لُنْدرَة بين افرانسا وإنجلترا في 8 أبريل 1904 والسنة الفارطة الاتفاق الفرنسوي المغربي وبعده الاتفاق الإصبنيولي المغربي ختام السنة. فمن له مسكة من عقل أو طرف من غيرة أو وطنية يتأمل الاتفاقات المذكورة بعين ثم يلمح خارطة المغرب بالعين الأخرى، كما أنه يصغي بسمعه إلى المداولات الجارية بين المخزن وبين الدول من قديم إلى الآن وكيف كانت مخاطبتهم معه إذ ذلك وكيف تبدلت وتنوعت بتنوع الأحوال إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه الآن، فإذا تأملنا الأوفاق علمنا منها غايات الأجانب في القطر المغربي ووقفنا على مهارتهم في سياسة التدحرج التي يتوصلون بها إلى المقاصد العظمى وعلمنا أننا نقدم على الدخول معهم في ميدان المعاهدات ونلتزم الالتزامات التي لا نتأمل عواقبها ، وإنما تكرهنا عليها وقائع الحال مع علمنا بعدم القيام بها ولكن مقصدنا أن نطعمهم ليسكتوا عنا لنستريح يومنا هذا والغد وقت آخر كما يقولون المؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها. أما هم فيعقدون الخناصر على تلك

العقود ويجعلونها حلقات من نوع الكاوتشو فيضيقون ما شاءوا تضييقه ويوسعون ما شاءوا توسيعه، ومهما مضى الوقت ونحن نائمون قاموا ينددون بعدم وفائنا بالعهود فيتوصلون إلى الأغراض ويقضون حاجتهم ويعقدون وفقا آخر أضيق من الأول يضيع به طرف من الإيالة وشطر عظيم من الاستقلال ويزداد به التداخل في الشؤون، ثم إذا تأملنا خارطة المغرب من جهة الجنوب رأينا ذهاب الصحراء وضياعها جملة على اتساع أصقاعها وكثرة سكانها، ثم من جهة المشرق ضاع جزء عظيم بما فيه الظهراء المطلة على عين بني مظهر ثم الوطن الأنجادي بما فيه قبائل بني يزناسن ووجدة والسعيدة والعيون وقصبة وادي الزا إلى وادي ملوية، والأظفار ناشبة بدبدو وتافيلالت حسب مفهوم الوفق المغربي الفرنسوي . ومن جهة الشمال ضاع الصقع الريفي بما فيه قصبة سلوان وجنادة وبرج كبدانة وجزيرة البحر الصغير. ويتبع ذلك بني ورياغل وبقيوة وغيرها، كما يشير إليه الوفق الإصبانيولي المغربي، وزد على ذلك ما ضاع من حدادة سبتة ومن جهة الغرب الدار البيضاء وأرض تامسنا التي هي أخصب أرض بالمغرب وأجودها ومنبع ثروة الحكومة، إذ لا يخفى ما كان يدخل على بيت المال كل سنة من أرض الشاوية ومن جهة الغرب الجنوبي أرض شنقيط وما والاها كما صرح به الوفق المغربي الفرنساوي ، فهذه الأراضي إذا قيست بما بقي تناهز الثلث أو تزيد مع أن ما بقي قد فصل بعضه من بعض بأرض تامسنا وصار كما ترى وبقيت خارطة المغرب شبه مثلث أو مستطيل عرضه من جبل درن باستثناء أرض تامسنا هذا ما بقي خاليا من الاحتلال أو انتشاب الأظفار.

وأيضا فإذا أصغينا إلى ألسن السفراء الأجانب وقناصلهم وكيف كانت تتداول السياسة مع المخزن وعلى أي نسق كانت تخاطبه وكيف صارت الآن تدريجيا حيث وقع التدخل في كل الشؤون حتى في تعيين الموظفين وعزلهم وحمايتهم في وظائفهم علمنا الفرق العظيم والبون الشاسع بين اليوم والأمس فنقول ما أشبه الليلة بالبارحة، علمنا أن هذه الأمة قد وقعت في شرك القانص الأوربي وتمكنت منها مخالبه والحال أن جل دول العالم المسلوبة الاستقلال تستقل وترتقي في هذا العصر المدنية والمعارف

والرقي وإذا بقي الحال كما ترى ونحن نتقدم إلى الوراء كنا أسوء حالا من مصر وتونس بلاء وفقرا. وكيف لا نكون أسوء حالا وأكسف بالا وقد وجدوا معهم علما ووجدونا جهالا، كما أن مصر وتونس كانت لهم بعض قوانين وضوابط وإدارة شكل للحكومة لم يمكن خرق كله وإن خرق البعض ؛ أما نحن فليس لدينا ما يطلق عليه اسم قانون ولا لهذا الاسم مسمى عندنا أصلا، فمهما دخل الأجنبي أرضنا إلا وكان مطلق التصرف حسب إرادته وشهواته وكنا تحت رحمة استبداده، فإذا كانت حماياتهم وسماسرتهم أفسدت على المخزن كل طرق السياسة والتصرف وضاق بهم ذرعا وغلت يده عن كل تصرف فكيف بغيرهم، وأيضا بأن تونس ومصر ولاسيما الثانية وجدوا فيها بعض مدارس وإدارة للمعارف وقدرا من ميزانيتها مخصصا باسم العلوم والمعارف فلم يسعهم إلا اتباع ذلك واقتفاء أثره وعدم طمس معالمه حيث كانت بادية للعيان ولاسيما العلوم العربية التي هي حياة الأمة وروحها فبسبب ذلك بقيت مصر ذات شأن في العلوم العربية ولها طرف من غيرها ويقرب ذلك بعض الشيء تونس. أما نحن فليس هناك ما يطلق عليه إدارة المعارف ولا لهذا الاسم مسمى عندنا ولا لإسم المدرسة ولا المعارف مع أن أول مدرسة أنشئت في أوربا مدرسة مغربية ومؤسسها مغربي وهو عبد الرحمان الناصر أمير قرطبة كما نعلم من رفوف علم التاريخ. فبعدما كنا أساتذة الأورباوي صرنا الآن لم نصل إلى درجة التلميذ بعد، ولا تقل لي يا سيدي هذه مدرسة المصباحية ومدرسة العطارين والشراطين والصفارين وأساتذة القرويين فهؤلاء لا يقاسون بما يوجد في مصر وتونس فضلا عن البلاد الأورباوية من المدارس، أما الخيام فإنها ليست كخيامهم ، وكذلك نساءنا غير نسائنها وهذا بديهي على من رأى أو اطلع وإنما خصصت العلوم والمعارف في هذا الخطاب لأنه كلما فقدناها فقدنا غيرها من عدلية وعسكرية وداخلية وخارجية لأنها أولى وأحق من الكل وبها يوجد الكل، وإذا تأملت الموقف في هذه الأحوال وما وصلنا إليه من الارتباكات والاختلال وتطلب الخلاص من هذا البحر الخضم المظلم فلا تجد سفينة ولا منجاة إلا بشيء واحد وهو بروز مولانا أيده الله لعيان رعيته والتحبب إليها بالبحث عن الحقوق الضائعة والضرب على أيدي الظلمة وسهره الليل والنهار

على ذلك وهجر كل لذة وتعهد مجالس القضاة والعمال والمحتسبين وحضهم على العدل والمساواة بين العباد في الحقوق والضرائب وغيرها ، وحسم مردة الزور وانتهاز الحقوق ممن يخالف ذلك وسماع شكاوى المظلومين وتخفيف آلام البائسين والبحث في أمور الخزينة والأحباس وجميع المداخل وإحصاء الشاذة والفاذة ليتوفر لديه ما يقيم به أود الجيش مع الانتشار الشديد للجيش وتنظيمه على النسق الأوربي وتوفير معداته من أكل وشرب وكسوة وخيام وتحسين مسكنه وفراشه إلى غير ذلك ، ويتفقد معاهد العلم والعلماء ويرتب مجالس العلم بما يناسب الحال والوقت ويقدم للتعليم من يستحقه وينشطه برفع درجته ويؤخر من لا يستحق بحسب الاستحقاق لا بحسب الجاه والقربى ويرتب الكتاتيب أعني المسايد على نسق تكون أشبه بمدارس ابتدائية وينقحها من المعلمين الجهلة ، ويفكر في بناء مدرسة جامعة لتلقي المعارف الوقتية المفقودة من المغرب مع اضطراره إليها ولو بتحويل بعض المدارس المعطلة إليها .
بروز مولانا أيده الله لعيان رعيته واستخراج حقوقها بالعدل والبحث فيما يرقيها ويعود بالنفع على عمومها كالمالية والجيش والمعارف تقبل القلوب على محبته كلها وتجتمع كلمتها عليه بأسرها وتنقاد إليه عن اختيار فتتوفر الرجال والنفقات ويتدرب الجيش وتتربى ناشئة جديدة تكون عضدا وناصرا ، وبسبب ارتفاع الظلم يقل تداخل الأوربيين ويضيق خاطرهم على رعاياهم ومصالحهم وبهذا البروز للعيان ورفع الحجاب ويظهر لشريف علمه أسماه الله ما كان غامضا عنه من أحوال رعيته ومن أحوال الموظفين ويكتشف ما هو واقع من التدليس في الحقوق والأحوال ، وتحسيم مادة الرشوة وبيع الوظائف واختلاس الأموال السلطانية واهتضام الحقوق الذي هو الوبال الأعظم والداهية التي هدت أركان الأمة والدولة فيتدارك ما أمكن تداركه والعضو (الذي يكون يئس من برئه ، يحز ليلا يعدي غيره) وينظم إدارة جيدة يختار لها الأمثل فالأمثل من الموظفين الأكفاء و يحد لكل موظف سلطته يخوله التفويض فيها ويلقي عهدتها عليه و يجعل عليه المراقبة الشديدة في أعماله و يكون مولانا أيده الله مراقبا على الكل وفيا . و يجعل كل وزارة مستقلة في نفسها قائمة بموظفيها و يجعل لها من الموظفين و الأعوان و الكتاب و الأقسام و ما يقوم بسببه بأشغالها

ما ألقى بعهدتها لتجري الأشغال على نسق دائم فيه فلا تتعذر المصالح و لا تضيع الحقوق حتى لا تقع واقعة إلا ويقابلها من هو في وظيفته بكل استطاعة واطمئنان ولا تضيع فرصتها في الوقت المناسب لها و يكون مولانا قد علم وقوعها في وقتها وعلم كيفية مباشرتها على الوجه المطلوب مع راحته وعدم مشقة موظفيه فتقل الشكاوى وتضمحل الدعاوي وتنعدم المظالم. فبهذا يتدارك مولانا كرسي أسلافه وأجداده ويحافظ على منصبه ومقامه فإن قال قائل ومن أين لك أن هذا الدواء نافع ومن ذا الذي جربه أو استعمله أجنباه بأن التاريخ شاهد عدل على ذلك فكل دولة وقع فيها تضعضع لا يتداركها إلا هذا الدواء النافع ولا ينفع فيها مال على كثرته ولا جيش على خدمة، وإذا كان المهدي ابن تومرت اكتسب دولة بالتظاهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كونه سوقيا ليس من أهل الرياسة فكيف ! وهكذا إن الدول الأورباوية والأمريكية والجابون إنها نهضت من سباتها ووصلت إلى ما وصلت إليه بتنظيم إدارتها واحترام الحقوق وضبط الأموال وتدريب الجيوش ونشر العلوم والمعارف ففي التاريخ القديم والجديد عبرة وذكرى. والسلام.

الكتاب المفتوح الثاني

الحمد لله وحده، وبعد السلام الفخيم و الدعاء العميم للجناب العالي بالله المستوجب لكل تعظيم وتكريم فليعلم مولانا أعلى الله مناره أنا وجهنا لسدته الكريمة كتابا مفتوحا مشتملا على ثلاث ورقات على يد الفقيه السيد أحمد الخضر الشنقيطي وهو نصيحة خالصة لله حملنا عليه محبة الجناب الشريف العالي بالله ومحبة الوطن العزيز وذلك بسبب القلاقل الأخيرة، هذا والظن في الفقيه المذكور أنه بلغ الأمانة ولم يضيعها وكان الظن أن نرى للبعض من تلك النصائح أثرا وأن نرى العمل جاريا و لو بجزء من ذلك الكل، وها نحن سيدي لا نمل من إبداء ما عندنا فإن الله لا يمل حتى تملوا ليلا يقال أن الأمير لم يجد ناصحا ولا معينا على الخير فإننا ننصح مولانا أيده الله ثانيا برفع الحجاب عن أمته والنظر فيما قد أضر برعيته، فقد أضر بها أسد

وذياب فالأسد تسلطوا على الداخلية ، و الذياب على الخارجية والأشغال العمومية و جالت الأيدي الضاربة في أشلاء الأمة الفقيرة الضعيفة الجاهلة وقطعت أوصالها ومزقت أحشاءها ففرقت كلمتها وبغضت أميرها إليها ، كل هذا بالظلم الفادح وعدم انتظام الأحكام واللعب بالرقاب والدماء وبيع الوظائف جهارا وبيع رقاب العمال ومن دونهم بعدما يكونون في أعلى الرتب يصيرون في قعر الأسجان لموجب جلب المال لخزينة زيد و عمرو ؛ وهكذا عقدت الأوفاق المجحفة بالحقوق المقلصة لاستقلال ، والقروض العظيمة باسم الأمة والأمة لا علم لها ولا رأي ولا خبرا ، وأعطيت المشاريع العمومية الكبرى للأجانب الذين لم يكونوا يحلمون بنوال أقل جزء منها فصارت لهم ضحية مهداة ، أضف إلى ذلك جولان اليد الجانية في القبض من المحكومين واستبداد الحكومة به وضيق الحال أن بيت المال في العسر الشديد والرعية تبذل عن حاجة ، ورعايا الأجانب لا تسام بكلمة ،وانظر لمزية واحدة وما وقع بها من الاختلاس بل التجاهر بإتلافها وما وقع من الإختلال بشروطها الأمر الذي يؤدي إلى تدخل الأجانب وإعمال المراقبين فيها ، كل هذه الأموال التي تنهبها باسم مولانا وهو في حاجة شديدة إليها إنما ينهبها قوم عرفوا بالشره واستظلالهم بظل الحماية الأجنبية واكتفوا لمولانا بالولاء ولا هم أصحاب وطنية أو نجدة أو كرم أو شهامة فلهم المهانة ولا ينال الجناب الشريف منهم إلا الوسخ وهم كل على مولاه . فليحذر مولانا من الاسترسال في اتباع أفكارهم وأعمال شهواتهم فإنهم من ناب في ثياب . فلينهض مولانا نهضة أسد ضرغام وليقم بما أوجب الله عليه لأمته خير قيام وليشد يده على التمسك باستجلاب قلوب رعيته بالعدل والإنصاف ورفع الحجاب وتفقد العمال والقضاة والأمناء وابدأ بما يليك بفاس واصحب بلاتحيز مع أول الشروع تظهر لك أمور عظام وتعذر الأمة فيما ارتكبته من الشطط واجمع رعيتك وألف بينهم مجلسا مركبا من أعضاء بانتخابهم ، وشاورهم في أمورهم [...] وشاورهم في الأمر وإني أؤكد عليك محبة في جدك ومنصبك الشريف أن تسترضي أمتك وتستجلب خاطرها وتسالمها وتزيل سوء التفاهم بينك وبينها ولو بما يسخط أوربا في الوقت الحاضر ، فإن أوربا تعذرك إذا [...] الفتنة وتحاميت عن إراقة الدماء وألثت جانبك

ورعيتك وقلبت سياسة الاستبداد والاستعباد بالعدل والشورى وأعطيت عهدا لأمتك بالأمان على نفس كل واحد وماله وعرضه إلا بحق لما أعطاه جدك في حجة الوداع وجعلت لها قانونا أساسيا بنظر العلماء والأعيان به بشن الشورى بحيث لا تبرم وقفا مع أوربا إلا بمصادقة أعيان الأمة عليه ولا تفرض عليهم مكسا ولا ضريبة إلا بالمشاورة أيضا ولا يباع وظيف ولا يعزل موظف إلا بموجب ولا يولى إلا مستحق إلى غير ذلك مما هو جاري في جميع العالم ولم يبق شاذا عن هذه القاعدة سوى الإيالة الشريفة التي نسأل الله أن يكون لها ذلك في صحيفتك . وإياك أن تصغي لمن يشير عليك بمعاندة الأمة وحملها على الرضى بالظلم والاستبداد فإنما يريد استئصال ما لديك ، وتقدم بنفسك والله يوفقك لصلاحك وصلاح أمتك والسلام.

6 ربيع الثاني 1329 حرر بوجدة على يد الشيخ العلامة الحافظ أبي شعيب الدكالي رئيس مجلسه العلمي الحديثي محمد الحجوي الثعالبي الجعفري.

* * *

طنجة في كتابات محمد بن الحسن الحجوي

بدر العمراني*

لقد عرف المغرب في عصوره المتأخرة، وبالخصوص قبيل الاستقلال وبعده، أعلاما وشخصيات، كان لهم أثر بالغ في المسار الفكري المغربي، لما أوتوه من رسوخ في التكوين، ورجاحة في العقل، وتفتح في النظر، وحصافة في الرأي، نذكر منهم :

- أبو شعيب بن أحمد الدكالي (ت 1356هـ)
- محمد بن أحمد العبدي الكانوني (ت 1357 هـ)
- محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي (ت 1376 هـ)
- عبد الحفيظ بن الطاهر الفاسي (ت 1383 هـ)
- المختار السوسي (ت 1383 هـ)
- عبد الله كنون (ت 1409 هـ)
- التهامي الوزاني (ت 1393 هـ)

وللتمثيل نختار شخصية العالم الفذ، والمفكر المتميز، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، الرجل الموسوعي، الذي طرق شتى المواضيع، ونظر في رحاب مجالاتها، إذ تجده حاضرا في آن واحد بين : المفسرين، والمحدثين، والفقهاء، والأدباء، واللغويين، والمؤرخين، والمربين ... إلى غير ذلك من الفنون التي اهتم بها كتابة ودراسة، وأهم ما تجده في فكره هو معالجته لبعض المواضيع عرضا دون قصد، الأمر الذي يجعل الباحث المتأمل في كتبه مضطراً للم شعث تلك الإشارات،والالتفات إليها قصد

*ـ باحث، طنجة.

دراستها، وإجالة النظر فيها، من ذلك موضوع : طنجة، كيف تمثلت في كتابته، وما هو السياق الذي وردت فيه، وما هي أبرز المميزات التي تخص الحجوي في تعرضه لهذا الموضوع؟

طنجة في كتابات الحجوي

بعد إجالة النظر فيما تيسر لي من كتابات محمد بن الحسن الحجوي لاحظت أن مدينة طنجة لم ترد إلا في الفهرسة والفكر السامي والرحلة.

ـ الفهرسة، وهي المسماة : مختصر العروة الوثقى، في مشيخة أهل العلم والتقى. وقد ذكرت فيها طنجة خمس مرات :

الأولى : قال عند ذكر شيوخه : مَحمد بن عبد القادر (ابن سودة) قلضي طنجة المتوفى في 28 شعبان 1238 هـ بفاس، كان فقيها كريم الأخلاق مدرسا نفاعا[1].

الثانية : قال عند ذكر شيخه أبي عبد الله مَحمد ـ فتحا ـ بن محمد الجباص الزرهوني الأصل : نزيل ثغر الجديدة آخر عمره، شيخ السياسة والفضل، بعثه المولى الحسن في بعثة المتعلمين إلى إنكلترة، فعرف لسانها، وتخرج مهندسا، وكان من خيرة الرجال فضلا وسمتا ودينا، وله إلمام بالعربية والدين، تولى سفارة الجزائر، وقد خلفته في سفارته لما تولى وزارة الحرب، وهناك بالجزائر عرفته، وعرفت فضله، ثم تولى بعد رئاسة السفارة بطنجة، ثم الصدر الأعظم، ثم تقاعد بعد، وتوفي حاجا وزائرا بالمدينة المنورة سنة 1356 هـ. استفدت منه كثيرا في الجغرافيا، وعلوم الاجتماع، واستفاد عني كثيرا في الأدبيات والفقه والحديث[2].

الثالثة : قال عند ذكر تلميذ الإمام مالك وأشهر رواة الموطإ عنه : وممن أخذه عنه أخيرا الإمام يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس الليثي ولاء، المصمودي (مصمودة طنجة)[3]، الغربي[4] الأصل، الأندلسي الدار، القرطبي..[5].

الرابعة : قال عند ذكر مشيخة أبيه :وممن لقيه وتبرك به سيدي الحاج العربي الوزاني شيخ زاوية وزان الشهيرة في أقطار إفريقية، وكان الرجل على جانب عظيم من الخير، وولده الحاج عبد السلام دفين طنجة[6].

الخامسة : قال عند ذكر سند الطريقة الدرقاوية وغيرها وسند الأذكار والأحزاب وسر الحرف : وأروي الأسماء وخواصها، والأذكار والطرق الأخرى غير الدرقاوية عن شيوخ آخرين منهم بالإجازة : سيدي محمد الورياغلي.. وهو أخذ عن العارف بالله صائم الدهر، قائم الليل، سيدي محمد والحاج الهندي، أخذ عنه بمدشر الصواني بطنجة سنة 1299 هـ [7].

ـ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي : وهو كتاب أرخ فيه للفقه الإسلامي في أطواره ومراحله وصنوف مذاهبه، مع ذكر تراجم لأشهر أعلامه، وخلال ذكر أعلام من المذهب المالكي كان حظ طنجة من الالتفات في موضعين :

الأول : عند ترجمة عبد الله بن حمدون بناني، قال عنه : فقيه موثق نحوي شهير بفاس، ولي قضاء طنجة وغيرها، ومات فقيرا، فربح الثواب الفاخر، والثناء العاطر، توفي سنة 1307 هـ[8].

الثاني : عند ترجمة والده الحسن بن العربي الحجوي، قال مشيدا بحفظه : كان آية في الحفظ والاستحضار، حكى لي قاضي تازة السيد محمد الخصاصي نزيل طنجة الآن، قال : كان أبوك يحضر مجلس وعظي فكان يعيد لي كل ما يسمع مني عن ظاهر قلب بالحرف[9].

ـ الرحلة : رحلة إلى بلاد الأندلس، وهي عبارة هم مشاهدات دونها الحجوي خلال زيارته للأندلس وفيشي الفرنسية عام 1348 هـ/1929م. وقد اعتنى الأستاذ عبد النبي ذاكر بالقسم المتعلق بالأندلس، ونشره بجريدة العلم[10] تحت عنوان : الرحلة الحجوية إلى الديار الإسبانية. وفيها تحدث عن مدينة طنجة أثناء عبوره منها، حيث أسهب في الوصف، وأمعن في تصوير حالتها، كشاهد عيان، ومراقب للحال والأوان. ونظرا لطول المادة المودعة في هذه الرحلة عن طنجة، نوردها فيما يلي.

تجليات طنجة في نظر الحجوي

قال عند دخوله طنجة، متحدثا عن مواصفاتها ومميزاتها : «وبعد أصيلا، دخلنا في منطقة طنجة الدولية التي هي أضيق من منطقة الإحرام في البلد الحرام. وهي كالتي تجاورها في قلة الزرع، لائقة لذوات الضرع. حللنا في طنجة في 7 مساء مستريحين مسرورين بالسلامة شاكرين المولى على إنعامه، وجزيل إحسانه، وتلقانا بعض الأحباب الكرام، أهل المجد والإعظام. ونزلنا عنده في منزله. الذي هو أكرم منزل. وقام بسنة الضيافة كقيام إبراهيم عليه السلام، وأبناء العرب مجبولون على الإكرام، وتعظيم علماء الإسلام، أدام الله عليه النعم، ووقاه وأنجاله من كل النقم.

كان نزولنا من القطار في محطة مؤقتة جعلوها على شط في الميناء نفسها بالمحل المسمى : البلاية بتفخيم اللام. ولعلها إسباني، ومعناها رمل شط البحر الصالح للعوم. وذلك كله متوفر في هذا المحل. جعلوا هناك محطة مؤقتة ليصل المسافر من البر إلى شط البحر توا فيجد البابور البحري واقفا، فيركب حينا إلى حيث يشاء. وهكذا إذا نزل من البحر وجد السكة الحديد، فذهب مسرعا من فوره إلى فاس أو الرباط أو حيث يشاء، وهذا من أحسن التسهيلات، وبسبب هذا سيصير لمستقبل طنجة مستقبل عظيم، لكونها ما بين البحرين : الأبيض المتوسط المسمى بحر الروم، والمحيط الأطلانتيكي. فإذا تم المرفأ الصناعي، وهم فيه يشتغلون، وصارت المراكب ترسو بجانبه آمنة من أذية الريح الشرقية، وتمت المحطة التي يردمون أرضها في البحر أيضا، عند ذلك تزداد عمارة طنجة جدا، ويقصدها السواح وغيرهم،

إن في طنجة لطائف أولها وأولاها بالالتفات : طيب هوائها، واعتدالها صيفا وشتاء، مع قلة رطوبتها في الصيف. وصحو أديم سمائها، وعدم وجود برقع السحاب على وجهه بخلاف ما هو موجود في الرباط، من كثرة الرطوبة، وعبوس وجه الجو في الصيف والخريف. وهذا كله منتف في طنجة غالبا. فلذلك ترى جوها ضاحكا،

وثغرها مبتسما أكثر من جميع مراسي المغرب، مع اعتدال الهواء وطيبه بحيث تصلح أن تكون من أحسن محلات الاصطياف، لمن ترافقه الأرياف.

أضف إلى هذا ما فيها من الماء المعدني الحديدي، وكثرة منابعه في الجبل الكبير الذي صار من المدينة، وهو أعلاها. وهو أحسن محل للاصطياف. وإن هواءها ليعجبني أحسن من الجديدة وغيرها من المدن المشهورة بطيب الهواء. وقد توفرت فيها أسباب الراحة، ومعدات العمران. كنت أعرفها منذ عشر سنين قذرة الزقاق، غالية المعاش، قليلة الماء، أما الآن، منذ وصلها ماء شرف العقاب، ظهرت في نظافة تامة. فلقد رأيتها الآن أنظف المدن المغربية على الإطلاق. وقد رخصت أسعار معاشها، فصارت تقريبا كبقية الإيالة. وتحسنت حالها الاقتصادية جدا. ،ظهر فيها الرقي منذ نظم فيها النظام الدولي الجديد. وقد ظهر من حزم اللجنة المكلفة بتحسين الطرق والنظافة ما يوجب شكرها بلسان كل زائر، لاسيما الأهلي المحب لتقدم وطنه.

كانت طرق طنجة منذ عشرة أعوام مبلطة بالحجر الأملس، إما الطبيعي على أصل خلقته الرقيق المصفف، أو المنحوت المربع، المستطيل، وهذا كان عندهم في المحلات المهمة، ومن أثر التمدن الحديث. لكن الكل كان متعبا، ولا تتم فيه نظافة، لمكث العفونات بين حجر وآخر. وكان الاعتناء بالتنظيف أيضا غير تام النظام. أما الآن فقد أبدلو ذلك النظام بنظام أرقى وأنظف، وهو تبليط الزقاق العمومية بالسيمان تبليطا محكما، حتى صارت الأرض كأنها مجصصة كجص السطوح. ولكون أرضها ذات انحدار وارتفاع خططوا خطوطا في السيمان على عرض الزقاق، بين الخط والخط نحو 15 سنتيما. فتلك الخطوط تقي الناس والبغال من الزلق.فلله دره من فكر أعان على نظافة البلد، وحسن منظرها تحسينا لا مزيد عليه. هذا مع وجود القيام التام بالتنظيف. ويا ليت فاسا والرباط ومراكش وغيرها يفعل في مدنها القديمة مثل هذا العمل. فإنه يحسن منظرها المشوه. ويقي الناس عما يلاقونه من

التعب في حجرها المرصفة به، الذي هو عبارة عن حجر مكسر، يدق فوق الأرض دقا، لا تمضي عليه إلا مدة قليلة حتى تذهبه خوافر الدواب، ويثور منه الغبار، في الصيف، المؤذي للأعين والخواشم، والذي يذهب بالنظافة، على قلتها، ولا سيما في أيام الشتاء يصير طينا مزلقا.

والذي أعان طنجة على تحسين حالتها اختلاط المدينة القديمة بما زيد عليها من البناءات الحديثة، وليس بجانب المدينة القديمة مدينة حديثة أوربية تبتلع كل ما يجمع من سكان القديمة من الضرائب البلدية.وتأخذ منها ولو زكاته. فتبقى المدينة القديمة شوهاء، والحديثة بلطفها غادة حسناء، فهذه توجهت إليها البلدية بكل وجهتها، وأعطتها من الأهمية فوق مؤملها، فابتلعت الميزانية البلدية بأجمعها. وتركت البلد القديم فيما يناسب القديم، وجه منكمش ذميم، وقلب في الأحزان مقيم. وفي المثل المغربي : كل جديد له معزة، والبالي لا تفرط فيه، لكن الزوجة الجديدة أخذت الزوج بما فيه، وضرتها القديمة تعولهما، وهما يتمتعان بالجمال، وطول الوصال، وليس للقديمة إلا الصبر، إلا إذا رشد أبناؤها، وتعلموا العلوم التي توصلهم للدفاع عن حقوق أمهم، ومعرفة تلك الحقوق، فعند ذاك يعرفون أن يستنصفوا من زوج أمهم بلطف وكياسة، بعلوم الحقوق والاقتصاد والصحة والهندسة، فبهذا يكون الدفاع، ويدفع النزاع وتنال القديمة بعض الأمل، ولكن بعد ذهاب الأطيبين.

أرى الزمان مُؤَخِّرا في مُدَّتي　　　حَتَّى أعِيشَ إلَى انْطِلاق الألسن

والربيب لابد أن يتحمل، ويغمض على القذى. وعظماء الرجال غالبهم يتربون أيتاما، ويتجرعون ألاما ».

وقال عن المعارف الإسلامية بها : «سألت عنها فأخبرت بما زادني أسفا وحسرة على ضياع اللغة العربية وآدابها، وعلوم الدين وفضائلها. فالعلم هنا في دروس من عدم الدروس. أشهر عالم هنا عالمان من فاس، أولهما : أخونا في الله سيدي

عبد الصمد نجل شيخنا المغفور له سيدي التهامي گنون صنو الفقيه سيدي محمد ابن المدني گنون. ترجمتهما في فهرستنا . والثاني من الفكر السامي، وحالة الإسلام عموما من حيث العلوم اللسانية والأدبية والدينية مكدرة للغاية. على وجه العموم. والإسلام أزهر الأمم في علومه في الوقت الحاضر. والجزائر أحط الأمم في ذلك، والمغرب تابع لها في سيرها ، ساقط في المهواة التي سقطت فيها . وهذا عالم ثان، وهو : قاضيها صاحبنا سيدي عبد السلام غازي الفاسي أيضا ».

وقال عن أحباسها : «زرت الجامع الكبير الذي هو أهم مسجد بها وأقدمه. وقايست بينه وبين مساجد بقية المغرب، التي لا أنكر أنا وغيري تحسين حالتها بالنسبة لذي قبل. ثم قايست بين حاله الآن وحاله قبل عشر سنين وما قبلها؛ حيث إني زرت طنجة مرارا منذ عام 1320 هـ إلى الآن. فحالة المسجد من حيث الإصلاح والنظافة ووجود الماء أحسن مما كان في عام 20 على عهد الدولة السابقة على الحماية بكثير من كل وجه، ثم هو الآن أنظف وأحسن حالا من بقية مساجد الإيالة فيما أعلم : فالحصور التي به أرفع وأجمل مما يوجد في القرويين، بل ومما يوجد في مسجد السلطان بالرباط. فنستنتج من هذه المقدمات أن حالة الأحباس حسنة، والاهتمام بالمساجد حاصل فيها أكثر من غيرها ، كنت أعرف في هذا المسجد عفونة من نقل الماء منه إلى الخارج لقلة الماء إذ ذاك بالمدينة، فيأخذ الضعفاء الماء من داخل المسجد، والحال أنه غير كاف له. ومراحيضه إذ ذاك منتنة. أما الآن فوجود ماء شرف العقاب[11] رحمة كبرى بهذه المدينة. فتحسنت به بهجتها فالمسجد في أحسن ما كنت أؤمل له من النظافة، والحمد لله.

مقصورة المسجد التي يكون بها الخطيب ريثما يخرج يوم الجمعة كانت مأوى للمسافرين، ينفذها القاصد لأحبابه وضيوفه. أزيلت تلك العادة، ورأيتها مفتحة الأبواب منظفة. كما أتمنى أن أرى البرج الذي يقرب منها ، وقد بطلت منفعته الحربية، مدرسة ينتابها الطلبة من المنطقة الطنجية وما قرب منها ، لتلقي العلوم الإسلامية

التي أخنى عليها الدهر. والمدينة ومنطقتها في حاجة للقضاة والعدول والمدرسين والأئمة والخطباء، ومن النقص البين في نظامها استجلابهم من فاس أو غيرها. فعلى مجلس طنجة التشريعي وأعضائه المسلمين القيام بهذه المهمة التي لا أظن أن يعنفهم عليها أحد. وما عليهم إلا أن يتحدوا ويتعاونوا ويعرفوا كيف يتوصلون لمقصدهم المستحسن عند كل عاقل بكياسة ونباهة، والله يوفقهم».

قال منتقدا أهل طنجة : «سمعت هناك من ينتقد عليهم نقدا لا أظنه إلا وجيها جدا. وهو نفرتهم من المسلمين النازلين بين أظهرهم من إخوانهم المغاربة، كأهل فاس ومراكش وتطوان وغيرهم، واعتبارهم لهم أجانب، لايحبون تكثير العدد بهم، وإدخالهم في المجالس التي بيدها الحل والربط. والحال أنهم قاطنون متأهلون بينهم، وهو بنو جلدتهم، وغالبهم أصحاب أفكار عالية، ولهم وجاهة ومال. ولا شك أن أهل طنجة لو تآلفوا معهم، وعدوا كل من تجاوز في المكث بها من المغاربة ثلاث أو أربع سنين طنجيا لشدو أزرهم. وأفادوهم أحسن إفادة، ولربحت البلاد من أفكارهم وأصواتهم أجل ربح. ومن الغريب لهم عندي عدهم لهم أغرابا، ونفرتهم منهم، وأنفتهم من دخولهم معهم في مجالسهم. وهذه ممالك في أمريكا تعد من أقام بها ثلاث سنين متجنسا كالجمهورية الفضية. وعند المؤرخين إذا أقام الرجل في بلد أربع سنين عد من أهلها، ونسب إليها. فواخيبتاه من فقد الألفة والاتحاد بين المسلمين، الدين واحد، واللغة واحدة، والجنسية واحدة، والمغرب هو المغرب، ومع هذا تجد هذا التنابذ، فيلحظ الطنجي التطواني أو الفاسي بملحظ الأجنبي. فواعجباه ألف مرة.

فعلى أعضاء المجلس التشريعي الاهتمام بهذه المسألة. وليعتبروا ما قرره العلماء في الاستيطان في الجمعة ومن تنعقد به. ومن علامة الاستيطان شراء دار يسكنها، أو تزوج زوجة، أو نحو هذا مما ينقطع عنه به اسم السفر. بالنسبة لأهل المغرب فقط، فهذا كاف بين المسلمين، وكذا الذميون أهل المغرب، أنهم زبناء وطننا العزيز، وبهذا يكون تقدم نسبي لطنجة، تحرز به على حضارة ونضارة وعمارة.

أخاك أخــــاك يا من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وإن ابن عم المرء فاعلم جناحــــه وهل ينهض البازي بغير جناح

وقريب مما وقع بطنجة ما وقع من بعض أعضاء بلدية فاس، من إبايتهم دخول أعضاء اليهود معهم أنفة. وما كان ينبغي لهم ذلك. وها هم اليوم يعضون يد الندم، وملاح فاس أكثر تقدما ونظافة من فاس القديم. فالزمن الذي كان المسلم يأنف فيه من مجالسة اليهودي مضى بما فيه، وهذا زمن غير ذلك.

فــذاك زمــــان لعبنــا بــــــه وهــــذا زمــــان بنـا يلعــــب

وهذا زمن الإخاء، فالواجب اليوم اتحاد أهل كل بلد، وكل قطر، وكل مملكة، بل كل قارة، كيفما كانوا، لاسيما طنجة، التي كاثر أهلها الأجانب الأبعدون الأخلاط من أجناس متعددة، وأمم مختلفة، ذات مصالح وأطماع قاضية على الأهلي. فالطنجي يجب عليه أن يتكثر بأخيه المغربي كيفما كان، وأن يتعلق بسلطان البلاد تعلقا متينا. واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا».

نقد وموازنة لآراء الحجوي في طنجة

من خلال ما سبق عرضه من انطباعات الحجوي عن طنجة، يتبين لنا أن أنظاره منها المُسَلَّمُ به ومنها المنتقد.

- المُسَلَّمُ، مثل تنويهه وإشادته بهواء ومناخ طنجة، وفي ذلك يقول المؤرخ محمد سكيرج : «وموقع طنجة الصحي من أجل مناخ يوجد على وجه البسيطة في غالب فصول السنة، حدث بهذا غالب من زار طنجة من دهاة السواح، وعلماء الأبدان ودعاة الاستعمار من أوربا وغيرها. ويقال : إن الملك إدوارد الإنجليزي والد جورج الحالي، كان سأل عنها وكيلهم داهية السياسة الباشدور العلامة جان بروك - وهو في رتبة دكتور - فأجابه بإسهاب مطول، ومنه ما مؤداه : (أما من حيث المناخ فبالجملة

أن المغرب من أشرف بقاع الأرض وأبهاها فيما رأيت، وطنجة أشرف محل منه، وفيها محل هو أشرفها هو الجبل الكبير)، ولطيب مناخها تجد أغنياء أوربا تنهال إليها أفواجا خصوصا إبان الشتاء، لازدهاء جوها ولطف النسيم يومئذ ببأرجائها حتى أن الربيع فيها كالشتاء تقريبا، وأزهى بأرض شتاها ربيع »[12].

- المنتقد: مسألتان :

الأولى : حول ما قاله عن المعارف الإسلامية بها، ودروس المجالس العلمية بفنائها وخلوها من العلماء المدرسين، وهذا غير صحيح، فطنجة في تلك الفترة كان بها علماء أفذاذ درسوا وخرجوا تلامذة نبغاء، أمثال الفقيه العلامة السيد أحمد ابن أبي العيش المعروف بمصباح (ت 1349 هـ)[13]. والفقيه العلامة محمد بن عبد السلام السميحي (ت 1346هـ)[14]. وأخاه الفقيه أحمد (ت1359 هـ)[15] ... وكلهم من شيوخ الشيخ عبد الله گنون وإخوته، وكانوا معاصرين للشيخين عبد الصمد گنون وعبد السلام غازي المنوه بهما.

وأما عن ارتباط سكانها بالعلم، فيقول الشيخ محمد سكيرج : «إن عيون الأهالي أخذت تكتحل بإثمد العلم، وهمم نجبائهم تستفيق، من سنة الوهم للفهم، وإن في الوقت عدة من الأذكياء النبلاء، الحريصين على العلم والتعلم، والمقبلين على استفادته بكل قصد وتيمم، وهم من لا يتجاوز عمرهم الخامسة والعشرين تقريبا، وجلهم أبناء الفقراء الذين لولاهم لضاع العلم. أما الطبقة الوسطى، فمكتفون بما نالوه من بعضهم بعضا، أو عمن تقدم من زوار المدينة ونزلائها، حتى من أنحاءها »[16].

الثانية : نقده لأهل طنجة في مداخلتهم للأجانب، وقد أجاب عن هذا الشيخ محمد سكيرج، فقال : «فإن أهلها مع التوفيق الإلهي تعودوا عشرة الأجنبي على اختلاف أجناسه وأطواره، وتقلباته في تحليه بأطماره، وثبتوا قابضين على عوائد ضرورياتهم وأعراف ديانتهم، فهي منقبة تذكر لهم فتشكر وعلى صفحات التاريخ تسطر وتظهر »[17]. أما ما أشار إليه الحجوي من انحرافهم عن الواردين عليهم من

أهل المدن الأخرى، فهي سمة البعض منهم لا الغالب، قال سكيرج : «إن الداء العضال الذي تبلغ عروقه لآلام الانحلال والانتشال والتفرق والاضمحلال، وطبع عليه بعض الأفراد منهم، حتى من أهل المناصب العوال، وهو الشقاق والتخالف والتخاذل والتكبر، الداعين لعدم التآلف. فتجد بينهم الشقاق بذلك نابتة أغصانه، والخلاف نامية أصوله وأفنانه، حتى لايكاد بعضهم يرضى بالبعض أو ينحاش حتى لأقربائه بسنة أو فرض، وكأن التنافر أحل رحله عندهم جميعه، وانغرز في جل أفرادهم، فصار طبيعة، ليس ذلك منهم فقط للأضياف الغرباء، ومن جاء يستوطن زواياهم على ما يقال من النزلاء، بل ذلك منهم فيما بينهم نابت، وسريانه لأفرادهم ثابت»[18].

خاتمـــــــة :

بعد هذه الجولة مع محمد بن الحسن الحجوي في كتبه من أجل استيحاء نظرته الشاملة عن مدينة طنجة التي زارها مرارا، نستنتج أن :

- ما أشار إليه الحجوي من أعلام كانوا بطنجة أو تقلدوا مناصب بها، يعد من المصادر المهمة لمن يعتني بالتأريخ لهذه المدينة، خصوصا وأنه ينفرد في هذا الباب بعلم لم يعرف عنه شيء سوى ما لمح إليه، ألا وهو محمد الحاج الهندي.

- الحجوي ذو نظرة ثاقية، لا يكتفي بالمرور والتفسخ أثناء رحلاته، أو خلال أداء مهماته، بل يعاين ويفحص ما يجري أمامه من أمور وإشكالات.

- الحجوي رجل مصلح، والإصلاح عنده هو الدافع إلى النقد وتقويم الوضع.

- الحجوي يأتي في كتابته بأمور وفوائد عرضية، يكون لها وزن وقيمة عند الباحث بعد جمعها ولمها مع نظائرها.

* * *

هوامــش :

1. فهرسة محمد بن الحسن الحجوي ص 33.
2. فهرسة محمد بن الحسن الحجوي ص 43.
3. تقييده هنا يفيد أن مصمودة كانت في تلك العصور تضم مجموعة من القبائل، لذلك البكري لما ذكر حدود طنجة، قال : وجبل رأس ثور ويسكنه قبائل كثيرة من مصمودة. المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص 108. وحتى لا تلتبس مع مصمودة التي بأحواز وزان.
4. كذا في النسخة المطبوعة من الفهرسة، والصواب : المغربي.
5. فهرسة محمد بن الحسن الحجوي ص 87.
6. فهرسة محمد بن الحسن الحجوي ص 96.
7. فهرسة محمد بن الحسن الحجوي ص 103-104، بالمطبوعة : الصواني بالصاد والصواب : بالسين، جمع سانية، وهو ما يستقى به. والمقصود هنا اسم حي من أحياء طنجة الآن. وإليه يشير الشاعر محمد بن عبد الصمد گنون بقوله :

يمم إلى حي السواني أو إلى الــ   جبل الكبير وجاره مرشان

تلقى الهنا وتصادف الأفراح في   تلك المنازل بغية الإنسان

8. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي 4/138.
9. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي 4/149.
10. بتاريخ 15 دجنبر 1991م. أما الأصل فمحفوظ بالخزانة الوطنية بالرباط رقم 162ح.
11. هو منتزه بضواحي طنجة، انظر رياض البهجة لسكيرج ص 225، نسخة مرقونة.
12. رياض البهجة في أخبار طنجة ص 217، نسخة مرقونة.
13. انظر ترجمته في : كواكب العصر ومواكب النصر ص 30، ومذكرات غير شخصية ص 44.
14. انظر ترجمته في : كواكب العصر ومواكب النصر ص 35، ومذكرات غير شخصية ص 45.
15. انظر ترجمته في : كواكب العصر ومواكب النصر ص 33، ومذكرات غير شخصية ص 45.
16. رياض البهجة في أخبار طنجة ص 336، نسخة مرقونة.
17. رياض البهجة في أخبار طنجة ص 336، نسخة مرقونة.
18. رياض البهجة في أخبار طنجة ص 336، نسخة مرقونة.

* * *

بيبليوغرافيا :

- رياض البهجة في أخبار طنجة لمحمد سكيرج. الجزء الأول، مرقون
- الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي. مطبعة البلدية ـ فاس، ط 1345/1 هـ،
- فهرسة محمد بن الحسن الحجوي، تحقيق محمد بن عزوز، دار ابن حزم ـ بيروت، ط 1424/1 هـ ـ2003م.
- مذكرات غير شخصية، عبد الله گنون، مطبعة ألطوبريس ـ طنجة ط 1421/1هـ، 2000م.
- مواكب النصر وكواكب العصر لمحمد بن عبد الصمد گنون، مطبعة سوريا ـ طنجة ط 1400/1 هـ.

* * *

سعـــادة الحجـــوي

مارث إدمون كوفيون
ترجمة : عبد العاطي لحلو*

هذا المقال هو ترجمة لفصل من مؤلف «كتاب أعيان المغرب الأقصى» لمؤلفه مارث إدمون كوفيون وهو، كما جاء في العنوان الفرعي، كتاب لكبراء المغرب.

صدر الكتاب الواقع في 914 صفحة عن دار النشر - المكتبة الشرقية- بول كوتنير بباريس سنة 1939.

جاء الكتاب في عز الحماية الفرنسية على جزء كبير من التراب المغربي،وهو إحدى المؤلفات الغنية الصادرة في تلك الفترة حول المغرب من النواحي الجغرافية والتاريخية والأنتروبولوجية وغيرها . وقد اخترنا من هذا الكتاب ما كتبه كوفيون عن إحدى الشخصيات البارزة في ذلك الوقت وهو الوزير محمد الحجوي الذي تقلد عدة مناصب مخزنية وكانت له مساهمات علمية هامة باعتباره أحد خريجي جامعة القرويين وأحد علماء المغرب، كما كانت له علاقات متميزة مع الإدارة الفرنسية واطلاع واسع على الثقافة الغربية، مما جعله يضطلع بعدة مهام فيما بين الدوائر المخزنية والإدارة الفرنسية.

المقال الذي يقع في 10صفحات – صص 270-262- يحمل بكل بساطة اسم المتحدث عنه، «سعادة الحجوي» وقد كتب سنة 1932، أما ترجمة ما جاء فيه بالفرنسية كما نقترحها للقراء فهي كما يلي:

* أستاذ باحث، المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط.

كل الكتاب عرفوا في فترة من فترات حياتهم لحظة سعادة: تلك اللحظة التي أتيحت لهم للحديث عن صديق حقيقي ذلك لطف الهي...

متواضع ككل عالم أصيل، متسم بالبساطة رغم أنه من كبراء المخزن، هكذا كان سعادة السيد محمد الحجوي، وزير التعليم العمومي ونائب سعادة الوزير الأول، المقري.

ترجع أصول محمد الحجوي إلى قبيلة الثعالبة من أبناء الولي الصالح الإمام عبد الرحمان الثعالبي الجعفري.هذا العالم، الذي يعد مدرسة في وقته، كان أيضا شاعرا مرهفا خلف قصائد من روائع الشعر وله كرامات مشهورة، فحسب الإمام زروق، كان الشيخ الثعالبي يتمتع بملكة الرؤيا حيث يتنبأ كل ليلة بما سيقع في الغد. ويؤكد البعض أنه في ليلة وفاته سطعت الشمس فجأة لحظة احتضاره.

كان عمر الإمام عبد الرحمان الثعالبي الجعفري خمسون سنة لما بدأ اهتمامه بسكان حي بني مزرانة بالجزائر، وقد وهب حياته لدرجة أنه في عام 833 هجرية الموافق ل1480 م وبفضل علمه التجريبي فقد جنب كل البلاد كارثة الموت من وباء فتاك.

لقد كان من الشراح المخلصين للكتاب والسنة حتى أن أتباعه الذين كانوا يقصدونه متأكدين من الظفر بطيبوبته لقبوه ب »أبو الكرم». أما كتبه فقد اهتم بها تلميذه المفضل الفقيه الشهير سعيد الهواري والذي عد أكثر من ثلاث آلاف من إنتاجاته الأدبية والعلمية. عالمان آخران من تلامذته وهما سيدي عيسى ابن سلامة البسكري والشيخ عبد الرحمان البدجائي الوغليسي أبرزا أيضا خصال من كان صديقا حميما للإمام ابن عبد الكريم المغيلي والشيخ السنوسي الادريسي دفين تلمسان ، لكن شجرة الزبوج والتي يمتد جدعها إلى غاية طريق الزهرة بوقع الخميس في قلب بلاد وهران بالمكان المعروف بمقبرة الفحص، تشكل شاهدا على المكان الذي

دفن به هذا الولي وهو المكان الذي شهده فيه المؤلفون قبل حوالي عشر سنوات. وحسب أهالي المنطقة فإن الشيخ السنوسي يرقد هناك.

لقد جاء ذكر الإمام عبد الرحمان الثعالبي على لسان عالمنا المفتي، الصديق الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف والمتوفى في 873 هجرية في سن بلغ 93 سنة.

ومما يؤكد على نسبه ما كتب على شاهد قبره أنه من سلالة جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي وأخ الإمام علي بن أبي طالب. ويجمع بنو جعفر انتسابهم إلى الشرفاء الجعفريين. وقد كانوا ، مع مطلع القرن الرابع هم و بنو عمومتهم، بنو حسين يحكمون مكة لكنهم ما لبثوا أن طردوا منها.

بعد أن كانوا لاجئين فيما بين مكة والمدينة سيتم إبعادهم من طرف بني حرب مما دفعهم إلى اللجوء لصعيد مصر وهناك تقاسموا مع أولاد كنزدنها أراضي كوس الواقعة جوار قبيلة التبعيين إلى غاية السوانيات في وادي النيل .

من هذا الموضع الجديد تابع عدد منهم الموجة الهلالية السليمية التي زحفت على إفريقية وبعدها المغارب خلال القرن السادس وهذا ما يفسر كون عرب بني معقل بصفة عامة ومنهم قبيلة جرارة بسوس يرجعون نسبهم إلى جعفر بن أبي طالب الذي لقبه النبي بالطيار.

وبعد أن تم تشتيت الثعالبة الجعفريين مع بداية القرن الثامن من طرف السلطان النوميدي أبو طالب، استقرت الأسرة الحجوية تباعا في وادي سبو وبعد ذلك انتشرت في منطقة مشرع بلارج وكذا في حجر لوقاف ناحية فاس قبل أن يستقر بهم الأمر في الأخير بناحية سيدي قاسم.

لكن مع بداية حكم السلطان مولاي اسماعيل وإثر المشاركة في ثورة محلية سيبعد الجد عبد السلام بن حسن الحجوي بمعية أسرته إلى تازة، وقد ظلت الأسرة هناك لا تنتقل إلا لضرورة السفر إلى الخارج وبالخصوص للشرق.

الحاج العربي، جد سعادة محمد الحجوي من جهة الأب، كانت له سلفا علاقات جدية مع فرنسا وبالخصوص مع باريس، وقد سافر عدة مرات إلى مكة مع أبيه الحاج محمد بن سيدي بوعزة بن عبد السلام بن حسن الحجوي .كل هؤلاء كانوا من صفوة العلماء، وهم من هؤلاء الذين يلجأ إليهم لأخذ المشورة، نظرا لحكمتهم وسداد رأيهم وعلمهم الواسع.

درس السي العربي بتازة بداية على يد المفتي المعروف الشيخ أبي حجر الريفي وبعد ذلك بجامع القرويين على يد الفقيه التزمي ومولاي علي الدرقاوي الذي سيصبح صديقا له وقد أصبح هو الآخر من صفوة العلماء.

كانت للسي العربي مصاهرات مع أسر معروفة كالتازي الصبان وبكار، وقد توفي مبكرا في سن الخمسين سنة 1286 هجرية تاركا ثلاثة أبناء هم الحاج حسن والحاج محمد والحاج ادريس.

أما الحاج حسن وهو أب صاحب السعادة محمد الحجوي، ولد بتازة سنة 1259 هـ وقد كان من طلبة القرويين النجباء حيث تتلمذ على يد مشايخ مشهورين كالحاج محمد كنون الذي شرفه وأحاطه بعنايته بأن زوجه ابنته التي ستصبح أم الحجوي الوزير الحالي وكذا المؤرخ المعروف الشيخ امحمد القادري.

الحاج حسن وهو في مرتبة فقيه رغم حداثة سنه سافر كثيرا مع أبيه و قد عرف الشرق وفرنسا إلى جانب دول أوروبية أخرى حيث تعاطى للتجارة.

توفي الحاج حسن الحجوي بفاس في 22 ربيع الأول 1328هـ الموافق لـ4 دجنبر 1920 ووري جثمانه في روضة السكريين بباب الكيسة، وما يمكن القيام به تكريما لذكراه هو اعتبار ابنه البكر كأحد أعلام العالم الإسلامي المبرزين.

سعادة السي محمد الحجوي ، الوزير المتميز ورجل دولة المغرب ولد بفاس في 7 رمضان 1291هـ 18 أكتوبر1874 السي محمد بن الحاج حسن الحجوي كان وهو لا

يزال في بداية شبابه أحد الطلبة المتميزين بجامعة القرويين , ويمكن القول إنه تتلمذ على يد مشايخ مرموقين كالشيخ عبد المالك ابصير وسيدي محمد الوزاني والشيخ بنسودة عميد علماء فاس وكذا الشيخ أحمد بلخياط وهو الرئيس الحالي –وقت كتابة المقال– للمجلس العالي للتعليم وسيدي عبد السلام الهواري والشيخ لمراني والشيخ سالم بوحاجب التونسي، أب الوزير السابق صاحب القلم لجلالة باي تونس وآخرون.

السي محمد الحجوي وهو لا يزال في ربيعه الثالث والعشرين سيعين استاذا بالقرويين حيث سيدرس علوم اللغة والآداب لمدة أربع سنوات و سيستقدمه المولى عبد العزيز لمكناس سنة 1889 وبعد ذلك سيلتحق للعمل بمراكش إلى جانب الحاجب أبا احماد الذي كان ولوعا بمجالس العلماء.

في جمادى الثاني 1322–شتنبر 1904– وبموجب ظهير ملكي سيعين الحجوي مكان الوزير الجباص على رأس الوفد المغربي بوجدة المكلف مع الوفد الجزائري لتسوية مسألة الحدود المغربية الجزائرية.

«ستكون مكلفا، لتسوية الأمور سواء شفويا أو كتابة بعد دراسة وطبقا للاتفاق المعمول به مسألة الأسواق والحقوق الواجبة...

هاته المهمة كرئيس للوفد المغربي أسندت إليك نظرا لميزاتك الشخصية ولاستقامتك وإرادتك الحسنة ومعرفتك بالسياسة المعاصرة.

لقد أعطيت أوامرنا إلى السيد زبير والسي عبد الرحمان بن عبد الصادق رئيس محلتنا بوجدة وكذا إلى باشا المدينة أحمد بنكروم لأجل مساعدتك على أداء مهمتك. أخبر السي مجبود باشا فكيك كذلك لأجل الامتثال لأوامرك وإخبارك بكل الأحداث التي ستقع في أراضيه.

المكلف بالشؤون الفرنسية بطنجة أخبر بتعيينك المؤشر عليه من لدن حكومته والمسجل من طرف الحكومة العامة الجزائرية كما أخبر صديقنا اليوتنان موجان رئيس البعثة بوجدة».

بعد عبارات السلام

سيقوم الوزير الحجوي بهاته المهمة بكفاءة وسؤولية مما جعل الحاكم العام جونار يوجه له من الجزائر رسالة تهنئة مؤرخة في 30 أكتوبر 1904 –20 شعبان 1322.

بعد عودة السي الحجوي من مهمته، استغل فترة استراحته ليخطط لمشاريع علمية وبحثية تتمثل في إخراج عدة مؤلفات إلا أنه سرعان ما دخل سنة 1912 مجددا لدوائر المخزن كمندوب للتعليم ثم سكرتيرا مساعدا للدولة في التعليم العمومي ، هاته المهام الجديدة مكنته في النهاية من تحقيق أحد المشاريع التي كان يحلم بتحقيقها ألا وهو إحداث مجلس جامعة القرويين(مجلس أعلى للجامعة).

لقد كان أيضا وراء إدخال درس اللغة العربية في برامج التعليم بمدارس الحماية

وفي الأخير وبموجب الظهير الملكي الحامل لطابع جلالة الملك مولاي يوسف الصادر في الرباط بتاريخ فاتح شوال 1333هـ الموافق ل12 غشت 1914، سيتم تعيينه كمستشار للحكومة الشريفة. لقد كان ذلك عبارة عن اعتراف بخصال الحجوي الدبلوماسية ولولائه القوي لفرنسا رغم أنه كان لا يزال حديث العهد اتجاهها.

لقد مكنت أسفار الحجوي العديدة لأوروبا وإفريقيا من نسج عدة صداقات ويعتبره تلامذته وأتباعه «الشيخ المبجل» بدون منازع.

إنتاجه الفكري هائل إذ يقترح علينا قائمة مكونة من ستة وخمسين (56) عنوانا نذكر منها فقط بعض المؤلفات المطبوعة:

صفاء المورد- حول منع الوقوف أثناء التعرض لمولد النبي

الحق المبين وهو رد على نقد المؤلف السابق

تعليق على فصل قد افلح المومنون (وقد تم نشره بعناية الحكومة التونسية سنة 1917)

لماذا يجوز ذبح الحيوانات في حين أن هذا العمل يعتبر مخالفا للمبادئ الإنسانية وللرأفة؟

المناظر الجمالية ، تاريخ افريقيا الشمالية في 4 أجزاء

الصورة الجمالية وهو ملخص للمؤلف السابق موجه للتلاميذ

طيب الأنفاس الذي يعرض تاريخ الزوايا والأضرحة بفاس

علاقات أسفار مختلفة في شمال إفريقيا وفي أوروبا..إلخ

منذئذ أصدر الوزير سلسلة من أربعة مجلدات متميزة تحت عنوان :

كتاب الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي والذي نشر ملخصا تركيبيا عنه في مجلة الرحلة المترجم المتميز بمحكمة الاستئناف بالجزائر، الدكتور نوكيرش.

كتاب الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، الواقع في أربع مجلدات، يحكي تاريخ الشريعة الإسلامية. المؤلف سيدي محمد بن حسن الحجوي هو أحد الأعلام الفقهاء للجامعة العربية الكبيرة «جامع القرويين» بفاس وهذا النعت أو الصفة تكفي لمن يعرف السمعة العالمية لفقهاء الشريعة المغاربة لأجل إثارة الاهتمام بهاته الدراسة مما سيشكل بمعنى من المعاني ضمانا أو ماركة مسجلة للأصل. لكن يمكن الخوف من مصادفة أحد تلك الكتابات الكثيفة الموجودة بكثرة في الكتابات العربية من هاته الأعمال لدى كتاب القرون الوسطى التي يغلب عليها التقليد على

حساب العقل والتعقيد على وضوح الفكرة ، طغيان الكلمة على المضمون /المعنى. لحسن الحظ ومن الأسطر الأولى لا نجد شيئا من كل هذا ، إذ نلمس أن هناك اهتمام بالمنهج والوضوح يبرز مع المقدمة .هاتين الفضيلتين نجدها في أسلوب لا غموض فيه والمتميز بالبساطة وبالأناقة في بعض الأحيان وهو شيء نادر عند المسلمين بصفة عامة وعند فقهاء الشريعة بصفة خاصة.

رغم أن سيدي محمد الحجوي تموضع في أحسن مدرسة و مع مرجعياته المتعددة والقوية لم يأب إلا الاسترشاد بأقطاب الشريعة الإسلامية كالإمام الغازي والذي يذكر المؤلف في بداية كتابه هذا التعريف الجميل للشريعة بأنها: «الحق وهي الوعي بالقوانين وبالواجبات» وقد بين بذلك الأسس الإلهية للشريعة التي ترتكز على الاعتقاد في الحياة الأخرى، وفي الخوف من العقاب والأمل في الجزاء الحسن وهكذا وباللجوء إلى آيات قرآنية يبين أن الشريعة الحق، في الفترة قبل الإسلامية كانت شبه معدمة إذ اتسمت بالجهل وبعبادة الأصنام وبقطع الطرق. إنها بذلك لا تقدم إلا بعض العناصر البسيطة للشريعة وهنا نفهم بسهولة لماذا اختار المؤلف تقسيم عمله إلى أربعة أقسام توافق مراحل عمر الإنسان الذي يمر من الطفولة إلى المراهقة فالرجولة ليصل في النهاية إلى مرحلة الشيخوخة. وهكذا جعل المؤلف كل مرحلة من هاته المراحل مادة لمجلد من المجموعة.

في المجلد الأول، وبعد أن وقف الحجوي على الحصيلة الهزيلة للشريعة في الفترة ما قبل إسلامية، أفاض في تقديم فترة تأسيس الشريعة المحمدية. هذه القاعدة القانونية، كما هو الأمر بالنسبة للقانون الروماني، ترتكز على معرفة الأمور الإلهية والبشرية rerum divinarum atque humanarium notitia

وهذا العمل الهائل، الرائع والذي يتعدى الطاقة البشرية تم إنجازه ليس على مدى ثلاثة عشر قرنا ، كما هو الأمر بالنسبة لروما ، ولكن فقط في عشر سنوات.

هناك حيث ينتشر الجهل و يسود الاعتباط وينتصر التمييز، عمل النبي محمد على إشعاع العلم والعدل والحق/القانون. إن التشريع الإسلامي وقد تبلور بنوع من الرصانة والتحكم لا مثيل لهما، يبدو كآلة محكمة مكتملة ، كل بدون نقص يمكن أن يصلح لكل المجتمعات والذي لم يمر دون التأثير على الحضارة الإنسانية، الأوروبية منها والشرقية في الماضي كما في الحاضر. وهذا يفسر بكون القانون الإسلامي نابع من المبادئ الكونية كالوحدانية و مساواة المخلوقات أمام الخالق والحب والحقيقة والإيمان بالدار الأخرى وبالعدل..هذا الصفاء وهذه الأصالة للشريعة الإسلامية تكمن أصالتها في كونها لم تنقل عن أي دستور منجز من قبل. فالمشرع تعامل مع مادة بكر وأعطى مجموعة جديدة من القوانين والتي لم يكن يسيرا دائما تطبيقها. رغم أن مصادر التشريع الإسلامي كثيرة ومتنوعة فإن قاعدة التشريع ترتكز غالبا على النص القرآني لكن، كان لازما الإتيان بإضافات وهو ما شكل جهاز التشريع. هذا و إلى جانب النصوص القرآنية المقدسة نجد الفقهاء يستندون إلى السنة والقياس والإجماع.

بهذا الخصوص يجب القول إن سيدي محمد الحجوي كان مخطئا في جعل القياس سابقا من الناحية الكرونولوجية على الإجماع. والحال أن الأمة الإسلامية في المنتصف الثاني من القرن الأول الهجري كانت محرومة من وصايا النبي المكونة للسنة وكذا تطور الفقه في نفس الوقت مع الحديث وتكونت لذلك مدرستان إحداها ترفض القياس والأخرى تأخذ به كمنهج استنتاج لما تقرر شرعا في الكتاب والسنة بإعمال منطق القياس. أما الإجماع فيمثل اتفاقا داخل فرق المجتهدين الذين بفضل ذكائهم يستطيعون تكوين رأي شخصي. وهو مصدر لتشريع يأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن والسنة. هذا الترتيب الكرونولوجي الذي وحده يتوافق وحقيقة الأمور هو الذي نجده عند أكبر مؤسسي التشريع الإسلامي، ولن أحيل هنا إلا على «رسالة الصفي ، ص 65 :«يستخدم القياس ، يقول، في حالات لا يستند فيها للقرآن والسنة».

هل نحتاج التأكيد أن "موطأ مالك" يرتكز بالكامل على الإجماع المديني فيما القياس بغض النظر عن كونه لاحقاً على الإجماع يحتل المقام الثاني لكونه مصدرا أقل شأنا للتشريع؟

باستثناء هذا الخطأ فإن المؤلف يأتي بمفاهيم مضبوطة، كنا نتمنى لو تكون أكثر دقة فيما يخص أصل كل تشريع. لقد تمنينا بالخصوص العثور على نقد جدي للنصوص والوثائق الذي لم يحصل إلا لماما بمناسبة مناقشة بعض القضايا كمنع النساء من الخروج أو أو تحريم شرب الخمور أو التعامل بالربى.. وهي قضايا يأخذ فيها المؤلف على عاتقه الدفاع عن الإسلام ضد الاتهامات المتعددة والتي لا سند لها، مبينا أن هذه الاتهامات ترتكز أكثر على الأخلاق والمجتمع عوض استخدام منطق القوة والاعتباط.

ولأن التشريع الإسلامي يرتكز على المساواة والعدل فإن علم التشريع نشأ وتطور، لأن هنا كما في أي مكان فإن العلماء لا يمكن أن يختلفوا او يتوافقوا ولا يتفقوا إلا على العناصر القوية الواقعية. إن علم التشريع هو قبل كل شيء علم الحقيقة.

التشريع الذي رأى النور منذ إقرار القوانين والتي توجد نصوصها الأولى في الأحاديث الشريفة عرف تألقه خلال عصر الخلافة وهذا ما يشكل مادة المجلد الثاني والثالث من عمل الحجوي.

يميز المؤلف عن حق فيما بين فترتين:الأولى وتضم فترة حكم الخلفاء الأربعة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وهي فترة دامت ثلاثون سنة. سيدي محمد الحجوي يبرز العمل الجليل الذي قام به الخليفة المباشر للرسول بعد وفاته والذي طبق بالحرف روح النص القرآني والسنة النبوية .لقد أبان الخلفاء عن حق جدارتهم في استمرار الرسالة المحمدية. وقد انصب اهتمامهم في البداية على وضع نظام في ترتيب النص الإلهي الذي لم يكن إلا نصوصا متفرقة. وهكذا تم جمع الصحابة واللغويين الذين ضبطوا

النص وفحصوا المتغيرات وأبعدوا القراءات غير المنسجمة حتى خرجوا بنص محكم "قرآن" متفق عليه على غرار la vulgate de septante

أما عن الحالات العديدة التي طرحت، والتي لم يلجأ فيها للقرآن والسنة، فقد كان لازما تدبير الخلافات والصراعات وامتصاص الغضب ومحو الشكوك بصددها. وقد كان الخلفاء يتصرفون وفق الروح الإسلامية مع الاحتراز من السقوط في المظالم أو عدم الإنصاف.

قامت الدولة على أساس نظام تطبق فيه القوانين لأن العدل لا يتحقق مع الفوضى. هكذا أنشأ الخليفة عمر جيشا نظاميا قارا ومدربا مما سمح له من تجديد نظام استخلاص الضرائب الشرعية.إن حبه للعدل ورغبته في أن يكون منصفا تبرز بوضوح من خلال الرسالة التي وجهها إلى حاكم خراسان، أبو موسى الأشعري. ولكن سرعان ما- رغم الإرادة القوية للخلفاء لأجل استتباب وتعميم العدل أينما كان والعمل على المحافظة على وحدة الشرع - فإن اختلاف الرأي وتضارب التأويلات أفرزت تناقضات لم يكن سهلا حلها مما أدى إلى حروب ومواجهات دموية.

أما في فترة حكم الخليفة علي، كان الإسلام على حافة الانهيار. في تلك الظروف المتأزمة اغتنى التشريع بفتاوى وقرارات عديدة من لدن الجهات المناوئة للخليفة: كثرت الدعوات للخروج عن طاعة الخليفة وإعلان الاستقلال عن السلطة مما انبثق عنه فكرة التشيع.. وفي سنين قليلة سوف يحقق هذا المنحى تقدما ماحقا. موازاة مع الفوضى العارمة التي شهدها الحكم، توسعت حرية تأويل التشريع بكيفية غير مسبوقة.

هذه الحقبة ستنتهي مع وصول بني أمية إلى الحكم. معاوية، مؤسس الدولة الأموية بدأ في استبدال الملكية المطلقة والوراثية إلى خلافة اختيارية. وقد دامت المرحلة الثانية هذه قرابة ستين سنة . وإلى صالح تطور العلوم التاريخية واللغوية ستظهر

عدة تأويلات للقرآن والسنة. التيار الشيعي (الشيعات ستستقر بصفة دائمة). ولم يكن ضروريا فرز هاته الحقبة عن الفترة العباسية بسبب أن أسباب توسع الدراسات االتشريعية خلال القرن الثاني الهجري ظهرت منذ القرن الأول؛ الدراسات اللغوية، النقد، روح التناظر ستأتي من الخارج منذ حكم معاوية. الفلسفة ستغير بشكل كبير روح التشريع وسيدخل في الاعتبار أيضا أسباب إثنية. أبو حنيفة ، مالك والشافعي يقدمون في نظرياتهم خلاصات لهاته العناصر وهذه الحركات المختلفة للأفكار التي لا تبرز إلا في فترات الأزمة الإيديولوجية.

الكتاب الثالث من مجلدات تاريخ الفقه الإسلامي يغطي فترة القرنين الثالث والرابع حيث سيرتفع عدد الكتاب بفضل اكتشاف الورق كما ستظهر عدد من المذاهب كان أهمها مذهب أحمد بن حنبل أما الروح الفلسفية فقد أسفرت عن بروز التصوف والتي ستنشأ عنه الطرق الدينية التي ستغير من صورة الإسلام.

ويبدو أن الوحدانية التي دعى إليها النبي محمد والخلفاء الأربعة قد ضاعت إلى الأبد وقد أصبح العالم الإسلامي ممتدا بشكل موسع في حدود كل الدول المعروفة آنذاك .حينئذ ستقوم ثلاث مراكز خليفية، كل واحدة منها تدعي الشرعية الروحية والدنيوية. في مركز كل منها ستشكل فرق من العلماء سيحاولون الانتصار لنظرياتهم لدى كل المسلمين. في هذا الإطار سينال من طهارة وبساطة التشريع الإسلامي للفترة الأولى إذ ستصاب بالتغيير و سيتم تبني منهجيات جديدة للتأويل كما ستنشأ قواعد جديدة يؤخذ بها. روح التشريع ستتغيرإذن . وسط هاته الاختلافات العامة ولصالحها ، وبفضل توسع حرية تأويل التشريع فإن الأخلاق ستنحل تلك بداية تفكك وانحلال الشرع الإسلامي الذي سيكون موضوع المجلد الرابع.

هذا ويجب تهنئة المؤلف الذي عمل على وضع فهارس والتي من شأنها أن تساعد على البحث في عمل غني بالمصادر والوقائع.

إن التأثير الأوروبي كان ملموسا عند سيدي محمد الحجوي، ويمكن أن نفاجأ بهذا الأمر. لا يجب أن ننسى بأن سيدي محمد الحجوي يعرف فرنسا والتي أثرت بروحها على هذا المؤلف المتمثلة في المنهجية والوضوح.

بين إخوة سعادة محمد الحجوي ، أحمد وعمر اللذان كانا من أمناء الجمارك ؛ السي بوبكر الذي يعمل كسكرتير ترجمان بمديرية التعليم ؛ السي العربي يعمل كفقيه فيما الأولاد، وكلهم شباب محبوبون ، البكر السي محمد المهدي يحمل أيضا صفات النخبة. وقد درس في البداية بجامع القرويين وأتم تعليمه بالدراسات الفرنسية استعدادا للأستاذية بالتعليم العالي فيما الأخ الأصغر، السي علي، يدرس أيضا في تعليم مزدوج عربي-فرنسي، مقدما بذلك المثل الحسن في هذا الاتجاه لإخوته الصغار عبد الرحمان وعبد الحميد وهذا الأخير بالخصوص يتمتع بخصال هامة.

الرباط في 1935

* * *

مراسلات العلامة محمد بن الحسن الحجوي
مع المؤرخ ابن زيدان(*)
مقاربة بيبليوغرافية

محمد أمين العلوي**

توطئة:

هذه مجموعة من الرسائل لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، بعث بها العلامة محمد ابن الحسن الحجوي إلى المؤرخ النقيب المولى عبد الرحمان ابن زيدان، نفترض أن العدد الحقيقي لهذه المراسلات التي أمدنا بها المرحوم مولاي الحسن ابن زيدان نجل المؤرخ قد يكون أكبر مما بين أيدينا.

فهي إما رسائل جوابية تحوي في طياتها معلومات تاريخية (الرسالة رقم 4 مثلا) وإما رسائل إخوانية تبرز ما كان يربط الحجوي وابن زيدان من أواصر المحبة والاحترام المتبادل، تجمع بينهما قواسم مشتركة كرجلي دولة خدما ركاب المخزن الشريف خلال النصف الأول من القرن العشرين- من المولى عبد العزيز إلى سيدي محمد بن يوسف- مع تعاطيهما للتأليف والتدريس وإلقاء المحاضرات... حيث خلفا تراثا فكريا وتاريخيا جدير بالبحث والدراسة والتحقيق والنشر، بمناهج علمية

(*) سبق لنا أن نشرنا مجموعة أخرى من المراسلات بعنوان:
مراسلات الأمير شكيب أرسلان مع المؤرخ ابن زيدان، ضمن أعمال ندوة: دراسات تاريخية مهداة للفقيد جرمان عياش، منشورات ك.آ.ع.إ. بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 32، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.1، 1994، ص.297-275.

** باحث، مكناس

موضوعية، بعيدة عن التعصب والأحكام الجاهزة والاعتبارات الشخصية الضيقة والمواقف السياسية... لينجلي عنه الغبار والتعتيم وتعم فائدته أجيال ما بعد الاستقلال...

إن ظاهرة الانفتاح التي يعيشها المغرب اليوم بمثابة رد الاعتبار لشخصيات مغربية كمحمد الحجوي، المنصوري الزياني، عبد الحي الكتاني وغيرهم [1] بَصَمت بلدنا -على عهد الحماية- بمواقفها السلبية، وخروجها عن الجماعة وابتعادها عن الشرعية. وتبقى الغاية من هذا الانفتاح هي طي صفحة الماضي وعدم التركيز بنظرة أحادية على ما بدر من هؤلاء وسواهم... بل الالتفات إلى ما خلفوه من آثار في العديد من المجالات العلمية والفكرية والسياسية والأدبية.. التي لا يجب تجاهلها أو إقصاؤها بالمرة.

من هو محمد الحجوي؟

هو الفقيه الأصولي الإمام العلامة المحدث المشارك في الكثير من العلوم، أبو عبد الله محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي.

ولد بمدينة فاس يوم 4 رمضان عام 1291 هـ موافق 22 سبتمبر سنة 1874م.

يعتبر أحد أساطين العلم في وقته في المغرب والعالم الإسلامي، وهو صاحب كتاب الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي الذي يعد عمدة في بابه في المشرق والمغرب، والذي "لو لم يكن له سواه لبرهن عن اطلاعه الواسع وقدرته على البحث والمقارنة، والأخذ بما يراه كنتيجة لأبحاثه دون الإخلاد إلى التقليد لأحد الطرفين إلا في المسلم نصا وتحقيقا"[2]، تزيد مؤلفاته عن مائة وخمسة عشر مؤلفا، جعلت منه "أبرز المؤلفين المغاربة في الثلث الأول من القرن العشرين وأغزرهم إنتاجا، ولكنه -وهذه هي المفارقة- أقلهم شهرة"[3]، وقد قامت إحدى الباحثات بالتعريف بمصنفاته

في كتاب اختارت الفقيه الحجوي موضوعا محوريا لبحثها[4]، ولحسن الحظ فقد رأت النور بعض مخطوطاته عن طريق النشر أو التحقيق أو الترجمة[5]، كما وُضعت له ترجمة وافية تليق بمكانته العلمية من لدن بعض الكتاب والباحثين[6]، كإضافة لما سطره الحجوي بقلمه في سيرته الذاتية في مصنفه الفكر السامي – سابق الذكر- أو في فهرسته المسماة العروة الوثقى...ولا تتم الإحاطة الكاملة بشخصية العلامة الحجوي دون معرفة ما كُتب عن فكره من دراسات وأبحاث...[7].

لقد كان مترجمنا ذا فكر إصلاحي تحديثي لا مراء فيه، لاقى من جرائه معارضة من بعض المتحجرين، مع إجهاره بالحق وتسجيل الواقع كما هو، دون هوادة أو محاباة لبعض الشخصيات[8]، رائدا في طرقه لمواضيع جديدة غير مسبوقة تتعلق بالبنوك والتأمين وغيرها...

تفوق الحجوي على مجايليه وتجاوز العصر الذي كان يعيش فيه، مما جعله ضحية نبوغه وهدفا لحسّاده، الذين همشوا اجتهاده وحاولوا طمس معالم إنتاجه الفكري و"سيتعرض [الحجوي] لاحقا لأكبر عملية إقصاء من تاريخ الفكر في المغرب من طرف بعض مثقفي الحركة الوطنية لسبب أساسي هو أنه عوّل على الإصلاحات التي ادّعت فرنسا إدخالها على المؤسسات المغربية"[9]، ولكن شاءت إرادة الله أن ينبعث فكر العلامة الحجوي من جديد في رحاب الجامعة المغربية ومن خلال ثمرات المطابع والإبداع المسرحي[9م].

أليس هو القائل: "إن عزيمة الإنسان لابد لها من نفوذ ولو بعد حين"[10].

تقلد الحجوي عدة مناصب وزارية، من بينها وزير العدلية ومندوب الصدارة العظمى في العلوم والمعارف على عهد الحماية.

توفي رحمه الله بالرباط عشية يوم الأحد فاتح ربيع الأول عام 1376 هـ موافق 8 أكتوبر سنة 1956 وحُمل يوم الاثنين إلى فاس ودفن بها بعد العصر في محل بقصبة بن دباب خارج باب المحروق...![11].

المؤرخ ابن زيدان: سيرة موجزة

هو خديم العلم والتاريخ الفقيه العلامة المحدث أبو زيد عبد الرحمان ابن زيدان العلوي، مؤرخ الدولة العلوية ونقيب الشرفاء العلويين بمكناس وزرهون، والمدير العربي للمدرسة الحربية بمكناس (الأكاديمية الملكية العسكرية).

ولد في ربيع الثاني عام 1295هـ موافق أبريل 1878م بقصر المحنشة بالعاصمة الاسماعيلية.

له عدة مؤلفات أشهرها وأهمها إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس في ستة أجزاء، والمنزع اللطيف بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف والدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، والعز والصولة في معالم نظم الدولة، في جزئين، والعلائق السياسية للدولة العلوية وغيرها... حظي بعضها بالدراسة والتحقيق أو إعادة الطبع، كما اهتم بالترجمة له العديد من الكتاب والمؤلفين[12].

توفي رحمة الله عليه بمكناس يوم السبت 21 ذي الحجة عام 1365هـ موافق 16 نونبر سنة 1946م، ودفن بقبة ضريح المولى اسماعيل على يمين الداخل.

ورقة وصفية للرسائل

عددها : أربع رسائل

تاريخها: ثلاث رسائل مؤرخة ما بين 15 ذي الحجة 1343هـ و22 شوال 1347هـ.

إضافة إلى رسالة واحدة بدون تاريخ.

مواضيعها:

أـ إخوانيــــة

1- بعث بعض الكتب إلى ابن زيدان (الرسالة رقم 1)

2- دعوة لحضور حفل زفاف (الرسالة رقم 2)

3- استفسار عن الحالة الصحية لابن زيدان وأشياء أخرى (الرسالة رقم3).

ب ـ تاريخيـــة

وهي أجوبة على بعض الأسئلة وجهها ابن زيدان للحجوي عن تاريخ احتلال وجدة ودخول الفتان بوحمارة لها (الرسالة رقم 4).

أهميتها: يمكن مقارنة هذه الرسالة وما ورد فيها من معلومات دقيقة، بما جاء في مذكرته -الحجوي- المسماة الرحلة الوجدية أو انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره.

لغتها: عربية فصيحة، لغة فقيه عالم ومؤرخ.

خطها: مغربي مقروء، من نوع الزمامي

مقاييسها: متقاربة تتراوح ما بين 17,5 × 23 سم (رسالة واحدة).

18×23 سم (رسالتان).

18×24,5 سم (رسالة واحدة).

ورقها: ورق الرسائل المتداول في تلك الفترة -العشرينيات من القرن الماضي- يميل إلى الصفرة لقدمه.

وقد قمنا بتخريجها من أصلها وتقديم مختصر لها مع التعريف بالأعلام البشرية والجغرافية الواردة فيها تسهيلا لتناولها.

نصـــوص الرسائـــل

الرسالة رقم 1

رسالة إخوانية بعثها محمد الحجوي بتاريخ 15 حجة 1343، مع ثلاثة كتب، إجابة لرغبة ابن زيدان في الحصول عليها...

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله

جناب الأخ الأود الفقيه العالم العلامة الأوحد الحافظ المؤرخ الأثري النقيب الجليل الشريف مولاي الكبير بن زيدان رعاكم الله وسلام عليكم ورحمة الله بوجود مولانا المنصور أيده الله وبعد فيوافى مقامكم الأرفع بطيه الكتب 3 -

- الحق المبين[13]

- والمحاضرة الرباطية [14]

- وسوط الأفهام والأفحام[15]

إجابة لرغبتكم في الحصول عليها من أخيكم والله يبقيكم عينا من أعين العلماء المفكرين ويديم ارتقاءكم بدوام عز مولانا المؤيد بالله وعلى الأخوة والسلام.

15 حجة 1343

محمد الحجوي

الرسالة رقم 2

رسالة اخوانية بعثها محمد الحجوي بتاريخ 25 حجة عام 1345هـ، يدعو فيها ابن زيدان لحضور حفل زفاف أحد أنجاله الفقيه محمد المهدي

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

سيادة الأخ الأفضل النقيب العلامة المؤرخ المشارك المبجل الشريف سيدي عبد الرحمن بن زيدان رعاكم الله وأدام معاليكم وسلام على أخوتكم ورحمت الله عن خير سيدنا أيده الله وبعد،

فألتمس من كامل فضلكم أن تشرفوا محلي بوادي الصوافين بفاس[16] على الساعة 17 من يوم الأحد القابل ثالث أو رابع محرم فاتح 46 ليتجمل بنفيس طلعتكم احتفالنا بزفاف النجل الأبر الفقيه سيدي محمد المهدي[17] حفظه الله إذ

لا يتم السرور إلا بكم دامت مسراتكم وعلى الأخوة والسلام في 25 حجة حرام متم عام 1345.

محمد الحجوي

الرسالة رقم 3

رسالة اخوانية بعث بها محمد الحجوي، غير مؤرخة يحمد الله فيها على تماثل ابن زيدان للشفاء ويدعو له بطول البقاء مع خبر سار.

الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا محمد وءاله

سيادة الشريف الجليل العلامة الأديب المفضال نقيب البيت الملوكي معجزة الأجيال مولاي عبد الرحمن ابن زيدان بعد التحية اللائقة بالمقام تشرفت بكتابكم العزيز المبشر بالعافية فلله الحمد وله الشكر فلقد سكنت القلب من القلق وأزالت الحزن الذي كان تمكن من الفؤاد وإن راحتكم لمن نعم الله على أخيكم وعلى الإسلام وأين يا مولاي مثلكم فالله يبقيكم لأخيكم وللعائلة والإسلام وللمجد والدين والعلم، والأدب وقد بعثت النجل عبد الرحمن[18] ليراكم ويخبرني عن عيان ولا يكون إلا وصل مقامكم وحظي بمتعة الاجتماع بكم وقدم اعتذاري بأني ولكم العافية غير تام العافية الذي هيجه علي هذا البرد الشديد فادع الله لأخيكم، هذا وقد نقل لي ناقل بشارة سارة بأن النجل مولاي المصطفى[19] رزق ذكرا مباركا ففرحت جد الفرح وطلبت التلفون أيضا لأهنئه وأهنئكم غير أنهم بعد طول الانتظار اعتذروا بأن مقولكم لا يجيب كما فعلوا من قبل ثم بحثت الناقل عن الراوي فاسنده لجريدة السعادة[20] غير أني لم أر فيها ذالك، فقلت بشارة طيبة حقق الله الرجاء وكثّر سربكم وأفرح العائلة الكريمة بما تقربه العين وأسمعني عن الشريفة[21] ما يسر ءامين وعلى خالص الأخوة مسلم على السادة الأنجال[22] وعلى ما تعهد من صميم الود والدعاء بطول البقاء وإتمام الشفاء والسلام.

محمد الحجوي

الرسالة رقم 4

رسالة تشتمل على معلومات تاريخية مهمة بعثها محمد الحجوي بتاريخ 22 شوال 1347هـ، يمكن مقارنة محتواها مع ما ورد في مذكرته، الرحلة الوجدية أو انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره.

الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا محمد وءاله

سيادة الشريف الجليل النقيب الأثيل الأديب الأريب مولاي عبد الرحمن ابن زيدان رعاكم الله سلام على مقامكم الأسنى ورحمة الله عن خير مولانا المنصور بالله وبعد،

تشرفت بكتابكم سائلين عن تاريخ احتلال وجدة[23] ودخول أبي حمارة[24] لها وسبب توجه عاملها [25] إلى مغنية [26] وكم كان مقامه إلخ...

فاعلم سيدي رعى الله جنابكم أن الاحتلال الأخير كان يوم الجمعة 14 صفر 1325 بسبب قتل الطبيب موشان[27] بمراكش[28] في 4 منه ودخول أبي حمارة لها كان في ربيع الأول 1321.

سبب توجه عامل وجدة لمغنية أي التجائه إليها أن مولاي عبد العزيز[29] وجه عمه مولاي عرفة [30] لوجدة بمال ليجهز جيشا من العرب وبربر بني يزناسن محافظة على وجدة من أبي حصيرة عبد القادر العتيـگي اليزناسني [31] الذي ثار في المقام (محل بالظهراء)[32] يد عي أنه هو مولاي عبد العزيز هرب من اللوندرة [33] وحج وجاء يعين أخاه مولاي مَحمد[34] (أبا حمارة).

ولما اجتمع الجيش توجه عامل وجدة أحمد بن كروم الجبوري به إلى برديل [35] قرب دار البشير ومسعود[36] وبمجرد ما أقبل عليه أبو حصيرة انهزم إلى وجدة فحمل منها ما يعز عليه والتجأ لمغنية ومعه مولاي عرفة فأقبل بوحمارة من الريف [37]

بعد طرده سيدي محمد الأمراني[38] من جنادة [39] وسلوان [40] الذي كان توجه لهما بمثل وظيف مولاي عرفة في تاريخ واحد واحتلاله لهما إلى وجدة فاحتل بها من غير قتال في ربيع النبوي 1321 وبقي بها إلى أن بلغه احتلال المنبهي[41] عاصمة ملكه تازة[42]، فنهض إليها مسرعا وحاصرها لاكن وافق قدوم عسكر في البحر من طنجة[43] إلى سعيدة عجرود [44].

فنهض به الحاجب السيد أحمد الركينة التطواني [45] وكنا إذ ذاك معه في وفد كبير بمغنية نعالج داء فساد الوطن الأنجادي[46] فنهضنا إلى وجدة ووقع احتلال الجنود العزيزية لها في ربيع الثاني 1321 من غير قتال فصارت وجدة تابعة لمولاي عبد العزيز من الآن إلى الاحتلال الأخير.

فمدة مقام عامل وجدة بمغنية نحو ثلاثة أشهر.

والله يبقيكم ويديم النفع العام بكم ويحفظنا فيكم ءامين وعلى اخائكم والسلام 22 شوال 1347 محمد الحجوي.

* * *

هوامش

1. حيث نُشر ديوان شاعر الحمراء محمد بن ابراهيم المراكشي بضبط وتنسيق وتعليق أحمد شوقي بنبين (مدير الخزانة الملكية) عن مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط.1، 2000. وصدرت الطبعة الثانية من هذا الديوان في مجلدين بعنوان: "روض الزيتون" ديوان شاعر الحمراء.

بضبط وتنسيق وتعليق أحمد شوقي بنبين، ضمن منشورات الخزانة الحسنية بالرباط، عن المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، ط.2، 2002.

كما نُشر كتاب: كِباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر لأحمد المنصوري [بن قاسم بن محمد المكناسي الزياني]، وتقديم الدكتور مصطفى الكتيري (المندوب السامي) بمبادرة المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، عن مطبعة الكرامة، الرباط، ط.1، 2004.

ونُشر كتاب تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب للشيخ عبد الحي الكتاني، بضبط

وتعليق: د. أحمد شوقي بنبين والدكتور عبد القادر سعود، عن المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط.1، 2004.

2. عبد الله الجراري، التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين، من 1900 إلى 1972، منشورات النادي الجراري -1-، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.1، 1985، ص.138.

3. عثمان أشقرا/ المتن الغائب، دراسة في الفكر المغربي الحديث، سلسلة شراع، رقم 29، أبريل 1998، ص. 74.

4. آسية بنعدادة، الفكر الإصلاحي في عهد الحماية (محمد بن الحسن الحجوي نموذجا)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.1، 2003، ص.119-91.

5. انظر ملحق 1.

نستغرب لعدم إدراج اسم ومصنفات محمد بن الحسن الحجوي في معجم طبقات المؤلفين على عهد العلويين لعبد الرحمان بن زيدان، دراسة ببليومترية وتحقيق: د. حسن الوزاني.

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط.1، 2009، جزآن.

6. انظر ملحق 2.

7. انظر ملحق 3.

8. آسية بنعدادة، الفكر الإصلاحي في عهد الحماية، م.س.، في بعض الصفحات، ادريس كرم، مسائل ورسائل للعلامة محمد بن الحسن الحجوي، ط.1، 2005، دون ذكر مكان الطبع، في عدة صفحات من هذا الكتاب.

9. نور الدين أفاية، أسئلة النهضة في المغرب، منشورات الزمن، سلسلة رقم 15، يونيو 2000، ص. 82.

9م - قام مسرح الشامات بدعم من وزارة الثقافة والصندوق العربي للثقافة والفنون وبشراكة مع المسرح الوطني محمد الخامس بإنجاز مسرحية "تغريبة ليون الافريقي" من تأليف: د. أنور المرتجي وإخراج: الفنان بوسلهام الضعيف، حيث خصص الفصل الأول من المسرحية للتشابه الحاصل بين شخصية ليون الافريقي ومحمد الحجوي، كان العرض الأول لهذه المسرحية في فاتح مارس 2011، بدار الثقافة الفقيه المنوني مكناس.

10. حسن أحمد الحجوي، العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.2003،1، صفحة الإهداء.

11. وضعنا هذه الترجمة المختصرة –نظرا لضيق المجال– معتمدين على ما جاء عند من ترجموا له، راجع ملحق 2.

12. كان آخرهم الدكتور عبد اللطيف الشادلي، عند تقديمه وتحقيقه لكتاب: العلائق السياسية للدولة العلوية لابن زيدان، المطبعة الملكية، الرباط 1999، ص.21-5. وعند الدكتور حسن الوزاني في الدراسة البيبليومترية والتحقيق لمعجم طبقات المؤلفين على عهد العلويين، م.س.، ص. 52-13.

13. الحق المبين والخبر اليقين، بما في قراطيس حجة المنذرين مما يخالف الدين، كتاب طبع بمطبعة النهضة بتونس عام 1339هـ، يقول عنه مؤلفه الحجوي: "وهو نضال عن تأليف: صفاء المورد في عدم القيام عند سماع المولد، أول ما طبع من تواليفي بفاس سنة 1337، وأول كتاب ظهر من نوعه بالمغرب على عهد النهضة الأخيرة عن فكر استقلالي سلفي مستند إلى الكتاب والسنة، غير مكترث بأقوال تعتمد على الخيال" (مختصر العروة الوثقى... للحجوي، ص. 125).

14. المحاضرة الرباطية، فيما يتعلق بتعليم البنات المسلمات، ألقاها في المدرسة العليا بالرباط يوم السبت 9 دجنبر 1922 موافق ربيع الثاني عام 1341هـ(مخطوط الخزانة العامة الرباط رقم 114ح).

15. مثله [أي الحق المبين] طبع بالجزائر.

16. فاس: من أكبر المدن الإسلامية في المغرب العربي وتحتل مقاما ممتازا في المغرب كعاصمة ذات تاريخ مجيد.. (الصديق بن العربي، كتاب المغرب، مطبعة الأمنية، الرباط، ط.2، 1956، ص.117)، تبعد عن العاصمة الرباط بحوالي 200 كلم.

17. محمد المهدي بن محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، الكاتب الشاعر والمترجم. ولد عام 1322هـ/1904م، كان عضوا بالمحكمة العليا (الجنايات) ثم باشا وجدة إلى أن عزل عند استقلال المغرب، وهو أكبر إخوته:

علي: خليفة بفاس، عبد الرحمان: مدير الغرف التجارية ثم مدير التشريفات وعبد الحميد: رئيس القسم العربي براديو المغرب (كوفيون: أعيان المغرب الأقصى، ص.270 ولائحة التطهير... جريدة العلم، ع.3087 بتاريخ 02 غشت 1958). له كتاب: حياة الوزان الفاسي وآثاره، المطبعة الاقتصادية، الرباط 1354/1935، وكتاب: المرأة بين الشرع والقانون، دار الكتاب، الدار البيضاء 1967، وديوان شعر يقع في مجلد (ابن سودة، الدليل، ج.2/ص.397)، لم يرد اسمه ولا عناوين مؤلفاته في معجم طبقات المؤلفين على عهد العلويين لابن زيدان، م.س. له ترجمة عرّف فيها بنفسه عند: محمد بن العباس القباج، الأدب العربي في المغرب الأقصى، ج.2، ص. 14-11.

وترجم له:

-عبد الله الجراري، التأليف ونهضته، م.س، ج.1، ص.265.

-الادريسي القيطوني، معجم المطبوعات المغربية، ص. 96.

-محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج.9، ص.3408.

-ع.الرحمان الكتاني، من أعلام المغرب العربي في القرن الرابع عشر، ص. 153-152.

-جعفر الكتاني، الشرب المختصر، ص. 176-141.

-بدر المقري، خطط المغرب الشرقي، ص. 150-149.

-أحمد متفكر، نظم القوافي، ص. 146-145.

18. عبد الرحمان هو ثالث أبناء محمد بن الحسن الحجوي، شغل منصب مدير الغرف التجارية ثم مدير التشريفات لابن عرفة، انظر الملحق الأسبوعي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، ليوم الأحد 03 فبراير 2000، وما كتب عنه مصطفى العلوي، "الحجوي... أخطر على الملكية من المهدي بنبركة"، جريدة الأسبوع الصحفي، ع.607، الخميس 16 شتنبر 2010، ص. 32.

19. هو الابن الأكبر لابن زيدان، توفي بالرباط يوم الخميس 23 ذي القعدة عام 1427هـ/14 دجنبر سنة 2006، ودفن من غده بالضريح الاسماعيلي بمكناس.

20. أصدرتها المفوضية الفرنسية بطنجة سنة 1322/1904، وفي سنة 1913 انتقلت إلى الرباط، وصارت لسان حكومة الحماية الفرنسية بالمغرب، تخدم أغراضها السياسية وتبشر بنتائجها عن طريق الدعاية لخدمتها... للمزيد انظر: د. أحمد زيادي، "جريدة السعادة ودورها في تطوير الخطاب الإعلامي العربي بالمغرب"،

مجلة المناهل، ع.87 ، س. 30 يناير 2010، ص. 222-191 وهامش 1.

- سليمان الريسوني، السعادة اللسان العربي للاستعمار الفرنسي "أوال" ع. 20، من 11 إلى 17 مارس 2011، ص. 51-50.

- زين العابدين الكتاني، الصحافة المغربية نشأتها وتطورها (1912-1820)، نشر وزارة الأنباء، مطبعة فضالة، المحمدية، د.ت.، ص. 151-145.

21. هي الأميرة للا زينب كريمة السلطان المولى يوسف، انتقلت إلى رحمة الله بمكناس، يوم السبت 30 رجب عام 1408هـ، موافق 19 مارس 1988، ودفنت بقبة ضريح المولى اسماعيل.

22. هم المصطفى، المهدي، الأمين، سلامة، الحسن، الطيب.

23. وجدة: عاصمة المغرب الشرقي وأقرب مدينة مغربية للحدود الجزائرية، أسسها زيري بن عطية المغراوي، سنة 384 ... وبها آثار المرابطين والموحدين والمرينيين.

(الصديق بن العربي، كتاب المغرب، م.س، ص. 134)، انظر عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن والقبائل- 2- مطبعة فضالة، المحمدية، 1977، ص. 372.

24. الجيلالي بن ادريس اليوسفي الزرهوني المكنى بالروگي وبوحمارة، **كان موظفا مخزنيا قبل** أن يعلن ثورته ضد السلطان المولى عبد العزيز 1320هـ/1902م.

قال عنه محمد غريط: "هو شيطان طلع نجمه، فنجم بهتانه، وقوي جرمه لما ضعف إيمانه..."

فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان، تحقيق: د. عبد القادر سعود، ود. عبد المجيد خيالي، دار الامان، الرباط، ودار ابن حزم، لبنان، ط.1، 2010، ص. 124، انظر محمد الصغير الخلوفي، "انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره" دواعي الإصلاح والتنظيم، تقديم زكي مبارك، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط. 2، 1994، ص. 112 وما بعدها....

- عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، 1978، ج. 1، ص. 303-397.

- لويس أرنو، زمن "لمحلات" السلطانية، الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860 و1912م، افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2001، ص. 160-121 و 206-195.

-AUBIN (Eugène), le Maroc d'aujourd'hui

Librairie Armand Colin, Paris, 5ème édition 1908, p p.108-131.

-BAKRAOUI Mohamed, la révolte de Bouhmara, Contribution à l'étude du Maroc précolonial.

Thèse D.E.S, Université Poitiers 1980.

25. هو عامل وجدة أحمد بن محمد بن كروم الجبوري البخاري المكناسي "عين عاملا على الحاضرة الوجدية يوم 23 شوال 1319 وبقي على خطته إلى سنة 1325هـ... ثم عين في السنة ذاتها باشا وجدة، ثم قرر الاعتزال لأسباب صحية، ورحل إلى تازة وبها توفي حوالي 1337هـ...

ولا يخفى على الباحث اللبيب ما أسداه أحمد بن كروم الجبوري البخاري من خدمات للاستعمار الفرنسي، قبل الاحتلال كان ابن كروم طابورهم الخامس في وجدة، وهو الذي فتح وجدة على مصراعيها لليوطي...".

(بدر المقري، خطط المغرب الشرقي، م.س، ص. 318).

وقد بعث أحمد بن كروم برسالة إلى أخيه قاسم تصف واقع احتلال وجدة، وفيها يقول: "وبعد، فاعلم أخي أن صبيحة يوم تاريخه [14 صفر عام 1325هـ] اندفقت الجنود الافرانساوية علينا بقدر لا حد له، نحو خمسون مائة من العسكر، وعشرون مائة من الخيل، بآلة الحرب والمدافع، ودخلوا وجدة... وهم -الآن- تمكنوا في المدينة، وضاقت بنا الأرجاء... ولا ناصر إلا الله". انظر النص الكامل للرسالة، عند محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، 1985، ج. 2، ملحق 71، ص. 479.

وفي ذلك يقول شيخ الملحون هاشم السعداني:

يَا لسْلام ابْكيوا على دْخول وجدة   دون حَرْب اغْنَمْها لَعْدُو ونَال لَمْرَادْ

ورد نص القصيدة بكاملها عند محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، نفس المصدر، ملحق 80، ص. 524-512.

26. مغنية: مدينة توجد في الغرب الجزائري، تبعد عن العاصمة الجزائر ب... **كلم.**

27. هي الذريعة التي اتخذتها فرنسا لاحتلال مدينة وجدة، لمعرفة المزيد عن مقتله انظر: ابن زيدان، اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس.

مطابع "إديال" الدار البيضاء، ط.2، 1990، ج. 1، ص. 419-415 و 447.

(H) Guillemin-
.1910 ,Bertrand.E ,Mouchamps Emile docteur du Biographie

28. مراكش: عاصمة المغرب الجنوبية، باسمها اشتهر المغرب في الشرق والغرب، أسسها الأمير يوسف بن تاشفين في أواسط القرن الخامس، وأتمها من بعده الخليفة عبد المومن الموحدي... (الصديق بن العربي، كتاب المغرب، م.س.، ص. 104-102). للمزيد انظر: العباس بن ابراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، راجعه عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط. 2، 1993، ج. 1، ص. 100-57.

29. السلطان المولى عبد العزيز بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمان العلوي، بويع له بعد وفاة والده في 3 حجة الحرام عام 1311، موافق 6 يونيو سنة 1894، وتنازل عن الملك عام 1326هـ/1908م.

قال عنه محمد بن الحسن الحجوي: "كان مغلوبا على أمره، غير ممارس ولا مباشر للأعمال بنفسه، مع كونه على الحقيقة له النباهة والفضل والخير والتقوى والحلم والرأفة والكرم لا كما يقول أعداؤه المستأجرون" (الحجوي، النظام في الاسلام، =محاضرة= المطبعة الوطنية، الرباط 1928). للمزيد أنظر:

- ابن زيدان: الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة،

المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1937، ص. 117-111.

- الجامعة الصيفية، المغرب من العهد العزيزي إلى سنة 1912

مطبعة فضالة، المحمدية 1989، 3 أجزاء.

- لويس أرنو: زمن "لمحلّات" السلطانية، م.س. ص. 96-75.

-جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، أعمال الدورة الثامنة، السلطان مولاي عبد العزيز، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، مطبعة دار المناهل، الرباط 2003.

- غابرييل فير، في صحبة السلطان، المغرب، (1905-1901)

ترجمة وتقديم، عبد الرحيم حزل.

- جذور للنشر، الرباط فيديبرانت، الرباط، ط. 1، 2003.
- افريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط. 2، 2009.

30- مولاي عرفة العلوي، شقيق السلطان المولى الحسن الأول، التجأ إلى مغنية مع أمين ديوانية وجدة محمد بن التهامي التازي الفاسي، لما بلغه خبر الفتان أبي حمارة في 11 محرم 1321هـ (المقري: خطط المغرب الشرقي، م.س، ص. 333).

31- أبو حصيرة عبد القادر لهبيل العتيـگي اليزناسني، ولي قيادة بني عتيق من بين يزناسن في صفر 1297 هـ (المقري، خطط، م.س، ص. 372).

قال عنه بن منصور: "صار أبو حصيرة من أعضاء الفتان أبي حمارة... وقد انسحب إلى الجزائر عندما بدأ الفرنسيون يضعون الخطط لاحتلال وجدة وشرق المغرب، فأقام في كنفهم وتحت رعايتهم مدة بمغنية، ثم دخل مع جيش احتلالهم إلى وجدة وصار يطلعهم على العورات ويدلهم على الثغرات، خدمة لسياستهم وقضاء لمآربهم فكافأوه على خدمته بتعيينه مخزنيا في إدارة مراقبتهم ببركان، وبقي يمارس تلك الوظيفة التافهة إلى أن أدركه الموت في تاريخ لا أقف عليه".

(عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، م.س.ج. 1، ص. 406)،

ابن زيدان الاتحاف، م.س، ج.1، ص.406، محمد الصغير الخلوفي، "انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره" دواعي الإصلاح والتنظيم، م.س، ص. 154-151.

32- كل البلاد المسقية بملوية السفلى مع روافدها حتى جبال فجيج الواقعة ما بين وجدة وفجيج ونهر ملوية.

(مصطفى بوشعراء، الاستيطان والحماية بالمغرب، المطبعة الملكية، الرباط 1984، ج. 1، ص. 36-35).

33- اللوندرة، مدينة لندن عاصمة بريطانيا.

34- هو الأمير مولاي مَحمد بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمان العلوي، انتحل الفتان أبو حمارة اسم وشخصية هذا الأمير عند انطلاق ثورته.

35- قصر برديل، مقر أولاد البشير، يوجد بين فرقة المزارعة وتافوغالت ببني يزناسن.

36- أو البشير بن مسعود، ينتمي إلى أشهر عائلات بني يزناسن، كان صاحب سلطة واسعة، منذ 1189هـ.

(المقري، خطط، م.س، ص. 373). للمزيد انظر:

لويس أرنو، زمن "لمحلات" السلطانية، م.س، ص. 43-39.

37- الريف: إحدى دوائر إقليم الناظور، تضم جماعات إيكرماوس والمهاجر واتروكوت وابن الطيب وبودينار، ودار الكبداني، وتمسمان، وميضار، وأزلاف، وتافرسيت، وتازغين.

ويحد الريف شمالا البحر الأبيض المتوسط وشرقا مقاطعة وهران، وغربا وجنوبا إقليم جبالة، كما تمتد بجنوبه الشرقي بلاد الظهرا وهي الصحراء الشرقية.

-بنعبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن والقبائل، م.س، ملحق 2، ص. 210.

38. هو زوج عمة السلطان المولى عبد العزيز، الذي عينه مندوبا عنه على وجدة ونواحيها، وقد ذهب مولاي محمد الامراني، إلى طنجة ومنها إلى ميليلة بحرا، وبمجرد ظهور مقدمة جيش الفتان أبي حمارة، تخلى مولاي محمد الامراني عن سلوان فاحتلها أبو حمارة والتجأ الامراني إلى مليلية يوم الخميس 16 محرم 1321هـ.

(المقري، خطط، م.س. ص. 332، والحجوي، انتحار، م.س، ص. 128-127).

39. إحدى قرى القلعية بالريف.

40. سلوان قرية صغيرة من قرى الريف، تقع على ضفة نهر سلوان، بها قصبة بناها المولى اسماعيل لمراقبة قبائل الريف، احتلها الإسبان، سنة 1909، تقع على بعد 28 كلم، جنوب مليلية، (الصديق بن العربي، كتاب المغرب، م.س، ص. 128).

وهي إحدى جماعات دائرة القلعية، إقليم الناظور (عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية ، ملحق 2، م.س، ص. 274).

41. المهدي بن العربي المنبهي ولد في قبيلة المنابهة إحدى قبائل الحوز، وتوفي بطنجة عام 1358هـ/1939م.

تقلد في البداية منصبا بسيطا فأصبح مخزنيا بالقصر الملكي، ثم تسرب ليعمل بداخله، فارتقى إلى قائد الفراش إلى أن أصبح وزير الحربية والبحرية والمستشار الخاص للسلطان، وبهذا صار له الإشراف على سائر الوزارات.

انظر: -الصديق الروندة: المهدي المنبهي الوزير الشاهد على بداية الأزمة المغربية، من 1900 إلى 1903. الرباط نيت المغرب، الرباط 2006، ص. 11.

-محمد المنوني "البدايات الأولى لليقظة المغربية على مستوى الإصلاحات الكبرى".

مجلة المناهل، ع. 12، س. 5، يوليوز 1978، ص. 322-308.

-الحسن بوعشرين، التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب

تقديم وتصحيح محمد المنوني.

مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط. 1، 1994، السفر الأول، ص. 66-64.

-محمد المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق: ادريس بوهليلة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط. 1، 2005، ص. 243-245 و 246.

-غابرييل ڤير، في صحبة السلطان، المغرب (1901-1905)، م.س.، ط.1، ص. 41-25، وط.2، ص.68-39.

42. تازة مدينة متوسطة من أقدم المدن المغربية، تقع وسط قبيلة غياثة في منتصف الطريق بين مكناس ووجدة في موقع جبلي ممتاز بين الأطلس المتوسط وجبال الريف في ممر استراتيجي عظيم بين المغرب الشرقي وسهول فاس، أسست سنة 529هـ في عهد الأمير عبد المومن بن علي الموحدي، ولعبت أدوارا هامة في تاريخ المغرب...

(الصديق بن العربي، كتاب المغرب، م.س، ص. 74-73).

43. طنجة من أقدم المدن المغربية التي لعبت أدوارا هامة في تاريخ المغرب في القديم والحديث، تقع في رأس بوغاز جبل طارق بين البحر الأطلنطي والبحر المتوسط في مقابلة الشاطئ الإسباني، لا يفصلها عنه سوى مسافة 17 كلم، تقع المدينة على بعد 274 كلم من الرباط، (نفس المصدر، ص. 97-96، و الموسوعة المغربية، معلمة المدن والقبائل، ملحق 2، لبنعبد الله، م.س، ص. 304-306).

44. سعيدة عجرود، لعلها السعيدية إحدى جماعات دائرة بني يزناسن.

45. تولى منصب أمين مستفادات وجدة، من 1886 إلى 1890، ثم عينه السلطان عبد العزيز على رأس بعثة مخزنية أوفدها إلى وجدة في ماي 1903 بعد أن فشل مولاي عرفة والشريف الامراني في صدّ زحف الروگي، وهو الذي سلم عين بني مطهر لفرنسا، ولهذا أعفاه السلطان وعين بدله ابن عبد الصادق.

(آسية بنعدادة، الفكر الإصلاحي في عهد الحماية، م.س، ص. 130 وهامش 30).

46. نسبة إلى عرب أنكاد، قبيلة منتشرة في المغرب الشرقي بناحية وجدة.

(عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية، معلمة المدن والقبائل، ملحق 2، م.س، ص. 59).

* * *

ملحق 1

مخطوطات محمد الحجوي المنشورة والمحققة والمترجمة

1- محمد بن الحسن الحجوي

إرشاد الخلق إلى الاعتماد في ثبوت الهلال على خبر البرق.

مخطوط خ.ع، الرباط، رقم 244 ح، أعده للنشر، سعيد بنسعيد العلوي.

ضمن كتابه: الاجتهاد والتحديث، دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب.

- منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي.

سلسلة الفكر الإسلامي المعاصر -3- مالطا، ط. 1، 1992، ص. 121-113.

- مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 2، 2001، ص. 119-111.

2- محمد بن الحسن الحجوي

جواز التأمين على السلع والبضائع

مخطوط خ.ع.، الرباط، رقم 114 ح.

أعده للنشر: سعيد بنسعيد العلوي، ضمن كتابه: الاجتهاد والتحديث.

- مالطا: ط.1، 1992، ص. 150-148.

- مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 2، 2001، ص. 145-143.

3- محمد بن الحسن الحجوي

مستقبل تجارة المغاربة

- مخطوط خ.ع.، الرباط، رقم 115 ح و 118ح و 132ح.

أعده للنشر: سعيد بنسعيد العلوي، ضمن كتابه: الاجتهاد والتحديث.

- مالطا: ط.1، 1992، ص. 170-154.

- مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 2، 2001، ص. 165-149.

4-محمد بن الحسن الحجوي

تعليم الفتيات لا سفور المرأة

- مخطوط خ ع، الرباط، رقم 205.
- أعده للنشر: سعيد بنسعيد العلوي، ضمن كتابه: الاجتهاد والتحديث...
- مالطا، ط. 1، 1992، ص. 237-206.
- مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 2، 2001، ص. 229-200.
- تحقيق: محمد بن عزوز

منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء.

ودار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 1، 2004.

5-محمد بن الحسن الحجوي:

الرحلة الأوربية، إلى فرنسا وانجلترا عام 1337هـ/1919م.

- مخطوط خ.ع، الرباط، رقم 115ح، ضمن مجموع
- أعده للنشر: سعيد بنسعيد العلوي، ضمن كتابه: أوروبا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات ك.آ.ع.إ، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 12، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.1، 1995، ص. 205-99.
- تحقيق: د. سعيد الفاضلي

دار السويدي للنشر والتوزيع، ابو ظبي، ط.1، 2003.

- ترجمة إلى الفرنسية: ألان روسيون، وعبد الله ساعف

منشورات إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2001.

6-محمد بن الحسن الحجوي

مذكرة الحجوي أو الرحلة الوجدية أو "انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره"، دواعي الإصلاح والتنظيم.

- مخطوط خ. ع، الرباط، رقم 123 ح.
- أعده للنشر وعلق عليه: محمد الصغير الخلوفي.

تقديم: - زكي مبارك

مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط. 2، 1995.

7-محمد بن الحسن الحجوي

فهرسته المسماة مختصر العروة الوثقى في مشيخة أهل العلم والتقى

- مخطوط خ .ع، الرباط، رقم 144 ح، طبعة أولى قديمة.
- تحقيق: ـ محمد بن عزوز

مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ودار ابن حزم، بيروت، ط. 1، 2003.

8-محمد بن الحسن الحجـوي.

التعاضد المتين بين العقل والعلم والدين

- مخطوط خ.ع، الرباط، رقم 113 ح
- تحقيق: محمد بن عزوز

مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ودار ابن حزم، بيروت، ط. 1، 2005.

9-محمد بن الحسن الحجوي

القرآن فوق كل شيء

- مخطوط خ .ع، الرباط، رقم 120 ح
- تحقيق وتعليق: محمد بن عزوز

مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء ودار ابن حزم، بيروت، ط.1، 2005.

10-محمد بن الحسن الحجوي

مسائل ورسائل للعلامة محمد بن الحسن الحجوي

أعده للنشر: ادريس كرم ط. 1، 2005، دون ذكر مكان الطبع.

11-محمد بن الحسن الحجوي

تفسير سورة الإخلاص وتقاييد أخرى في علم التفسير

- مخطوط خ .ع، الرباط، رقم 115 ح، ضمن مجموع

دراسة وتحقيق: ابراهيم الوافي

منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، سلسلة نوادر التراث- 8- الرابطة المحمدية للعلماء، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط. 1، 2009.

12-محمد بن الحسن الحجوي

رحلة حجازية [عام 1365هـ/1946م]

ـ مخطوط خ. ع، الرباط، رقم 161 ح، ضمن مجموع
ـ تحقيق: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ودار ابن حزم، بيروت، ط.1، 2010.

13-محمد بن الحسن الحجوي

صفاء المورد في عدم القيام عند سماع المولد

ـ مخطوط خ. ع، الرباط، رقم 115 ح، ضمن مجموع
ـ مطبوع طباعة عصرية، دون تاريخ ومكان الطبع.

-المكتبة الوطنية للمملكة المغربية

فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية

المجلد الثامن: مجموعة محمد بن الحسن الحجوي (رصيد حرف الحاء)، منشورات المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.1، 2010/2009.

ملحق 2
مترجمو محمد الحجوي

1- الحجوي محمد بن الحسن

الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم 160 ح.

- طبع بالرباط، د.ت

×مطبعة النهضة، تونس (د.ت).

- المطبعة الجديدة، فاس (د.ت) [1340هـ/1921م].
- المكتبة العلمية، المدينة المنورة (د.ت)، ج.1، ص. 15-1، ج. 2، ص. 390-376.

2-الحجوي محمد بن الحسن

فهرسة محمد بن الحسن الحجوي المسماة مختصر العروة الوثقى في مشيخة أهل العلم والتقى، مطبعة الثقافة، سلا 1357هـ/1938م.

ثم صدرت بتحقيق: محمد بن عزوز

مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء ودار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 1، 2003.

3-الحجوي محمد بن الحسن
- مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم 199 ح.
- جريدة السعادة: العدد 4793- العدد 4794- العدد 4795
رمضان عام 1358هـ موافق شهر نونبر 1939م.
4-دار الكتب المصرية
فهرس الكتب العربية بدار الكتب المصرية
القاهرة 1361هـ/1942م، ج. 6، ص. 96.
5-الادريسي القيطوني الحسني، ادريس بن الماحي
معجم المطبوعات المغربية
مطابع سلا، سلا 1988، ص. 97-96.
6-ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر
دليل مؤرخ المغرب الأقصى
دار الكتاب، الدار البيضاء، ط. 2، 1960.
ج. 1، ص. 232-171-161-125-122-91-63-53-49.
ج. 2، ص. -483-477-475-450-448-442-366-359-339-335-306
486-491.
7-ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر
اتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع
ضمن موسوعة أعلام المغرب
تنسيق وتحقيق، محمد حجي
دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ج. 2، ص. 560.
8-الزركلي خير الدين
الأعلام، قاموس، تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين.
دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط. 5، 1980، ج. 6، ص. 96.
9- الجراري عبد الله
التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين، من 1900 إلى 1972

منشورات النادي الجراري -1-
مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.1 ، 1985، ص. 141-138.
10-المنوني محمد
المصادر العربية لتاريخ المغرب، الفترة المعاصرة (1930-1790)
منشورات ك.آ.ع.إ، بالرباط، سلسلة الدراسات البيليوغرافية رقم 1، مطبعة فضالة، المحمدية 1989، ص.
12-الصغير الخلوفي محمد
"انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره"، دواعي الإصلاح والتنظيم
تقديم: زكي مبارك، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط. 2، 1995 ص. 18-15.
13-الكتاني عبد الرحمان
من أعلام المغرب العربي في القرن الرابع عشر
جمع: نور الهدى الكتاني، تحقيق: محمد حمزة بن علي الكتاني
دار البيارق، الأردن، لبنان، ط. 1، 2001، ص. 194.
14-بنعدادة أسية
الفكر الإصلاحي في عهد الحماية (محمد بن الحسن الحجوي نموذجا)
المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. 1، 2003، ص. 119-61.
15-الكندوز لطيفة
المنشورات المغربية منذ ظهور الطباعة إلى سنة 1956
منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل، الرباط 2004، ص. 460-459-138.
16-المقري بدر
خطط المغرب الشرقي
منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
مطبعة إليت، سلا، ط. 1، 2006، ص. 136-127 و 315-314.
17-الوافي ابراهيم
"تفسير سورة الإخلاص" وتقاييد أخرى في علم التفسير(دراسة وتحقيق)
منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، سلسلة نوادر التراث -8-الرابطة

المحمدية للعلمـاء، دار الأمـان للنشر والتوزيع، الرباط، ط. 1، 2010، ص. 17-13.

18-خيالي عبد المجيد

"رحلة حجازية" (تحقيق)

مركز التراث الثقافي المغربي ودار ابن حزم، بيروت، ط. 1، 2010، ص. 34-11.

19-الحسني اسماعيل

مقاصد الشريعة والاجتهاد في المغرب الحديث

منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، سلسلة دراسات وأبحاث -3- الرابطة المحمدية للعلماء، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط. 1 ، 2010، ص. 27-26، هامش رقم 1.

20-كحالة عمر رضا

معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية

مكتبة المثنى -دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.، ج. 9، ص. 187.

21-حجي محمد

معلمة المغرب

مطابع سلا - سلا، ج. 10، ص. 8333.

22- GOUVION)Marthe et Edmond(Kitab Aâyane Al Maghrib l'Akça

L. Orientaliste, Paul GEUTHNER, Paris 1939, Tome II, pp. 263-270.

23 »-Si Mohamed EL HAJOUI« visir de la justice et de l'enseignement musulman ».

Archives Diplomatiques de Nantes (A.D.N) D.A.C, n°331, H.

24 »-L'Opinion marocaine et les événements de la semaine du 4 au 11 juin .« 1946

A.D.N, C.D.R. G, 195.

25 »-Note pour le ministre«

Archives du Ministère des Affaires Etrangères (A.M.A.E), Quai d'Orsay, Maroc N.S, Vol. 31, M 101.

ملحق 3
بعض مما كتب عن فكر محمد الحجوي

1- ابن يوسف نجية
نصيحة السلطان في الفكر الإصلاحي لدى الحجوي
مجلة وجهة نظر، ع. 3، ربيع 1999، ص.
2-البلواني عادل
موقف الحجوي الفكري والسياسي من الحماية
مجلة وجهة نظر، ع. 7، ربيع 2000، ص. 46-45.
3-الحجوي حسن أحمد
العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي (1912-1757)
المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. 1، 2003.
4-الحسني اسماعيل
الأخلاقيات والتجارة في الفكر المغربي الحديث
مجلة المناهل، ع. 61، س. 24، شتنبر 2000، ص. 151-137.
5-الحسني اسماعيل
سؤال التحديث والاختيار الاستعماري في شخصية محمد بن الحسن الحجوي، مجلة الذاكرة الوطنية، ع. 6، 2004، ص. 33-25.
6-الحسني اسماعيل
التجديد والنظرية النقدية، دراسة في خطاب التجديد الإسلامي في المغرب.
المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط. 1، .2005
7-الحسني اسماعيل
مقاصد الشريعة والاجتهاد في المغرب الحديث
منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، سلسلة دراسات وأبحاث
-3- الرابطة المحمدية للعلماء، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط. 1، 2011.
8-الصغير الخلوفي محمد
"انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره"

دواعي الإصلاح والتنظيم، مذكرة الحجوي نموذج من الكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط. 2، 1995.

9-الصولبي حميد

التحديث ومنهجية بناء الفتوى في الفقه المغربي الحديث، ملاحظات أولية، مجلة أمل، ع. 7، س. 3، 1996، ص. 92-82.

10-الصولبي حميد

نازلة "الحماية" في نظر الفقيه المغربي محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي مجلة ك.آ.ع.إ، مراكش، ع . 17-16 "مزدوج" 2002-2001، ص. 88-79.

11-الصولبي حميد

نظرية التحديث في الفكر المغربي (1944-1844)

دار المدار الإسلامي، بيروت، ط. 1، 2010.

12-الصولبي حميد

الاجتهاد والتجديد في الفكر المغربي المعاصر

المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط.1، 2011.

13-أشقرا عثمان

في سوسيولوجيا الفكر المغربي الحديث

الناشر عيون المقالات، مطبع النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 1990.

14-أشقرا عثمان

المتن الغائب، دراسة في الفكر المغربي الحديث

- كتاب محمد بن الحسن الحجوي

سلسلة شراع، رقم 29، أبريل 1998، ص. 80-74.

15-أشقرا عثمان

الفكر الوطني ومسألة التحديث

أعمال ندوة: مشروع التحديث في المجتمع المغربي

منشورات الشعلة، مطبعة السعادة، الدار البيضاء، ط. 1، 1998، ص. 127-119.

16-أشقرا عثمان

العطب المغربي، بحث في أصول التحديث وإعاقاته بالمغرب

مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 2003، ص. 68-64.

17-بلقزيز عبد الإله

الخطاب الإصلاحي في المغرب، التكوين والمصادر (1918-1844)

دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط.1، 1997.

18-بنعدادة آسية

مفهوم الحماية عند الحجوي

هيسبريس تمودا، ع. 39، ج . 1 (2001) ص. 117-105.

19-بنعدادة آسية

الفكر الإصلاحي في عهد الحماية (محمد بن الحسن الحجوي نموذجا)

المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. 1، 2003.

20-بنعدادة آسية

عن الفقهاء والتقنيات الحديثة في مطلع القرن العشرين

أعمال ندوة: انتقال الأفكار والتقنيات في المغارب والعالم المتوسطي، منشورات ك.آ.ع.إ. الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 160، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 2009، ص. 55-47.

21-زكي مبارك

مذكرة الحجوي "انتحار المغرب بيد ثواره"

نموذج من الكتابات السياسية في مطلع القرن العشرين

ضمن كتاب: التمثيلية، الوساطة والمشاركة في النظام السياسي المغربي، تكريما للأستاذ المرحوم عبد الرحمان القادري، تراكمات شعبة القانون العام والعلوم السياسية،جامعة محمد الخامس، كلية العلوم القانونية والاجتماعية، أكدال، ط. 1، 1997، ص. 37-27.

22-زكي مبارك

الفقيه والسلطان، كتابات الحجوي للسلطان مولاي عبد العزيز

مجلة المغربية، ع. 72، س. 8، دجنبر 1999، ص. 28-22.

23-كرم ادريس

مسائل ورسائل للعلامة محمد بن الحسن الحجوي، ط.1، 2005، دون ذكر مكان الطبع.

24-[العلوي] بنسعيد سعيد

المثقف المخزني وتحديث الدولة، بدايات السلفية الجديدة في المغرب

مجلة ك.آ.ع.إ، الرباط، ع. 10، 1984، ص. 63-45.

25-العلوي بنسعيد سعيد

الاجتهاد والتحديث، دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب

منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي

سلسلة الفكر الإسلامي المعاصر -3-

- مالطا، ط. 1 ، 1992.
- مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 2، 2001.

26-العلوي بنسعيد سعيد

صورة المرأة في الفكر الإصلاحي التحديثي في المغرب

ضمن كتاب: مقاربات النساء في الإسلام، سلسلة بإشراف عائشة بلعربي، نشر الفنك، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص. 45-31.

27-العلوي بنسعيد سعيد

"التعاضد المتين بين العقل والعلم والدين" لمحمد الحجوي، ملامح فكر عقلاني في المغرب في بداية القرن العشرين

ضمن كتاب: التاريخ والفقه

أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني، إنجاز الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، تنسيق : محمد حجي، منشورات ك.آ.ع.إ، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 103، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 2002،

ص. 54-7.

28-العلوي بنسعيد سعيد

تقديم نص من "الرحلة الأوربية" لمحمد الحجوي

مجلة بصمات، ع.5، خاص بالفكر النهضوي بالمغرب

جامعة الحسن الثاني المحمدية، ك.آ.ع.إ ابن مسيك، الدار البيضاء،

ص. 166-162.

29-العلوي الفلاح محمد

السلفية المغربية بين محمد بن الحسن الحجوي ومحمد بن العربي العلوي

مجلة المناهل، ع.61، س. 24، سبتمبر 2000، ص. .202-193

30-العمراوي أحمد
عرض وتلخيص "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"
مجلة بصمات، ع. 5، خاص بالفكر النهضوي بالمغرب
جامعة الحسن الثاني، المحمدية، ك.آ.ع.إ ابن مسيك، الدار البيضاء،
ص. 280-240.

31-الوضيفي المصطفى
الحجوي الفقيه وفتوى التأمين
مجلة فكر ونقد، ع. 93، س. 10، ديسمبر 2007، ص. 128-119.

32-اليزيدي محمد
محمد بن الحسن الحجوي، ومندوبية الصدارة العظمى في العلوم والمعارف على عهد الحماية الفرنسية
مجلة دعوة الحق، ع. 380، س. 45، أكتوبر، نونبر، دجنبر 2004، ص. 113-106.

33-AL HAJOUI (Mohamed)
Voyage d'Europe, le périple d'un réformiste
Traduction et post face Alain Roussillon et Abdellah SAAF
Afrique Orient, Casablanca 2001.

34-BERQUE (Jacques)
La rénovation du Fiqh
Dans : Opéra Minora, Anthropologie juridique du Maghreb
Edition Bouchene, Paris 2001, Tome 1, de la page 27 à 339 ; surtout pp.281-327-333.

35-LAROUI (Abdellah)
Les origines sociales et culturelles du mouvement nationaliste marocain (1830-1912)
- Edition Maspéro, Paris 1977.
- Edition Centre Culturel Arabe, Casablanca 1993.

36-LAROUI (Abdellah)
« Mohammed Al Hajoui et l'ordre urbain »
Esquisses historiques
Edition Centre Culturel Arabe, Casablanca-Beyrouth, 2ème édition 2001, pp.115-121.

ملحق 4

بطاقة بريدية [ما كُتب خلفها]:

سلطان المغرب الأقصى محمد بن يوسف

[الواقفون من اليمين]:

1. وزير الحقانية: محمد الروندا الرباطي
2. وزير المعارف: محمد الحجوي
3. رئيس المحكمة الشرعية: محمد بن العربي العلوي
4. رئيس الوزارة: الحاج محمد المقري
5. مندوب السلطان بطنجة: محمد التازي
6. كبير الأمناء: محمد المعمري الزواوي
7. رئيس محكمة الجنايات: عباس شرفي
8. وزير الزراعة وإمام مسجد باريس: قدور بن غبريط

تذكار من حضرة الحاج محمد المير السلوي، تاريخ وجوده بالاسكندرية وهو مار لزيارة الرسول و الحج، 24 شوال سنة 1350.



تذكار من حضرة الحاج محمد المير السلوي، تاريخ وجوده بالاسكندرية
وهو مار لزيارة الرسول و الحج، 24 شوال سنة 1350.

صورة الرسالة رقم 1

الحمد لله وحده — وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

جناب الأخ الأود الفقيه العالم الدراكة من الأوحد الحافظ المؤرخ
الأثري النقيب الجليل الشريف مولاي [illegible] بن زيدان دام علاكم الله وسلام
عليكم ورحمة الله بوجود مولانا المنصور أيده الله وبعد فيسر أخي
مقامكم الأرفع بأنه الكتب 3 — اليمن الميمون، والمحاضرة الرباطية
وسوط الإعجاب والإعجام — إجابة لرغبتكم في الحصول عليها
من أخيكم والله يبقيكم عينا من أعين العلماء المفكرين ويديم ارتقاءكم
بدوام عز مولانا المؤيد بالله وعلى الأخوة والسلام في 2 حجة 1343

صورة الرسالة رقم 2

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله

سيادة الأخ الأفضل النقيب العلامة المؤرخ المشارك الماجد
الشريف سيدي عبد الرحمن بن زيدان رعاكم الله وأدام [illegible]
وسلام على أخوتكم ورحمة الله عن خير سيدنا [illegible] الله و[illegible]
فلا تنسوا من [illegible] فضلكم أن سيدي عبد العالي [illegible] الصوامع [illegible]
على الساعة 7 [illegible] يوم الأحد [illegible] ربيع [illegible]
ليتم بتيسير [illegible] احتفال [illegible] الجليل [illegible] الفقيه
سيدي محمد الطيب حفظه الله إذ لا يتم السرور إلا بكم [illegible]
وعلى الأخوة والسلام [illegible] عام 13[illegible]

[illegible]

صورة الرسالة رقم 3

الحمد لله وحده — صلى الله على سيدنا محمد وآله

سيادة الشريف الجليل العلامة الأديب المفضال
نخبة البيت الملوكي معجزة الأجيال مولاي
عبد الرحمن ابن زيدان بعد التحية اللائقة بالمقام
تشرفت بكتابك العزيز المبشر بالعافية فلله
الحمد وله الشكر فلقد سكنت القلب أقلقه
وأزالت الحزن الذي كان تمكن من الفؤاد وإن
عافيتكم لمن نعم الله على أمثالكم وعلى الإسلام
وأنتم يا مولاي مثلكم فإنه [illegible] لأمثالكم
للعائلة والإصلاح والمجد والدين والعلم
والأدب وقد بعثت النجل عبد الرحمن
إليكم ويخبرنا عن عيانه ولكن لله وصل
مقامكم وحظي بتمتعه بالاجتماع بكم
وقدم اعتذاري بأني ولكم العافية غير شاك
العافية التي هجم علي هذا البرد الشديد
بلاد الله لا فضلكم
هذا وقد نقل لي الأفاضل جنابكم سار [illegible] النجل
مولاي المصطفى زيدان ذكر أخبار [illegible]
[illegible] وطلبت التلاقي أيضا لا [illegible]
وأحببته غير أني بعد طول لا تنظار اعتذروا
بأن [illegible] لا [illegible] كما جعلوا من قبل ثم
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] السعادة
غير أني [illegible] ذلك [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

صورة الرسالة رقم 4

الحمد لله وحده　　　　صلى الله على سيدنا محمد وآله

سيادة الشريف الجليل النقيب الأنبل العلامة الأديب الأريب مولاي عبد الرحمن
ابن زيدان رعاكم الله سلام على مقامكم الأسنى ورحمة الله عن خير مولانا المنصور
بالله وبعد فقد تشرفت بكتابكم سائلين عن تاريخ احتلال وجدة ودخول الحماية
لها وسبب توجيه عاملها إلى مغنية وكم كان مقامه بها فاعلم سيدي رعى الله جنابكم أن
الاحتلال الأجنبي كان يوم الجمعة 14 محرم 1325 بسبب قتل الطبيب موشان
بمراكش في تلك المدة ودخول الحماية لها كان في ربيع الأول 1321
سبب توجيه عامل وجدة لمغنية ابتداء التجائه بيد البعض أن مولاي عبد العزيز وجه عمه مولاي
عرفة لوجدة بدل ليجمع جيشا من العرب ويتم حربه بني يزناسن لمحاصرتهم على وجدة من
أبي حمارة عبد القادر العشيكي ابن ناصر الزرهوني القائم (على الأضرار) يدعي
أنه هو مولاي محمد بن عبد العزيز من الوزارة وجمع وجاء يدعي أخاه مولاي محمد (أبا حمارة)
ولما اجتمع الجيش توجه عامل وجدة أحمد بن كروم الجبوري به إلى بني خويل قرب جدار
البشير ومسعود ونحرهم ما أقبل عليه أبو حمارة انهزم الروحي فحمل منها ملايين
عليه والتجأ لمغنية وبعد مولاي عرفة ما أقبل أبو حمارة من الريف بعد كم [illegible] بن محمد
الأمر له من جماعة وسلوان النزكاوا توجه لمغنية وتبعها مولاي عرفة [illegible] من
تاريخ واحد واحتلاليه لها التي وجدة ما احتل بها من غير قتال في ربيع النبوي 1321
وبقي بها إلى أن بلغه احتلال المنبهي عاصمة ملكه تازة فنهض إليها مسرعا وجاء
كل من وراءه من يوم عسكر في البحر من طنجة إلى سعيدة بجروح فنهض به الحاجب السيد
أحمد الركينة التطواني وكنا أخذنا معه [illegible] بمغنية فطالع الحاج [illegible] الوطني
الأبغادي فنهضنا إلى وجدة ووقع احتلال الجنود العزيزية لها في ربيع الثاني 1321
من غير قتال فصارت وجدة تابعة لمولاي عبد العزيز من الآن إلى الاحتلال الأجنبي
مدة مقام عامل وجدة بمغنية نحو ثلاثة أشهر
والله يحفظكم ويديم النفع بكم ويحفظنا فيكم آمين وعلى إخائكم
والسلام في 22 شوال 1347 محمد [illegible]

فهارس مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية
فهرس محمد بن الحسن الحجوي نموذجا

لحسن تاوشيخت*

تقديم

يتوفر المغرب على رصيد وثائقي مهم من التراث المخطوط، يعكس عمق الاهتمام بالمقروء لدى المغاربة عبر تاريخهم إنتاجا وصناعة ومعرفة. ويتميز هذا التراث بغناه وتنوعه، سواء على المستوى المعرفي أو على المستوى الجمالي. بل ظل دوما ذاكرة المغرب بامتياز، عند الخاصة والعامة على حد سواء. وتعتبر الفهارس البوابة الأولى التي يلج إليها الباحث لمعرفة الموجود من المخطوطات ومكان وجودها والكيفية الأيسر للحصول عليها. ومن أجل تمكين المهتمين بالمخطوطات المغربية عامة والمحفوظة منها خاصة بالمكتبة الوطنية، يأتي هذا العمل المتواضع ليرسم المجهود الكبير الذي أُنجز في مجال فهرسة المخطوطات بالمكتبة الوطنية منذ انطلاقة هذا العمل على يد لفي-بروفنصال سنة 1920 وإلى غاية اليوم حيث بدأت هذه المهمة تكتسي طابعا إلكترونيا أكثر منها ورقيا تماشيا مع الطفرة المعلوماتية وتسهيلا للباحث للوصول إلى المعلومة وبدون وساطة وبدون حاجة إلى التنقل. وتجدر الإشارة بالتالي أن كل الفهارس التي صُدرت عن مخطوطات المكتبة الوطنية وعددها اليوم تسعة، توجد نسخ رقمية منها على الموقع الإلكتروني للمكتبة الوطنية «في خانة المكتبة الرقمية» http://bnm.bnrm.ma:86/Arabe/catalogue_des_manuscrits.aspx فضلا عن فهرس مخطوطات مكتبة دير الإيسكوريال والتي توصلت المكتبة الوطنية بنسخة منها على الميكروفيلم.

* أستاذ باحث، المكتبة الوطنية للمملكة المغربية،الرباط.

ويبقى أن نجازي كل من أسدي معروفا في فهرسة مخطوطات المكتبة الوطنية، وذلك بتقديم خالص التشكرات لجميع العاملين في هذا الميدان «الفهرسة» مع متمنياتنا لهم بالتوفيق المستمر ودوام الصحة والعافية وأيضا بالمغفرة والرضوان على من انتقل منهم إلى عفو الله ورحمته.

1 ـ مكتبات المخطوطات بالمغرب[1]

يتوزع الرصيد الوثائقي للتراث المخطوط بين مكتبات عامة وخاصة، منها: الخزانة الحسنية بالرباط، المكتبة الوطنية بالرباط كذلك، خزانة القرويين بفاس، خزانة ابن يوسف بمراكش، الخزانة العامة بتطوان، خزانة الجامع الكبير بمكناس، وهناك خزانات تابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، والمكتبات التابعة لبعض الزوايا المنتشرة عبر أقاليم المغرب، إضافة إلى مكتبات خاصة في ملك أفراد وعائلات.

الاسم	الانتماء	عدد المخطوطات
المكتبة الوطنية للمملكة المغربية	مؤسسة عمومية	34000 عنوان
الخزانة الحسنية بالرباط	القصر الملكي	15000 عنوان
المكتبة العامة والوثائق بتطوان	وزارة الثقافة	3500 عنوان
خزانة القرويين بفاس	وزارة الثقافة	6000 عنوان
خزانة ابن يوسف بمراكش	وزارة الثقافة	1840 عنوان
خزانة الجامع الكبير بمكناس	وزارة الثقافة	
مكتبة الإمام عل ي بتارودانت	وزارة الثقافة	172 عنوان
مكتبة الأوداية بالرباط	وزارة الثقافة	43 عنوان
خزانة تامكروت قرب زاكورة	وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية	
خزانة أبي سالم العياشي قرب الريش	الزوايا	1900 عنوان
مكتبة محمد السادس بإفران	جامعة الأخوين	
مكتبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط	جامعة محمد الخامس الرباط أكدال	
مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية	شبه عمومية	

خزانة تناغمالت قرب أزيلال	وهبت للخزانة الحسنية	
مكتبة عبد الله كنون بطنجة	خاصة ومفتوحة للعموم	
مكتبة محمد داود بتطوان	خاصة ومفتوحة للعموم	
مكتبة بنسودة بفاس	أهديت للمكتبة الوطنية سنة 2010	
المكتبة الصبيحية بسلا	خاصة ومفتوحة أمام الباحثين	
مكتبة ابن غازي أو محمد المنوني بالرباط	مكتبة ابن غازي أو محمد المنوني بالرباط	
مكتبة محمد بنعزوز حكيم بتطوان	خاصة	
مكتبة إبراهيم الكتاني بالرباط	خاصة	
مكتبة الحجوجي بالدار البيضاء	خاصة	
مكتبة السقاط	خاصة	

2 ـ **الفهــارس :**

تعتبر المخطوطات من أهم مكونات الرصيد الوثائقي في المكتبة الوطنية بحيث تتجاوز اثنتي عشر ألف عنوان [أي حوالي 34000 مخطوط] فضلا عن محتويات المجامع التي لم يتم فهرستها بعد وكذلك ما توصلت به المكتبة الوطنية من وثائق ومخطوطات بعض الخزانات الخاصة، بالإضافة إلى نسخ مخطوطات الإيسكوريال. كما أن المجهودات المبذولة في جمع المخطوطات ورقمنتها واستنساخها ومعالجتها سواء من خلال المبادرات الخاصة أو جائزة الحسن الثاني للمخطوطات أو التعاون الدولي من شأنه أن يقدم قيمة مضافة لتراثنا المخطوط من حيث المحافظة عليه من جهة وتيسير سبل دراسته من جهة ثانية.

ـ الفهرس الأول لمخطوطات المكتبة الوطنية[2]: بدأت العناية بجمع وفهرسة المخطوطات العربية المغربية منذ سنة 1920 حيث وضع لها ليفي بروفنسال كشفا ضمن مجموعة مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية في الجزء الثامن الذي طبع بباريس سنة 1921 تحت عنوان «فهرسة أسماء الكتب المخطوطة المحفوظة في خزانة المدرسة العليا للغة العربية واللهجات البربرية بعاصمة رباط الفتح المحروسة». ويقع

هذا الفهرس في 306 صفحات من الحجم المتوسط ما عدا كشاف العناوين، وقد قام بمراجعته كل من صالح التادلي وسعيد المرابطي [الطبعة الثانية، (1997 – 1998].
وبلغ عدد هذه المخطوطات المفهرسة والمبوبة بحرف الدال 531 مخطوطا.



ـ الفهرس الثاني للمخطوطات[3]: خرج سنة 1953 ويضم حوالي 1189 مخطوطا رقمت ما بين رقمي 532 و1720 بفضل ما استلمته الخزانة العامة من خزانة زاوية الشيخ ماء العينين بفاس ومن خزانة قصر مولاي عبد الحفيظ بطنجة ومن مكتبة قنصل فرنسا بالرباط ومن القسم الاجتماعي المغربي ومن بعض الكتبيين المغاربة. وقد اعتنى الأستاذ بلاشير والدكتور رونو بوضع فهرس موجز للمخطوطات التي دخلت الخزانة العامة ما بين سنتي 1929 و1930 وهي التي تحمل الأرقام من 959 إلى 1056 في السجل العام.

ـ الفهرس الثالث[4]: صدر سنة 1973 ويشتمل على المخطوطات التي دخلت إلى الخزانة العامة ما بين سنتي 1945 و1957 وعددها 600 مخطوط بوبت بحرف الدال من رقم د 1722 إلى رقم د 2321 مع إضافة بعض الأرقام الأخرى التي لم تدرج في الفهرسين السابقين، وبذلك يكون مجموع المخطوطات المدروسة 1926 مخطوطا قسمت إلى مجلدين: اهتم الأول بوصف 1056 مخطوطا المرقمة من 2766 إلى 3721 والتي تناولت مواضيع علوم القرآن ومصطلح الحديث والتوحيد والمنطق والوعظ والتصوف. أما المجلد الثاني فيضم وصف 960 مخطوطا مرتبة من 3722 إلى 4681 والتي توزعت حسب الفنون.



ـ الفهرس الرابع [الجزء الأول من القسم الثاني][5]: الذي ألفه كل من ي. س. علوش وعبد الله الرجراجي [صدرت الطبعة الثانية منه سنة 2001] تناول المواضيع التالية: المصحف الكريم، القراءات، التفسير، الحديث،السيرة النبوية، التوحيد، التصوف، الأذكار، الفقه، النحو، اللغة، العروض والبيان. ووضع للمخطوط رقمان بارزان يشير الأول إلى الرقم الترتيبي للفهرس والثاني يؤكد رقم المخطوط في السجل العام.



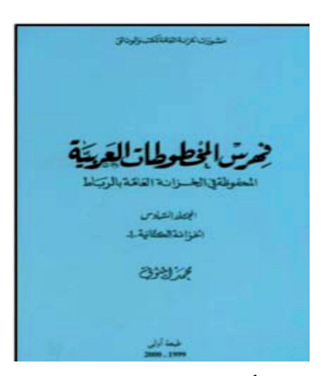
ـ الفهرس الرابع [الجزء الثاني من القسم الثاني][6]: الذي قام بإنجازه كذلك كل من ي. س. علوش وعبد الله الرجراجي [صدرت الطبعة منه سنة 2001] اتبع نفس منهجية الجزء الأول ولم يختلف عليه إلا في المواضيع المتناولة.



ـ الفهرس الخامس[7]: الذي أشرف عليه كل من محمد إبراهيم الكتاني وصالح التادلي [الطبعة الأولى 1997] تناول 914 نصا مخطوطا من مجموعة حرف الدال والمرقمة من 3722 إلى 4635 والتي تم ترتيبها وفق الترقيم العربي وهمت كل الفنون.



ـ الفهرس السادس[8]: الذي أشرف على إنجازه الأستاذ محمد المنوني [الطبعة الأولى 1999 – 2000] اهتم بقسم الخزانة الكتانية التي نقلت إلى الخزانة العامة سنة 1959 وفيه تم دراسة 404 مخطوط من فئة حرف الكاف وفق التسلسل التاريخي لوفاة المؤلف وحسب المنهجية المتبعة في فهرسة المخطوطات العربية.



ـ الفهرس السابع[9]: الذي ألفه سعيد لمرابطي [الطبعة الأولى 2002] يهم وصف 270 مخطوطا من قسم وزارة الأوقاف (حرف القاف) من بين 1215 عنوان دون احتساب المجامع التي تتألف من أكثر من مخطوط والتي كانت موزعة قبل أن تودع بالخزانة العامة في مكتبات تابعة للمساجد والمدارس والزوايا.



ـ الفهرس الثامن[10]: وفيه تم كشف النقاب عن خزانة العلامة محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الذي كان ضليعا في علوم الشريعة والأدب والتعليم والسياسة بل وكان مطلعا أيضا على الثقافة الغربية وخاصة على الفلسفة اليونانية. ويتضمن هذا الفهرس على ما مجموعه 545 عنوان اعتمد في فهرستها على المنهج الوصفي الذي يرتكز على تقديم كل المعلومات والبيانات الممكنة من حيث الرقم الترتيبي ورقم المخطوط وعنوان المخطوط واسم المؤلف وجملتي بداية ونهاية المخطوط وعدد

الأوراق أو الصفحات والمسطرة ونوع الخط وتاريخ التأليف والنسخ وحالة المخطوط المادية وذكر التمليكات والنسخ المتوفرة والمصادر المعتمدة. كما يتضمن هذا الفهرس فهارس المؤلفين والمؤلفات والنساخ والمصادر والمراجع والمحتويات.



ـ الفهرس التاسع[11]: يهم مخطوطات مجموعة محمد بن جعفر الكتاني وعددها 477 عنوانا فضلا عن الفهارس (قيد الطبع). وقد اُتبعت فيه نفس المنهجية في الفهرسة كما هو الشأن في فهرس الحجوي من حيث تقديم كل المعلومات والبيانات الممكنة من حيث الرقم الترتيبي ورقم المخطوط وعنوان المخطوط واسم المؤلف وجملتي بداية ونهاية المخطوط وعدد الأوراق أو الصفحات والمسطرة ونوع الخط وتاريخ التأليف والنسخ وحالة المخطوط المادية وذكر التمليكات والنسخ المتوفرة والمصادر المعتمدة. كما يتضمن هذا الفهرس فهارس المؤلفين والمؤلفات والنساخ والمصادر والمراجع والمحتويات.



3 ـ نموذج فهرس محمد بن الحسن الحجوي:

أ ـ من هو الحجوي ؟

هو محمد بن الحسن بن العربي بن محمد بن أبي يعزى بن عبد السلام بن الحسن بن محمد المكنى بأبي عبد الله الجحوي الثعالبي[12].

أسهمت شخصية محمد الحجوي في الحركة الفكرية المغربية واتسمت باطلاعها الوافر على علوم الشريعة والأدب والتعليم والسياسة. فأصبح للحجوي صيت داخل المغرب وخارجه، وتعرف على أفكار علماء الشرق كمحمد عبده الذي كانت له معه مراسلات، كما اهتم الحجوي بعلوم الفلك والطب، وكان يحث المغاربة على الاهتمام بالعلم والاستفادة من الأمم السابقة.

ولم يقف محمد بن الحسن الحجوي عند حدود الثقافة العربية الإسلامية بل انصب اهتمامه على الانفتاح على الثقافة الغربية، والاهتداء إلى آراء الفلاسفة اليونانيين أمثال أرسطو وأفلاطون وسقراط وذلك من أجل تدعيم حججه وتطوير منهجيته المعتمدة على العلم والعقل، لذلك أصبح يذم التقليد ويطالب بالتجديد.

ب ـ ما هي مؤلفات الحجوي؟

بما أن الحجوي شغل عدة مناصب سياسية وتجارية وتعليمية، وألف في شتى فنون المعرفة، فقد خلف عددا من المؤلفات في شتى الميادين موزعة ما بين الفقه والتفسير والتاريخ والتربية والتعليم والرحلات والأدب والاقتصاد.

فمن مؤلفاته التي دافع فيها عن الدين الإسلامي كتابه «أساس التهذيب الإسلامي»[13] و«القرآن فوق كل شيء» و«حماة القرآن والتيجانيين» و«أين حماة الدين»[14] و«أصول مذهب الوهابية»[15] و«برهان الحق في الفرق بين الخالق والخلق»[16] و«الحق المبين والخبر اليقين بما في قراطيس حجة المنذرين بما يخالف الدين»[17] و«صفاء

المورد في عدم القيام عند سماع المولد»[18] و«النظام في الإسلام»[19] «الوئام في ظلال الإسلام ما بين العرب والقبائل والبربر الكرام»[20].

وفي التعليم ترك عدة مؤلفات من بينها «تقرير عن المعارف»[21]، و«إصلاح التعليم العربي»[22]، و«تعليم البنات المسلمات»[23]، و«تعليم الفتيات لاسفور المرأة»[24]، و«المعارف في المغرب وجهود الحكومة»[25].

وفي الاقتصاد ألف «مستقبل تجارة المغاربة»[26] و «بالاقتصاد حياة البلاد»[27]

وفي الرحلة كتب «حديث الأنس عن تونس»[28]، و«الرحلة الأروبية»[29]، و«الرحلة الأندلسية الفيشية»[30]، و«الرحلة الحجازية المصرية»[31].

وعلى العموم فقد ذكر الحجوي في كتابه «الفكر السامي» أن تآليفه بلغت خمسين مؤلفا سنة 1340 هـ / 1921 م، وفي «ثبت» أي «مختصر العروة الوثقى» ذكر مائة كتاب، ويقدر مجموع مخطوطاته بمائتين وثلاثة وستين مخطوطا نقلت إلى المكتبة الوطنية - الخزانة العامة سابقا - في ثمانية عشر من شهر مارس سنة 1960 م، وأضيفت إليها المجموعة الثانية سنة 1966 م، كما هو مسجل بسجل مخطوطات المكتبة.

وتجدر الإشارة إلى أن جل مؤلفات الحجوي عبارة عن مسودات وتقاييد وفتاوى فقهية ومحاضرات وأسئلة وأجوبة، فهي ليست كسائر المؤلفات المشهورة منظمة ومنقحة ومرتبة ومصححة، بل هي وثائق بعضها يؤرخ للدولة العلوية - فترة المولى عبد الحفيظ والمولى عبد العزيز - لذلك اكتسبت القيمة العلمية والتاريخية، ولعلها فاقت مؤلفات معاصريه لأنها اعتمدت الأسلوب المنهجي القائم على الحجج والدلائل. ومن تم حظيت مؤلفاته بالعناية والاهتمام من طرف الباحثين في المغرب وخارجه، وطبعت معظم كتبه في تونس والجزائر وأوروبا وما زال الباحثون يتطلعون إلى تحقيق كتبه، كما أنجزت حول شخصيته دراسات متعددة [32].

ج ـ ما هي نوعية مخطوطات الحجوي بالمكتبة الوطنية؟

تتميز ثقافة الحجوي بالتنوع والغنى استجابة للواقع الفكري ولأنماطه، وكانت الرحلات مجالا لتنمية مداركه والاطلاع على ما يفتقر إليه، مما يمكن تصنيفه ضمن

العلماء المغاربة الموسوعيين الذين خاضوا في شتى ضروب العلم و المعرفة، وهذا ما يتضح لنا من خلال الجرد الإحصائي التالي لمؤلفاته التي تم فهرستها:

الفن	عدد المخطوطات
المصاحف	1
القراءات	7
التفسير	16
التجويد	3
الحديث	18
مصطلح الحديث	1
السيرة النبوية	32
الفقه وملحقاته	11
أصول الفقه	4
الردود والمناظرات	17
التوحيد	12
علوم الدين	05
التصوف	09
علم الكلام	07
الوعظ والإرشاد	18
النحو	19
التصريف	2
اللغة	7
البلاغة	6
الآداب	24
التاريخ	36
التراجم والمناقب	26
الإجازات والفهارس	9

الرحلات	13
التربية والتعليم	18
الطب	3
الحساب	9
الفلك	16
الهيئة	3
الفلسفة	1
المنطق	6
الأوراد والأذكار	11
الأوفاق والجداول	1
النظم الإدارية	3
الموسيقى	1
تعبير الرؤيا	2
فنون مختلفة	58

* * *

هوامش :

1. تاوشيخت(لحسن) :«المكتبة الوطنية للملكة المغربية»، دليل جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق 1429 هـ - 2008م. الرباط منشورات وزارة الثقافة 2008 ص 41-57 (ص-47 46).
2. ليفي - بروفنصال : فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، المجلد الأولو راجعها صالح التادلي رسعيد لبمرابطي، الدارالبيضاء، مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الثانية 1997 (345 صفحة).
3. صدر هذا الفهرس في مجلة هسبريس في الجزء 12 لسنة 1931 (ص 106-133).
4. المشرفي -محمد) : فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، القسم الثالث -الجزء الأول) الرباط، مطبعة التومي الطبعة الأولى 1973 (407 صفحة).

5. علوش (ي.س) الرجراجي (عبد الله) : فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، القسم الثاني (الجزء الأول)، الدارالبيضاء، مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الثانية 2001 (469 + III صفحة).
6. علوش (ي.س) الرجراجي (عبد الله) : فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، القسم الثاني (الجزء الثاني)، الدارالبيضاء، مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الثانية 2001 (451 + III صفحة).
7. الكتاني (محمد إبراهيم) : فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، المجلد الخامس، الدارالبيضاء، مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الأولى 1997 (379 صفحة).
8. المنوني (محمد) : فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط،المجلد الخامس، الدارالبيضاء، مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الأولى -1999-2000 (214 صفحة).
9. لمرابطي (سعيد) : فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط،المجلد السابع (خزانة الأوقاف/حرف القاف -1-)، الدارالبيضاء، مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الأولى 2002 (458 صفحة).
10. قسم المخطوطات : فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط،المجلد الثامن (مجموعة محمد بن الحسن الحجوي)، الدارالبيضاء، مطبعة النجاح الجديدة الطبعة الأولى2009 (537 صفحة).
11. قيد الطبع، توجد نسخة إلكترونية له بموقع المكتبة الوطنية (المكتبة الرقمية).
12. مصتدر ترجمته :

مختصر العروة الوثقي مطبعة الثقافة، سلا 1375 هـ،طلعة المشتري في النسب الجعفري لأحمد بن خالد الناصري، المطبعة الحجرية بفاس، [د.ت،]صدر في سفرين عام 1309 هـ، زهر الآس في بيوتات أهل فاس لعبد الكبير بن هاشم ومحمد بن عبد الكبير الكتاني في تحفة الأكياس ومفاكهة الجلاس تحقيق علي بن المنتصر الكتاني، 343/1-348، مطبعة النجاح الجديدة، الدارالبيضاء، إتحاف المطالع: 560/2، الأعلام :96/6، معجم المؤلفين : 187/9، الفكر السامي للحجوي : 1/9-23، معجم المطبوعات المغربية : 96-97، موسوعة أعلام المغرب : 3320/9، دليل مؤرخ المغرب الأقصى: 49/1 -رقم 96)، معلمة المغرب : 10-336، مطابعع سلا، 1998، جريدة الساعادة غي أعداد ثلاثة 4793-4794-4795، بتاريخ رمضان سنة 1358 مواقف شهر نوفنبر 1939م، مخطوطات المكتبة الوطنية 664 ح (ضمن مجموع).

ذكر Gouvion أن أسرة الحجوي استقرت بجوار وادي سبو ثم بمشرع بلارج ثم بمكان حجر الوقاف بضواحي فاس، وأخيرا في نواحي سيدي قلسم انظر :

G. Gouvion, Aàyane El Maghrib L'Akça, op cit 1939-p 265

وانظر : كتاب الفكر الإصلاحي في عهد الحماية : محمد بن الحسن الحجوي نموذجا ، لآسية بنعدادة:

ص61، طبع بدعم من وزارة الثقافة، منشورات المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدارالبيضاء.

13. مخطوط المكتبة الوطنية رقم 227ح

14. مخطوط المكتبة الوطنية رقم 120 ح و149 ح و 251ح.

15. مخطوط المكتبة الوطنية رقم 114 ح.

16. مخطوط المكتبة الوطنية رقم 114 ح : 1.

17. مخطوط المكتبة الوطنية رقم 232 ح (وهو مطبوع بتونس)

18. طبع على الحجر بفاس [د.ت.] في 56 صفحة.

19. مخطوط المكتبة الوطنية رقم21. مخطوط المكتبة الوطنية رقم

20. مخطوط المكتبة الوطنية رقم 118 ح.

21. ألقيت هذه المحاضرة ردا على الظهير البربري.

22. مخطوط المكتبة الوطنية رقم 129 ح (ضمن مجموع)

23. مخطوط المكتبة الوطنية رقم 115 ح، 237 ح.

24. مخطوط المكتبة الوطنية رقم127 ح.

25. مخطوط المكتبة الوطنية رقم

26. مخطوط المكتبة الوطنية رقم 199 ح، و 152 ح.

27. مخطوط المكتبة الوطنية رقم115 ح و 118 ح و 132 ح.

28. مخطوط المكتبة الوطنية رقم269 ح.

29. مخطوط المكتبة الوطنية رقم 115 ح.

30. مخطوط المكتبة الوطنية رقم 126 ح.

31. مخطوط المكتبة الوطنية رقم 161 ح.

32. أنظر فهرس الدارسين لمحمد الحجوي في كتاب «الفكر الإصلاحي في عهد الحماية» : محمد بن ا لحسن الحجوي نم،ذجا : صص 331-344.

* * *

في سياق الإصلاح

السفير أحمد بن عبد الواحد بن المواز أحد رواد الفكر الإصلاحي في المغرب المعاصر

رشيد يشوتي*

كثيرة هي الشخصيات المغربية ذات الأصول العلمية والفقهية الوازنة والتي أسهمت بشكل كبير في التأثير على التحولات المركزية التي شهدها المغرب، ومع ذلك ظلت منسية أو على الأقل كادت أن تنسى لولا أن تداركتها أقلام «تائهة» أعادت من جديد بعثها من سباتها، ونفض الغبار عنها. لذلك تصبو هذه المداخلة إلى التعريف بإحدى تلك الشخصيات الفكرية والإصلاحية في مغرب نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ترجمة أحمد بن المواز:

هو الفقيه الأديب الكاتب القاضي أبو محمد أحمد بن عبد الواحد بن محمد بن المواز السليماني الحسني[1]، لا نعرف بالتحديد تاريخ ولادته[2]، «تلمساني الأصل، شريف النسب من نسل محمد بن سليمان بن عبد الله الكامل دفين قرية عين الحوت القريبة من تلمسان»[3]. تدرج في أسلاك الوظيفة المخزنية خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لا سيما على عهد السلاطين الحسن الأول، والسلطان عبد العزيز وأخيه السلطان عبد الحفيظ والسلطان يوسف. إذ عين في البداية كاتبا لعاملي فاس ابن الطالب، ومن بعده خليفته السراج. ولما قامت ثورة العبيد بفاس، اتهم بانخراطه واندراجه فيها وتحريضهم على الثورة ضد السلطان الحسن الأول، فكان مآله السجن بمراكش. وبعد خروجه منه، بعد توسط الباشا الحاج

* أستاذ باحث، المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، الرباط

عبد الله بن أحمد، عاد إلى وظيفته، فوُلّي قضاء الحضرة المراكشية، ثم قضاء المحلة العلية وكتابة الرسائل الأجنبية وتصفح الرسوم المخزنية، ثم استراح من الأشغال المخزنية على عهد أحمد بن موسى[4]. ثم تولى لاحقا عضوية المجلس التحسيني لكلية للقرويين وقضاء فاس إلى قاضي القضاة[5] ورئاسة مجلس الاستئناف الشرعي بالرباط، كما كان خطيبا بالمدرسة العنانية[6].

ولحزمه وخبرته في الشؤون المخزنية فقد وقع عليه الاختيار في عدة مناسبات ليكون ممثلا دبلوماسيا للسلاطين العلويين، كما حدث حين انتخبه السلطان عبد العزيز ممثلا عن العاصمة فاس ليكون ضمن الوفد المستقبل للإمبراطور الألماني غليوم الثاني الذي نزل بطنجة يوم 24 محرم عام 1323هـ، الموافق لـ 31 مارس 1905 [7]، ثم أعيد اصطفاؤه ليقود الوفادة الدبلوماسية الأولى إلى مدريد غداة تولي السلطان عبد الحفيظ المُلك، كما سنلاحظ ذلك بعد قليل.

قال فيه صاحب فواصل الجمان: «نبيه المحل، نبيل العقد والحل، روض علم سقيت بماء الأدب أدواحه، فزهت ثماره وذكت أرواحه، كالقلم ظرفا وقامة، والعلم شموخا وشهامة، والسيف حدة وصرامة، ذو جرأة وإقدام، تقصر عن شأوه سورة المدام»[8].

كما قال فيه عبد السلام بن سودة أنه: «... العلامة المشارك المطلع الشاعر المبدع المقتدر، خاتمة الأدباء بالمغرب، ينظم كيف يشاء وينثر كذلك...»[9]

وختم إدريس بن الماحي القيطوني قوله فيه: «الفقيه العلامة، المتفنن الدراكة الفهامة، المتقن الأديب، الشاعر المجيد، الكاتب المقتدر،، المؤلف المكثر، الرحالة السفير، السياسي الخبير، آخر من فُجع الأدب بموته، خاتمة بلغاء الأدباء، شيخ القريض، ورب المَلَكة الواسعة والباع الطويل... الحسابي الفرضي الميقاتي، العدل النقاد... شاعر المغرب وكاتبه الوحيد، الرئيس الصنديد...»[10].

شيوخـــه : أخذ الفقيه ابن المواز عن مجموعة كبيرة من علماء وقته كالشيخ محمد بن المدني كَنون، والشيخ أحمد بن الطالب بن سودة، والشيخ عبد المالك العلوي الضرير، والشيخ صالح بن المعطي التدلاوي، كما أخذ عن والده الشيخ عبد الواحد بن المواز وهو عمدته[11].

مؤلفاتـــه : خلف لنا القاضي أحمد بن المواز مجموعة من الأعمال هي دلالة على أننا أمام ألمع مثقفي المغرب خلال نهاية القرن 19 وبداية القرن العشرين، إذ أنه «شب وشاب في أحضان المعرفة والأدب والحكمة قراءة وإقراء، وتأليفا وإفتاء، تربى في حجر الرياسة، متدرجا في مدارج الكياسة، وتقلب في عدة وظائف علمية وإدارية... بما أوتيه من دهاء ولباقة...»[12] وقد خلف لنا ابن المواز آثارا علمية في منتهى الحظوة، أهمها: «حُجة المنذرين على تنطّع المُنكرين» ألفه ردّا على موقف الوزير محمد بن الحسن الحجوي الذي أنكر ونهى عن القيام خلال حفل عيد المولد النبوي «النهي على القيام لولادة الرسول (ص)». والظاهر أن الجدال والخلاف بين الرجلين تطور إلى أحوال قصية، إذ لم يبق الحجوي مكتوف الأيدي فردّ على ابن المواز بمؤلف أسماه: «الحق المبين والخبر اليقين بما في قراطيس حجة المنذرين مما يخالف الدين»[14].

وهذه هي الحجج التي دعت ابن المواز إلى تأليفه لهذا العمل: «...إن من جملة حوادث الزمان... ما استفاض خبره عن طائفة من المستحدثين المنتسبين إلى طلب العلم والدين من اشتغالهم بما ليسوا بصدده، وتصديهم لما لا ينفع الناس في يومه ولا في غده،... ومجاهرتهم بإنكار أمور على الخاصة والعامة مما لا إنكار فيه سوى تشويشات هامة، ظنّا منهم أن تكون لهم بذلك هناك تامة، مع أن تلك الأمور قد فرغ من تحريرها الأئمة الأعلام ولم يبق خوض فيها إلا ممن استحوذت عليه الآثام، منها لمز الجمعيات التي تنعقد في أيام المولد المعظم (ص)، بقصد ذكر الله والصلاة على حبيبه والثناء عليه وسرد معجزاته، والتوسل به في قبول التوبة من الله واستنزال ألطافه وكراماته، ومنها إنكار قيام الجمعية أو بعضها عند ذكر

ولادته في حالة الابتهال... ومنها الطعن على من يستشفع حتى بالجناب النبوي مع التشييع للعامة بعدم شد الرحلة لزيارته إلى غير ذلك من المقالات التي هي في عين الدين قذى ولمجموع أمة الإسلام أذى، لا سيما في هذا الوقت الذي يتأكد وجوب التعاضد فيه على حفظ حرمة الإسلام....وبعد ما استفاض خبر هذه الناشئة التي لم تميز الطالع من الغارب...كنت أستبعد ما ينقل من كلامهم... إلى أن وصلت إليّ رسالة في إنكار القيام المشار له، قد لفّقها من لم أكن أظن به الجرأة، ولم أعهده ممن يخرقون سجت الكلاءة. ويعز عليّ أن أذكره برسمه، أو أصرح باسمه، أسفا مني على جنابه، وإن كان هو قد سمّى نفسه في كتابه، مع أنه لم يأت الأمر من بابه، لغفلته عن كون متعمد القصود عند التوسل أنفة من قيام غيره بمنزلة المتخلف عمن باعوا لله نفوسهم في استرضائه واسترضاء رسوله ونصره... ».[15]

والواقع أن هذا السجال أو على الأقل هذا النقاش الفكري بين الرجلين رغم سلبيته الظاهرة، فقد عبّر بالإيجاب عن غنى الفكر المغربي وإنتاجه في مرحلة حساسة من تاريخنا الوطني، لاسيما أنه كان، فيما بعد، منهل فكر الحركة الوطنية.

كما ألف ابن المواز «خطوة الأقلام في التعليم والتربية في الإسلام»[16]، هو في الأصل مسامرة طويلة كان قد ألقاها عام 1336هـ / 1918، في نادي المسامرات بفاس صنفها في عشر مقامات وخاتمة، بدأ نشرها في جريدة أخبار تلغرافية عدد 118، بتاريخ 22 فبراير 1918/ 10 جمادى 1336هـ[17]. وقد ختم ابن المواز هذا العمل بخاتمة طويلة، أسماها بـ«الخاتمة الإنصافية» عبّر فيها عن فضل التعاليم الفرنسوية، كما أظهر فيها إعجابه بالشعار الفرنسي: حرية، إخاء، مساواة[18]. ورسالة «النفائس الإبريزية في هدية الفيل الوافدة من فخامة الحضرة الإنجليزية»[19]، و»اللؤلؤ السني في مدح الجناب الحسني»[20]، و»المراحل السنية للأصقاع السوسية»، التي ألفها عام 1299 هـ، زمن رحلته مع السلطان الحسن الأول إلى منطقة سوس[21]، وله «المقالة المرضية في الدولة العلوية» والضوابط الأصلية لمرتقى المراتب العلية»[22]، هو عبارة عن تاريخ وجيز به معلومات عن الدولة

العلوية إلى عصر السلطان الحسن الأول. يستند فيه على معلوماته الخاصة عن الفترة التي عاش فيها، والفترة القريبة منها. كما دوّن ابن المواز «رسالة نيل الأرب في بيتي العقل والأدب» ورسالة سماها «دفع الوسواس عن مخالجة الأنفاس»، رد فيها على الأسئلة الشائكة التي طرحها علاّمة المغرب وفيلسوفه محمد بن أحمد الرافعي (ت: 1360هـ)، وهي «دلالة على قدرة ابن المواز خوض غمار البحث الهادف في مجموعه إلى الفلسفة والجدل في مضامين الحكمة»، على حد قول عبد الله الجراري[23]. ورسالة موسومة بـ «مطلع الضيا في الاستدلال على صحة الكيميا»[24]، ثم «الطليعة الجلية على نظم الدلالة الكلية في الأحكام الفلكية»، وهي شرح لمنظومة «الدلالة الكلية في الأحكام الفلكية» لصاحبها أبي الحسن علي بن أبي الرجال الأندلسي، والذي ألفه بأمر من السلطان عبد الحفيظ[25]. كما له شرح على قصيدة الوأواء الدمشقي الشهيرة، هذا إضافة إلى ديوان شعر في مجلدين[26]، قال عنه غريط في الفواصل: « له نظم أعو من نار الحباحب، ونثر أصفى من التبر الذائب، وأشهى من وصل الحبائب[27].

ابن المواز والفكر الإصلاحي بالمغرب

لا محالة أن ملامح الفكر الإصلاحي لأحمد بن المواز قد تشبع بها منذ تقربه من المخزن الحسني الذي قاد فكرة الإصلاح وتجرأ على اتخاذ تدابير وإجراءات في غاية الأهمية زمنئذ.

كما أن هذه الملامح الإصلاحية تعاظمت في غضون التدخلات الأجنبية في السيادة المغربية، لا سيما بعد الوفادات المتتالية لسفاراتها على العاصمة فاس حاملة معها مطالبها «الإصلاحية» ضدا على هاجس الإصلاح الذي ابتدأه المغرب من قبل. ولعل وفادة السفير الفرنسي سان روني طايانديي الذي حل بفاس بتاريخ 26 يناير 1905، لخير دليل على ممارسة فرنسا ضغوطا منهجية على المخزن المغربي للاستئثار بالإصلاحات التي اقترحتها في المجالات السياسية والمالية والعسكرية.

ومن المحتمل الأكيد أيضا أن ابن المواز بمعية فقهاء وعلماء المغرب آنئذ هم الذين كانوا وراء رفض المخزن للمطالب الإصلاحية الفرنسية وإلحاق الفشل بالوفادة الفرنسية لرينيو، على الأقل في المرحلة الأولى من المحادثات، لا سيما بعد دعم السلطان عبد العزيز جوابه للسفير بعدم الموافقة على أي إصلاح في هذا البلد إلا بعد عقد مؤتمر دولي[28] ، وهو المؤتمر الذي عقد لاحقا بالجزيرة الخضراء سنة 1906.

لقد تشبع ابن المواز مثله مثل أقرانه بالفكر الإصلاحي الذي ساد في المغرب في هذه الفترة الحرجة، فانضم هو أيضا إلى صف الشرائح المتطلعة والمدركة لأهمية الإصلاح، ولا محالة أنه كان على وعي تام بأهداف حركة محمد بن عبد الكبير الكتاني، الذي كان مثله من رواد الحركة الوطنية في تلك الفترة.

لقد شهدت نهاية عهد السلطان عبد العزيز بداية «انبعاث حديث» ساهمت فيه نخب مثقفة وعالمة تحمست لبيعة عبد الحفيظ، وهدفت منه الحفاظ على استقلال المغرب. إن آمال هذا «الشباب الحفيظي»، على حد تعبير الفقيه المنوني، والمطالبة بالإصلاح هي التي أعلنت مطالبها على صفحات جريدة « لسان المغرب»: «... بما أن الوقت قد دعا إلى الإصلاح والشبيبة العصرية قد هللت قلوبها له وانشرحت صدورها له، وجلالة سلطاننا الجديد (عبد الحفيظ) يعرف لزومه... فعلى جلالته أن يحقق رجاءنا، وأن يبرهن للكل عن أهليته، ومقدرته على ترقية شعبه، وعلى رغبته في الإصلاح... وأن يولي ذوي الكفاءة والاستحقاق والأهلية، ويقرب إليه ذوي العقول الراجحة والأفكار الحرة الراقية...»[29].

بيد أن شخصية ابن المواز برزت بشكل خاص خلال انتمائها إلى «جماعة الشباب الناهض» وهي جمعية قامت لأجل تنوير أذهان المغاربة ومقاومة الاحتلال الأجنبي[30]، وبشكل أخص كمحرر للبيعة الحفيظية الشهيرة، بعد الصراع على العرش بين الأخوين عبد العزيز وعبد الحفيظ.

لقد حرص ابن المواز على تضمين البيعة الحفيظية المشروطة جملة من الالتزامات الحقوقية والشرعية التي أرجعت للأمة المغربية بعضا من حقوقها في مباشرة السيادة الوطنية. كما كانت خطوة جرّيئة ساهمت في الحد من السلطة المطلقة للسلطان وإشراك العلماء والنخب في اتخاذ القرارات التي تهم الأمة.

الفقيه القاضي ابن المواز وقضية عزل السلطان عبد العزيز:

اعتبرت الخدمات والوظائف التي تولاها أحمد بن المواز في السلك المخزني مسوغا رئيسا في إلمامه الواسع على أوضاع المغرب الآيلة إلى السقوط، كما أكسبه فقهه أن يصبح عالما سلفيا، أما ثقافته فقد مكنته من أن يكون على اطلاع رحب لما كان يحدث في العالم العربي والإسلامي من أفكار إصلاحية، ونعتقد أن هذه العناصر مجتمعة هي التي ضخت في ابن المواز دما الروح الوطنية التي اتسم بها منذ وقت مبكر، والتي تجلت بوضوح في وثيقة البيعة الحفيظية المشروطة. فما هي مسوغات ذلك الحدث التاريخي الهام؟

انقسم المجتمع الفاسي، منذ بلوغه بيعة أهل مراكش للمولى عبد الحفيظ، إلى فصيلين: قسم ظل يوالي السلطان عبد العزيز بقيادة عبد الكريم بن سليمان، ومحمد الجباص، والعباس بن عبد القادر الفاسي، وقسم موال لعبد الحفيظ مثلته نخب العلماء والفقهاء والمثقفين، بل وقواد الجيش بزعامة عبد السلام الأمراني الذي أظهر موالاته لعبد الحفيظ. سمحت غلبة القسم الثاني وهيمنة الأفكار الوطنية التي تشبع بها إلى دعوة أعيان فاس إلى مؤتمر عام بضريح المولى إدريس يوم فاتح ذي الحجة عام 1325هـ/ 15 دجنبر 1907 حضرته نخب العلماء وأعيان المدينة وأشرافها وتجارها، بغية إعلان البيعة لعبد الحفيظ وإسناد الإمامة إليه لمواجهة التدخل الأجنبي خاصة الفرنسي، وإعلان الجهاد ما دام أن عبد العزيز قد توارى ولم يرغب في الجهاد، وبذلك سقطت إمامته[31].

حضر مؤتمر المولى إدريس حوالي 120 من أشراف فاس وأعيانها، صاغوا عريضة استفتوا فيها العلماء من أجل العزل: «... [إن] أعيان فاس وشرفائها

ورماتها ورؤسائها... يشهدون بان الأمير حينه عبد العزيز صدرت منه أمور منكرة شرعا وطبعا، منها موالاته وميله لبعض أجناس الأجانب... وتبذير بيت مال المسلمين... وتبديل الزكوات والأعشار بإحداث الترتيب والبنك الموجب للربا... حتى انحلت بسبب ذلك عرى الدين... وأدى الحال إلى تمكين بعض الأجانب من بلادهم، وإلى أن استولى على توات ونواحيها، وفجيج وعين بني مطهر ووجدة... وأعظم من ذلك البوليس الذي فيه تحكم النصارى على رقاب المسلمين... حتى كادت تضعف شوكة الإسلام وتصير إلى الانعدام...وبمضمنه قيدت شهادتهم مسؤولة منهم لسائلها... ».[32]

وبالفعل فقد أفتى علماء فاس حول ما طرح عليهم، وأفتوا بما يلي:

« ... الحمد لله مبدل العسر باليسر، وناشر ألوية العز والنصر... وبعد:... فقولكم فيه أن مولاي عبد العزيز أميركم كان قد اشتغل بما يخالف السنة والقرآن، وعجز عن دفع بعض الأجانب عن ثغور المسلمين، بل صدر منه ما أدى إلى تمكنهم بالفعل حسبما ذلك مثبت بالموجب... إلى غير ذلك من الأمور المنكرة التي هي في صدور الكل مسطرة، كل هذه موجبة لعزله، وعدم نفوذ حكمه... فالجواب والله موفق للصواب حيث ثبت ما ذكر، يجب عزله وتولية غيره ممن يقوم بأمور المسلمين... »[33].

وقد أمضى هذه الفتوى أربعة وعشرون نفرا من القضاة والعلماء والعدول، أبرزهم محمد بن الرشيد العراقي، ومحمد بن عبد الكبير الكتاني وعبد الرحمان القرشي ومحمد التهامي كَنون، والفقيه أحمد بن المواز، إلخ[34].

اعتبر توقيع ابن المواز ورفقاءه لهذه الوثيقة صرخة وطنية صدحت بها الفئات التي تشبعت بالروح الوطنية في وقت بالغ الحساسية مرّ به المغرب.

راهن أحمد بن المواز وصحبه على عبد الحفيظ لثقافته العالية ومكانته السياسية لذلك أصر في صياغتها وعلى تضمينها بنودا دستورية حدّت من نظام الحكم المطلق إلى ملكية مقيدة، كما ألحّ في تحريرها على أن تكون ميثاقا قوميا ودستوريا من الدرجة الأولى[35].

وهذه هي الخطوط العريضة لنص البيعة المحررة من قبل أبي العباس أحمد بن عبد الواحد بن المواز[36]، صدْر الكتاب وواسطة عقدهم، على حد تعبير ابن زيدان[37]، جاءت طويلة جدا عمِلْنا على تلخيصها قدر الإمكان. ونحن إذ نطرحها مجددا ليس لاجترارها ولكن لتبيان قدرات ابن المواز وخبراته في تحرير الرسائل السلطانية، وما في هذه الوثيقة من سلاسة الأفكار ووضوحها، وريادة الطرح ومتانة المفاهيم، وانتقاء العبارات وجودة التراكيب وترابطها، فهي قمة في الإبداع والتعبير وعذوبة اللفظ وسهولته، بعيدة عن «الترف البياني والتمحل في الصناعة البديعة»[38]. بيد أنها إن كانت بهذه الجمالية الأدبية، فهي في نفس الآن مليئة بالألغام والفخاخ، فتضمين ابن المواز ورفقائه لها بهذه المجموعة من الشروط لم يكن جزافيا، بل كان على قدر كبير من المسؤولية لحساسية المرحلة التي كان يمر بها المغرب[39]:

«الحمد لله الذي جعل كلمة الحق هي العليا... وشرف هذا الوجود بمن يرقيه الله خيارهم منصب الخلافة، فيتبع في الشريعة والعدل والسياسة سنة جدّه... ونشكره أن هدى خاصة الأمة وعامتها لتقليد من يوفي بالعهود الشرعية، ويقوم بحفظ الدين ومصالح الرعية... وكانوا يميلون مع الحق حيث مال، ولا يحابون من يتساهل في أحكام الشريعة بحال، أما بعد: فإنه لما أراد الله تعالى أن يزيح ليل الجهالة عن عباده، وأن يجدد الدين بمن يطلعه شمسا في أرضه وبلاده، لعود عز الإسلام لشبابه ويبقى استناد الإمارة العلية إلى سنته وكتابه... واستطارت الأنوار المضيئة للأغوار والنجود بمبايعة من يعيده الله به شمس الخلافة إلى برج شرفها ويرد به نقطة العدل والحلم إلى مركزها...وهو من حاز من الأوصاف الكاملة غايتها، وبلغ من المزايا الجسيمة نهايتها، فاكتسى العلم لباسا، والشجاعة أتراسا واتخذ العلم أساسا... والدين قواما والسياسة الشرعية نظاما، مولانا أمير المؤمنين... الذي جعله الله خير آية ناسخة... المتفائل باسمه في حفظ الإسلام ورسمه أبو المعالي مولانا عبد الحفيظ لما ألقى الله له في قلوب الخلائق من الحب الجميل والاعتقاد الذي هو بنصرة الدين كفيل، فحبذا من إمام تهتز لذكره أعطاف المنابر...

وتستضيء البلاد بإكليل شرفه الزاهر، وتسكن العباد تحت ظله المؤيد الوافر... فانتدب من وقفت بهم مطية التوفيق على حضرة الإخلاص والتصديق... من جميع أهل فاس الإدريسية لازالت مصونة محمية، وسائر أشرافهم ورماتهم وعلمائهم وقضاتهم وكبرائهم ونقبائهم ومرابطيهم وصلحائهم وأعيانهم وخاصتهم وعامتهم، وكذلك أهل فاس الجديد... على تقليد الجميع بيعة مولانا أمير المؤمنين المذكور، المختص بالسعد الباهر واللواء المنصور بيعة تؤسس على تقوى من الله ورضوان، ويشهد عقدها الكريم ملائكة الرحمان، فبايعوه كلهم على الأمن والأمانة والعفاف والديانة والعدل الذي يشيد للمجد أركانه، مبايعة شائعة على عقدها الكريم بحكم الوفاق وعموم الاتفاق والمواثيق الشديدة الوثاق، وبجميع الإيمان الصادقة الإيمان، أعطوا بها صفقة أيديهم ورفع العقيرة بها مناديهم، وندبوا إليها سائر القبائل التي بنواحيهم... وأمضاها الكل المجموعي والجميعي على السمع والطاعة والانتظام في سلك الجماعة، إمضاء يدينون به في السر والجهر والعسر واليسر، والتزموها رغبة منهم وطوعا، واستوعبوا شروطها أصلا وفرعا، وجنسا ونوعا... أبرموا عقدها وأحكموا عهدها وعرضوا عليها أفرادا وأزواجا وزمرا وأفواجا... وكيف لا وهو المتصف بالكفاية الشرعية... [و] ذا نجدة في تجهيز الجيوش وسد الثغور وذا رأي مصيب في النصر للمسلمين...

ولا غور أن مولانا أمير المؤمنين الذي انتظمت بيعته في أعناق المسلمين... راجين من شريف همته وكريم عنايته... في رفع ما أضر بهم من الشروط الحادثة في الخزيرات، حيث لم توافق الأمة عليها ولا سلمتها ولا رضيت بأمانة من كان يباشرها ولا علم لها بتسليم شيء منها، وأن يعمل وسعه في استرجاع الجهات المأخوذة من الحدود المغربية، وأن يباشر إخراج الجنس المحتل من المدينتين اللتين احتل بهما،، ويزين صحيفته الطاهرة بحسنة استخلاصهما، وأن يستخير الله في تطهير رعيته من دنس الحمايات والتنزيه من اتباع إشاراة الأجانب في أمور الأمة لمحاشاة همّته الشريفة عن كل ما يخل بالحرمة، وإن دعت الضرورة إلى اتحاد أو تعاضد فليكن مع

إخواننا المسلمين كآل عثمان... وإذا عرض ما يوجب مفاوضة مع الأجانب في أمور سلمية أو تجارية فلا يبرم أمر منها إلا بعد الصدع به للأمة... حتى يقع الرضى منها بما لا يقدح في دينها ولا في عوائدها ولا في استقلال سلطانها، وأن يوجه... وجهته الشريفة لاتخاذ وسائل الاستعداد للمدافعة عن البلاد والعباد، لأنها أهم ما تصرف فيه الذخائر والجبايات... وأن يقر بفضله العيون والنفوس برفع ضرر المكوس...وتجديد معالم الإسلام وشعائره بزيادة نشر العلم وتقويم الوظائف والمساجد وإجراء الأحباس... وانتخاب أهل الصلاح... للمناصب الدينية، وكف العمال عن الدخول في الخطط الشرعية... وترك ما أحدث من الجمع المستلزم لاستبداد الرؤساء بتنفيذ مراداتهم في القضايا والأغراض... ومما يقتضيه حسن سيرته... تقريب الصالحين واعتبار مقادير الأشراف وأهل العلم والدين... وإبعاد الطالحين وإخساء المفترين والواشين... أشهدوا على أنفسهم بما فيه عنهم عموما... وهم عارفون قدره وأكمله، وفي فاتح ذي الحجة عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف»[40].

اعتبرت هذه الشروط، حسب بعض الباحثين، مطالب مثالية قصيّة بالمقارنة إلى الظروف التي تولى فيها السلطان عبد الحفيظ الحكم، لاسيما الإطار التاريخي والدبلوماسي والعسكري، وكذا بالنظر إلى الإمكانات المتوفرة في يدي السلطان[41]. ومع ذلك فهي تعبر بصدق عن مطالب شعبية حماسية، إذ تضمنت شروطها جوانب سياسية ودبلوماسية، وجوانب عسكرية وسياسية، وكذا جوانب تنظيمية واجتماعية[42].

لقد اكتست البيعة الحفيظية الفاسية المشروطة أهميتها البالغة كونها كانت في وقتها فرصة لممارسة العلماء لمهمة الإفتاء كجماعة، ثم كونها أضحت وثيقة إسناد للنخب الوطنية في إرساء مبدأ الشورى لاحقا[43]. وقد اعتبر البعض أن هذه الشروط هي التي كانت وراء سوء التفاهم الذي ساد بين السلطان عبد الحفيظ ومحمد الكتاني[44]، واعتبرها البعض الآخر أنها قيّدت السلطان الجديد في سياسته الخارجية، وأن هذه البيعة هي بيعة صادرة عن «أمة شاعرة بحقوقها، عارفة بواجباتها، راغبة في صيانة سيادتها، ساعية في صيانة أحوالها»[45].

وفي جميع الأحوال، فإن شروط بيعة أهل فاس تعكس نمط تفكير مهندسيها وصائغيها، نمط النخبة العالمة التي لم تكن في نهاية المطاف سوى نسخة طبق الأصل للنخب الإسلامية في المشرق المنادية بالإصلاح.

والجدير بالملاحظة كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين أن تحرير نص البيعة لم يتم إلا بعد شهر من التداول والنقاش، وهو أمر ليس ناتجا عن الروية والأناة، بقدر ما كان مرتبطا بطابع التردد الذي طغى على ذهنية واضعي تلك الشروط[46].

مواقف وطنية رائدة للفقيه القاضي ابن المواز خلال سفارته إلى مدريد 1909-1910:

بدت الروح الوطنية مجددا في فكر الفقيه ابن المواز في السفارة التي كلفه بها السلطان عبد الحفيظ إلى الديار الإسبانية. سافرت هذه البعثة من المغرب في 18 جمادى الثانية 1327، الموافق لـ 6 يوليوز 1909، ووصلت إلى مدريد يوم 20 جمادى الثانية/ 8 يوليوز، لتبدأ المفاوضات يوم 21 جمادى الثانية/9 يوليوز باستقبالها من طرف وزير الخارجية الإسباني (Allendesalazar)، ويوم 10/22 يوليوز، من قبل الملك ألفونصو XIII، لتبدأ محادثات الجلسة الأولى يوم 23 جمادى1327/12 يوليوز 1909.

وكما يستنتج من التواريخ، فإن هذه السفارة ابتدأت أشغالها في اليوم الذي اندلعت فيه الحرب في الريف بين الإسبان وقبائل قلعية.

ضمت هذه السفارة، التي أقامت في مدريد بين 9 يوليوز 1909 إلى بداية أكتوبر 1910، كلا من السفير أحمد بن المواز، ومستشاريه، محمد زنيبر وبناصر غنام، والكاتب محمد الكردودي، وأمين الصائر، محمد بن جلون[47]. وقد استقبل الملك ألفونصو XIII هذه السفارة يوم 10 يوليوز[49]، التي أعربت له عن الرغبة الصادقة للسلطان عبد الحفيظ على توطيد العلاقات مع إسبانيا.

والواضح أن هذه السفارة قد بعثت في ظروف غير عادية، لعل أهمها عدم الاستقرار السياسي إن في بلاد المغرب أو في إسبانيا. ثانيا: أنها تزامنت مع اندلاع الحرب المغربية الإسبانية لـ 9 يوليوز 1909، حيث ذهبت هذه البعثة لحل مشاكل سابقة كانت عالقة بين الطرفين، فإذا بها تواجه مشاكل إضافية متمثلة في نتائج الحرب المغربية الإسبانية، لاسيما بسبب «الأسبوع التراجيدي» والاضطرابات الاجتماعية التي أدت إلى تساقط الحكومات. لذلك فقد كثر عدد وزراء الخارجية الذين تفاوض معهم السفير ابن المواز، وهم على التوالي: الوزير مانويل أييندسالاثار (Manuel Allendesalazar)، وخوان بيريث كابابيرو (Juan Peréz Caballero)، وكَارثيا بريبطو (García Prieto).

وبعيد عن الدخول في متاهات جلسات تلك المفاوضات حاولنا إبراز بعض المواقف الوطنية التي عبّر عنها ابن المواز. لقد أبلى السفير ابن المواز البلاء الحسن في مدافعته عن المصالح المغربية بالديار الإسبانية، فلما احتلت الجنود الإسبانية، انطلاقا من مليلية، أجزاء من الريف، لم يتوان ابن المواز في مطالبة الإسبان بالتعجيل بالجلاء عن الأراضي المغربية، من ذلك قوله: «... وخاطبناه بما اقتضته الأوامر الشريفة في شأن الوفد الموجه للريف على طنجة، وفي شأن تقهقر جنودهم لداخل حدادتهم ليتأتى العمل السياسي، بينما ينظر مولانا... في تأليف القوة الكافية الفعلية التي تتوجه للريف...»[49].

وخلال مفاوضات ابن المواز الأولى مع الوزير الإسباني مانويل أييندسالاثار والتي امتدت من 12 يوليوز إلى 6 أكتوبر1909، والتي تركزت حول عدة نقاط، لعل أبرزها إرسال البعثة المخزنية المكلفة بضمان الأمن بالريف.

فقد اعتبرت حكومة مدريد هذه النقطة الخاصة بالأمن، هي المشجب التي تتعلق به لضمان استمرار احتلالها للريف، لمعرفتها المسبقة بعجز المخزن عن تحقيقها، على اعتبار أن هذا المطلب ظلت تنادي به إسبانيا منذ حرب مليلية لسنة 1893.

ومن جهة المفاوض المغربي ابن المواز، كانت هذه النقطة هي التي تعكر صفو العلاقات، وتحول دون إقرار الأمن بالريف، على اعتبار أن الاحتلال مناقض للأمن، وهو ما أمكننا قراءته من خلال هذا النص: «لا يمكن للوفد (المخزني) تيسير المباشرة ومساعدة أهل البلد له، إلا إذا حصل الانجلاء، وأما مادام الاحتلال فإنهم يبقون متشوشون ومحتجون. فكيف أنهم مهجوما عليهم ببلدهم وأرضهم محتلة وهم ينكفون عن المدافعة عنها».

ثم أضاف قائلا: « وبالجملة فإنه لا يتأتى مباشرة الوفد لعمله ولا لغيره ما دام البارود والاحتلال، ولا تمكن المباشرة إلا مع الهدنة والانجلاء... »[50].

ودائما حول مسألة الاحتلال وتصميم ابن المواز على حلها، فقد أزعج وزير الخارجية الإسباني بأسئلته حتى يضمن جوابا صريحا في المسألة: « ...فأجابنا عن مرادهم في حل مسئلة الاحتلال بأنهم مصممون على تصريحاتهم السابقة بأنهم لا غرض لهم في استيلاء ولا في شيء من أرض الريف، وإنما مرادهم كف الأيدي ومقابلة الفعال حتى يلتزموا التسكين ويتوطد الأمن بالريف، وتأتي القوة المخزنية، ويعمر المدد مراكزه بتلك النواحي، فقلنا له: هل جنودكم الآن موقوف انجلائها (كذا) على تسكين الريف أو موقوف على إتيان القوة الشريفة، أو موقوف على ترتيب العمل المعنيين وتنظيم المدد الذي يجري، فأجابنا بأنه موقوف على توطيد الأمن وتوجيه المدد الشريف وسيشرح لنا ذلك كتابة في الوفق الذي يقيدونه... »[51].

ومن المواقف الصلبة التي عبّر عنها السفير ابن المواز خلال مباحثاته مع الخارجية الإسبانية، تم إخباره السفارة بشكل مستعجل، خلال لقائه بالوزير أيانديسالاثار، أن الإسبان هاجموا الريفيين، فاستفسر ابن المواز عن صحة ذلك، فأجيب بأن «ذلك حدث من تعدي مضاربة أهل الريف، وحيث لم تكن للمخزن هناك قوة رادعة لهم، فقد اضطرت الدولة الإصبنيولية إلى تأديبهم نيابة عن جانب المخزن الشريف».

لم يستسغ السفير ابن المواز مثل هذه التبريرات، فرد بأن «الهجوم إنما يكون على الناس بمحلهم، وأما هؤلاء الريافة، فالظاهر أنه وقع لهم التشويش في بلدهم عمن وطأها، وساءت نيتهم بما حملتهم على ما ارتكبوه من المدافعة على بلدهم التي صار الغير يتصرف في معدنها. ثم أضاف ابن المواز أن العمل في المعادن يتطلب شروطا وتأمينا من «رب البلد»[52].

نفس هذه الوقائع تم التركيز عليها خلال الجلسة الثانية التي عقدت بتاريخ 28 جمادى الثانية 17/1327 يوليوز 1909، حيث طالبت السفارة المغربية الإسبان بضرورة الجلاء عن الريف، غير أن المفوضية الإسبانية أجابت بأن «الانجلاء لا يناسب إلا إذا كانت القوات المخزنية (التي) تحفظ الأمن هناك... وربما إن وقع الانجلاء، فيظهر للروافة وغيرهم أن الجنود انجلت لِغَلَب الروافة لها».

وحيث إن ابن المواز كان شديد المراس ومباشر في تدخلاته، وحتى يبدد الطرح الإسباني الهادف إلى أن الاعتداء كان من جانب الريفيين، فقد سأل المفوض الإسباني عن المحل الذي وقع فيه الهجوم، فأجيب أن ذلك وقع بالريف. رد حينها، ابن المواز، بأن «الرجل لا يُهْجَم على داره، وأن الهاجم هو الذي أتى ليهجم عليه بها»، ثم أردف قائلا: «وبالجملة فإنه لا يتأتى مباشرة الوفد لعمله ولا غيره ما دام البارود والاحتلال، ولا تمكن المباشرة إلا مع الهدنة والانجلاء...»[53].

وخلال الجلسة الرابعة والتي طالب فيها المفوض الإسباني بضرورة «تربية الريفيين»، فأجيب بأن ذلك موكول للمخزن الشريف، وأنه لا يمكن أن يتم على يد الجنود الإسبانية، و»لا يناسب أن يبلغ ذلك للمخزن، ولا تسمعه رعيته لما فيه من الخرق الذي يمس بالقواعد الأصلية». وختم السفير ابن المواز قوله: إنه «لا يمكن التصرف في الريف إلا على يده (السلطان) لاستقلاله بأمر رعيته»[54].

أما خلال المفاوضات التي قادها ابن المواز مع الوزير الإسباني خوان بيريث كاباييرو : وزير الخارجية» من 5 نونبر إلى 31 يناير 1910، فقد دارت المباحثات

حول عدة نقاط، منها: مسألة التعويضات؛ وبناء الطريق الرابطة بين سبتة وتطوان؛ وضمان الأمن في الثغور المحتلة؛ واحتجاجات القائد البشير بن سناح ضد سياسة الجنرال مارينا.

وخلال الجلسات التي أجراها السفير ابن المواز مع الوزير بريث كاباييرو، أدرجت قضية القائد البشير بن السناح، عامل المخزن بالريف، الذي استشاط غضبا من الجنرال مارينا حاكم مليلية، بسبب عقده اجتماعات منفردة مع أعيان الريف دون إشراكه فيها، هزع ابن المواز إلى رفع مذكرة في شأنه إلى وزير الخارجية الإسباني، جاء فيها: «... إن الحضرة الشريفة قد جردت أوامرها بأن تطلب من جناب حكومتكم المحترمة، إصدار أوامرها للجنرال مرينه بالانكفاف عن منع قبائل الإيالة الشريفة الريفية من المصارفة مع عمالها، لأن أعيان الريف يكتبون للحضرة الشريفة بان الجلنار (كذا)، المذكور، يمنعهم من ذالك مع استبداد بتجنيد العسكر من الإيالة الشريفة بالريف على غير ضابط...»[55].

ثم لما ألحقت إسبانيا ما قدره كيلومترا من الأراضي الريفية المحتلة، عاود ابن المواز مراسلة الوزير الإسباني الذي لم يجد من رد على أسئلة ابن المواز إلا قوله إن الريفيين هم الذين أرادوا اللقاء بمارينا لوحده، وأن الزيادة في الاحتلال قد اقتضته المصلحة[56].

تقول الوثيقة الأولى التي بعثها ابن المواز إلى النائب السلطاني بطنجة:

« ... الفقيه السيد محمد الجباص، وبعد، قد بلغنا قدوم وزير الخارجية غدا، وعند ملاقانا به [يتم] تجديد الكلام معه بطلب تقهقر جنودهم، وفاء بتصريحاتهم التي عندنا، التي هي أن المخزن الشريف متى ظهرت منه الوسائل، وترتبت الولاة في أماكنهم، ووقع الشروع في انتخاب المدد المخزني، وفي عمل التحريب المؤقت يقع الانجلاء تدريجيا...»[57].

لم يثن ابن المواز وهو بمدريد، رغم حسن الاستقبال الظاهري الذي أبداه اتجاهه الإسبان من أن يرفع لهم هناك احتجاجاته المستمرة كما تدل على ذلك

الرسالة الجوابية التالية: «...وبأنه أتاكم جواب وزيرهم عن تقييدكم الأخير في شأن تقهقر الجنود... وجعلتم له جوابا شاملا لأنواع الاحتجاجات، وأنكم ستوجهون لنا منه نسخة لنوجهها لشريف الأعتاب، ونعلم بما أنتهم عليه من استفراغ الوسع لقضاء الأغراض المولوية، وأنهم يصرحون لكم بأن غرضهم الوحيد [هو] تربية المعتدين...»[58].

وخلال مفاوضات ابن المواز مع الوزير الإسباني الجديد كَارثيا بريبطو: وزير الخارجية من 2 أبريل إلى 4 شتنبر 1910، استؤنفت المفاوضات المغربية الإسبانية ودارت المناقشات فيها حول المطالب الإسبانية التي طالبت بها خلال المباحثات مع الوزير كابابيرو، وقد عمل المفاوض المغربي على إرضاء بعض تلك الرغبات كما يثبت ذلك هذا التقييد: «منها مطلب الضوء والطيلفون... ومنها إصلاح طريق أنجرة... ومنها مسألة تحديد بقعة سانطكروز... ومنها مسألة ما يتعلق بالصائر على المسلمين واليهود الملتجئين لمليلية في زمن الثورة...»[59].

وفي الجلسة الثانية عشر من هذه المفاوضات، قدم الوزير الإسباني مشروع «وفق» مُعدّل من ثلاثة عشر فصلا بغية التصديق عليه من قبل المخزن، فاضطر ابنَ المواز إلى نقله شخصيا إلى السلطان بقصد الاطلاع[60].

وخلال الجلسة الثالثة عشر: عقدت في غياب السفير ابن المواز، وأظهر فيها الإسبان أسفهم عن تأخر الجواب المخزني حول قضية مشروع الوفق، وانتقدوا فيها سيرورة مباشرة المفاوضات بتسهيلها على الفرنسيين، وعرقلتها في وجوههم[61].

وبعد عودة السفير المغربي إلى مدريد، بتاريخ 22 شعبان 1328هـ، عقدت آخر جلسة، وهي الرابعة عشر، غير أن المفاوض الإسباني أبدى غضبه عن عدم موافقة السلطان على العديد من الأمور. حينها رفع الإسبان مذكرة وفق جديدة، وجهت إلى السلطان بتاريخ 9 رمضان عام 1328هـ.

يرجع، في حقيقة الأمر، سفر الوزير ابن المواز إلى العاصمة فاس لأجل التشاور مع السلطان حول مشروع الوفق الذي خطته إسبانيا ، والذي حاولت تضمينه

مجموعة من النقاط المتعذر تنفيذها من قبل المخزن، والتي رفضها، هذا الأخير، جملة وتفصيلا، كما جاء ذلك في جواب ابن المواز في الجلسة الرابعة عشر، والذي تعكسه خاتمة الرسالة السلطانية إلى الوفد المغربي بمدريد: «... وكتب بما تصلكم نسخة منه متصلة بنظير من ذالك التحرير، المشتمل على أمور خوارق ماسة كل الإمساس (كذا) بشرف المخزن ونور سمعته، ونأمركم أن تتنزلوا لإعطاء المسألة حقها من النظر...»[62].

وفيما يلي الخطوط العريضة التي تضمنها مشروع الوفق الأول: «... الحمد لله، المحب العاقل الفقيه الأجل وزير الحضرة الشريفة المحترم عيسى بن عمر... وقد جعلت إصبانيا في مشروع الوفق المذكور الضمانات والاحتياطات المتفقة مع رغبتها في الهدنة واستقامة الأحوال. فجانب السفير السيد أحمد بن المواز قد تبين منه اهتمامه وميالته غاية في المصالح الشريفة طول مدة المباشرة الصعيبة (كذا)، ومن عقله الأرجح ونيته الحسنة تسوغ لجانب حكومة إصبانيا أنه مشافهة (كذا)، ومن المعرفة التي له في هذه الأمور المهمة يشرح لكم زيادة البيان فيهم، ويثبت لكم ما لدولة إصبانيا من حسن الميال ورغبتها المعدة لفصال هذه القضايا، التي لا زالت بدون فصال، فلأجل ذالك، أمرنا بما قيل إنه عازم على السفر بهذا المقصود، فجانب الحضرة الشريفة من عقلها القامن، وسياستها العلمية ترى بمثل ما يرى جنابكم الرفيع اعتدالنا ومبالَتُنا الرشيدة، وتقبل الوفق المصحوب مع السفير، وتتفضل بإصدار أمرها الشريف لإمضائه بمدريد مع وزير الخارجية لدولة إصبانيا...»[63].

لكن بمجرد وصول ابن المواز إلى فاس، وتحت «توصياته» رفض السلطان عبد الحفيظ شروط هذا الوفق. لم يفت ابن المواز الاحتجاج على طول المحادثات، التي اتخذتها حكومة مدريد وسيلة ملهاة حتى تطّلع على نتيجة حرب مليلية 1909، التي كانت تعتقدها سهلة سريعة وفي متناولها، بتحطيم المقومات العسكرية للحركات الريفية، «... يعلم جناب الوزير المحترم السنيور بلير كبلير أنه لا يخفى عن مقام الحكومة الإصبنيولية الفخيمة المحبة أن المدة طالت علينا في أحوال المخابرة

في شأن القضايا المتعلقة بالريف، وتكررت المراجعات من جناب الحضرة الشريفة ومن جنابكم المحترم، وغاية ما نحن منتظرون له هو بيان ما تخص به المخابرة الحبية نهائيا . . . »[64].

غير أنه نظرا للهجة الصارمة لإسبانيا في المحادثات، فإن السفارة المغربية بقيادة ابن المواز واجهت فشلا ذريعا ، على حد تعبير العروي، بسبب النوايا الإسبانية التي أضمرتها لإرغام السلطان على تأدية تعويضات حربية عدوانية[65]. كانت إسبانيا تعتقد أن المغرب لن يكون قادرا على تأديتها مما يسهل عليها فرض حماية حقيقية وسابقة لوقتها على الريف[66].

لما فشلت إذن المفاوضات بمدريد بسبب صلابة مواقف السفير ابن المواز في عدم التنازل للإسبان عن الحقوق المغربية، وربما تحت ضغطهم تمت مطالبة السلطان عبد الحفيظ بتغيير المندوب المغربي بمبعوث آخر، وهو «ما اقتضاه نظره بإشخاص الوزير محمد بن عبد السلام XE عبد السلام : القائد» المقري لمدريد، لإتمام الأشغال التي شرعها ابن المواز»، لذلك أوصى السلطان ابن المواز بتمكين المقري من جميع ما عنده «من تقاييد أشغال السفارة السعيدة، ومحاضر سائر أعمالها، وما كنتم تروجونه في المخابرات وتُجْرونه في مجالس المذاكرات ليكون على بصيرة من ذلك كله. . . »[67].

ولا أدل على ذلك إلا ملاحظة مدد إقامة السفارتين المغربيتين بالعاصمة مدريد (من يوليوز 1909 إلى بداية أكتوبر 1910) بالنسبة لسفارة ابن المواز، ومن (بداية أكتوبر إلى نونبر 1910) بالنسبة للمقري، مدى النجاح الذي حققته حكومة مدريد، وكيف وجدت الطريق سهلا مع الوزير المقري، رغم «استماتته»، في النيل من المغرب والتوقيع على الوفق المغربي الإسباني بتاريخ 16 نونبر 1910، الذي فرض على المغرب تعويضا مجحفا قيمته 65 مليون بسيطة ولمدة 75 سنة.

والمثير للانتباه أن السفير ابن المواز خلال مقامه بالعاصمة الإسبانية مدريد لم يفته الاطلاع على ضروب الحضارة الأوربية والتقدم الذي أحرزته إسبانيا في مجموعة من الميادين، مثل ما أمكننا استخلاصه من بعض الصور التي تؤرخ لابن المواز وهو يطلع على أجواء التدريبات العسكرية بإسبانيا مستعملا المنظار للاطلاع على تلك التدريبات العسكرية التي كانت تحدث بعيدة عنه[68]، كما زار مؤسسة إحدى المطابع، واطلع عن قرب عن «الصناعة» الصحفية وكيفية عمل آلات المطبعة والسحب، إلخ، هذا إضافة إلى زيارته لإحدى ورشات التصوير الفوتوغرافي لصحيفة موندو نويبو (Mundo Nuevo) التي اهتمت بالوفادة المغربية بمدريد وأرخت لها[69]، وإليها يرجع الفضل في حصولنا على أرشيف إيكونوغرافي مهم عن هذه الشخصية وما ارتبط بها من أحداث بمدريد.

ونافلة القول إن شخصية أحمد بن المواز من الشخصيات التاريخية والعلمية الغميسة التي كاد التاريخ أن ينسينا إياها، ويقبرها في غياهب التغافل مع العلم أنها من صناع تاريخ هذا الوطن العلمي والدبلوماسي.

* * *

هوامـــش :

1- عبد السلام بن عبد القادر بن سودة: إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع، 1711-1400 هـ/ 1756-1980. تنسيق وتحقيق الأستاذ محمد حجي. نشر دار الغرب الإسلامي. بيروت 1979. الطبعة الأولى. الجزء الثاني، ص 433. توجد ترجمات مصغرة له في العديد من المؤلفات نذكر منها:

خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. الطبعة 15، بيروت 2002. الجزء الأول، ص 165. أحمد النميشي: تاريخ الشعر والشعراء بفاس. مطبعة أندري 1925؟ ص 100. إدريس بن الماحي الإدريسي القيطوني الحسني: معجم المطبوعات المغربية. مطابع سلا، سلا 1988، ص337-338. عبد الله الجراري: من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا. مطبعة الأمنية، الرباط 1971، الجزء الثاني ص 28-31. وأيضا في

«التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين: من 1900 إلى 1972» مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط 1985، ص 76-78.

2- توفي ابن المواز يوم الخميس 13 صفر 1341هـ الموافق لـ 5 أكتوبر 1922 برباط الفتح، وهو على رياسة مجلس الاستئناف الشرعي، ثم نقل إلى فاس ودفن بزاوية تقابل درب سكناه بالطالعة بجوار والده. عبد السلام بن سودة: سل النِّصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال، فهرس الشيوخ. تنسيق وتحقيق محمد حجي. نشر دار الغرب الإسلامي. بيروت 1997، الطبعة الأولى، ص 27.

3- عبد الوهاب بن منصور: أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط 2007، الجزء 8، ص 315.

4 - محمد غريط: فواصل الجمان، م.س، ص 184.

5 - عبد الله الجراري: التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين: من 1900 إلى 1972. منشورات النادي الجراري رقم: 1. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط 1985، ص 76.

6 - عبد الرحمان بن زيدان: معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين. أدراسة وتحقيق حسن الوزاني. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الجزء الثاني، الرباط 2009، ص 74.

7 - شارك ابن المواز ضمن هذا الوفد المهم باعتباره خليفة الوزير الصدر كما يشير إلى ذلك ابن زيدان، إلى جانب عم السلطان مولاي عبد المالك بن عبد الرحمان بن هشام. انظر صورة ابن المواز ضمن الوفد في عبد الرحمان بن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس. المطبعة الوطنية. الطبعة الثانية. الجزء الأول. الرباط 1990، ص 448.

8 - لمزيد من التفاصيل ينظر محمد غريط: فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان، نشر المطبعة الجديدة EX «الجديدة» ، الطبعة الأولى، فاس EX «فاس» سنة 1346 هـ، ص 183-187. عثمان أشقرا: في الفكر الوطني المغربي. سلسلة المعرفة للجميع، نونبر- دجنبر 2000، الرباط EX «الرباط» ، ص 76-77.

9 - عبد السلام بن سودة: سل النِّصال، م.س، ص 27.

10 - عبد الوهاب بنمنصور: أعلام المغرب العربي، م.س، 316.

11 - عبد السلام بن سودة: سل النصال، م.س، ص 27.

12 - عبد الله الجراري: التأليف ونهضته بالمغرب، م.س،ص 76.

13 - طبع طبعة حجرية بفاس في جزئين من 422 صفحة على عهد يوسف بن الحسن عام 1338هـ/ 1919. انظر الجراري: م.س، ص 76. عبد الرحمان بن زيدان: معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين. م.س، ص 74.

14 - طبع في تونس عام 9331هـ، حسب محمد باقر الكتاني: م.س، ص 200.

15- أحمد بم المواز : حُجة المنذرين على تنطّع المُنكرين. نسخة منه في حوزتنا. م.س، ص 3-4.

16 - نسخة منه على شكل مخطوط في الخزانة الحسنة بالرباط: تحت عدد: 12394 13970. قام بتحقيقه سنة 2004 أحمد طالبي، مطبعة كَرافيك، الرباط.

17 - بنمنصور: م.س، ص 317. توجد نسخة منه مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط تحت عدد 12394/2، وأخرى بالمكتبة الوطنية بالرباط تحت عدد 40ح.

18 – عثمان أشقرا: في الفكر الوطني المغربي، م.س، ص 78.

19 – توجد نسخة منها على شكل مخطوط بالخزانة الحسنية ضمن مجموع تحت عدد 12377، فاتحتها : «لما كان بين الدولتين الألفة، إلخ. فرغ منها سنة 1304 الموافق لسنة 1886، تقع في نحو كراستين. ينظر عبد السلام بن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى. طبع ونشر وتوزيع دار الكتاب. البيضاء 1960، الجزء الأول. ص 152.

20 – مدح به السلطان الحسن الأول، وجمع فيه بحور الشعر على اختلاف أعارضها وضروبها، طبع على الحجر بفاس في أربعة ملازم سنة 1308 هـ الموافق لسنة 1890. عبد السلام بن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى. م.س، ص 158.

21 – عبد الرحمان بن زيدان: معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين. م.س، ص 74.

22 – حسب حسن الوزاني نقلا عن ابن سودة أنه رآها ضمن كتب «دار المخزن»، م.س، ص 74. توجد نسخة حسب بنمنصور في الخزانة الحسنية تحت عدد 493، وفي الخزانة الوطنية مصورة على شكل شريط تحت عدد 2006.

23 – عبد الله الجراري: التأليف ونهضته بالمغرب، م.س، ص 76-77.

24 – كتبها حسب ابن زيدان في «الدرر الفاخرة» بأمر من الحسن بن محمد بن عبد الرحمان بن هشام. ابن زيدان: معجم طبقات المؤلفين. م.س، ص 74. انظر أيضا الدرر الفاخرة في مآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة. المطبعة الاقتصادية، الرباط 1937، ص 106.

25 – عبد الرحمان بن زيدان: معجم طبقات المؤلفين. م.س، ص 75.

26 – عبد السلام بن سودة: إتحاف المطالع، م.س، ص 433.

27 – محمد غريط: فواصل الجمان، م.س، ص 184.

28 – محمد المنوني: مظاهر يقظة المغرب الحديث. مطبعة الأمنية. الرباط. الجزء الثاني، ص 226.

29 – محمد المنوني: صور من الانبعاث في عصر السلطان الحفيظ، أعمال وأعلام. ضمن أعمال الجامعة الصيفية: المغرب من العهد العزيزي إلى سنة 1912. الجزء الثاني. المحمدية 1989، ص 210-211. محمد باقر الكتاني: ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد. مطبعة الفجر 1962. ص 205-206.

30 – عثمان أشقرا: في الفكر الوطني المغربي. م.س، ص 76-77.

31 – عبد الكريم الفيلالي: التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير. شركة ناس للطباعة. القاهرة 2006. الجزء 6، ص 112.

32 – توجد لائحة أسماء هذه النخبة التي قدمت العريضة عند عبد الكريم الفيلالي: التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير. م.س، ص 212-214.

33 – عبد الكريم الفيلالي: التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير. م.س، ص 215.

34 – لامحالة أن هؤلاء العلماء كانوا في بداية أمرهم من أشد المؤازرين للسلطان عبد العزيز، بدليل أن أحد أعضاء هذه الهيأة خلف لنا أحد أبرز المخطوطات عن السلطان عبد العزيز: «الذهب الإبريز

في محاسن السلطان عبد العزيز» لصاحبه الشيخ محمد بن رشيد العراقي، وثانيا بدليل توقيع العلماء للفتوى الأولى المناهضة لقيام عبد الحفيظ ضد أخيه عبد العزيز والمؤرخة بـ 19 رجب 1325هـ/ الموافق لـ 28 غشت 1907، غير أن سرعة الأحداث وتلاحقها كانت، ربما، الدافع الأساس لتغيير موقفهم.

35 - نفسه، ص 221.

36 - اعتقد العديد من الباحثين بأن هذه البيعة هي من تأليف محمد الكتاني كما ذهب إلى ذلك أحمد التوفيق الذي سماها باسمه «الشروط الكتانية». أحمد التوفيق: تأملات في البيعة الحفيظية. ضمن أعمال الجامعة الصيفية: المغرب من العهد العزيزي إلى سنة 2191. الجزء الأول. المحمدية 1989، ص 344.

37 - عبد الرحمان بن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس. الجزء الأول ص 448.

38 - أحمد عمالك: قراءة في نص البيعة الحفيظية. ضمن أعمال جامعة مولاي علي الشريف حول: السلطان عبد الحفيظ. منشورات وزارة الثقافة والاتصال. الرباط 2001، ص 47.

39 - اعتبر محمد الباقر الكتاني أن البيعة الحفيظية التي حررها ابن المواز أنها جاءت «على شكل جامد لم يراع فيها التطور العظيم الذي كانت الأمة تنشده من وراء هذا الانقلاب، فقام المترجم (محمد بن عبد الكبير الكتاني) خطيبا بين الناس، وأعلن أنه لا فائدة ترجى من هذا الانقلاب إذا لم تكن بيعة أمير المؤمنين الجديد مقيدة بشروط تحقق الأمة أهدافها ومقاصدها، ثم تلا عليهم نص الشروط التي كان قد حضرها من قبل، فوافق الجميع عليها وحينئذ سلمت لابن المواز ليضيفها إلى نص البيعة، فأضيفت إليه حينا ووقعها الجميع». لمزيد من التفاصيل ينظر: محمد باقر الكتاني: ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد. مطبعة الفجر 1962. ص 198. وحسب محمد باقر الكتاني فإن ابن المواز حاول إزالة صبغة الشروط عن البيعة، مراعاة للأدب اللائق بمقام الملك، إلا أنها بقيت مهيمنة عليها. نفسه والصفحة.

40 - عبد الرحمان بن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس. الجزء الأول ص 449-453.

41 - أحمد التوفيق: تأملات في البيعة الحفيظية. م.س، ص 343.

42 - نفسه والصفحة.

43 - نفسه، ص 347.

44 - محمد باقر الكتاني: ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد. م.س، ص 200-201.

45 - محمد بن الحسن الوزاني: المغرب بين الماضي والحاضر، جريدة الدفاع، العدد 1، بتاريخ 31 غشت 1937، م باقر الكتاني: م.س، ص 201.

46 - أحمد عمالك: : قراءة في نص البيعة الحفيظية. م.س، ص 56.

47 - انظر صورة السفارة المغربية إلى مدريد EX «مدريد» في الصفحة الموالية.

Bulletin du Comité d'Afrique française, (B.C.A.F.) : « L'Espagne - 48
et le Maroc. Les incidents de Melilla «, n° 7 juillet 1909, p 262.

49 - مديرية الوثائق الملكية (م. و. م.) ملف شعبان 1327، رسالة من أحمد بن المواز EX «أحمد بن المواز» إلى السلطان عبد الحفيظ EX «عبد الحفيظ:السلطان» ، بتاريخ 18 شعبان 1327.

50- الخزانة الحسنية بالرباط (خ.ح.ر)، كناش رقم 956، محضر الجلسة الخامسة عشر، بتاريخ 15 رجب 1327 هـ، أورده عبد العزيز EX «عبد العزيز:السلطان» التمسماني خلوق: الحركة الحفيظية والأطماع. الإسبانية في شمال المغرب. مجلة دار النيابية، السنة الخامسة، العدد 17، شتاء 1988، ص 52.

51 - م.و.م: ملف رمضان 1327 هـ، رسالة من أحمد بن المواز إلى السلطان عبد الحفيظ بتاريخ 22 رمضان 1327 هـ.

52 - التمسماني، محضر الجلسة الأولى، ص 60-61.

53 - التمسماني، م.س، محضر الجلسة الثانية، ص 61.

54 - التمسماني، م.س، محضر الجلسة الرابعة، بتاريخ 15 شعبان 1327/ 1 شتنبر 1909، ص 62.

55 - (خ.ح.ر)، الكناش 877: رسائل في شأن الحرب الريفية الإسبانية ما بين 1327 -1328 هـ، عهد المولى عبد الحفيظ. نسخة من تقييد كتبه السفير ابن المواز إلى وزير الخارجية الإسباني بتاريخ 2 محرم الحرام عام 1328، الموافق 14 يناير عام 1910.

56 - التمسماني، م.س، محضر الجلسة التاسعة بتاريخ 25 قعدة 1327/ 9 دجنبر 1909، ص 63.

57- مديرية الوثائق الملكية (م. و. م): ملف قعدة الحرام 1327هـ، رسالة من أحمد بن المواز EX «أحمد بن المواز» إلى النائب محمد الجباص EX «محمد الجباص» ، بتاريخ 15 قعدة الحرام 1327.

58 - م.و.م: ملف رمضان 1327 هـ. رسالة جوابية من الوزير المدني إلى السفير أحمد بن المواز بتاريخ 16 رمضان 1327هـ.

59- التمسماني: م.س، رسالة أحمد ابن المواز إلى كَارسيا بريبطو، بتاريخ 12 مارس 1910، ص 52.

60- التمسماني، م.س، محضر الجلسة الثانية عشر بتاريخ فاتح ربيع الثاني 1328هـ، ص 63.

61- التمسماني، م.س، محضر الجلسة الثالثة عشر بتاريخ 8 رجب 8231هـ، ص 46.

62- خ.ح.ر، الكناش 868: رسائل متبادلة بين الحكومة المغربية والإسبانية في شأن الحرب الريفية مابين 1327 -1328 هـ، عهد المولى عبد الحفيظ. تقييد شامل للأسباب التي نشأت عنها الحوادث الريفية الحالية. نسخة من كتاب كتبه السلطان إلى البعثة الدبلوماسية بمدريد، بتاريخ 12 ربيع الثاني عام 1328 هـ.

63 - خ.ح.ر، الكناش 868: رسائل متبادلة، م. س. ذ. نسخة من كتاب كتبه وزير الخارجية

الإسباني مانويل كَارثيا بريبطو إلى وزير الخارجية المغربي عيسى بن عمر، نصه معرب من قبل كاتب «لكَاصيون» المندوبية الإسبانية بطنجة EX «بطنجة» السيد محمد الزيلاشي؟ بتاريخ 26 أبريل عام 1910.

64- خ.ح. ر، الكناش 877: م.س، نسخة من تقييد كتبته السفارة لوزير الخارجية الإسباني، بتاريخ 2 محرم الحرام عام 1328هـ، الموافق 14 يناير 1910.

Abdellah Laroui : Les Origines sociales et culturelles du-65 nationalisme marocain 1912-1930. Ed. centre culturel arabe.

Casablanca 1993, p. 104.

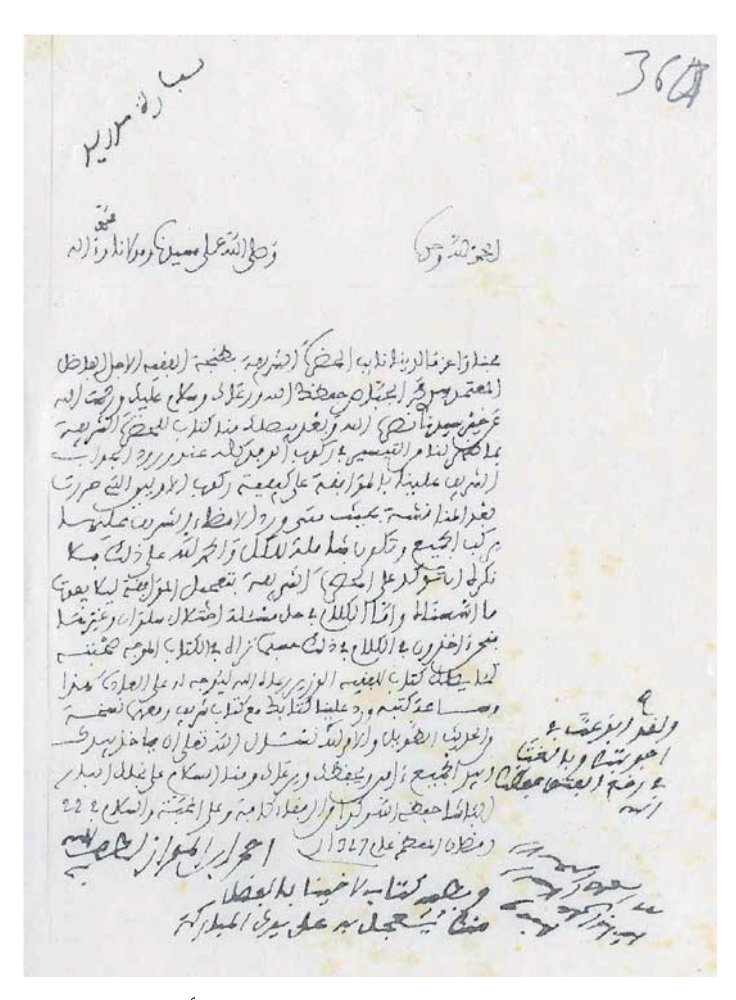
A.Laroui ; Ibid -66

67 - خ.ح.ر، كناش رقم 828، خلاصة الجلسات التي عقدها وزير الخارجية محمد بن عبد السلام المقري بمدريد لحل المسائل التي تباشر على يد السفارة المغربية هناك مع شروط الوفق المغربي الإسباني سنة 1328 هـ. رسالة من السلطان إلى ابن المواز بتاريخ 15 رمضان 1328. ص 391.

Mondo Nuevo, ano IVI, n° 811, del 22 de julio de 1909. - 68

69 - لمزيد من التفاصيل ينظر صور صحيفة «موندو نويبو» خلال شهر يوليوز 1909

* * *

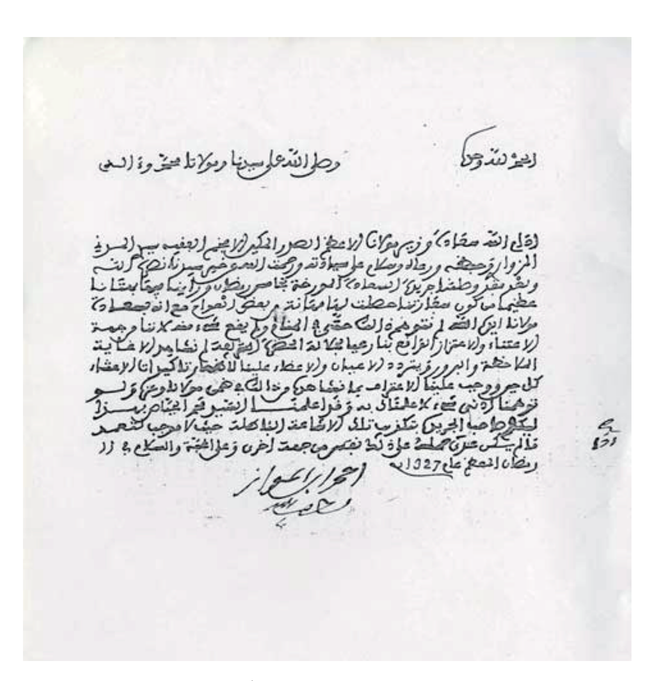


الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

محبنا وأعز ما لدينا النائب الحضرة الشريفة بطنجة الفقيه الأجل الفاضل
المعتمد سيدي محمد الجباص حفظك الله ورعاك وسلام عليك ورحمة الله
عن خير سيدنا نصره الله وبعد فيصلكم منا كتاب للحضرة الشريفة
[illegible] التفتيش في ركوب [illegible] عند ورود الجواب
الشريف علينا بالموافقة على كيفية ركوب [illegible] التي جرت
[illegible] بحيث متى ورد [illegible] الشريف [illegible]
[illegible] الجميع [illegible] والحمد لله على ذلك [illegible]
[illegible] الحضرة الشريفة [illegible] الموافقة [illegible]
[illegible] وإنما الكلام في حل مشكلة احتلال سلوان وغيرها
[illegible] الكلام [illegible] الكتاب [illegible]
[illegible] كتاب [illegible] الوزير [illegible]
[illegible] ورد علينا [illegible] مع كتاب [illegible]
[illegible] نسأل الله تعالى [illegible]
[illegible] الجميع [illegible] والسلام [illegible]
[illegible] والسلام في 22
رمضان المعظم عام 1327

أحمد بن المواز [illegible]

المرجع: م.و.م، ملف رمضان 1327هـ. رسالة من أحمد بن المواز إلى النائب السلطاني بطنجة محمد الجباص حول احتجاجه بمدريد على احتلال مدينة سلوان المغربية من قبل الجيوش الإسبانية.



الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

رمضان المعظم عام 1327

أحمد ابن المواز

المرجع: م.و.م، ملف رمضان 1327هـ. رسالة من أحمد بن المواز إلى الصدر الأعظم الوزير المدني حول ما نشرته بهتانا جريدة السعادة من أن السفارة تعرضت بمدريد لإهانة. رسالة بتاريخ 11 رمضان 1327هـ.

* * *

من أعلام المغرب خلال القرن التاسع عشر
الفقيه المخزني علي بن محمد السوسي السملالي
(ت1311هـ/1893م)

خاليد فؤاد طحطح*

يعد علي بن مَحمد السوسي السملالي من أبرز فقهاء السلطة ومن أهم رجالات المخزن خلال فترة القرن التاسع عشر. عايش كل التطورات والأحداث التي مر بها المغرب خلال هذه المرحلة، ابتداءً من عهد السلطان عبد الرحمان وانتهاءً بعهد السلطان الحسن الأول، ولعب أدوارا مهمة في الدفاع عن مواقف السلطة خصوصا في عهد الحسن الأول، وكان أكثر جرأة في طرح القضايا التي لها علاقة بموضوع الاجتهاد والإصلاح، فآراؤه السياسية والفقهية تطرح العديد من التساؤلات، فقد تناول في كتبه المتنوعة العديد من القضايا والإشكالات التي مازالت تحتاج إلى تعميق البحث فيها، وتطرق إلى أبرز المسائل التي شغلت سلطة المخزن والعلماء خلال القرن التاسع عشر.

فمن هو علي السوسي السملالي؟ وما موقعه داخل الجهاز المخزني العلوي؟ وما هي مكوناته السياسية والعلمية؟ وكيف انعكس انتماؤه للسلطة على آرائه السياسية والفقهية؟

* باحث، الرباط.

1- التعريف بعلي بن محمد السوسي السملالي التزكورتي الفاسي.

1.1 ـ نسبه وحياته.

هو علي بن مَحمد (بفتح أوله) أبو الحسن السوسي ثم الفاسي، من مؤرخي المغرب ومن علماء سوس بجنوب المغرب[1]، ذكر في كتابه «نهاية المقول في تنبيه همم الفحول» اسمه كاملا بقوله «عبد ربه علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد المدعو بسيدي محمد انتزكرت»[2]. كما أفصح المؤلف عن نسبه أيضا في خاتمة كتابه «عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة» وذكر اسم القبيلة التي ينتمي إليها وهي قبيلة اداوبعقيل بنواحي تزنيت قرب منطقة اداوسملال بمكان يقال له امرو، كما ذكر اسم جده بقوله «وكان الفراغ من تأليف هذا الكتاب عام تسعة وتسعين ومائتين وألف(1299هـ) على يد مؤلفه علي بن مَحمد السوسي الشريف السملالي من ذرية سيدي محمد التزكورت.. وهو ببعقيل في موضع يقال له امرو، تتميز أبناؤهم بكبر آذانهم، لذلك يقال له سيدي محمد بومزوغ، وهو بالعربية الأذن»[3].

لا تمدنا المصادر وكتب التراجم التي أتت على ذكره بأي معلومات عن تاريخ ومكان ولادته، لكننا ومن خلال اسمه نستنتج أنه من بلاد سوس الأقصى، ينتمي إلى الأسرة السملالية الشريفة، وهي أسرة شهيرة بأدوارها الدينية والسياسية والاجتماعية والتعليمية. فقد نسب نفسه في تتمة كتابه نهاية المقول السابق الذكر وفي بعض كتبه الأخرى إلى هذه الأسرة الشريفة بذكر اسمه »علي بن محمد السوسي الشريف السملالي»[4]. وقد عده المختار السوسي في كتابه»سوس العالمة» من الأعلام السملاليين نزيل فاس والمتزوج من الأسرة الفاسية[5]، وذكر أنه لم يعلم عمن أخذ العلم من علماء سوس[6].

لم تحدد المصادر والتراجم تاريخ مولده، إذ لم ترد أي إشارة في أي منها، كما اختلفت في تحديد تاريخ وفاته، فعبد السلام بن عبد القادر بن سودة في كتابه «دليل مؤرخي المغرب الأقصى» يجعلها سنة 1328هـ/1910م[7]، وهي نفس السنة

التي أوردها كل من المختار السوسي في كتابه »رجالات العلم العربي » ومحمد عبد الله عنان وعبد العالي لمدبر ومحمد سعيد حنشي في« فهارس الخزانة الحسنية »[8]، والملاحظ أنهم اعتمدوا في ذلك على « دليل مؤرخي المغرب الأقصى » فقط، ولم ينتبهوا إلى المصادر الأخرى التي حددت تاريخ الوفاة في سنة1311 هـ/1893م، بما فيها الكتاب الآخر لابن سودة السابق الذكر والمسمى »إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع »[9]، وهي الأكثر صوابا وتوثيقا، لتوافقها مع ما جاء في كتب التراجم التي أرخت له، فقد وردت سنة الوفاة بدقة متناهية في »سلوة الأنفاس »[10]، وفي »الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام »[11]، وهي ليلة السبت19جمادى الثانية1311هـ/1893م، كما رجح نفس السنة محمد المنوني في كتابه » المصادر العربية لتاريخ المغرب »[12]، وقد دفن بمطرح الاجلة بالقباب خارج باب الفتوح بفاس[13]، ويسمى أيضا بمطرح الجنة[14].

هاجر إلى فاس واستقر بها، لكننا لا نعلم شيئا عن تاريخ الهجرة ولا عن أسبابها والظروف التي أحاطت بها، لكن هناك إشارات في كتب التراجم تتحدث عن تلقيه العلم بمجموعة من المدن المغربية دون تحديد زمني لها، وهي الصويرة ومراكش وفاس[15] (التي استقر فيها بشكل دائم إلى أن توفي بها)[16]. وتعتبر هذه المدن من أهم المراكز العلمية المهمة في مغرب القرن التاسع عشر.

ورغم قلة المعلومات في هذا الجانب، إلا أننا نستنتج أن من بين أهم أسباب هجرته خارج سوس، رغبته الجارفة في طلب العلم، والأخذ عن العلماء على عادة الطلبة النجباء، فالمختار السوسي في المعسول أشار إلى أن فاس كانت قبلة للطلاب السوسيين الذين يرغبون في استكمال معارفهم وتحقيق طموحهم العلمي وربط علاقات جديدة قد تنفعهم عند الحاجة، ولعل هذا ما يفسر لنا استقراره بمدينة فاس، باعتبارها أهم صرح تعليمي آنذاك بالمغرب، لوجود جامع القرويين بها.

«قرأ رحمه الله على عدة أشياخ من علماء سوس الأقصى والصويرة ومراكش، وأخذ أيضا بفاس عن مجموعة من علمائها، كالشيخ سيدي علي التسولي، وأخذ أيضا عن الشيخ سيدي محمد الحراق، وكان فقيها نحويا نوازليا مشاركا في عدة علوم، وشرح الألفية لابن مالك، وله قصيدة في مدح المصطفى صلى الله عليه و سلم عارض بها همزية البوصيري، وتقاييد وطرر في النحو والفقه، وفتاوى ومقامات»[17]. وذكر عبد السلام اللجائي وكان من معارفه أنه أخذ أيضا عن «الشيخ سيدي أحمد المرنيسي[18] والشيخ ابن عبد الرحمان وسيدي علي قصارة وغيرهم»، وأكد أنه «سنة خمس وثلاثمائة وألف(1305هـ) أدام الله عمره حي، وربما أرسله مولانا المنصور(يقصد المولى الحسن) لبعض البلاد لغرض ما»[19]، وقد ذكره اللجائي في إطار حديثه عن علماء المولى الحسن وقضاته بحضرتي فاس ومكناسة الزيتونة وعلماء أبيه محمد وجده عبد الرحمان[20].

كما ذكر علي السوسي السملالي من شيوخه الفقيه سيدي المهدي بن سيدي الطالب بن سودة المري[21]. وهو من قضاة فاس وعلمائها المشهورين.

باستثناء هذه الإشارات الطفيفة، لا نتوفر على معلومات كافية تمكننا من رسم خطوط واضحة لمسار حياة الرجل التعليمية، فمؤرخو الدولة العلوية لم يخصصوا له ترجمة كافية وافية كما فعلوا مع غيره من الأعلام، رغم معاصرة كثيرين له، وأغلب المصادر المعاصرة والموالية له لم تشر إليه باستثناء بعض المعلومات العابرة .

هذا يجعلنا نطرح تساؤلات كثيرة عن أسباب هذا التجاهل من طرف معاصريه، رغم أنه تمتع بحظوة كبرى لدى السلطان الحسن الأول(1873م/1894م)، وأقام مدة طويلة بمدينة فاس التي تعتبر عاصمة المغرب الكبرى آنذاك، ولا شك أن إقامته في العاصمة العلمية ومكانته السياسية قد أتاحت له الاتصال بعلمائها وشخصياتها.

كما لا نعرف الكثير عن دراسته ولا الشيوخ الذين أخذ عنهم باستثناء ما ورد من إشارات في ترجمته، وقد تلقى تعليمه الأساسي بالكُتابْ(المسيد)، وحفظ فيه القرءان الكريم، وتلقى به قواعد اللغة العربية، والمبادئ الإسلامية وفقا للنظام التعليمي التقليدي السائد آنذاك، والذي كان يركز على العلوم الدينية والأدبية.

وأما علي بن محمد السوسي فقد أغفل الحديث في هذا الموضوع، فكتبه خالية من أي إشارة ولو وجيزة لأطوار مسار حياته الشخصية، مثله في ذلك مثل كثير من الأدباء و المؤرخين، لكن كتاباته تفيدنا في جوانب أخرى لها أهميتها القصوى بكل تأكيد، ففي كتبه تبدو كفاءته الأدبية والفقهية والجدلية في الرد على المخالفين، وتبرز مواقفه الفكرية وميولاته العلمية وذاكرته القوية.

1ـ 2 مكوناته السياسية والفكرية والعلمية.

درس علي بن محمد السوسي السملالي كما سبقت الإشارة إلى ذلك بفاس، وبمجموعة من المدن المغربية الأخرى، وتلقى تكوينا علميا متينا على الطريقة التعليمية السائدة في عصره، فبرز في عدة تخصصات، أهلته لتبوء مكانة كبيرة بين أقرانه.

فما هي مكونات شخصيته السياسية والعلمية والثقافية؟

ـ السملالي الكاتب السياسي.

عايش علي السوسي السملالي الأحداث التي أرخ لها في كتبه، فسجل ما لفت نظره، إذ كان قريبا من السلطان الحسن الأول، وصحبه في بعض جولاته التفقدية والتأديبية،كما اضطلع بأدوار سياسية مهمة مكنته من الإطلاع على أسرار وخبايا كثير من الأمور. وقد كان شاهدا على كل التطورات والأحداث التي مر بها المغرب، ابتداء من عهد السلطان عبد الرحمان(1822م/1859م) والمولى محمد الرابع(1859م/1873م) إلى عهد المولى الحسن الأول(1873/1894م)، عينه السلطان عبد الرحمان بن هشام مدرسا للحساب بمدينة تطوان لبعض أفراد الجيش

المختصين في ضرب المدافع والكور، كما مارس تدريس العلوم أيضا بمدينة القصر الكبير شمال المغرب.

رافق المولى عبد السلام بن عبد الرحمان في الحملة العسكرية على قبيلة غياثة وتازة زمن السلطان محمد بن عبد الرحمان[22]، كما شارك في حركة سوس التي قادها السلطان الحسن الأول سنة 1299هـ/1882م، وصحبه أيضا في رحلته إلى الشمال وقد دون ارتساماته وسجلها في كتبه ورحلاته المنظومة والمنثورة. كلفه السلطان المولى الحسن بمرافقة أخيه الأمير عرفة سنة 1301هـ/ 1884م إلى حدود الجزائر لحل الخلاف بين المغرب وبين دولة فرنسا حول الحدود بينهما وعلى الاتفاق بين الدولتين. كما بعثه السلطان سنة 1304م لتسوية النزاع بين بعض القبائل المتنازعة بقصر المعيز بمنطقة فكيك.

جرد علي بن محمد السوسي السملالي قلمه للدفاع عن وجهة نظر السلطة السياسية مستخدما في سبيل ذلك كل جهده وإمكانياته، فقد كان كاتبا رسميا وخادما للأعتاب الشريفة بامتياز، يتبنى ويساند كل مواقف المخزن من الأحداث الداخلية والخارجية، وشكل خطابه ضمن هذا الجانب بدون مواربة ميولات السلطة وما اتسمت به من انشغال بإخماد الثورات وإضفاء الشرعية الدينية عليها، كما ساند ضريبة المكوس وأضفى عليها الصبغة الشرعية في عهد السلطان الحسن بطريقة قوية، واعتبرها شيئا مستحسنا يوافق الشريعة الإسلامية.

إن اهتمامات السوسي السملالي الفقهية والسياسية جعلت منه أحد أهم الشخصيات المرتبطة بسلطة المخزن، فقد كان كاتبا وثيق الصلة بالفكر السياسي والأحداث التاريخية التي عرفها المغرب خلال فترة القرن التاسع عشر.

ـ السملالي الفقيه النوازلي.

كانت مادة الفقه إحدى المواد الأساسية التي تدرس في الحلقات العلمية بالمساجد والزوايا خلال العصر العلوي، وكانت تحظى بأكبر حصة زمنية لما لها من أهمية، ولهذا فقد كانت محط إقبال مكثف من طرف الطلبة. ومن خلال مؤلفات علي السوسي السملالي العديدة في النوازل الفقهية يبدو لنا بوضوح أنه كان من أبرز فقهاء عصره، فقد تلقى تكوينا فقهيا وأصوليا متينا خلال مسيرته التعليمية، ولا شك أنه درس على يد علماء أكفاء بالنظر إلى الفترة التي عاش فيها، فالمواضيع الفقهية التي تناولها وتطرق إليها، والفتاوى التي أصدرها اعتمد فيها بالإضافة إلى النصوص الشرعية وأقوال العلماء السابقين على المنطق العقلي والأسلوب الحجاجي، فضعف الدولة المغربية خلال القرن التاسع عشر وظهور قضايا مستحدثة طرحت تحديات على السلاطين العلويين، ولأن باب الفتوى لم يكن مفتوحا على مصراعيه، فان السلطان كان يختار أو يعين العلماء والفقهاء الذين تتوفر فيهم الشروط الشرعية للإفتاء، وكانوا يتوصلون بمقتضى ذلك بأسئلة مكتوبة وأحيانا شفوية فيحررون في المسألة الجواب كتابة ويبعثون به إلى السلطان.

إن النازلة في اللغة من النزول أي السقوط أو الوقوع وهي المصيبة الشديدة عندما تحل بالناس، أما عند الفقهاء فتعني الواقعة أو القضية المستجدة التي لم يرد فيها نص شرعي خاص، فيعمد الفقيه إلى الاجتهاد للتوصل إلى الحكم في المسألة، فالنوازل الفقهية قضايا طارئة ووقتية وقعت في المجتمع وولدت إشكالات مست الأشخاص والمجتمع والدولة، وصيغت في شكل أسئلة محددة، تصدى لها العلماء بالإجابة. وظروف تنزيل الأحكام تستوجب من الفقيه المفتي الوعي بالتغيرات المستجدة[23]. فالنوازل الفقهية خلال القرن التاسع عشر تعاملت مع إشكالات عملية استجدت على واقع المجتمع عمقتها الهزائم العسكرية والضغوط الأجنبية وبنود المعاهدات التجارية المجحفة، فواقع مغرب القرن التاسع عشر تميز

بالضعف العسكري والمالي، وقد طرحت مثلا قضية القيام بواجب الجهاد في وقت تغيرت فيه كثير من معطيات العلاقات الدولية التي لم يواكبها المغرب العتيق، وذلك منذ احتلال الفرنسيين للقطر الجزائري سنة 1830م، لأن احتلال رقعة من أرض الإسلام يطرح إشكالية شرعية في وجوب تحرير القطر من يد العدو الكافر . وفي هذا السياق يأتي «جواب الفقيه التسولي على أسئلة الأمير عبد القادر الجزائري»[24]، وبالإضافة إلى موضوع الجهاد تمحور مجال الاجتهاد والجدل بين الفقهاء حول قضايا تنظيم الجيش والمعونة والتجارة مع الأجانب وظاهرة المحميين وسلوك القبائل، وكانت الأسئلة التي تمحورت حول هذه المواضيع حرجة ودقيقة تجنب العديد من العلماء الإجابة عنها والخوض فيها وخصوصا قضية التوظيف والمعونة. لقد تناول علي بن محمد السوسي أغلب هذه القضايا في كتاباته فرد على من كفر قبيلة الحياينة[25]، ونادى بوجوب العقوبة بالمال[26]، وأجاز الهدنة والصلح مع العدو لارتفاع شروط الجهاد خلافا لغيره من العلماء. وساند ضريبة المعونة والتوظيف لتمويل إصلاح الجيش، فشراء المعدات والأسلحة ودفع رواتب الجند أمور مرهقة لدولة فقيرة فقدت الكثير من مواردها المالية.

إن ما يميز النوازلي علي السوسي السملالي استحضار الفكر المقاصدي، فقد جعل من مقاصد الشريعة أساس الاجتهاد، وقد تمكن الفقيه السملالي بحكم موقعه السياسي من استيعاب تقلبات الواقع بكل تشعباته. فحال المسلمين انتقل من القوة إلى الضعف فتعين على الفقيه الوعي بهذا التغاير والتفاوت في ميزان القوة، فالفقيه المجتهد عليه استحضار التغيرات الطارئة والواقع الذي يعيش فيه أثناء تناوله أحكام النوازل الفقهية المستجدة.

ـ السملالي الأديب الشاعر

تأتي مادة اللغة العربية بعد الفقه مباشرة من حيث الأهمية، وشكلت العنصر الأساس لكل عالم أو فقيه، وذلك باعتبارها أساس فهم النصوص الدينية والأدبية والتاريخية. ومن خلال كتب علي السملالي يبدو جليا تمكنه من هذا الحقل المعرفي،

فقدرته على النظم والنثر والبلاغة والاستدلال والتشبيه والتركيب حاضرة بقوة.ونلمس في جميع مخطوطاته شغفه بالشعر وولوعه به، فقد امتلأت ثنايا مؤلفاته بالأشعار والقصائد، حتى يخيل لك أحيانا أنك أمام ديوان شعر، فقلما تمر عليك الصفحات دون أن يتحفك بأبيات شعرية لها علاقة بالموضوع الذي يتناوله. ويستخدم ذاكرته وقوة حفظه عندما يستدل بالأشعار، وهذا هو السبب الذي يفسر غياب الإحالة إلى المصدر وصاحب الشعر في كتبه، إذ نادرا ما يشير إليهما، كما أنه يورد أحيانا قصائد من نظمه في مدح السلاطين العلويين، وخصوصا السلطان المولى الحسن. وكان يبالغ في المدح إلى حد الإسفاف، مستعملا في ذلك الكلمات الرنانة والجياشة، وإذا ما انتقد قبيلة خارجة عن السلطة مثلا فإنه يتفنن في الهجو والقدح، مستخدما الكلمات الجارحة والعبارات القاسية، وكتابه «مطالع الحسن ...» مليء بمثل هذه القصائد. فلقد أرغمه الطموح والمنافسة والوسط وظروف العصر على أن يكون شاعرا دون أن يكون للشاعرية تأثيرها الأول عليه، فالفقهاء من عادتهم التنافس في نظم القصائد، كما أن الشعر في ذلك الوقت كان سلاح العصر مثلما هي الصحافة اليوم تقريبا ولذلك حاول المؤلف أن يكون مسلحا بدوره بهذا السلاح[27]. لقد كان الشعر في هذه الفترة وقبلها من المكونات الأساسية للشخصيات العلمية فهي تعطي لصاحبها مكانة متميز، وكانت وسيلة من وسائل الشهرة ونيل الحظوة لدى السلاطين والحكام العلويين، فالفقيه يستغل الأفراح الدينية والانتصارات السياسية ومناسبات الزفاف والعقيقة والختان ليظهر موهبته في مدح السلاطين الذين يحبون تخليد أعمالهم وتسجيل مآثرهم والإشادة بهم من خلال أبيات الشعراء. وقد ألقى علي السوسي السملالي قصائد في مدح السلطان الحسن الأول والحاجب اباحماد وباشا فاس عبد الله بن احمد في مناسبات متعددة واصفا إياهم بأوصاف جليلة كالشهامة والفروسية والشجاعة والإقدام، وكان علي السملالي أيضا من شعراء المدح النبوي[28]، فقد عارض قصيدة البوصيري الشهيرة وجعل لها شرحا خاصا في

كتاب منفصل. وكان من عادة السلطان المولى الحسن تقديم أعطيات مالية وعينية للأدباء والشعراء، خاصة أولئك الذين كانوا ينشئون القصائد في مدحه وإطرائه، وقائمة الدواوين والأشعار التي احتفظت لنا بها المصادر كثيرة، تترجم أهمية ما أنتج خلال هذه الفترة، والملاحظ في هذه الأعمال أنها لم ترق إلى المستوى المطلوب لكونها لم تكن صادرة عن شعراء حقيقيين، وإنما عن كتاب وقضاة وفقهاء وعلماء. ويعتبر أبو الحسن علي بن محمد السوسي السملالي أحد أولئك الفقهاء والكتاب الذين ألفوا كتبا وقصائد كثيرة في مدح السلطان الحسن الأول، وقد أجزل له العطاء وأجازه عن ذلك على عادة الملوك العلويين[29].

ـ السملالي المتصوف

لقد كان تيار التصوف والزوايا قويا خلال هذه الفترة بالمغرب، خصوصا بمدينة فاس التي استقر بها عدد كبير من أقطابها، وقد كان لهذا التيار عدد كبير من الأنصار والأتباع، وحظي غالبا بدعم السلطة السياسية، ونشطت فروعه في جميع المدن المغربية خلال القرن 13هـ /19م، فقد تعددت أصناف هذه الطرق، وأشهرها آنذاك الطريقة التيجانية والدرقاوية والوزانية والناصرية[30]. وكان لبعض رجال التصوف تأثير غريب على الدولة والمجتمع خصوصا في عهد السلطان المولى محمد بن عبد الرحمان والمولى الحسن[31]. ويعتبر السملالي السوسي أحد هؤلاء المتصوفة الموالين للدولة، فكتاباته مليئة بأقوال كبار المتصوفة، وأغلب المصادر التي اعتمدها والمصطلحات التي استعملها تؤكد أنه كان متشبعا بفكرهم، ونرجح أن يكون السملالي شاذلي التوجه، ومنتسبا للطريقة الدرقاوية الحراقية التي يوجد مقرها بتطوان، ولها فروع بفاس والرباط وطنجة والدار البيضاء وغيرها من المدن، فهو يتحدث عن الشيخ محمد الحراق(ت1261ـ1845) دائما بعبارة شيخنا سيدي محمد الحراق[32]، مما يعطي الانطباع أنه كان من أتباعه المخلصين، وقد تتلمذ على يديه، وأخذ عنه وتأثر به وبأسلوبه كثيرا، فهو أحد شيوخه البارزين كما ورد في «سلوة

الأنفاس» و »الاعلام»[33]، وكما نستشف ذلك من متن كتبه، فقد أورد ونقل عنه وعن كراماته الشيء الكثير، » قال كاتبه علي بن محمد السوسي السملالي قال شيخنا العارف الأكبر خاتم وقته و شاذليه وحفيده سيدي محمد الحراق»[34]. والشيخ الحراق كان علما من أعلام التصوف والشريعة، وله إشعاع ثقافي واسع وأسلوبه الأدبي رفيع في الشعر والنثر، وهو مُؤلف لشرح الأجرومية في المذهب الصوفي، وهي تحفة من الفن الأدبي، وتوجد مخطوطة الشرح بالخزانة العامة بالرباط. وقد تقاطر المعجبون بحلقاته من كل أنحاء المغرب بما فيهم رباطيون وفاسيون[35]، ونظن أن علي السوسي السملالي كان أحد هؤلاء الذين حجوا إلى دروسه بتطوان فهناك إشارة واضحة في كتابه «مطالع الحسن..» تؤكد وجوده في تطوان خلال فترة حكم السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام. وقد كان لتوجهه الصوفي هذا تأثير كبير على موضوعات كتاباته ونوعية مواقفه، وأحد الأسباب التي جعلته مشاركا في النقاشات الفكرية والخلافات الفقهية والجدال الكلامي السائد آنذاك مع أفراد من علماء عصره، وتبرز طبيعة هذه الموضوعات الخلافية في القضايا التي تناولها، ونوع الأسلوب الذي استخدمه. كان للسوسي السملالي إلمام بميادين معرفية متنوعة، فبالإضافة إلى التاريخ والسياسة والفقه والأدب والشعر والتصوف، اهتم بعلوم أخرى، فقد كانت له مطالعات في علم الحساب كما يبدو ذلك من خلال كتابه» مطالع الحسن..»، لكنها لم تصل إلى درجة التخصص على حد تعبيره. كما كان مهتما بالجانب العسكري ومدركا لأهميته.

عاصر مجموعة من السلاطين العلويين من بينهم السلطان عبد الرحمان والمولى محمد بن عبد الرحمان و المولى الحسن الأول، وهذا يدل على أن المؤلف شخصية مخضرمة أرخت لفترة تاريخية متميزة من تاريخ المغرب وهي فترة النصف الثاني من القرن 19م، وقد حظي بمكانة كبيرة خلال عهد السلطان الحسن الأول. وقد تميزت هذه الفترة باحتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م/1246هـ، وبضعف المغرب نتيجة انهزامه في معركتي ايسلي سنة 1844م/1260هـ ضد فرنسا، وفي حرب تطوان سنة

1859م/1276هـ ضد اسبانيا ، وقد حملت هذه الهزائم التي حلت بالمغرب اتهامات على انطوائه منذ أزيد من نصف قرن[36]. وبتوقيعه لاتفاقيات بشروط مجحفة مع الدول الأوربية، تزايدت حدة التسرب الأجنبي والتغلغل العسكري داخل المغرب، واستفحلت ظاهرة الحمايات القنصلية، مما ساهم في إضعاف موارد البلاد ، وقد تزامنت هذه الصعوبات مع تنامي الاضطرابات الداخلية خصوصا في عهد الحسن الأول، الذي عاش طيلة فترة حكمه متنقلا على صهوة فرسه، وهذا يفسر لنا سوء الأحوال التي أصبحت عليها البلاد اقتصاديا وماليا واجتماعيا خلال القرن التاسع عشر. لقد كان المغرب مطالبا بالتغيير حتى يكون في مستوى مواجهة التحديات الأوربية، وكان عليه أن يعيد هيكلة جيشه وإدارته واقتصاده منذ نهاية حربه مع اسبانيا[37]، وقد قام فعلا السلاطين المغاربة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بمحاولات إصلاحية إدارية وعسكرية وجبائية، إلا أن تضافر أسباب وعوامل متعددة حال دون نجاحها. لقد ساهمت محدودية هذه الإصلاحات في انتشار الاضطرابات الداخلية، الأمر الذي أدى إلى استنزاف ما تبقى من موارد الدولة في الصراعات والنزاعات بين القبائل والسلطة المركزية، حيث كان على السلطان القيام مرارا بتجهيز الجند لإخماد الفتن والثورات، والعمل على استخلاص الجبايات، وقد أطلق على هذه الحملات العسكرية اسم الحَرْكَاتْ. لقد عايش علي بن محمد السوسي السملالي أحداث المرحلة وشارك فيها ، باعتباره أحد أبرز الشخصيات المرتبطة بسلطة المخزن، ولهذا السبب كان وثيق الصلة بالفكر السياسي والأحداث التاريخية، فقد شارك بوجوده وفكره وقلمه بصفته فقيها نوازليا ومستشارا سياسيا.

وتعكس مؤلفاته المتنوعة غنى التحصيل الذي تلقاه، فتراوح إنتاجه بين السياسة والتاريخ والفقه والشعر والأدب و علم الأنساب والنوازل.

2ـ مؤلفاته

2 -1 في السياسة والتاريخ العام

أ- كتاب «مطالع الحسن وإتباع السنن وطلوع راية مولانا الحسن»[38]، ذكره ليفي بروفنصال بعنوان تاريخ حكم سلطان المغرب مولاي الحسن[39]، ألفه علي السملالي حين تولية السلطان المذكور سنة 1291هـ/1874م وأهداه له، وعدد صفحاته 164، جعله على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة، ورتبه ترتيب الجيش في الحرب مقدمة وساقة والجناحين والقلب[40]. وقد ذُكِرَ اسمه في كتابه الآخر «مطالع السعادة» أكثر من مرة، ومن بين موضوعاته الأساسية تفاصيل عن حركات السلطان في بداية عهده ضد قبائل الأطلس المتوسط سنة 1291هـ، ومواجهته لانتفاضة أهل فاس بسبب ضريبة المكوس. وقد ذكر المنوني أنه قد أرخ فيه لأيام العاهل المنوه به إلى منتصف أيامه، وهذا غير صحيح، كما أورد رحمه الله أيضا أن من بين موضوعاته رحلة المؤلف السملالي إلى الأطلس المتوسط عام 1305م/1888هـ رفقة السلطان الحسن، ولم نقف على ذلك في المخطوط. فقد تناول في مقدمته التبرك بأهل البيت، وانتصر فيه لقول الإمام مالك بأفضلية شرف النسب على شرف العلم، وتحدث تباعا عن جواز المديح المطلق للناس فضلا عن الأمير، وفي أن خير الأمة أولها وآخرها، وأن عادة الله في أهل الفضل أن يكثر فيهم القيل والقال، ثم يذكر خروج السلطان من رباط الفتح قاصدا لبني حسن ومن انضم إليهم من القبائل وانتصاره عليهم، والوقائع التي كانت بينه وبين البربر ببني مطير ومن أنضاف إليهم من بني مكيلد، ويرد على فتوى بعض العلماء بتكفير البربر ومن سلك مسلكهم[41]، ثم يشير إلى عناية الله بالمولى الحسن، وذَكَرَ آثار أبيه السلطان محمد بن عبد الرحمان وبعض مناقبه وكراماته، ويذكر دخول الحسن الأول لفاس خلال ثورة الدباغين الذين قاموا ضد فرض ضريبة المكوس، ويختتم بفصل يذكر فيها مسائل صوفية وفقهية متفرقة كثيرا ما يقع فيها الغلط. وقد أهدى المؤلف الكتاب للسلطان الحسن الأول.

ب-كتاب «مطالع السعادة في فلك سياسة الرياسة»[42]،أو»سياسة العقول وسياسة النقول»، أو»السياسة بمجرد العقول وسياسة مؤيدة بالنقول»، في 398 صفحة، تكلم فيه عن سياسة السلطان مولاي الحسن الأول وسيرته، استهله بقوله «إنا فتحنا لك فتحا مبينا ....» الخ، وقد أشار إليه المؤلف في خاتمة رحلته (منتهى النقول..) باسم «كتاب السياسة»[43]، كتبه بعد سابقه «مطالع الحسن وإتباع السنن». وقد رتبه في مقدمة وستة فصول وخاتمة، ونثر بين مجموعه موضوعات من قواعد السياسة السلطانية، ليخلل كل موضوع بما يوازيه من سياسة الحسن الأول. وهو بذلك يعتبر كتابا في باب الآداب والأحكام السلطانية، يقدم لنا صورة عن الأسلوب الذي كانت تُعالج به قضايا السياسة من ناحية ويكشف طبيعة تمثل مفهوم السلطة الذي يصدر عن الفقيه العالم من ناحية أخرى.

هذا النص المتميز من نوعه خلال هذه الفترة تناول فيه مؤلفه جوانب من السياسة الشرعية والأحكام والآداب السلطانية، وقد اعتمد فيه صاحبه على مؤلفات كثيرة إسلامية وفارسية ويونانية، وخصصه تقريبا لمناقشة قضايا تتعلق بالخلافة والعدل السياسي، ومسألة الخروج عن السلطان، ودور الوزراء والقياد، وتدبير الشؤون العامة للرعية وغيرها من المواضيع التي نجدها في كتب الآداب السياسية عموما، كما تكلم فيه عن سياسة السلطان الحسن الأول وسيرته، ونثر بين مجموعه موضوعات من قواعد السياسة السلطانية موردا ما يوازيه ويماثله من سياسة السلطان الحسن الأول. وقد رتبه على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة[44].

ويكشف هذا المخطوط الذي كان مجهولا عن أهميته في شق التراث السياسي المتعلق بالأحكام والآداب السلطانية والسياسة الشرعية بالمغرب خلال القرن التاسع عشر[45]. ويعد مثالا ونموذجا لكتابات الآداب السلطانية التي تسمح لنا بالاقتراب أكثر من الفكر السياسي السائد في العهد الحسني.

2-2 في الرحلات

أ-كتاب «منتهى النقول ومشتهى العقول»[46] أو «ما يجب أن يقال من الأقوال ولا يقال إلا بعد توازن المثقال بالمثقال»، دون فيها المؤلف أعمال البعثة التي أوفدها السلطان الحسن الأول لتراقب حدود المغرب الشرقية من وجدة إلى فكيك، في ظل تردد الأخبار عن تعدد الحملات العسكرية الفرنسية ضد الثوار وتعقبهم تكرارا في المناطق القبلية المغربية المتاخمة، كما استهدف الوفد أيضا الإشراف على تنصيب الخليفة الجديد محمد بن مبارك كممثل دائم للمخزن بفكيك. وقد التقت البعثة بالسلطات الفرنسية بحضور المؤلف الذي كان أحد أعضائها في ايش منتصف الطريق تقريبا بين فكيك وعين الصفراء وطالبت الفرنسيين بالابتعاد عن فكيك والاعتراف بسلطة المخزن عليها[47]. توجهت البعثة أولا إلى منطقة وجدة لمراقبة الحدود بين المغرب والجزائر عام1301هـ/1884م حيث تكلم المؤلف على الخلاف الذي بين السلطان مولاي الحسن وبين دولة فرنسا على الحدود بين المغرب والجزائر، وعلى الاتفاق بين الدولتين، وقد فرغ من كتابته سنة 1302هـ/ 1884م. وأضاف المؤلف علي السملالي للرحلة موضوعات أخرى، فجاء تصميمها في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمتين، ومذيلاً أخيرا بأربعة فصول عن أعيان علماء فاس في العصر العلوي، وعن الأشراف العراقيين والصقليين والطاهريين بنفس المدينة.

في الفصل الأول والثاني والثالث، يشرح المؤلف بتفصيل نشاط البعثة ومهامها ابتداءً من حسم النزاع بين بني يزناسن والقبائل العربية بالمنطقة وانتهاءً بمراجعة نقط الحدود مع الفرنسيين بين المغرب والجزائر استنادًا إلى وثيقة الاتفاقية المحفوظة عند قاضي وجدة وفكيك والتي أوردها المؤلف كاملة في رحلته. ويسجل المؤلف انتقال البعثة من وجدة..بدءا من ثنية الساسي إلى عجرود «قصبة السعيدية» ثم تعود البعثة من جديد إلى وجدة لتسير منها إلى نقط الحدود الجنوبية عبر واحة فكيك وما إليها شرقا، وتتخلل هذه الفصول إفادات عن التنظيمات الإدارية التي يسير

عليها حكام فكيك، إضافة إلى ارتسامات عن المغرب الشرقي عموما أواخر القرن 19م، فيصف المؤلف الطرق والمراكز والمداشر التي مرت منها البعثة، مع رصد أسماء القرى والجهات والحكام، فضلا عن التعريف بالأحوال الاقتصادية للسكان، ومدى ارتباطهم بالمخزن ووقوفهم في وجه تحرشات الفرنسيين. وقد كان الهدف الرئيسي من هذه البعثة سعي السلطان الحسن الأول تثبيت الاستقرار المخزني في فگيگ عبر احتواء القبائل في بوثقة التبعية للسلطة المركزية، وكذا تخفيف التوتر على المنطقة الحدودية لمنع أي توسع محتمل للفرنسيين على حساب الأراضي الصحراوية المغربية. خصوصا بعد القلاقل التي حدثت بين الجانبين على إثر تنامي نشاط مقاومة الشيخ بوعمامة وتنقله المستمر بين قبائل المنطقة. كانت اتفاقية للامغنية لسنة 1845م تنص على حق الفرنسيين بملاحقة ومتابعة رجال القبائل المنشقين والثائرين عليها الفارين إلى المغرب، وغالبا ما كانت الحكومة الفرنسية تتجنب اللجوء إلى هذا الخيار حفاظا على علاقاتها الديبلوماسية مع المخزن من جهة ومراعاة لموقف باقي القوى الأوربية الأخرى المنافسة من جهة أخرى. وقد كانت الثورة المباشرة التي قادها الشيخ بوعمامة سنة1881م ضد الفرنسيين غرب الجزائر مبررا كافيا لتقدم الجيش الفرنسي داخل الصحراء المغربية لمطاردته، وقد ظل بوعمامة وجماعة من أتباعه يتنقلون بين القصور التابعة لمنطقة فكيك أكثر من سنة ونصف داعيا القبائل المتاخمة للطرفين إلى إحياء سنة الجهاد ضد المحتلين.

كان من أبرز النتائج التي أسفرت عنها ثورة بوعمامة قيام الجيش الفرنسي بإنشاء مراكز وأبراج للحراسة قصد حماية الأراضي الجزائرية المحتلة من الهجمات التي تنطلق من أقاصي الصحراء المغربية، لذلك شرعت الوحدات العسكرية الفرنسية منذ 1881 في بناء حصن بعين الصفراء، وفي سنة 1882 تعقبت الشيخ بوعمامة وأنصاره إلى داخل التراب المغربي، وفي نفس السنة أقامت مركزا آخر للمراقبة في منطقة بورزك في موقع لا يبعد عن فكيك إلا بمسيرة يوم واحد، وقد مهدت هذه

الإجراءات إلى خلق حالة من التوتر والاحتقان في المنطقة وكانت إيذانا بقرب ساعة المواجهة المباشرة بين الجيش الفرنسي وقبائل المغرب في الجنوب الشرقي.

إن تردد الأخبار الواردة من هذه المناطق على السلطة المركزية بتعدد الحملات العسكرية الفرنسية ضد الثوار وتعقبهم تكرارا في المناطق القبلية المغربية المتاخمة، هي التي حملت السلطان الحسن الأول على إرسال بعثة مخزنية رسمية بقيادة أخيه مولاي عرفة لتفقد الأحوال والوقوف بشكل مباشر على الأوضاع بالمنطقة الصحراوية الشرقية. وإذا كان الشيخ بوعمامة قد ساهم في تشجيع نشاط المقاومة وبث روح الجهاد بعد فترة طويلة من التهدئة على الحدود، فإنه بالمقابل أعطى مبررا معقولا لتوغل الفرنسيين في عمق الأراضي المغربية. لقد انطلق الموقف الرسمي بالأساس من الالتزام بما جاء في نصوص معاهدة للامغنية وتجنب ما أمكن الصدام والمشاكل الخلافية مع فرنسا حتى لا تجد أي مبررات للتوسع في الأراضي المغربية. ولقد سعى المخزن حقيقة إلى الحفاظ على العلاقات الودية مع الجانب الفرنسي وعمل ما أمكن على إبقاء الوضع على ما هو عليه في المناطق الحدودية، وتدخلات السلطة المخزنية استهدفت بالدرجة الأولى تهدئة الأمور والحفاظ على الاستقرار والتحكم في قرارات المنطقة حتى لا تخرج عن نطاق السيطرة، لذلك لم يعترض المخزن مثلا على العلاقات التجارية القائمة على خط الحدود بين القبائل المغربية والفرنسيين بالايالة الجزائرية. ففي إطار السياسة السلمية التي اختارها المغرب بالنظر إلى محدودية إمكاناته العسكرية، تندرج البعثة التي أرسلها السلطان المولى الحسن إلى منطقة وجدة وفكيك سنة 1301 بقيادة أخيه المولى عرفة وبمعيته عامل وجدة عبد الملك السعيدي وقواد قبائل المنطقة والتي سجل أهم أطوارها علي بن محمد السوسي السملالي الذي كان أحد أعضائها. وقد كتبها بأمر من السلطان المولى الحسن[48].

ب- « ترجمة الرحيل من طنجة والتوجه لثغر أصيلا والعرائش » مخطوط بالخزانة الملكية في 18 ورقة، وهي ضمن »رحلة السلطان الحسن الأول إلى الأقاليم الشمالية الموسومة بتمهيد الجبال وما وراءها من المعمور وإصلاح حال السواحل والثغور »[49] للعربي بن عبد القادر بن علي المشرفي(ت1313/1895). وصف فيها حركة المولى الحسن الأول إلى هذه الأقاليم لتجديد العهد مع أهلها و إعادة الأمن والسكينة إليها والعمل على معاقبة قطاع الطرق بها. وقد ذكر هذه الرحلة محمد المشرفي في «الحلل البهية» إلا أنه لم يشر لذكر الفقيه علي السوسي السملالي بالاسم[50]، ويعود تاريخ هذه الحركة إلى سنة 1306هـ/1889م. فقد خرج السلطان من فاس وخيم على قنطرة وادي سبو من بلاد الحياينة، ومنها لقبيلة رغيوة فصنهاجة فمتيوة فمزيات فبني زروال فالعين الباردة فحولان من بني مستارة وهناك أقام سنة عيد الأضحى، ثم نهض لقبيلة بني احمد فغزاوة فالأخماس فباب تازة فمدينة شفشاون فبني حسان، ثم زار ضريح الولي الصالح عبد السلام بن مشيش بجبل العلم، فكسا ووصل وواسى، ثم سار إلى بني حزمار إلى أن دخل مدينة تطوان[51] يوم الأربعاء 8 محرم فاتح 1307 وأقام بها نحو 15 يوما، قابل فيها وجهاءها وتفقد أحوالها وزار صلحاءها وأنعم على أهلها بعشرة آلاف ريال لبناء قنطرة واديهم، وللأسف لم يقع اعتناء بإتقان بنائها فانهارت في أقرب وقت، وذهبت العدة التي صيرت عليها أدراج الرياح كما أنه أنعم على عساكره وجنده بالكسوة. ثم بارح تطوان في اتجاه طنجة وأقام بها تسعة عشر يوما تفقد أبراجها وصقائلها ثم توجه إلى أحد الغربية فثغر أصيلا حيث أقام بها يوما واحدا ثم سار على طريق الساحل ومر بقبيلة الخلط ثم عبر واد اللكوس ومنها إلى القصر الكبير، ثم رجع إلى العرائش ومنها في اتجاه مكناس، وقد بلغت مدة الرحلة 137 يوم[52].

2-3 في الفتاوى والنوازل.

أ-كتاب »عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة »[53]،أو »قمع أهل الرعونة في إطلاق المكس على التوظيف والمعونة »، وتسمى رسالة في حكم المعونة والتوظيف

للجيوش. من أهم كتبه في فقه النوازل، يذكر في طالعها أن السلطان الحسن الأول، وهو يتابع محاولة تحديث الجيش، سأل علماء فاس عن الحكم الشرعي في توظيف المعونة لنفقات التنظيم الجديد، ولما توقف العلماء عن الجواب[54]، اقترح باشا فاس عبد الله بن أحمد على الفقيه علي بن محمد السوسي السملالي المبادرة لتحرير الجواب، فكتب «عناية الاستعانة» سنة 1299هـ وصنفه في مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، فضلا عن ذيلين إضافيين، وقد ورد ذكره في أسماء كتب دار المخزن السعيدة بفاس[55]. وحلله الأستاذ أحمد العماري في دراسة ضمن ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر[56].

ساند علي السوسي السملالي في هذا الكتاب ضريبة المكس، ففي ظل اتساع دائرة العلماء الرافضين والمستنكرين لهذه الضريبة باعتبارها من الضرائب غير الشرعية، تصدى للإجابة، وقد قدم أدلة وحججاً، وبرَّرَها بضرورة تقوية الجيش قصد مجابهة الخطر الفرنسي المحدق بالمغرب من الواجهة الشرقية وقصد إحياء واجب الجهاد، وقد سماها المعونة[57] بقوله «ما وظف لمصالح المسلمين إنما تسميه السلف الصالح المعونة والتوظيف وهي العبارة المألوفة في المذهب وغيره، وأما تسميته بالمكس ففيه من الهمز واللمز للمسلمين ما لا يخفى»[58]. لقد أكد الفقيه في فتواه جواز المعونة والتوظيف، وأضفى عليها الصبغة الشرعية في عهد السلطان الحسن، واعتبرها شيئا مستحسنا يوافق الشريعة الإسلامية، وهاجم المخالفين من العلماء بأسلوب حجاجي شديد اللهجة استنادا إلى ما عبر عنه «المصالح المرسلة و«الاستصلاح» «وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب». فالتوظيف ليس جائزا فقط في نظر السملالي بل واجبا ومصلحة قطعية[59].فالأمير مأمور بحفظ الشريعة، ولا يتم ذلك بدون جند ذي شوكة يقابل العدو الكافر، فأي غلب يرتجيه المغرب مع ضعف بيت مالهم وقلة عساكرهم مع عدم التوظيف الذي يتيسر به ما يحتاج إليه الحرب، ولذا إذا ضعف بيت المال وجب التوظيف، ومن أبى التوظيف فلا دواء له إلا السياسة

وهو سيف الإمام وقهره[60]، فمن امتنع عن أداء ضريبة المعونة في منطق السملالي باغ يجوز قتاله قياسا على قتال أبي بكر الصديق مانعي الزكاة.

لم يكن تأليف علي السوسي السملالي لكتاب «عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة» جوابا عن نازلة فقهية وقتية بقدر ما كان الأمر دفاعا عن واقع مفروض بأمر مخزني بسبب إفلاس الدولة نتيجة استفحال الأزمة المالية التي أصابت الخزينة إثر افتداء مدينة تطوان سنة 1860م بعد الهزيمة النكراء أمام اسبانيا سنة 1859م، فغرامة مائة مليون بسيطة كانت تفوق بكثير الإمكانيات المادية للمغرب[61]، ولم يكتف السوسي السملالي بتبرير المعونة فقط بل قام بتجويز نوعين آخرين من الممارسات المخزنية التي تؤخذ بموجبها الأموال من القبائل، وهما أولا أخذ الغنائم أثناء هجوم العساكر على القبائل العاصية، لأنه في نظره من تسبب في إتلاف مال وجب عليه غرمه، وثانيا أخذ السلطان من مال العامل ما زاد عن ماله يوم توليته في منصبه وهذا هو الذي عليه المالكية وليس من العقوبة بالمال.

إذا أردنا أن نوجز منطق الفقيه السملالي :نقول إنه يعتقد أن الجباية الشرعية غير كافية لحاجة الملوك ومصالح المسلمين لذلك كانت تفرض المغارم وهي المعونة إذا اقتضت المصلحة ،والحال أن المصلحة قائمة قطعا في زمنه والسبب في قيامها تربص النصارى بالمغرب وأخذهم النصيب الأوفر مما يرد على بيت مال المسلمين ،بل إن هؤلاء النصارى يوشكون أن ينقضوا على المغرب بينما جندها ومصالحها شديدة الحاجة للأموال ،بيد أن القبائل تمانع في أداء المطالب وتدعي أنها المكس المحرم وما هي بمكس ،إن هي إلا التوظيف والمعونة ،وعلى هذا الأساس فقتال تلك القبائل إن امتنعت أمر واجب شرعا[62].

و نظرا لما كانت تسببه المكوس من خلافات وردود فعل عنيفة، فإن المخزن العلوي غالبا ما كان يلجأ إلى استصدار فتوى من العلماء بخصوص مدى شرعية

هذه الضريبة كلما عزم على إقرارها ، وذلك بسبب الميراث الجدلي الذي تختزنه كلمة المكس على المستوى الفقهي والعامي، وهو الأمر الذي نستشفه من تجنب أسئلة السلاطين الموجهة للعلماء أي إشارة لكلمة مكس وذلك من خلال بناء السؤال على شرعية الوظيف والمعونة وربطها بحدة أزمة بيت المال وضرورة تمويل الجيش[63]. فقد كانت تكاليف المعدات الحربية أمرا مرهقا بالنسبة لدولة فقيرة كالمغرب فقدت كثيرا من مواردها المالية، «لذلك لم يكن من الممكن تحقيق أي نتائج ملموسة دون إيجاد وسيلة مضمونة وفي نفس الوقت مقبولة من طرف العامة»[64].

وفور إحداث ضريبة الإعانة والشروع في تطبيق المكس على أبواب المدن والأسواق ظهرت مساوئ هذه الجباية إذ تزايد الضغط على سواد الرعية من الفلاحين والحرفيين الذين تحملوا القسط الأكبر من المساهمات المادية وتعرضوا لأبشع أنواع التجاوزات والابتزاز والإجحاف من طرف القياد والعمال والجباة ، في حين كان المحميون والمخالطون يتهربون من الأداء بشتى الطرق، مما أفرغ هذه «الإعانة» من محتواها باعتبارها ضرورة يمليها الواجب الديني، وكان طبيعيا والحالة هذه أن يتعمق لدى العامة الشعور بالظلم والحيف والإحساس بالتمييز واللامساواة، فالمخزن لم يأخذ بعين الاعتبار الشروط والتحفظات التي أدلى بها الفقهاء المؤيدون لفرض هذه الجباية. ولم تراع إمكانيات الرعايا ومدى قدرتهم على التحمل[65].

لقد تسبب استمرار فرض ضريبة التوظيف والمعونة بعد وفاة السلطان محمد بن عبد الرحمان في توتير العلاقات بين السلطة المركزية والقبائل، كما أدت إلى قيام انتفاضات في بعض الحواضر كما هو الحال بالنسبة لثورة الدباغين أو ما يعرف «بعيطة بنيس» لدى أهل فاس، فقد ربط سكان فاس بين بيعة مولاي الحسن وإلغاء ضريبة المكس التي ألحقت ضررا كبيرا بهم، وبما أن السلطان رفض هذا الشرط فقد قامت فتنة كبيرة واضطرابات بالمدينة ولم يدخل مولاي الحسن إلا بقوة المدافع والكور، وقد كان علي السوسي السملالي أحد شهود العيان على جزء من أطوارها إذ تحدث

عنها بتفصيل في الفصل العاشر من كتابه «مطالع الحسن وإتباع السنن بطلوع راية مولانا الحسن»[66] كما وردت الحادثة في جل المصادر التي أرخت لهذه الفترة، ونجد تفاصيل أكثر عنها في «الاستقصا لدول المغرب الأقصى»[67]، و «الحلل البهية في ذكر ملوك الدولة العلوية..»[68]، وفي «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس»[69] وغيرها. فقد قاد أهل الدباغة بفاس سنة 1291هـ/1874م تمردا، وأعلنوا العصيان بسبب فرض ضريبة المكوس عليهم[70]، فنهبوا دار أمين المستفاد الحاج محمد بن المدني بنيس، وأخذوا أمتعته وأمواله بعد طلبهم إياه للقتل، وكان قد تمكن من الاختفاء[71]، واستولوا على الطرقات والمنارات وأطلقوا الرصاص، فأمر السلطان الجند بشن الغارات، فرموهم بالقنابل والبارود والمدافع من كل ناحية[72]، وهدموا السور من جهة الطالعة بعد أن أغلق المتمردون الأبواب في وجه السلطان[73]، فأخذ الجند في النهب والقتل، فعظم الخطب واشتد الكرب، فوجه السلطان وزيره ليكف العساكر ويؤمن الناس من شرهم[74]، إلى أن رجعوا إلى الطاعة وأداء المكس، فسامحهم شفقة بهم وتعظيما لحرمة ضريح المولى إدريس[75]. وقد ذكر الفقيه علي السوسي السملالي أن السلطان المولى الحسن اتخذ سبيل العفو معهم فقد «أمر الفقيه محمد الصفار بأن يُبَرِّحَ في الناس والأعيان بالصفح، فَتَقِدَم العلماء إلى السلطان طالبين الأمان، ووبخهم السلطان وقال لهم : كيف تطمعون فيما فشلت فيه سواعد القبائل الكبرى (يقصد بذلك رغبتهم إسقاط ضريبة المُكس)، ثم أثنى على علمهم وتمنى أن يكون أحدهم، وقد عفا عن الجميع على عادة السلف من صلحاء الأمة مع من ظلمهم على حد تعبير علي السوسي السملالي في كتابه «مطالع الحسن..»[76].

ب-«رسالة في الاستعداد للجهاد»[77]: كتبها سنة 1308هـ، مطلعها «هَذا ما أجاب به الفقير المعترف بالتقصير علي بن محمد السوسي السملالي في الجواب عن الإمام فيمن قيل(الصواب قال) له مالك لم تجاهد في سبيل رب العالمين.... وبعد فقد سألني بعض الفضلاء عن سلطان وهو مولانا الحسن أبى أن يتقدم على

الجهاد إلا بعد كمال الاستعداد لأن الحرب الذي بين أيدينا قد باد وصار كالعدم، والواجب على الإمام ألا يتقدم إلا بعد أن يتعلم الحرب الذي حدث فيأتي بمثله وإن أمكن له الزيادة ليتحقق الغلب فليفعل. قال ارسطا طاليس: ليس من السياسة أن يقف الإمام عند ما اعتاده من الحروب بل كلما حدث حرب أحدث مثله وإن أمكن له الزيادة ليتحقق الغلب فهو أكمل ...فأجبت سؤالهم بعد الاستخارة وقلت ما كان عرفا وعادة يقدم على ما شهدت به البينات .. وعليه إن شهدت البينة العادلة أننا نغلب الروم، والعرف والعادة يشهدان بأننا لا نغلبهم ، لأن المعروف أن كل من صادفه الروم من ملوك الدنيا العظام إلا غلبهم وأخذ بلدهم وصار يجري في الشعاب والأودية، وعليه فمن يأمر بالجهاد إنما أراد خراب الدين وقطعه بالكلية كما وقع لمن هو أشد بأسا وأشد تنكيلا »[78] .

لقد اعتبر علي السوسي السملالي أن الجهاد ومواجهة الأجنبي في ظل الضعف العسكري المغربي هلاكا وخسرانا بقوله « الجهاد في العدو وفي سبيل رب العالمين.. فوق قدرتنا لعدم الاستعداد بالقوة والأسباب...والسبب المعتاد للجهَاد هو العسكر بشرطه المتقدم فإذا سار لنا الجهاد قبل القدرة عليه هلكنا فوجب إذا عقلا ونقلا وطبعاً وعادة (تقوية) العسكر لأن ما لا يتم الواجب إلا بهِ فهو واجب»[79] .فجعل إصلاح السلطان الحسن الجيش على الطريقة العصرية شرطا أساسيا للقيام بفريضة الجهاد، فالواجب على الإمام ألا يتقدم للجهاد إلا بعد أن يتعلم الحرب الذي حدث لدى الأجانب فيأتي بمثله وإن أمكن له الزيادة عليه ليتحقق النصر فله ذلك، فما حدث من غلبة الأجناس الأوربيين «أوجبت عَلى الأمير (السلطان الحسن) أن يحدث العسكر... على نصهِ ووصفه وكيفهِ وكمهِ ليدفع به العدو الكافر ويخرج المسْلمُون بذلك عن ورطة غضب الله في الفرار من الزّحفِ، إذ الجهاد واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[80] ، فالجهاد عند علي السوسي السملالي له شرط والشرط مفقود وهو بالإضافة إلى كمال الاستعداد[81] اتفاق الأمة بحيث يأتون للعدو ولا مخالف، وهنا يتساءل علي السوسي »أين هذا الاتفاق الذي أمر الله به في المغرب بل ولا هو

في مدينة ولا في مدشر ولا في بيت، فتجد البيـت أهلها مختلفون فمنهم من كان مع صبـانية ومنهم من كان على ديـن النكلـيز ومنهم من كان على دين افرانصيـص وهي دار واحدة (الإشارة إلى تنامي ظاهرة المحميين) »[82].

لذلك وأمام الوضعية الصعبة التي أصبح عليها المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد استحسن الفقيه علي السملالي اجتهاد السلطان الحسن الأول الذي أبطل الجهاد بقوله «أن لا يقف المالك في كل ما أحدثه الزّمان من المعْضلات والأمور المعلقة كالعَدد الأصم عَلى ما عرفهُ من سنتهِ بل كلمَا حدث أمر لم يُعْهد عنده أحدث لهُ ما يناسبهُ قوة ورغبة ورهبة. قَالَ ارسطَا طاليس من صحة السيّاسة أن يكون الإنسان مع الأيام كلمّا ظهرت لهُ سنة عَمل لهَا بحسَب مَا تقتضيه السياسة»[83]، وقد رد على من انتقد سياسة المولى الحسن في هذا الجانب معتبرا أن الأحكام تختلف باختلاف المقاصد فلا يفتى فيها بأقوال العلماء ولا بروايات الرواة بل الأمر يعود لاجتهاد الإمام وفق الظروف والأعراف والفوائد[84].فانتصر لرأي السلطان بقوله» ولما رأى رحمه الله (أي السلطان الحسن) أن الأمر بالجهاد يؤدي إلى مفسدة عظيمة تؤدي إلى قطع الدين فقال بعض الشر أهون من بعض وارتكاب أخف الضررين لازم لأن جده ووالده أمراه بالجهاد ..إذ ذاك الزمان لم يعرف أحد الميل إلى الكفار ولا حماية تذكر.. إن الجهاد في زماننا ليس بفرض عين وإن قال به الجم الغفير من علمائنا لأن العلة تدور مع معلولها وجودا وعدما »[85]. و قد خلص العروي إلى أن هذا الموقف كان أكثر واقعية لكنه كان صعب التبرير والتأصيل من الناحية الدينية، ومع ذلك فقد دعمته السلطة لأنه كان يتماشى مع سياستها، إذ اقتنع المخزن بأن الجهاد لم يعد الحل في المواجهة[86].

لا بديل عن الخروج من ورطة الهوان عند علي السملالي إلا بالاستعداد للجهاد عن طريق تحديث الجيش وتقويته وهو ما عبر عنه بقوله «ولمّا ظهر نقص القطر المغربي وعيبهم بعدم القدرة على ملاقاة العدو الكافر لعدم الاستعداد لهُ بقوة

العسَاكر التي بهَا تقع الغلبة والمماثلة فإذا لم يقم القطر بإزالة عيبهِ بإقامة العسَاكر فقد رضي بالمذلة والهَوان وهذه المعرة هيَ التي حملت إمامنا مولانا الحسَن عَلى العسكر وإقامته.... إن الأمر إذا لم يُبْن على قواعده ففساده أقرب من صلاحه »[87]. من هنا كانت رؤية السوسي السملالي للإصلاح شمولية فلا يجب أن « يغتر الإمام بغلبته لقبيلة بل يُعتد بقتال قوم من ورائهم خندق من النار » [88] فلزم « تعلم حرفة المدفع و الكور وغيْرهما »[89]. فلا بد إذن من تحديث وسائل الحرب ومواكبة تطورها المستمر، وأنه من الأولى قبل إعلان الجهاد « تكوين جيش قار يقاتل بالصف و لا يفرّق لا في وقت القتال ولا في غيره وإلا ضاعت فائدة العسكر »[90].

وقد عبر السوسي السملالي عن حزن السلطان أكثر من غيره لضعف الجيش المغربي بقوله » والله ما أحس بألم هوان هزيمة العدو للمغرب إلا إمامنا مولانا الحسن أيده الله وأظفره بأعداء الله »[91].

يبدو لنا من خلال القضايا العديدة التي تناولها علي السملالي أنه كان عالما مشاركا جمع بين الأساس الفقهي الأصولي والأساس السياسي التاريخي، فالمواضيع الفقهية التي تناولها وتطرق إليها والفتاوى التي أصدرها تُبين بوضوح أنه تلقى تكوينا متينا خلال مسيرته التعليمية.

* * *

هوامـــش :

1. محمد بن جعفر الكتاني(سلوة الأنفاس بمن أقبر من العلماء و الصلحاء بفاس) ج3، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وحمزة الكتاني ومحمد حمزة الكتاني، دار الثقافة، البيضاء، الطبعة الأولى، 2004، ص479 /العباس بن إبراهيم (الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام) ج9، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية الرباط، 1980، ص262.
2. علي السوسي السملالي(نهاية المقول في تنبيه همم الفحول بأصح معقول ومنقول)السفر الأول مخطوط بالخزانة العامة 15ج ص19.
3. علي السوسي السملالي(عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة) مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط ضمن مجموع تحت رقم د 480،ص163.
4. علي السوسي السملالي »نهاية المقول في تنبيه همم الفحول« مخ.س ص428/و »عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة»مخ.س.ص 163.
5. تزوج من أسرة الصقليين بفاس حسب ما ذكره علي بن محمد السوسي السملالي بنفسه في كتابه مطالع السعادة بقوله(وأما نسب الصقليين قد ذكره بالصحة من أئمة المغرب غير واحد كابن الخطيب وابن خلدون وابن عرفة وابن الأحمد والسكاكي ومع ذلك لما تزوجت منهم بنتا وقفت على أصدقة كثيرة والرسوم فلم تخل من إسقاط بعض الرجال وغير ذلك من التخليط) مخطوط بالخزانة الملكية رقم 11445ص214،كما أشار إلى هذا الزواج أيضا في كتابه الآخر (منتهى النقول ومشتهى العقول)مخطوط بالمكتبة الوطنية .633د.ص211.
6. لم ينسبه الكتاني في سلوة الأنفاس إلى السملاليين. بل ذكره باسم علي بن محمد السوسي الفاسي.
7. عبد السلام بن سودة(دليل مؤرخ المغرب الأقصى) دار الكتاب،البيضاء 1960، الجزء1، ص 156 .
8. محمد عبد الله عنان، عبد العالي لمدبر، محمد سعيد حنشي(فهارس الخزانة الحسنية الجزء الثاني فهرس قسم التاريخ والرحلات والإجازات) إشراف ومراجعة أحمد شوقي بنبين، المطبعة الملكية الرباط،2000، ص953.
9. عبد السلام بن سودة (إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع) ضمن موسوعة أعلام المغرب لمحمد حجي، الجزء 8ص2796.
10. الكتاني(سلوة الأنفاس...) مص. س، ج3 ص479.

11. العباس بن إبراهيم (الإعلام بمن حل...) مص.س، ج 9 ص262.
12. محمد المنوني(المصادر العربية لتاريخ المغرب الفترة المعاصرة 1930/1790م)الجزء الثاني 1410/1989 مطبعة فضالة،المحمدية.ص96.
13. عبد السلام بن سودة (إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع) مص.س. ص2796.
14. العباس بن إبراهيم (الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام) ج9، مص.س. ص262.
15. الكتاني(سلوة الأنفاس..) ج3،مص.س. ص479 /العباس بن إبراهيم (الإعلام ...) ج9،مص.س. ص262.
16. حتى إن اسمه ارتبط بها فيسمى نزيل فاس.
17. الكتاني (سلوة الأنفاس..) ج.3 مص.س، ص 479 ، وقد نقل العباس بن إبراهيم ترجمة علي السوسي السملالي من سلوة الأنفاس بالحرف الواحد، ولم يضف إليها أي شيء. راجع: (الإعلام بمن حل..) ج9.مص.س، ص262.
18. يقول علي السوسي السملالي في كتابه منتهى النقول ومشتهى العقول(ومنهم الفقيه سيدي احمد المرنيسي وقد انتفع الناس بقراءته في الفقه والنحو يقتصر على التحصيل ولا يسرد المتون بل يعبر عن معناها وله تآليف منها ما هو مكتمل ومنها ما لم يكتمل) مخ.س.ص178.
19. لقد كان علي بن محمد السوسي السملالي في مهمة سلطانية إلى فكيك خلال هذه السنة. فقد أرسله السلطان الحسن إلى قصر المعيز للوقوف على إجراءات الصلح بين بعض فرق آيت برا وبين فرق أولاد زيان بن محمد وأولاد قرواش وأولاد مبارك بن زيان من صف آيت حاج نتج عنه قتلى ونهب مواشي بين الجانبين وقام هذا الفقيه اثر وصوله بعقد اجتماع حضره القائد المخزني احمد بن مبارك البخاري وطرفي النزاع وفقهاء القصر تقرر فيه انه يلتزم فرقاء النزاع بتعويض الخسائر فيما بينهم وأن يؤدي الطرف الذي يخرق الاتفاق ذعيرة مالية قدرها «ألفا ريال دورو» وقد حرر نص الاتفاق بتاريخ أواسط شعبان1304ه/ابريل1887م من طرف العدل الفقيه ع.القادر بن عبد الجليل.
- راجع تفاصيل الصلح عند :احمد مزيان(المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي خلال القرن19م (1912-1845م)ج2 أطروحة دكتوراه، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية2007م. ص136/ وأيضا: احمد مزيان(فجيج مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845- 1903)رسالة نال بها دبلوم الدراسات العليا بالرباط في التاريخ سنة 1986.مطبعة فجر السعادة 1988.ص 386.

20. عبد السلام بن احمد اللجائي العمراني (المفاخر العلية والدرر السنية في الدولة العلوية الحسنية) ج2،دراسة وتحقيق محمد الدريدي، إشراف علال الخديمي. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مرقونة، السنة الجامعية 2004 /2005 م.ص 661.

21. يقول علي السوسي السملالي في كتابه منتهى النقول ومشتهى العقول (ومنهم شيخ الإسلام في المشرق والمغرب وشيخ الكل في الكل شيخ الملوك قرأت عليه القزويني و أبدى معان يعجز عن إدراكها يوسف السكاكي سيدي المهدي بن سيدي الطالب بن سودة المري وله تآلف عديدة في الفقه والنحو والمنطق..وأولاده فقهاء نبلاء كلهم يدرسون في حياته سيدي التودي وسيدي عبد السلام وسيدي المكي وسيدي محمد)مخ.س.ص178.

22. علي بن محمد السوسي السملالي (مطالع الحسن وإتباع السنن..) مخ.س، ص 99.

23. للمزيد حول أهم النوازل والفتاوى الفقهية بالمغرب خلال القرن التاسع عشر. يراجع:

-إسماعيل الحسني (مقاصد الشريعة والاجتهاد في المغرب الحديث) الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء الثرات سلسلة دراسات وأبحاث، دار الأمان للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 2010/1431.

-لحسن اليوبي(الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،المغرب،1998.

-محمد المنوني(المصادر العربية لتاريخ المغرب الفترة المعاصرة 1790-1930) الجزء الثاني،م.س. من ص138الى ص151.

محمد المنوني (مظاهر يقظة المغرب الحديث) جزأين، الجمعية المغربية للتأليف، طبع بالاشتراك بين دار الغرب الإسلامي ببيروت وشركة النشر والتوزيع المدارس الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1405هـ 1980. الطباعة دار صادر بيروت.

24. نالت «أجوبة التسولي على مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد » اهتمام الباحثين الأكاديميين في الدول العربية فقد حققت في المغرب والجزائر وتونس وغيرها. أغلبها مرقون، طبع منها تحقيق عبد اللطيف أحمد الشخي محمد صالح، دار الغرب الإسلامي،بيروت، الطبعة الأولى 1996.

25ـ تعود فتاوى تكفير القبائل إلى أواسط القرن السابع عشر، ولم يكن عددها يتجاوز آنذاك سبعة، ثم تعددت مع مرور الزمن كما يشير السملالي حتى أصبحت اثنا عشر فتوى، ويدل تعددها على مدى اهتمام فقهاء فاس بهذا الموضوع حتى أواخر القرن 19م. وارتكزت هذه الفتاوى على كون القبائل التي تمارس اللصوصية وقطع الطريق قبائل محاربة وكافرة يقدم جهادها على جهاد الروم من الكفار. انظر:بشأن هذه الفتاوى عبد الرحمان المودن(البوادي المغربية قبل الاستعمار قبائل ايناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،سلسلة رسائل وأطروحات رقم 25 مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء،الطبعة الأولى 1995،صص365 إلى 368 وأيضا: أجوبة علماء فاس في شان قبيلة الحياينة الخزانة الوطنية ك3270. وفي موضوع أحكام الحرابة في الآداب السلطانية والسياسة الشرعية انظر عبد الأحد السبتي(بين الزطاط وقاطع الطريق أمن الطرق قبل الاستعمار)دار توبقال للنشر، البيضاء، الطبعة الأولى 2009، من ص 101 إلى ص 110.

26ـ حول العقوبة في المال وبالمال انظر: جواب محمد العربي الفاسي .مخطوط بالخزانة الحسنية رقم 9566/ توجد منه نسخة بالخزانة العامة تحت رقم4246 ضمن مجموع/ عبد الخالق احمدون(من نوازل التعزيرات بالمغرب في القرنين 10 و11هـ جواب أبي حامد محمد العربي الفاسي في مسألة العقوبة بالمال أنموذجا) مجلة كلية الآداب بتطوان، جامعة عبد الملك السعدي، العدد 9، سنة1999م.من ص 27الى ص80./ مطالع الأنام ومنجاة الخواص والعوام في رد إباحة إغرام ذوي الجنايات والإجرام زيادة على ما شرع الله من الحدود والأحكام للقاضي أبي العباس احمد الشماع الهنتاتي(ت833ه)دراسة وتحقيق الدكتور عبد الخالق أحمدون.منشورات الأوقاف الإسلامية. وقد ناقش علي السوسي السملالي في رسالته «حول الجهاد» وفي كتابه (عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة) جواب محمد العربي الفاسي وخالفه في رأيه. يقول علي السوسي «والعقوبة بالمال جائزة كما عند العلماء خلافا لما عند الفاسي فلا تغتر به، وقبائل المغرب كلهم غاصبون وسراق ومحاربون ويجوز فيهم للإمام ما قاله الله في الذي يسعى في الأرض الفساد. «رسالة في الجهاد» مخ.س. ص 18.

27ـ احمد العماري (مشكلة الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر، واستغلالها في المخطط الفرنسي للسيطرة على المغرب من حوالي 1830 إلى حوالي 1902 من خلال رحلة علي

السوسي »منتهى النقول«: القسم الخاص بالحدود مع تحقيق النص).دبلوم لنيل الدراسات العليا في التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، إشراف محمد زنيبر، موسم 1981.ص 1087/1086 .

28ـ المديح النبوي أو النبويات هو كل أدب يتعلق بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم و الأمداح النبوية بحر لا ساحل له نثرا ونظما للمزيد عن الموضوع يراجع: سعيد بن الأحرش(بردة البوصيري بالمغرب والأندلس خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين أثارها العلمية وشروحها الأدبية) في الأصل أطروحة دكتوراه الدولة نوقشت بتطوان.منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1419ه/1998.

29ـ أكد الأستاذ عبد الله العروي أن الكتابات التي الفت عن السلطان الحسن الأول وبأمر منه هي كتب مفتعلة دعت إليها الحاجة الملحة، فالغرض الحقيقي من ورائها استهدف إخفاء وطمس حقيقة مظاهر عدم شعبية السلطان آنذاك، فالمخزن كان يعيش في عزلة حقيقية بعيدا كل البعد عن مصالح العامة. انظر: abdallah laroui Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912) .Centre culture arabe, Casablanca ,3éme édition-2009.p300

ومن أهم هذه الكتب »الدر المنتخب في بعض مآثر أمير المؤمنين مولانا الحسن «لأحمد بن الحاج السلمي و »البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن «لمحمد بن إبراهيم السباعي،بالإضافة إلى كتب علي السملالي »مطالع السعادة «و »مطالع الحسن«

30ـ بخصوص الطرق والزوايا خلال فترة القرن التاسع عشر يراجع: احمد بوكاوي(الإحياء والتجديد الصوفي في المغرب 1912-1790/1330-1204) منشورات الأوقاف والشؤون الاسلامية2006/1427/ احمد بن محمد عمالك (جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي1907-1642/1325-1052) منشورات الأوقاف والشؤون الإسلامية 2006/1427./عبد المجيد الصغير (إشكالية إصلاح الفكر الصوفي)دار الآفاق الجديدة المغرب، الطبعة الثانية، 1994/1415، مطبعة النجاح الجديدة.

31ـ إبراهيم حركات (المغرب عبر التاريخ) الجزء الثالث، مر.س، ص553.

32ـ علي بن محمد السوسي السملالي (مطالع الحسن....)مخ.س. ص24/ 152.

33ـ الكتاني(سلوة الأنفاس..) ج3، مص.س ص479/ العباس بن إبراهيم (الإعلام بمن حل بمراكش واغمات..)ج9 مص.س ص262.

34ـ علي بن محمد السوسي السملالي (مطالع الحسن....) مخ.س. ص152.

35ـ إبراهيم حركات (المغرب عبر التاريخ) الجزء الثالث، مر.س. ص 565/566.

36ـ Jean- louis Miege (le Maroc et l'Europe. 1822-1906) tom3, les difficultés, editions la porte, imprimerie el Maàrif Al Jadida, rabat , 1401/1996. p112.

37ـ Michel Abitbol (Histoire du Maroc) Perrin, 2009.p357.

38ـ علي بن محمد السوسي السملالي(مطالع الحسن وإتباع السنن وطلوع راية مولانا الحسن) دراسة وتخريج خاليد فؤاد طحطح، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة، إشراف الدكتور عبد الحفيظ حمان. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان ، موسم 2006/2007م.

39ـ Histoire de règne du sultan du Maroc moulai el Hasan, terminée en 1299/1882 par Ali .b. Mohammed es-susi –samlali et- tazkurte.

وقد عرف أيضا هذا الكتاب بعنوان «تأليف في الدولة الحسنية»وقد ذكر ليفي بروفنصال أن السوسي السملالي قد فرغ من تأليفه سنة 1299م/1882 والصواب سنة1874/1291، مما يعني أنه لم يطلع عليه، إذ لم يُشِر إليه في كتابه الشهير (مؤرخو الشرفاء).وقد ذكره أيضا عبد الله بن العباس الجيراري في كتابه (التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين) باسم «تاريخ الدولة الحسنية» وأشار إلى أنه مفقود. راجع:

Levi. provençal (les manuscrits arabes de rabat, bibliothèque général de protectorat français au Maroc, premier série)publication de l'institut hauts-études Marocaines. Paris éditions Ernst Leroux, 1921.

وأيضا :العلامة المرحوم عبد الله بن العباس الجراري (التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين من 1900 إلى 1972) ،منشورات النادي الجراري مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط الطبعة الأولى 1406/1985، ص422. وقد ذكر فيه أن علي السملالي توفي سنة 1910م.

40 علي بن محمد السوسي السملالي (مطالع الحسن وإتباع السنن وطلوع راية مولانا الحسن) مخ.س .ص5.

41ـ يقول السملالي »واعلم أنني وقفت على فتاوى من علماء فاس بتكفير لحيين(الحياينة)أي بحيث تباح دماؤهم وأموالهم ويخلدون في النار منها فتاوى اثنا عشر عالما أفتوا بتكفير

لحيينا في أيام مولانا سليمان وفتاوى أخرى في أيام مولاي إسماعيل» انظر الباب الثامن من كتاب (مطالع الحسن...) لعلي السوسي السملالي، دراسة وتخريج خاليد فؤاد طحطح،م.س.ص79 من المخطوط.

42. توجد نسخة واحدة فقط منه بالخزانة الحسنية تحت رقم 11445، ألفه علي بن محمد السوسي السملالي وقد أطلق المؤلف على هذا الكتاب أسماء عدة ومختلفة ، أوردناها جميعا في المتن أعلاه تجنبا للاعتقاد بأنها كتب متفرقة. ونشير إلى أن هذا المؤلف(بالفتح) لم يستثمر في أي أبحاث مكتوبة رغم أهميته، لذلك ارتأينا الاشتغال على دراسته إخراجا وتحقيقا بغرض نشره وتمكين الباحثين من استثماره. والعمل في مراحله الأخيرة.

43. يقول علي السملالي في خاتمة رحلته منتهى النقول ومشتهى العقول (وان أردت ما هو ابسط فعليك بكتاب السياسة لنا فانه فيه الشفاء للجانبين.) مخطوط بالخزانة العامة رقم 633 د.ص216/217.

44. علي بن محمد السوسي السملالي(مطالع السعادة في فلك سياسة الرئاسة) مخ.س.ص14و15.

45. لم يشر ليفي بروفنصال الى «كتاب مطالع السعادة في فلك سياسة الرئاسة»، كما لم يذكره الأستاذ العروي في أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه ضمن مؤلفات علي السوسي السملالي. وقد بحث عنه الأستاذ احمد العماري فلم يعثر عليه، وقد توصل إلى أنه غير موجود بهذا الاسم أصلا، ورجح أنه ليس إلا اسما آخر لكتابه «مطالع الحسن وإتباع السنن بطلوع راية مولانا الحسن»، ويعود سبب ذلك إلى عدم إدراج الكتاب ضمن فهرسة الخزانة الحسنية إلا في مرحلة متأخرة.

46. مخطوط في ثلاث نسخ، نسختين بالخزانة الملكية، ونسخة في المكتبة الوطنية بالرباط. وقد وقفت على هذه النسخ جميعا. منها واحدة بخط المؤلف، وأخرى بقلم الحسين بن عبد المولى كتبها سنة1306 بخط مذهب واضح وجميل في 231 صفحة وهي النسخة التي أهديت للسلطان الحسن الأول. ومنها نسخة خالية من اسم الناسخ وهي الموجودة بالخزانة الوطنية، حقق الأستاذ احمد العماري الجزء المتعلق بالرحلة في أطروحته لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بالرباط. وقد اعتمد على نسخة الخزانة الوطنية فقط.

47. روس إ دان (المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي- المواجهة المغربية للامبريالية الفرنسية 1912-1881) ترجمة احمد بوحسن، مراجعة عبد الأحد السبتي، منشورات زاوية مطبعة المعارف الجديدة الرباط، الطبعة الأولى 2006،ص 181-180.

48. للمزيد حول أهداف هذه البعثة يراجع: روس .إ.دان (المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي..) م.س صص 186-184/ احمد العماري (مشكلة الحدود الشرقية ..)م.س/محمد مزيان

(المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي..)ج 2.صص127-96/ محمد مزيان (فجيج مساهمة في دراسة المجتمع ..)م.س.ص 359/391/393/413/512.

49. مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم 2420.يقع في 61 ورقة. عارية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ.

50. نجوى التجكاني «أحكام الضرائب في الفقه الإسلامي وتطبيقاتها المعاصرة مع دراسة وتحقيق لكتاب الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة لعلي السوسي السملالي» رسالة دكتوراه، إشراف د.محمد الروكي.نوقشت سنة 2003م بكلية الآداب بالرباط، شعبة الدراسات الإسلامية ص178.

51. وقع التفكير في إحياء ذكرى الزيارة التاريخية التي قام بها السلطان الحسن لشمال المغرب من طرف زعماء الحركة الوطنية سنة 1352ه/1933م بمناسبة مرور 45 سنة عليها كرد فعل على ذكرى استعمارية أقامتها إدارة اسبانيا بتطوان، فقد قرر المقيم العام الاسباني خوان موليس تنظيم أسبوع الاركون من 15 إلى 21 ماي 1933 رغبة منه في تذكير المغاربة بهزيمتهم في حرب تطوان سنة 1860م. لكن السلطات الاسبانية لم تسمح بإقامة ذكرى ترمز إلى وحدة البلاد. وبعد مرور خمس سنوات تمكنوا من تحقيق ذلك. راجع: «الوثائق الوطنية» مجلة تعنى بنشر وثائق الحركة الوطنية المدير محمد بن عزوز حكيم العدد2 تطوان يونيو 1988، مطبعة الساحل. الرباط ص21/28.

52. حول تفاصيل هذه الرحلة يراجع: محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي (الحلل البهية في ذكر ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية) الجزء2.دراسة وتحقيق ادريس بوهليلة. منشورات وزارة الأوقاف والشـؤون الإسلامية،المملكة العربية، 2005. من ص 184 إلى 190./ عبد الرحمان بن زيدان(إتحاف أعلام الناس...) الجزء 2، م.س.ص305ص-307./أبو العباس احمد بن خالد الناصري (الاستقصا..) الجزء9، م.س.ص201.

53. توجد نسخة واحدة من المخطوط بالمكتبة الوطنية(480 د) و رقمها الترتيبي (535) .حققته نجوى التجكاني في إطار أطروحتها لنيل شهادة الدكتوراه ، وهذه الدراسة تعتبر من أهم الأبحاث التي أنجزت عن نوازل الفقيه العالم السوسي السملالي.

54. ذكر الأستاذ عبد الله العروي أن الاستفتاء الجديد الذي أطلقه السلطان الحسن بشان ضريبة المعونة لم يتجاوب معه العلماء. لأنهم رفضوا الدخول في اللعبة معه من جديد، فقد حملوه مسؤولية اتخاذ القرار بناءا على ما توفر لديه من الأجوبة السابقة للعلماء عن استفتاء والده

حول نفس الموضوع سنة 1860 على اثر هزيمة تطوان. وقد أكد العروي أن عزوف العلماء عن الجواب دليل على مدى العجز والعزلة التي أصبح عليها المخزن الحسني. راجع: .Abdallah laroui , Les Origines sociales ... Op.cit.p294

55. عبد السلام بنسودة (دليل مؤرخي المغرب الأقصى) ج 2، مصدر سابق، ص492.

56. «ندوة «الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر»مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء 1986/1407 من ص 9 إلى ص111.

57. تجنب السؤال الرسمي أي إشارة للفظة مكس واستعمل بدلها كلمة المعونة وبني السؤال على لفظة حكم الضرورة والمصلحة التي هي تقوية الجيش، وسبق أن استفتى السلطان محمد بن عبد الرحمان العلماء في مدى شرعية هذه الضريبة: انظر محمد داوود (تاريخ تطوان)مجلد 5 من ص99 و118.

58. علي بن محمد السوسي السملالي(عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة) مخ.س ص13.

59. خصص علي السوسي السملالي الفصل الأول من مقدمة كتاب عناية الاستعانة لبيان معاني المصالح المرسلة باعتبارها دليلا على جواز التوظيف والمعونة راجع: المخطوط من ص 8 إلى ص 13.

60. نفسه ص88/65/56/.

61. أمر السلطان عبد الرحمان ومن بعده ابنه محمد الأغنياء بدفع ما فضل من أموالهم لتأدية غرامة حرب تطوان لكن لم يجتمع ما يسد الحاجيات فعاد إلى فرض ضريبة المعونة والتوظيف. انظر السوسي السملالي (عناية الاستعانة..) ص43.وبخصوص تأثير هذه الغرامة على وضعية المغرب راجع: مقال جرمان عياش «جوانب من الأزمة المالية بالمغرب بعد الغزو الاسباني سنة 1860» ضمن (دراسات في تاريخ المغرب)الشركة المغربية للناشرين الطبعة الأولى،1986-1406 ،صص105-80.

62. احمد التوفيق (المجتمع المغربي في القرن 19 اينولتان 1912-1850)منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، أطروحات ورسائل رقم 1الطبعة الثانية. 1983/1403م. ص556.

63. للمزيد من التفاصيل انظر: علي المحمدي(المخزن والنظام) أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تحت إشراف د. عبد الله العروي، موسم

1997/1998 من ص 144 إلى ص 155/ عبد الأحد السبتي(النفوذ وصراعاته في مجتمع فاس من القرن السابع عشر حتى بداية القرن العشرين) دار توبقال للنشر الطبعة الأولى 2007 من ص 93 إلى ص107.

64. Abdallah laroui (Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain...) Op.cit. p290.

65. محمد كنبيب (المحميون) منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة نصوص بحوث ودراسات رقم 47. منشورات باب أنفا، دار أبي رقراق للطباعة والنشر بالرباط، الطبعة الاولى1432ه/2011م،مر.ص 126.

66. للمزيد من التفاصيل انظر الباب العاشر من كتاب علي بن محمد السوسي السملالي(مطالع الحسن ..) مخطوط سابق. صص 93 /144.

67. احمد بن خالد الناصري (الاستقصا لدول المغرب الأقصى) الجزء 3. تحقيـــق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997، من ص 137 إلى ص 140.

68. محمد المشرفي (الحلل البهية في ذكر ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية) الجزء2.مص.س. ص 125/126.

69. عبد الرحمان ابن زيدان (إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس) ج3، ط1، المطبعة الوطنية، الرباط,193، ص277.

70. أحمد الناصري (الاستقصا.)ج3 م.س،ص137/ محمد بن مصطفى المشرفي(الحلل البهية...) ج2، مص.س، ص125.

71. اختبأ محمد بن المدني بنيس في إحدى الحمامات قبل أن ينتقل إلى الاستحرام بضريح المولى ادرس. انظر الناصري (الاستقصا ..)ج3، مص.س، ص 138/ المشرفي (الحلل البهية....) ج2، مص.س، ص126.

72. الطاهر بلقاسم العماري المراكشي (نشاط الأذهان وتحفة الإخوان في استنباطات ومناقب مولانا الحسن)مخطوط بالخزانة الملكية تحت رقم 1707، ص26/ احمد الناصري (الاستقصا....)ج3، مص.س، ص 137 /محمد المشرفي (الحلل البهية..) مص.س. ص127.

73. عبد الرحمان ابن زيدان (إتحاف أعلام الناس ..) الجزء الثالث، م.س. ص280 .

74. محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي (الحلل البهية...) مص.س، ص128 / الناصري (الاستقصاء...)ج3، مص.س،ص138.

75 ـ نفسه ص128.

76. عنون السملالي الباب العاشر من (مطالع الحسن..) «في دخول المولى الحسن لفاس وما أظهر الله على يديه من الرحمة والشفقة على أهل الجنايات» وقد ذكر أن «أهل الدباغة ومن انضم إليهم، قد عادوا إلى الفتنة بعد أن كان السلطان قد سامح أهل فاس، وأشار إلى أن الأوباش والغوغاء هم من خرجوا عن الطاعة، أما أهل الفضل من فاس فما زالوا على العهد، ولما علم السلطان بتفاصيل الحادثة من حاشيته أرسل 500 من العساكر، وفي ساعتين انتصروا وحازوا ثلث فاس».

77. مخطوط بالخزانة الحسنية رقم 30. في 8 صفحات. ضمن مجموع من ص12 إلى ص 19.

78. علي بن محمد السوسي السملالي (رسالة في الجهاد) مخطوط بالخزانة الملكية رقم30، ص 12/ 13.

79. علي بن محمد السوسي السملالي(مطالع السعادة في فلك سياسة الرئاسة) مخ.س.ص 383.

80. نفسه ص 368.

81. علي بن محمد السوسي السملالي(رسالة في الجهاد) مخ.س. ص13.

82. نفسه ص 14. وعن ظاهرة المحميين يراجع: محمد كنبيب(المحميون) م.س./عبد الوهاب ابن منصور(مشكلة الحماية، من نشأتها إلى مؤتمر مدريد سنة 1880)، المطبعة الملكية، الرباط، 1977./مصطفى بوشعراء(الاستيطان والحماية بالمغرب 1863-1894) المطبعة الملكية،الرباط،1984.

83. نفسه ص 368- 369.

84. علي بن محمد السملالي (رسالة في الجهاد) مخطوط بالخزانة الملكية تحت رقم 30 ص 13و14.

85. علي السملالي(منتهى النقول ومشتهى العقول) ضمن مجموع بالمكتبة الوطنية تحت رقم د 633. ص 19و20 ابتداء من أول المخطوط.

86. Abdallah laroui (Les Origines sociales ....) Op.cit. pp 307-310.

87. نفسه ص 369.

88. علي بن محمد السوسي السملالي(مطالع السعادة في فلك سياسة الرئاسة) م.س، ص 384.

89. نفسه. ص 384.

90. علي بن محمد السوسي السملالي(رسالة في الجهاد) مخطوط بالخزانة الحسنية رقم 30 ص 16. وعن موضوع إصلاح الجيش المغربي يراجع: مصطفى الشابي (الجيش المغربي في القرن التاسع عشر 1830-1912)الطبعة الأولى. 2008 المطبعة والوراقة الوطنية .مراكش. بدعم من الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة. أصل الكتاب أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ، سجلها سنة 1981 ونوقشت سنة 2001/ ثريا برادة (الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة رسائل وأطروحات رقم 37.مطبعة النجاح الجديدة بالبيضاء.أطروحة لنيل دبلوم الدراسات العليا نوقشت سنة 1984 إشراف د. بوطالب/وأيضا (الإصلاحات العسكرية بالمغرب 1844-1912)تأليف وتعريب بهيجة سيمو، منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، سلسلة رسائل وأطروحات1، المطبعة الملكية،الرباط1421/2000. في الأصل أطروحة لنيل الدكتوراة سنة 1978 بجامعة السوربون تحت عنوان:les réformes militaires au Maroc de 1844 à 1912

91. علي بن محمد السوسي السملالي «مطالع السعادة في فلك سياسة الرئاسة» مخ.س.ص 973.

* * *

أصول أسباب الرقي الحقيقي لأحمد بن محمد الصبيحي

حسن الصادقي*

ساهم علماء المغرب وساسته في إيجاد حلول وقتية لبعض المشاكل التي تخبطت فيها البلاد كل من زاويته الخاصة، وحسب فهمه وإمكانياته ومكانته في المجتمع.

وظهر رجال همهم خروج المغرب من الجمود والإنغلاق ، والإنخراط في مسار حداثي ، أسوة ببعض الدول المشرقية التي كانت أحسن حال من المغرب، وكذا بالدول الأوربية وخاصة فرنسا التي احتك بها بصفة مباشرة بعد عقد الحماية.

وقد تنوعت كتابات هؤلاء الرجال، بحسب معرفتهم لواقع المغرب بعد استعماره، ومن هاته الكتابات رسالة أصول أسباب الرقي الحقيقي ، إلى أهل المغرب الأقصى في نصيحتهم بالأخذ بالأسباب الصحيحة للوصول الى بحبوحة المجد الشامخ. لأحمد الصبيحي.

التعريف بالمؤلف : هو احمد بن محمد الصبيحي السلوي، المزداد بسلا في صفر 1300 الموافق ليناير 1882. والمتوفى بها في محرم 1363/ يناير1944.

درس الصبيحي علوم عصره بعد ان حفظ القرآن الكريم، على يد فقهاء أمثال احمد البارودي ومحمد بريطل والقاضي السدراتي ومحمد الزموري ومحمد المنصوري واحمد الجريري ورحل الى فاس للإستزادة من العلم ومكث بها اربع سنوات.

* أستاذ باحث، معهد الدراسات الإفريقية ـ جامعة محمد الخامس السويسي، الرباط

أهله علمه وتكوينه الى تقلد عدة مناصب اذ اشتغل في باشوية سلا ،والعدالة في مرسى العدوتين كما تولى خطة الحسبة، ومارس التدريس في مسجد احمد حجي بسلا كما عين ناظرا لأحباس آسفي وبعدها نظارة الأحباس الكبرى واحباس الحرمين الشريفين بمكناس (1938-1922) وناظرا لأحباس مدينة سلا[1].

مؤلفاتــه : ترك احمد الصبيحي مجموعة من التآليف المتنوعة التي نجد منها : الرحلة المكية والرحلة إلى مصر، وباكورة الزبدة في تاريخ آسفي وعبدة ، وصلحاء آسفي وعبدة، وعيسى بن عمر وفظائعه، وكتاب بعض العادات المغربية وأمثال العجائز، ومعجم إرجاع الدارج في المغرب إلى حظيرة أصله العربي، ومجموعة كناشات علمية مختلفة المضمون. وكذا كتاب أصول أسباب الرقي وقد نشرت بعض مؤلفاته مؤخرا.

مع احمد الصبيحي في كتابه :

أدلى الصبيحي بدلوه هو الآخر في موضوع الإصلاح والتحديث والرقي والتقدم، وهو موضوع شغل الخاصة التي تنافس علماؤها في إبداء الرأي والإسهام في إعطاء النصح لأولي الأمر ولمن بيدهم الحل والعقد، وكذا لباقي المغاربة.وعنون كتابه ب «أصول أسباب الرقي الحقيقي و قد فرغ من تحريره في ثاني شعبان عام 1335هـ «وقد طبع طبعة حجرية بفاس بدون تاريخ.

وقد ركز الصبيحي على جملة من الجوانب التي تؤدي بالمغرب إلى الرقي والازدهار حسب نظره وهي جوانب متنوعة شملت بالتتابع جوانب الدين والعلم والفلاحة والتجارة والصناعة والاقتصاد .

ومن الملاحظ أن تركيز الصبيحي على هاته الجوانب هو نتيجة ثقافته وممارسته العلمية والعملية ، فثقافته ثقافة عربية إسلامية دينية، إلى جانب كونه تقلد مهام دنيوية في باشوية سلا وفي مرساها وعمل في الحسبة، وناظرا للأحباس في آسفي وسلا ومكناس.

1ـ الدين الإسلامي : يلاحظ الصبيحي أن عيب المسلمين هو الأخذ بالقشور من الدين دون اللباب وإهمال العمل بالكتاب وغرر حكمه و آدابه.

وعلى علماء المغرب شرح فلسفة الدين وتبيين حكمه في دروس ليلية في التفسير والحديث ، "حتى تتنور الأفكار ويتميز للعوام الطيب من الخبيث ويدعونا من بدع ومنكرات يرتكبونها بمرأى ومسمع من علماء الإسلام وحاملي شريعته عليه الصلاة والسلام فيظنها الأرباوين من الدين وليست منه في شئ فيعيبوننا والحق معهم ".

ويقدم الصبيحي أمثلة لذلك «...فتهشيم الرأس مثلا ما انزل الله به من سلطان واكل الدم المسفوح حرام بنص القرآن»[2].

ولصد العامة عن مثل هذه الأفعال المنافية للدين، على الخاصة من علماء وخطباء ووعاظ وكتاب أن يقوموا بدورهم المنوط بهم لشرح حقيقة الدين الإسلامي، ومنافاته لكل البدع المستحدثة، والحث على محاسن الأخلاق.

2ـ العلــــم : وهو الجانب الثاني المهم تبعا لقوله تعالى في كتابه الحكيم ((هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون)).وهو أجناس فهناك العلم الشرعي ومنه التفسير والحديث والتوحيد والفقه والتصوف.والعلم الإلهي،والعلم الطبيعي من طب وتشريح وبيطرة وفلاحة، والعلم الرياضي من هندسة وحساب وهيئة وموسيقى والعلم الإستعماري مثل الجغرافيا وعلم الحقوق من تاريخ المعاهدات و شرائع الأمم.

ويلاحظ الصبيحي ان المغاربة مقصرون في كثير من العلوم كالتفسير والحديث وهناك إهمال لعلم الطب وبقية العلوم الطبيعية والرياضية والاستعمارية إلا في النادر عكس ما فعله الأوربيون الذين اعتنوا بهاته العلوم وكذا ما قام به علماء الإسلام في الماضي.

وعليه وحسب نظره فعلى المغاربة تعلم سائر العلوم إلى جانب العلوم الشرعية «ولنكفر سيئة تقصيرنا السابق في حقها بذلك ولنكرع من حياضها الدافقة في

اقرب المسالك فيها سادت الأمم وصارت اليوم في الطريق المدني الأقوم»[3]، وتبقى العلوم الشرعية هي الأساس وتأتي بعدها العلوم الطبيعية والرياضية.

التعليم في القرويين : لا بد من إدخال تنظيمات جديدة للقرويين مع إدخال العلوم السابقة الذكر «لمسيس الحاجة اليها في هذا العصر الحالي مع نفعها في كثير من العلوم الشرعية أيضا » [4].

ملاحظاته عن تأخر التعليم في المغرب: يلاحظ الصبيحي ان هناك مجموعة من الأسباب :

- منها عدم التنظيم في حضور الدروس والمواد المدرسة في المسجد بالنسبة للطالب المبتدئ.
- عدم استعداد الطلبة المبتدئين للمناقشات اللفظية والإحتمالات العقلية ،ويرى أن الصواب هو الإقراء وتصحيح المتن وحل المشكل.
- ومنها كذلك طريقة الحفظ والإلقاء دون الفهم «مع أن المقصود من التعليم إنما هو حصول صورة الشيء في عقل المتعلم فلا بد للمتعلم من ان يبرهن لمعلمه على ذلك الحصول...... وقد رأينا أنموذج التعليم بالشرق وهكذا تفهُم وتفهيم فترى التلامذة محيطين بالشيخ وهو كواحد منهم هذا يستوضحه المسألة وهذا يستشكل لفظة والشيخ يجيب والكتاب بين يديه يبرهن على عدم التكلف للحفظ والتصنع في التدريس»[5] .

ويضيف قائلا «فينبغي لنا معشر المغاربة أن نسهل للعلم أسبابه ونفتح للتعليم الصحيح أبوابه ، ولنا في الأمل الوطيد في وزارة المعارف الجليلة أن تعيد تنظيم التعليم جانبا وتتم قاعدة نيل كل مدرس ما يستحقه بطريق الأهلية والوصف رتبة وراتبا فذلك مما ينشط أعظم تنشيط في هذا المقام وعلى الله بلوغ المرام»[6].

3ـ الفلاحــةـ: وهي جانب ثالث من أسباب الرقي الحقيقي للمغرب، إذ من المعلوم أن المغرب من البلدان الفلاحية يشتهر بأراضيه الغنية وتربته الجيدة وأنهاره الجارية.

ويرى الصبيحي أنه للنهوض بالفلاحة المغربية هناك جملة من النصائح يجب إتباعها وهي:

- على المغاربة «إحياء الفلاحة علما وعملا ومد يد المساعدة من ذوي اليسار والثروة لكل بصير بها قصير اليد فيها» فهي ثروة البلاد وبها ترخص معيشة السكان و يصدرون الفائض منها إلى الخارج و يحصلون على الربح نتيجة ذلك.

- الإقتباس من معارف أوربا فيما يتعلق بتطوير الفلاحة في المغرب .

يقول الصبيحي في ذلك «وقد رأينا بعض المعمرين منهم بمغربنا ينتجون النتائج الباهرة والأرض هي الأرض وانما السبب الأصلي هو العلم كما جربنا بعض معلوماتهم في زبر الأشجار والدالية ورش الأخيرة ببعض المركبات الكثيرة الموجودة تقوية لها.... كما رأينا أيضا فائدة بعض الآلات الأورباوية كالمحاريث التي تشق الأرض الشق التام فينقلع ما يكون بها من عروق مضرة... فما علينا أيضا إذا استعملنا جميع ما أفاده العلم والتجربة حتى تحصل النتيجة المرغوبة»[7].

- تأسيس مدارس فلاحية ابتدائية للمغاربة «يتخرج منها تلاميذ مهذبون يبثون معلوماتهم في وطنهم العزيز»[8].

- طلب الإرشاد الفلاحي من الإدارة الفلاحية الفرنسية.

- تنظيم الري في المغرب حتى يحصل الإنتفاع بمياه الأودية الكثيرة، واعتماد السقي في الزراعة.

4. التجـــارة : وهي تأتي بعد الفلاحة والإنتاج الفلاحي والصناعي ، وما يتطلبه ذلك من تصريف المنتوج الفائض من حبوب وماشية ومنتجات صناعية ،وبيع وشراء من اجل الربح. والتجارة تنفع البائع والمشتري.

وعليه يرى الصبيحي أنه يلزم الأخذ بجملة من الأسباب منها :

- الخبرة الزائدة في التجارة ،خاصة بعد أن عرف المغرب كثرة وسائلها البرية والبحرية،ووجود منافسة تجارية.
- اختيار المكان والزمان المناسبين، ومعرفة الرغبات والأذواق (ما يحتاجه السوق من سلع).
- استغلال عدم مزاحمة التجار المغاربة ومساعدة الحكومة الفرنسية للتجار.
- انتهاز الفرص والجرأة، وزيارة المعارض العمومية والأسواق التجارية.
- الاهتمام بالصنائع الوطنية والبحث عن أسواق داخلية وخارجية لتصريف المنتجات.
- عقد شراكات بين الموسرين من التجار والصناع البسطاء المهرة لتشجيعهم ، حتى تحصل الاستفادة العامة للجانبين وللوطن.

5ـ الصناعـــة : وهي تحتاج إلى جملة من العلوم «وكانت بعض الصنائع محتاجة إلى أشياء من علم الهندسة كصناعة البناء المحتاجة في تسوية الحيطان إلى الوزن وفي إجراء المياه الى أخذ الإرتفاع وفي جر الأثقال ورفعها الى الهندام»[9] ويضيف الصبيحي قائلا أن الصناعة ولا شك مهنة جليلة ينفع الإنسان بها نفسه ووطنه، ويحبه الله بها لذلك....وإذا كان للفكر في الصناعة دخل عظيم فكان المصنوع في غاية اللطف والتناسب والاتقان [10].

ومن المعلوم أن المغرب عرف عبر التاريخ ،بإتقان أهله لعدة صنائع ،وبجودة مصنوعاته اليدوية وتعددها وتنوعها، وشهرتها في الداخل والخارج، ومن الصنائع التي ذكرها الصبيحي في كتابه لافتا نظر المغاربة إليها :

- صناعة البناء وفروعه من نقش الحجر وتخريمه بمدينة سلا.

- تسطير الجبس وتزويقه بمدينتي فاس ومكناس.
- صناعة النجارة سيما الخرط في الموائد والمرافع والمكاتب ومحامل الكتب بسلا.
- صناعة عيدان الطرب وترصيع الموائد وغيرها بالصويرة .
- صناعة الزرابي بالرباط والدار البيضاء، وفي قبيلة اكلاوة وقبيلة ابن السبع.
- صناعة الحنابل والحصر بمدينة سلا.
- صناعة الزليج بمدينة فاس.
- صناعة الثياب الحريرية الرفيعة والحزم الحريرية والمذهبة بفاس.
- صناعة تجليد الكتب بفاس.
- صناعة الأواني الفخارية المزدجة بفاس .
- صناعة تسطير اللوح وتزويقه بالذهب وأنواع الصبغ بفاس ومكناس ومراكش.
- الصناعات الجلدية بمراكش.
- صناعة رقم الجلد بالحرير والذهب في سروج ومناطق ونعال للنساء بفاس ومراكش وسلا .
- صناعة رقم الثياب بالحرير بفاس وسلا والرباط.
- صناعة الحلي بسوس والصويرة وفاس .
- صناعة أواني النحاس والصفر بفاس ومراكش وتارودانت .
- صناعة الفخار بآسفي .

ويرى الصبيحي أن الحكومة الفرنسية الحامية اهتمت بالصنائع المذكورة وذلك بإنشاء إدارة خاصة، مدارس ودكاكين خاصة بها.

نصائح الصبيحي للصناع المغاربة :

- بذل الجهل في الإتقان والمحافظة على الذوق المغربي وأصالة الصنعة المغربية.

- تخفيض أثمان المنتجات الصناعية والقناعة بالربح القليل مع البيع الكثير.

وإذا ما اتبع الصانع المغربي نصائح الصبيحي، من إتقان وأصالة وخفض الأثمان، فإن ذلك سيؤدي إلى نتائج ايجابية تتمثل في إقبال الأجانب على السلع المغربية اليدوية،التي تنافسها السلع الأجنبية المصنوعة بالآلة، وبدورها ستنافس سلعا أجنبية أخرى.

وبذلك يتحقق المطلوب والغاية من هاته المنافسة برجحان المنتوج المغربي في الأسواق الأوربية:

«ورجاؤنا مع ذلك أن تحل الزرابي الرباطية مثلا محل الزرابي الفارسية بأوربا والحصر السلاوية محل الحصر الصينية بها ، وهكذا تحيا الصناعات ويكون للمغرب وأهله منها ربح كبير وسمعة طيبة»[11].

انتقاده للمشتري المغربي:

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الصبيحي ينتقد إقبال المغاربة على المصنوعات الأجنبية العادية،ذات البهرجة الزائلة، ويهملون المصنوعات الوطنية الجيدة والمتقنة قائلا :

«فمثلا الزرابي من الأمور المؤكدة عندنا في زينة البيوت فلم نقبل على الطرز الأجنبي وندع النمط المغربي مع أنه لو لم يكن في ذلك إلا إحياء الصناعة الوطنية وتعيش اهلها منها لكان كافيا ، كيف والذوق المغربي فيها لا باس به والصوف صافية والصبغة غير زائلة وفق الله الجميع بجاه النبي الشفيع»[12].

ويختم الصبيحي نظرته للصناعة ببيتين هما:

علم وليدك أولا ما يجتنبـــي   منه الكياسة والنبالة والشرف
ثم اجتهد بعد القراءة والكتـا   بة أن يزاول متقنا بعض الحرف

6ـ الاقتصـاد : قول انه القصد في الأمر أي التوسط فيها وعدم سلوك طرفي الإفراط والتفريط ، يقول الله تعالى ((والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكانوا بين ذلك قواما)).

ولاحظ الصبيحي أن المغاربة مسرفون ويتكلفون ما لا يطيقونه و هذا يؤدي إلى عواقب وخيمة في المستقبل حيث يعيشون في ضيق وضنك.

ويعطي الصبيحي مثالا لإسراف المغاربة متمثلا في :" أمر شورة البيت في الزواج بسلا وغيرها فإن والد الزوجة نراه يستفرغ فيه غاية جهده ويبذل فيه ما عسى أن يكون بيده بل يبيع أصله وعقاره في سبيل إلباس باب البيت العشرة وأكثر من الأزر الحريرية وغيرها وكسوة الحيطان وعمارة فضاء البيت وفراغه بمضارب ومساند ومخاد بعضها فوق بعض تحتوي على قناطير من الصوف وعمارة صناديق بالثياب.. ....مع أنه لا حاجة تدعو الى كل ذلك غير الفخفخة الفارغة والإعجاب الباطل وان يقال فلان اخرج في شورة ابنته ... وكان الأولى في ذلك الإقتصاد والإقتصار على قدر الحاجة[13].

أهمية الإقتصاد عند الصبيحي ونصائحه :

ـ الإقتصاد أصل من أصول أسباب الرقي الحقيقي للمغاربة

- ينصح الصبيحي المغاربة قائلا : «فعلينا أن نقتصد في كل أمر يمكن فيه الإقتصاد ونصرف ما عسى أن يفضل بسببه في أمور تنفع في المعاش أو في المعاد »[14].

- على الأغنياء والوجهاء أن يكونوا قدوة للفقراء.

- عليهم ان يتخيروا الحلي أوالمجوهرات التي ينتفع بها دائما ،عوض الأثواب التي تبلى وتفقد قيمتها.

ويختم الصبيحي نصائحه للمغاربة بهاته الأبيات الشعرية قائلا :

بني الأوطان هبوا من رقـــاد	وجدوا في المعاش وفي المعاد
الى الدين القويم أخي المعالي	الى العلـم المبلـغ للرشـــاد
الى سعي بذي الدنيا لكسب	تزاحـم فيه أقـدام العبـــاد
فلاح في الفلاحة لاح لاكـــن	بعلـم واختـــبار واجتهـــاد
ولا تنس اتجـــارا واصطناعـا	ونهجا في مناهج الإقتصـاد
فذي أسبـــاب حق في تـــرق	على مرقى السعادة بالبـــلاد
عليها بالنواجـــد فلتعضوا	لكيلا تسقطوا بين الوهـــاد

وسيروا في مراقي العز عزما لكيما تبلغوا اقصى المراد

* * *

هوامش :

1. محمد حجي: معلمة المغرب الجزء 61 ص 8845 مطابع سلا
2. الصبيحي اصول اسباب الرقي ص 4 طبعة حجرية دون تاريخ
3. م س ص 51
4. ن م س ص 71
5. ن م س ص 81
6. ن م س ص 81
7. ن م س ص 02
8. ن م س ص 02
9. ن م س ص 42
10. ن م س ص 52
11. ن م س ص 82
12. ن م س ص 82
13. ن م س ص 03
14. ن م س ص 03

* * *

من الفكر التنويري الإصلاحي بالمغرب
أبو بكر زنيبر وقضية إصلاح التعليم

فائزة البوكيلي*

مدخل: لمحة عن الحياة الثقافية في عهد الحماية

لم تكن رياح «الحداثة» التي هبت على المغرب في بداية القرن العشرين لتمر دون اهتزاز في الواقع التقليدي للدولة والمجتمع المغربي. فقد أحدثت صدمة عنيفة طرحت كثيراً من الأسئلة الحارقة والملحة دون أن يتمكن هذا الواقع المتخلف من إحداث السياقات الضرورية لوضع الإجابات المناسبة. وفي هذا الصدد، وعلى حين غرة، وجدت النخبة المثقفة المغربية نفسها مكرهة على مجاراة الواقع الجديد بالانخراط في أفق الإصلاح وإعادة النظر في كل مكونات المجتمع. وقد لقي الاهتمام بالتعليم حظاً وافراً من جهود واجتهادات المفكرين الإصلاحيين المغاربة. فقد اقتنعوا جميعاً أن النهوض بالتعليم بشقيه التقليدي المتمثل في القرويين والعصري المتمثل في المدرسة الحديثة هو السبيل الكفيل والمضمون للارتقاء بالمغرب والنهوض بأوضاعه. وقد انبرى كثير من هؤلاء السلفيين الإصلاحيين للبحث في الخلل والضعف والأسباب الكامنة وراء تخلف التعليم بغية تحديد المسارات والوسائل والأهداف. ولم يكن العلامة أبو بكر زنيبر ليتخلف عن الركب. فقد انخرط بتفان وموضوعية في الإحاطة بالمسألة التعليمية.

* أستاذة باحثة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، المحمدية.

وُلد الفقيه المصلح أبو بكر زنيبر (سنة 1300 هـ/ 1800 م) ونشأ في عدوة سلا في بيئة عرفت بزخم علمي وديني وأدبي قل نظيره في مدن مغرب القرن التاسع عشر. فقد استفادت هذه المدينة من وجود عدد هائل من العلماء المحليين أو الوافدين الذين أثروا حقل المعرفة والعلوم الإسلامية. كما نالت حظها من غزارة وعطاء علماء موجودين بعدوة الرباط في إطار مهام رسمية ومن بينهم أسماء شامخة نذكر منها الشيخ أبي شعيب الدكالي والعلامة المختار السوسي ومحمد الحجوي[1]. لم يخرج تكوينه عن المألوف في عصره، حيث كان تكويناً تقليدياً بدأ بحفظ القرآن ثم مختصر خليل فالمرشد المعين والعاصمية فالألفية للإمام ابن مالك[2]. بعد ملازمته لحلقات ودروس علماء العدوتين حيث أشبع رغباته في الأخذ من أصناف العلوم وفروعها، بدأ يقيم حلقاته الخاصة في إلقاء الدروس العلمية بمختلف جوامع سلا كالجامع الكبير وجامع للاّ الشهباء وجامع سيدي أحمد حجي وغيرها من المساجد[3]. ومما يفسر نبوغ هذا العلامة في وقت قياسي تتلمذه وأخذه عن علماء يشكلون مراجع في تخصصاتهم العلمية والأدبية والفقهية كأبي شعيب الدكالي، ومحمد بن العربي العلوي، والطيب بن المدني الناصري، وأحمد بن عبد القادر بن موسى السلوي، وأحمد بن علي الزعيمي، والقاضي الهاشمي ابن خضراء وآخرين[4]. أهلته نزاهته العلمية واستقامته لتولي مناصب هامة ساعدت في شحذ همته وعزيمته حتى غدا رمزاً إصلاحياً ومقاوماً للمستعمر وسياساته[5]. هكذا انصهرت عوامل عدة لتجعل من هذا الفقيه شخصية فذة تطرقت لقضايا ومشاكل وتحديات عرفها المغرب في فترة من أصعب وأحلك مراحل تاريخه. لكن بعزيمة راسخة وحصافة في الرأي انبرى أبو بكر زنيبر للإجابة عن كثير من الأسئلة الملحة التي طرحتها صدمة الحداثة وما تفرع عنها من قضايا تتعلق بالتعليم والتمدين والحضارة والفقه والأحوال الشخصية حيث حاول أن يضع الإجابات الصحيحة عن الأسئلة الدقيقة وفق نظرة تراعي التوفيق بين المكونات الأصلية الموروثة والمكونات الوضعية الوافدة من الغرب بهدف الإصلاح

واستنهاض الهمم ورد الاعتبار للسلف الصالح. ولا يفوتني هنا أن أشير إلى أن جل هذه التآليف والأعمال الجليلة لا تزال مخطوطات في حاجة إلى دراسة دقيقة لاستجلاء سمات الفكر الإصلاحي عند هذا الفقيه المصلح ومن خلاله طبيعة الفكر السائد في مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

إن اللافت هنا، هو أن المطلع على هذه المخطوطات سيشد انتباهه قضية واحدة مركزية في فكر أبي بكر زنيبر وهي القضية المتعلقة بإصلاح التعليم والنهوض بمؤسساته وبرامجه وأهدافه مع التركيز أيما تركيز على العناية بالفتيات المتعلمات، حيث يعتبر أن المدخل للحضارة والتمدن والرقي إلى مصاف الأمم الأخرى لن يتأتى إلا عن طريق التعليم والتنوير.

وقد أمكن الإحاطة بمواقف هذا الرجل الإصلاحي من مسألة التعليم انطلاقاً من مخطوطه الخاص بإصلاح التعليم[6]، وكذلك باعتماد مخطوطه الخاص ب «تعليم الفتاة» وهو عبارة عن محاضرة أهداها للملك الراحل محمد الخامس سنة 1362هـ/ 1943 م، وهو مخطوط موجود بالخزانة الحسنية تحت رقم 6094. ويعتبر المخطوطان مجهوداً عظيماً في مراجعة الحياة العلمية والتعليمية بالمغرب، بل مقاربة نادرة في تقييم مكامن الخلل ومواطن الضعف ووضوح ويقظة في وسائل معالجتها، إنها خارطة طريق وإرشاد في مداواة جروح الأمة عبر الإدراك والفهم والتحليل.

ورغبة منه في رصد وتتبع الحياة التعليمية بالمغرب حرص المؤلف أبو بكر زنيبر كل الحرص على استحضار عنصرين هامين: عدم تغييب العنصر الكرونولوجي ثم مراعاة البعد الموضوعاتي. وهكذا نجده يشخص الحالة التعليمية بالمغرب عبر مرحلتين:

أ - مرحلة ما قبل الحماية الفرنسية

بنظرة ثاقبة، وبعد ترو واستقصاء للحالة العلمية بالمغرب، استنتج أبو بكر زنيبر أن هذه المرحلة كانت مخيبة للآمال، ولم تحقق طموحات مغرب كان تواقاً للتململ والتطور الحديث رغبة منه في مجاراة الشرق والغرب[7]. ولعل من سمات هذه الخيبة وبواعثها الفشل الذريع الذي منيت به الرحلات أو البعثات العلمية إلى أوربا. فبحسرة كبيرة يقيم العلامة أبو بكر زنيبر الدليل على ذلك الفشل عن طريق المقارنة بين التجربة اليابانية والمغربية في هذا المجال. ففي الوقت الذي عادت به هذه البعثات إلى أوربا بكل الخير والمنفعة على الأمة اليابانية؛ حيث انفتحت على سائر العلوم والفنون والصناعات؛ وفق نهج يراعي التوفيق بين مظاهر الحضارة والمدنية الأوربية وعادات وثقافة اليابان الآسيوية، وبشكل غير منفر من الطباع والميول الدخيلة، مما خلق نوعاً من الانصهار الذكي بين المكونات المحلية والخارجية دون حرج أو تبرم، وذلك كان بمثابة أقوى السبل التي قادت إلى تقدم اليابان ورقيه إلى مصاف الأمم المتقدمة، كانت نتائج البعثات المغربية، بالمقابل، دون التوقعات المنتظرة بل مخيبة لآمال حتى السلطان المولى الحسن نفسه. فلم يكن لهذه البعثات أثر يذكر أو يستحق التنويه، بل تعدت سلبيتها وفشلها حدود المتوقع وتحولت إلى عنصر تخلف وشقاء وتأخر بسبب ذلك الجفاء والنفور المغربي من علوم أوربا ومعارفها. وكان من أهم نتائج هذا الاحتكاك غير الإيجابي اضطراب الحركة الفكرية في المغرب استمرت حتى بعد وفاة المولى الحسن. فقد تَمّ عمداً تشويه صورة تلك العلوم والتقليل من منافعها، بل وتشويهها في أوساط المغاربة حفاظاً على نمط فكري ظل سائداً لقرون وبالتالي عدم الأخذ بأسباب التحضر والارتقاء. وهو وضع، حسب العلامة زنيبر، غير مستساغ بالنظر إلى المعطيات الجغرافية التي تجعلنا الأقرب إلى أوربا من اليابان، وإن كان هذا القرب الجغرافي في حد ذاته نقمة على المغرب الذي ظل مستهدفاً ومجالاً للتجاذب قصد احتلاله واستعماره وبالتالي لم تكن القوى الأوربية

راغبة في إفادة المغرب بعلومها وفنونها قصد رهنه وتسهيل الهيمنة عليه[8]. وإذا كان للجغرافيا دور في هذا الإحباط، فإن الفقيه أبو بكر، وبلغة أشد وطأ، يعتبر أن الساسة المغاربة يتحملون القسط الأكبر من المسؤولية في ذلك. وذلك مرده إلى عدم وعيهم بنشأة نخبة قادرة على الانخراط في هذا المشروع الحضاري الهائل والانشغال بأمور أدت إلى انحرافات اجتماعية ناتجة عن اختلاط غير منتج بين العنصر المغربي القح والعناصر الإفريقية من الزنوج والحراطين. وإذا كان السلطان المولى الحسن على بينة من حسنات هذا المشروع القاضي بنهضة المغرب، فإن وزراءه وأعوانه كانوا متخاذلين ولم يقدموا العون المطلوب والمنتظر لإحقاق أسباب النجاح مع استثناء واحد يتجلى فيما كان يقوم به الفقيه محمد برگاش الرباطي بطنجة والذي يبرز مدى اهتمام الرجل وحرصه على إثبات وإنجاح هذه البعثات العلمية. وعلى كل، وكيف ما كانت أسباب هذه الكبوة، فإن العلامة أبو بكر يلخصها في أربعة :

1 – سوء الاختيار في من يحق بهم، حسب الكفاءة والقابلية، أن يكونوا أعضاءً في هذه البعثات. وهو ما يثبته مراجعة محمد برگاش للسلطان المولى الحسن في بعض من تَمّ اختيارهم.

2 – عدم الاكتراث بالسن المناسب للدراسة وغياب التوجيه المعقلن.

3 – قصر مدة الدراسة أي البعثة.

4 – لا مبالاة المسؤولين وعدم حرصهم على الاستفادة ممن نبغ من أعضاء هذه البعثات.

ب – مرحلة ما بعد الحماية الفرنسية

إن الطابع السائد في هذه المرحلة يتجاذبه صنفان من العلوم: علوم إسلامية قديمة، وعلوم حديثة لا قبل للمغاربة بها، وأهم ما يسجله العلامة أبو بكر بخصوص هذه المرحلة استمرار الإخفاق والحصيلة السلبية بحيث لم يتحقق من كلا العلوم – تقليدية وحديثة – ما كان مرجواً في صقل الهمم وتلطيف النفوس ونشر العلم، ولذلك ما يُبَرِّرُه

حسب العلامة زنيبر. ففيما يخص العلوم الإسلامية، استطاع الفقيه أبو بكر تحديد مواطن الضعف والخلل فيما يلي:

1 - اللامبالاة بهذه العلوم وعدم الاعتناء بها وبالمؤسسات الحاضنة لها، بحيث لم تحظ جامعة القرويين بالاهتمام اللازم باعتبارها رمزاً للعلوم الإسلامية وأساس ازدهارها وذلك بالانصراف إلى فتح المدارس النظامية التي تعنى بالعلوم الحديثة أو المركبة في مختلف أنحاء المغرب. ففي انتشار هذا النوع من المدارس إيذان بنهاية أو موت العلوم الإسلامية حسب ما تؤكده شهادات العديد من الكتاب الإصلاحيين المغاربة خلال الحماية[10].

ومرة أخرى، يحمل العلامة أبو بكر وزر ما حدث من جراء هذا الخلل إلى القيمين على شؤون الأمة من وزراء وعمال وقضاة وجباة وغيرهم[11].

2 - الإقبال الكبير الذي لقيته المدارس النظامية العربية والفرنسية من لدن العام والخاص، وذلك لاستحسان برامجها وجدتها واستهوائها النفوس بالدعاية والترغيب وتنوع النظم مما جعل الكثيرين من أبناء المغاربة يفضلونها ويهملون مؤسسات العلوم الإسلامية التقليدية. وقد أحدث عدم التوازن هذا في الاحتضان والتكوين وفجوة عميقة بين النمطين فكانت خسارة العلوم الإسلامية لقاعدة مهمة من دعائم وجودها واستمرارها.

3 - العلاقة الجدلية الموجودة بين مؤسسة التكوين الأصلي أي كلية القرويين والمؤسسات المتواجدة في كل أطراف البلاد. فكلما ارتقت هذه الكلية ارتقى معها الكل، وكلما انحطت وخبا نورها تداعت لها مختلف منابر التكوين المنتشرة في المغرب، وذلك مرده أن كل الساهرين على تدريس العلوم الإسلامية هم خريجو كلية القرويين. إذاً هناك علاقة سببية بين جودة التكوين ورقي القرويين وانهيار أو انحباس العلوم الإسلامية الموجودة في مناطق المغرب. وبما أن هذه الكلية لم تكن في هذه الفترة على أحسن حال فإن ذلك يفسر انحطاط العلوم الإسلامية وتدهورها.

هذا الانهيار الملحوظ والتراجع اللافت لحضور العلوم الإسلامية في النهج العلمي والتربوي سيدفع بالمسؤولين إلى وضع مخطط إصلاحي لمؤسسة القرويين خصوصاً بعدما تكاثرت الشكاوى وحالات التذمر. إلا أن هذا المخطط لم يف - حسب الفقيه زنيبر - بالغرض المطلوب نظراً بمحدودية الأفكار والرؤى التي لم تكن مناسبة لخصوصية المرحلة ولم ترق إلى قبول المفكرين المغاربة آنذاك. أما من جهة أخرى، فلأن المبادرة لم تكن صادقة، وكان الغرض منها تهدئة النفوس المضطربة وترضية الخواطر والمزاج العام الذي كان ناقماً على هذه المحصلة المخيبة، وهذا في وقت كانت القرويين في أمس الحاجة إلى إصلاح شامل وعميق يروم توفير شروط النهضة القائمة على اقتباس ما يلائم المغاربة ويوافق حالتهم الاجتماعية والسياسية[12].

وبالرغم من استصدار ظهيرين خاصين بإصلاح ما يمكن إصلاحه، فقد اعتبر العلامة أبو بكر أن الظهيرين كانا مقصرين في معالجة الوضعية من أساسها. فالظهير الأول الخاص بهيكل أو نظام الجامعة لم يضع الشروط الكافية لتحديد مهام القرويين وتنظيم شؤونها قصد النهوض بها. فالبعد التقني والفني الذي يروم تنظيم التعليم إلى أسلاك وتحديد عدد المدرسين وتقسيمهم إلى ابتدائي وثانوي وعالي لم يكن الأهم، بل الجوهر يقتضي النهوض بالعلوم التي تدرس في هذه الجامعة والعناية بها. فالبرهان كان على الكيف وليس على الكم مما كان يقتضي - حسب العلامة زنيبر - الإبقاء على هذه العلوم تابعة لوزارة العدلية بإحداث قسم خاص يشرف على هذه العلوم بشكل مستقل. كما كان ينبغي أن تخصص ميزانية خاصة لهذه الجامعة من ميزانية الأحباس أو ميزانية المعارف العمومية وذلك تيسيراً لمهمة القائم على هذه المهمة بصرف المخصصات لإنشاء الكتاتيب والمدارس الابتدائية والثانوية، وكذا العمل على تنشيط الدروس بجوامع القرى وكذلك تأصيلاً لمحاسبته. فالاعتمادات المالية المخصصة سنوياً لجامعة القرويين (سبعمائة ألف فرنك) غير كافية البتة لإحياء العلوم الإسلامية في ربوع المملكة. وخير دليل على ذلك، ما آل إليه وضع

اللغة العربية - لغة الظهائر والقرارات الوزارية - من إهمال ولا مبالاة وغياب لوزارة وإدارة وميزانية ومدارس تعنى بها وبتدريسها وتكوين مدرسيها. وكذلك ما آل إليه الحقل الديني في ارتباطها بعلوم الفقه والأصول والتفسير والحديث والسيرة والوعظ والإرشاد من عدم الاهتمام مما كان له بالغ الأثر على القائمين عليه الذين لم يبق لهم في هذا الشأن سوى الإسم والسطحية والجهل الذي لم يسلم منه حتى القضاة. وهو الأمر الذي يسري حتى على المدارس الفرنسية التي اعتمدت في برامجها دروساً في اللغة العربية والفقه وهي دروس خاصة بالأهالي. فالتحصيل بها لا يشفي الغليل، بحيث أن خريجي هذه المدارس، حتى الحاصلين منهم على الإجازة (ليصانص)، لا يفقهون شيئاً في العربية ولا في أبجديات الأمور الدينية. ومن ثَمّ وجب الاهتمام بالمعارف الإسلامية بمعالجة كلا الخللين؛ المالي والتربوي وذلك باعتماد ميزانية مهمة وعدم الاكتفاء بما يتم تحصيله في المدارس الفرنسية من تلك العلوم. فالارتكان والخنوع والقبول بما هو قائم يؤشر لا محالة في المستقبل القريب إلى انقراض هذه المعارف وزوالها أو زوال من يحسنها ويتقنها.

لكن، مع ذلك يبقى ذلك غير كاف ولابد من إجراءات مصاحبة كإحداث لجنة تفتيشية تقوم بالمراقبة والمتابعة لكل ما يقوم به المجلس الساهر على تنفيذ الأشغال وتطبيق البرامج وتوجيهات الظهائر والقرارات. كما يُعْهَد إلى هذه اللجنة بالبحث والتنقيب عن المدرسين ذوي الكفاءات وتتبع برامجهم التعليمية، وكذلك الاعتناء بالطلبة وبأحوالهم وبالمدارس والمؤسسات ومرافقها. كل هذا بغية الارتقاء بالنظام البيداغوجي الكفيل بتحقيق الغاية المنشودة اقتداءً بدول إسلامية أخرى كانت سباقة في تأهيل العلوم والمعارف الإسلامية وذلك وفق تصور يراعي الخصوصية المغربية في أبعادها المحلية والاجتماعية[13]. ومن شروط نهضة المعارف الإسلامية الحسم النهائي مع طابع المحلية والخصوصية الفاسية الذي تتصف به جامعة القرويين وذلك بجعلها جامعة المغاربة أي جامعة شعبية تربطها بالمغاربة وشائج العطف

والاحترام وتقدير الكفاءة بحيث يمكن لغير الفاسي أن يتقلد مهام ووظائف داخل هذه الجامعة إعمالاً بقاعدة التنافس الحر والمنتج الذي يمكن أن يرقى بها إلى مصاف الجامعات والمدارس العالمية مراعاة للصالح العام[14]. وإعمالاً كذلك لهذا المبدأ، لابد من اعتبار أساس الشهادة والتحصيل معياراً وحيداً في إسناد المسؤوليات والمناصب بحيث يتضح أن المتعلمين والمتنورين هم من يحصل على أدنى المهام وأقل الدرجات أهمية في سلك الدولة في حين ينعم الأميون بالمناصب الحساسة والمرموقة (الوزارة، رئاسة المجلسين بالأعتاب الشريفة، العمالة، الباشوية..). ومن ثَمّ، فإن الارتقاء اجتماعياً بهاته الفئة المتعلمة يمر، دون شك، حسب العلامة زنيبر، عبر «فتح الباب في هذه الحالة للمتخرجين من جامعة القرويين أولى من سده عنهم وفتحه في وجه الأميين ومن في عداد الأميين فإن ذلك يشجع الأمية والجهل ويحارب العلم ويرجع بالوطن إلى القهقري وإلى العصور المظلمة التي كان الجهل سائداً فيها على كل الطبقات»[15].

أما فيما يخص العلوم الحديثة والعصرية، فإن حظها من الفشل والإخفاق كان مثل حظ المعارف والعلوم الإسلامية وذلك مَرَدُّه لأسباب ثلاثة:

1 - غياب التآلف بين نفوس المغاربة وجدة هذه العلوم. فالإغراق في المحافظة والتشدد حيال كل دخيل، إضافة إلى الدعاية التي تروج لمعاداة هذه العلوم ولمن أتى بها كان سبباً في تعثرها، دون أن ننسى العراقيل التي لم تجعل من المدرسة النظامية مؤسسة ولوج سهل، وهو الأمر الذي فطن له القيمون على هذه المدارس حيث تَمّ اتخاذ إجراءات ضرورية وملموسة لتيسير الإقبال على هذه المدارس والاستئناس ببرامجها التي أصبح يراعى فيها التوفيق أو المزج بين البعد الديني الإسلامي والبعد العلمي الحديث. لكنها، مع ذلك، ظلت برامج دون المستوى لأنها لا تؤهل التلاميذ إلى التخصص العالي في العلوم وهو ما انعكس على قيمة الشهادة المحصل عليها بحيث لم يكن معترفا بها لا داخل المغرب ولا خارجه.

2 - الانقطاع المبكر عن التحصيل، بحيث كان أغلب المتعلمين يغادرون إلى الوظائف الحكومية بمجرد الحصول على الشهادة الابتدائية أو خلال الدراسة الثانوية دون الاكتراث بإنهاء المشوار الدراسي بتتويجه بشهادة عليا. ويعزى ذلك إلى حالة الفقر المستشري في أوساط المغاربة الذين كانوا يرون في أبنائهم مصدر رزق وعيش. وحتى من كانت له الرغبة في متابعة الدراسة، فإنه لا يقوى بسبب تكاليفيها التي لم تكن متوفرة لعامة المغاربة. ومن هنا، يحمل العلامة أبو بكر إدارة المعارف مسؤولية كبرى في التقصير والإهمال الذي لا يعود بالنفع. وبمنطق براغماتي، يرى هذا المصلح أنه لو تَمّ الاستثمار في هذه الشريحة من النجباء لكان فضل ذلك كبيراً على المغرب، ولكان وضعه أحسن بكثير مما كان عليه حتى حدود سنة 1940. هذا، دون إغفال الفراغ الهائل الذي أحدثه غياب المؤسسات الخيرية والجمعيات والأحزاب والنقابات التي تعنى بمجال التعليم والتربية. كما أن اللوم كل اللوم على الأحباس التي وقف ريعها للعناية بالتعليم لكن ذلك لم يحصل. ومن ثَمّ، فإن المسؤولية على الفشل شاملة ومتعددة المستويات. فنجاح المدرسة النظامية متوقف إذاً على الإمكانات المادية المسخرة للقيام بشؤونها، وهو أمر يستدعي المسؤولين لأن يقفوا وقفة إمعان وتبصر[16]. إن الحالة التي يوجد عليها التعليم العصري بالمغرب حينئذ أمر لا يستقيم بالنظر إلى خيرات البلاد وما توفره من عقول قادرة على إنجاح المشروع الذي يزاوج بين القديم والموروث وعناصر التحديث التي أتت بها الحماية.

3 - الانتشار المحدود لهذه المدارس النظامية عبر تراب المغرب بشكل يتناسب مع عدد سكانه. فقلة هذه المؤسسات بالمدن والحواضر والقرى أثر سلباً على دورها الذي ظل محدوداً ولا يوفر شروط النجاح والإقلاع[17].

إن ما قام به العلامة أبو بكر زنيبر من جرد دقيق لأسباب وعوامل فشل المنظومة العلمية والتعليمية لمغرب ما قبل وخلال الحماية ينم عن تشريح موضوعي لحالة الإخفاق العامة والضعف والشرود. وهو استنتاج يشكل لا محالة شبه إجماع عند

مفكري المغرب آنذاك. ورغبة منه في إقامة الحجة والدليل، لم يتوان هذا الفقيه المصلح في استحضار شهادات مختلفة تتقاطع جلها حول نتيجة مركزية، وهي الفشل والإحباط والخيبة.

ج - دور العلماء المغاربة وإلحاحهم في تدارك العطب عبر إدخال إصلاحات جوهرية على نظام التعليم الأهلي القديم والحديث

كان للعلامة زنيبر هدف واحد من خلال إشارته لهذه المسألة، وهو تبيان حالة ا الإجماع الوطني حول استعجالية إصلاح التعليم بشكليه القديم والعصري وإن كان هذا المنطق قد تَمّ وفق مستويين: مستوى صريح يتزعمه ثلة من العلماء الذين لا يخشون الجهر بمواقفهم وآراءهم على جرأتها وحدتها في النقد والتقييم؛ ثم مستوى أقل جرأة ويمثله البعض ممن كان يخشى على مركزه ووظيفته. ومنطلق هذا الإجماع كما يبينه العلامة زنيبر من خلال ما كتبته أسماء شامخة من المفكرين المغاربة أمثال محمد علال الفاسي، ومحمد الصديق الفاسي، ومحمد المهدي الحجوي، وعبد الكبير الفاسي، وعبد الرحمن بن زيدان العلوي وغيرهم، عن سالف عهد القرويين وما قامت به من مجهودات في التنوير والتأليف والتكوين، هو المقارنة بين حصيلة هذا الماضي المشرق والحاضر مما يستدعي ضرورة التدخل والإصلاح والنهوض بالقرويين وبالتالي بالمنظومة التعليمية. هذه الدعوة لم تكن موقوفة على المفكرين المغاربة، بل لها ما يشبهها في ملاحظة العديد من المفكرين غير المغاربة من مصريين وجزائريين، مما يظهر عمق الأزمة التعليمية وتداعياتها على سائر مناحي الحياة في مغرب الحماية[18]. وعلى هذا الأساس، فإن كل مبادرة إصلاحية في هذا المجال سيكون قصدها إنسانياً يروم التوجيه والعناية والعودة بهذه الجامعة إلى سابق عهدها بمكانة تليق بتاريخها. فمستقبلها رهين بإعادة إحيائها[19] والانكباب على وضعية المواد المدرسة بها وفنونها وملاءمة أطرها باعتبارها ركناً من أركان المدنية الإسلامية ومنارة يهتدى بها داخل المغرب وخارجه[20]. إن انبعاث القرويين من جديد لن يتأتى فقط بالإحاطة بجزء من تاريخها، بل بإحياء تاريخها

الروحي وعلومها التي اختفت من التدريس حتى تتمكن من القيام برسالتها على أتم وجه. وإذا كانت القرويين هي المرآة العاكسة لوضع الحاضرة الفاسية التي تعكس بدورها حال المغرب، فإن الحاجة ملحة للرقي بها إلى مراكز أقطاب العلم في بغداد ودمشق والقاهرة والزيتونة. وإذا كانت فاس قد عرفت بعض التململ على المستوى الاجتماعي والاقتصادي وتحسنت أحوالها، فإنها من الناحية العلمية أقرب إلى الكارثة بفعل ما آلت إليه القرويين من التدهور والانحلال الذي ينذر بالانهيار الكلي. هذا الركود انعكس على مستوى الكتابة والتأليف الذي لم يعد له أثر يذكر. ومن أهم أسباب ذلك قلة الكفاءة. فعلماء فاس لم يكونوا قلة، ولكن كان ينقصهم الإتقان والكمال من الناحية الفنية العلمية وكيفية التدريس. وهذه نقطة بالغة الأهمية يجب التنويه بها، إذ نادراً ما نجد مقاربة بهذا العمق الذي يراعي الأمور في جودتها وليس في شكلياتها. فهو يضع شروطاً دقيقة تؤطر العملية التربوية على مستوى هيئة التدريس أولاً ثم في علاقتها بالتلاميذ والطلبة ثانياً حتى يصبح للتكوين غاية ومعنى وهدف[21]. ولا يمكن تحقيق ذلك، حسب العلامة زنيبر، إلا باستحضار الطرق البيداغوجية المثلى التي ترقى بأساليب التدريس إلى مصاف التجربة الحديثة في المدارس النظامية. ومن شروط ذلك أيضاً المطالعة والقراءة الرصينة للكتب العصرية التي تساعد الملقن في تدارك العجز بتقليص هامش التقليد والارتواء من معين المعاصرة. وهذه دعوة صريحة من الفقيه زنيبر إلى التأليف في المناهج وطرق التدريس والبيداغوجيا وهو أمر لم يكن معتاداً عند علماء فاس وغيرهم. ولبلوغ هذا الهدف الأسمى في النهوض بالحركة العلمية والتعليمية وبالتالي الأخذ بأسباب رقي المغرب لابد وأن تتحمل كل الأطراف المتدخلة في أوراش الإصلاح المسؤولية كاملة إبراءاً للذمة أمام الوطن والتاريخ. وقد حدد أبو بكر زنيبر هذه الأطراف في أربعة :

1 - التشكيلة التربوية للقرويين بجميع عناصرها (علماء، مجلس تحسيني، أساتذة، وتلاميذ وموظفين).

2 -القائمون على النمط النظامي العصري (رؤساء، أساتذة، وغيرهم).

3 -الجهاز الحاضن أي الدولة عبر وضع النظم والتدخل وإصدار القوانين المهيكلة التي تروم تحسين المردودية في كل من القرويين والمدارس النظامية.

4 - المخزن الشريف باعتباره مصدر التدابير الفعالة في التنفيذ والتنظيم والتنشيط والملاءمة بين الواقع المغربي ومتطلبات الحماية.

ومما يستحق الإشارة هنا، أن الفقيه زنيبر يشترط نجاح هؤلاء المتدخلين في مسعاهم بمدى اعتمادهم مقاربة تشاركية، تبني وتتمم وتثمن بعيداً عن كل تجاذب أو تصادم لا يعود على المسألة التربوية بالنفع المرجو[22].

وفي هذا الباب، يمكن للمغرب أن يحذو حذو مصر التي نجحت في إعادة هيكلة التعليم بالأزهر عبر اعتماد مواد جديدة في التدريس كالرياضيات والحساب والهندسية والعلوم الطبيعية والكيماوية، وكذلك تحسين أدوات وأساليب التلقين وإن تطلب ذلك استصدار فتاوى من العلماء تجيز إدخال هذه العلوم لما لها من نفع على حياة الإنسان وتقدمه؛ كما حصل أيضاً عند علماء الأزهر الذين لم يكتفوا فقط بالإفتاء بل عضدوه بالشرح والتفسير والتنوير، لإقناع العامة بجدوى الأخذ بهذه العلوم والمعارف العصرية. وتحقيقاً لهذه الرغبة يقترح العلامة زنيبر أن تسلك القرويين طريقاً آخر غير السبيل الذي هي عليه الآن وذلك عبر تحسين حالة التدريس وفق شروط معينة يوجزها في :

1 - خلق إطار تحسيسي يقرب ويعرف بين مختلف مكونات الجامعة، من مجلس تحسيني وأساتذة وباقي علماء المغرب، بمعنى خلق إطار تنظيمي قادر على إحداث دينامية التواصل بين مختلف المهتمين بالعملية التربوية داخل جامعة القرويين وخارجها.

2 – أن يكون حضور العلوم الشرعية واللسانية وغيرها حضوراً قوياً في الامتحانات وأن يكون للقرويين اليد الطولى في التتبع والمراقبة.

3 – أن يُعْتَرَف لها بحق المراقبة أيضاً والإشراف على الأحكام الصادرة عن مجلس الاستئناف الشرعي تنبيهاً وتحذيراً من كل غفلة من لدن المجلس الأعلى في القفز على النصوص الشرعية أو تجاوزها.

4 – اعتماد مبدأ الشفافية بإعلان ونشر أحكام مجلس الاستئناف بمجلة الجامعة[23].

وحتى لا تبقى دعوته مجرد صرخة بلا صدى، نجد العلامة زنيبر يضع رهن التنفيذ ما يراه مناسباً للسعي وراء النهوض بالتعليم وبالأمة. واقتداءاً بالإصلاحيين المصريين، لم يذخر جهداً في استنهاض الهمم وفي بث الحماس في نفوس الآباء والشباب على حد سواء للإقبال على التعلم والتفقه وخاصة شباب العالم القروي[24].

إن الدعوة لإصلاح التعليم التقليدي بتطعيمه ببرامج ومناهج ومشارب علمية جديدة، لا تشكل عند زنيبر، وغيره من الإصلاحيين المغاربة، غاية في حد ذاتها قادرة على تحقيق الهدف المنشود، بل يجب أن تكون مكملة لجانب آخر من المنظومة الإصلاحية وهي المتعلقة بالتعليم الحديث. ويشدد العلامة زنيبر على أهمية النموذج المصري والسوري وغيرهما من أقطار الشرق العربي، ففيها من النماذج ما يصلح للحالة المغربية دون الاكتراث بتجارب أقطار إفريقيا الغربية[25]. وقد أوجز الفقيه زنيبر معالم وتصورات هذا الإصلاح في عريضة وجهها إلى الباشا الحاج بارگاش بمناسبة توليه رتبة مندوب المعارف بالأعتاب الشريفة. وقد تضمن هذا التقرير الجريء تشخيصاً لمواطن الخلل في نقصان المعارف بالمغرب، كما وضع لها الحلول المناسبة التي يمكن إجمالها فيما يلي:

1 - تعميم الكتاتيب بالحواضر والبوادي وفق طريقة نظامية تحاكي تجربة مصر وتونس، مع الحرص على مراعاة عادات البلاد في تسييرها وضبطها وإحاطتها بالعناية المادية والأدبية اللازمة عبر تخصيص منح ونفقات للتلاميذ.

2 - ضخ اعتمادات هامة وكافية في ميزانية التعليم الأهلي، حتى يمكن مضاعفة عدد المدارس في كل أنحاء المغرب سواء على المستوى الابتدائي أو الثانوي[26].

3 - الترخيص لغير المغاربة من الأجانب بإحداث مدارس ابتدائية وثانوية، في حالة عجز ميزانية المعارف القيام بهذه المهمة، أي خلق شراكات تمكن من نشر التعليم وتعميمه بغية القضاء على حياة البؤس السائدة بالمغرب اقتداءً بتجارب إسلامية وعربية أخرى (مصر، العراق، لبنان، الشام) نجحت في هذا المضمار بالاستعانة بالخبرة والتمويل الأجنبي.

4 - جعل وسائل الإعلام السمعية أي الراديو تحت التصرف المباشر لكل من إدارة المعارف وإدارة الأمور الأهلية للبث في جودة المحاضرات العلمية وقيمتها والدروس المختلفة، والخطب التي تشجع على نشر العلم وتفيد في التنوير مما يرقي الفكر ويوقظه.

5 - استحداث مجلة علمية ذات عمق ديني أخلاقي تحت تصرف ووصاية كلية القرويين، ويسند تحريرها لعلماء المغرب وشبابه على أن يكون توزيعها مجاناً لتصل إلى عمق المغرب بمدنه وبواديه وتؤلف بين أطباع الناس ومقتضيات العلم[27]، خصوصاً عند الشباب وعند الفتيات على وجه الخصوص[28]. وقد لقيت هذه المسألة من اهتمام الفقيه أبي بكر الشيء الكثير. فلا سبيل، حسب رأيه، للنهوض بوضعية الشباب والرجال دون الاهتمام بوضع الفتاة وذلك عبر تعليمها وتهذيبها وتثقيفها. فليس للجهل المستشري في أوساط الفتيات ما يبرره بالنظر إلى ماضي الأمة المغربية في سياقيه : الإسلامي العام والمحلي الخاص. فقد كان للفتاة المغربية في سالف الأزمان

شأن وحظ ومحاطة بعناية ربما تفوق العناية بالرجل وذلك بتربيتها على الحقوق والواجبات والفضيلة والعفة والوقار. لكن، وهذا أمر لا يمكن رده، لم تنل حظها من التعليم وإن لم تكن محرومة كلياً من العلم. بل، وعلى عكس ذلك، بلغت بعض النسوة في تاريخ الإسلام مبلغاً منقطع النظير في أمم أخرى على نحو ما يرويه المؤرخون والجغرافيون وأهل الأدب. فقد أبلين البلاء الحسن في القراءة ونظم الشعر وتلاوة القرآن[29]. ولا غرابة في ذلك، فقد أوجدت التربة الإسلامية المجال الخصب لتهذيبها وتعليمها كما ينص على ذلك الكتاب والسنة. بل كن في غابر زمن السلف الصالح مصدر علم وتفقه ونجابة[30]. فليس هناك إذاً ما يبرر اليوم هذا التقاعس في تعليم الفتاة لأنه ليس مضراً بها كما يظن العامة أو الذين نالوا قشور العلم فقط[31]. فالنبوغ لا يتوقف على نساء الشرق فقط، فمن المغربيات والأندلسيات من أبدعن في الأدب والعلوم بشتى أصنافها[32].

إن هذا الرصيد الزاخر من العطاء والبذل الذي ساهمت في إنجازه الكثيرات من نساء الشرق والمغرب، يضعنا، حسب العلامة أبو بكر، أمام تحدي أكبر، ألا هو الوصول بالمرأة المغربية إلى مصاف ومراتب المرأة في أوربا وما حققته من نجاحات سياسية واجتماعية نحن في أمس الحاجة إليها للإقلاع المرغوب فيه. وقد أفرد العلامة أبو بكر نماذج من الدعوات الإسلامية التي ارتفعت للمناداة بالارتقاء بالفتاة وتعليمها تحقيقاً للتكامل والكفاية والرقي[33]. لكنه يصر على أن يكون أساس ومنطلق وجوهر تعليمها مزيجاً من التربية الأخلاقية الصادقة المبنية على مبادئ الإسلام ومتطلبات العصر. وبهذا الخصوص، فإن العلامة زنيبر لا يمانع في إحداث لجنة تشرف على تعليم الفتاة وتنويرها والاعتناء بأحوالها وفقاً لنهج أخلاقي يقوم على شطب كل ما يتنافى مع قيم ديننا ولا يوافق أهواءنا وأهواء بناتنا، وكذلك مراجعة الكتب وتحيينها[34].

وفي الختام، سيكون من العبث القول بأننا ألممنا بشكل شامل بالأفكار النيرة لأبي بكر زنيبر في باب إصلاح التعليم. لقد قارب هذا المصلح ميداناً يستعصي حتى على المعاصرين الإلمام بإشكالياته وإكراهاته. وأهم ما يميز فكره بهذا الصدد تلك النظرة الموضوعية التي تنسلخ عن الذات في تحديد مواطن الخلل والضعف والإخفاق. كما يحدد الوسائل ويعددها بل ويتفنن في تفاصيلها دون أن يُغَيِّب الأهداف والمرامي والغايات. وبنظرة أقرب إلى الطرح الحديث منه إلى الطرح السلفي، يناقش العلامة أبو بكر مسألة إصلاح التعليم بالمغرب على عهد الحماية بمنطق الاستثمار ومنطق الربح والخسارة. إنه رهان يقتضي الانخراط الجدي والجريء قصد النهوض ليس فقط بالتعليم ومؤسساته وأطره وتلاميذه وتلميذاته، بل بالمجتمع كله قصد الارتقاء به إلى مصاف الأمم المتقدمة في الغرب أو مجاراة أمم إسلامية كانت سباقة في هذا المشروع وكانت حظوظ نجاحها أكبر من هامش إخفاقها. وانطلاقاً من هذا المنظور، نعتقد أن العلامة أبو بكر يقدم لنا اليوم نموذجاً رائعاً في كيفية رصد أمراض التعليم وتقييم حصيلة إنجازاته وتقويم انزلاقاته بالانكباب على مضامينه وبرامجه وبيداغوجيته بشكل يحقق تناسباً إيجابياً بين الوسائل والأهداف تحقيقاً للمصلحة ودرءاً للمفسدة.

* * *

هوامش :

1ـ البوكيلي (فائزة)، «جوانب من الفكر الإصلاحي بالمغرب في عهد الحماية: أبو بكر زنيبر ومؤلفه» جهود الإسلام في تمدين البشر وترقية الإنسانية «نموذجاً»، في «دور العلماء في المجتمعات الإسلامية»، منشورات كلية الآداب، المحمدية، سلسلة ندوات رقم 13، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001، ص. 141.

2ـ الجراري (عبد الله)، أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا، مطبعة الأمنية، الرباط، ج 2، ص. 266؛ ابن الحاج، علماء المغرب المعاصرون، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1984، ص. 15.

3ـ ابن الحاج، علماء المغرب...، ص. 16.

4ـ لبوكيلي (فائزة): «جوانب من الفكر الإصلاحي...»، ص. 142.

5ـ بن منصور (عبد الوهاب)، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، 1979، ج 1، ص. 269.

6ـ جاء هذا المخطوط استجابة لدعوة من الدكتور عمر فروخ مدير مجلة «الأمالي» (بيروت) الذي طلب من الشيخ أبي بكر زنيبر موافاته ببحث يشخص فيه «المشكلة العلمية بالمغرب وقضية القرويين». وهو مخطوط موجود في المكتبة الخاصة لعائلة الفقيه أبي بكر زنيبر.

7ـ «المشكلة العلمية بالمغرب وقضية القرويين»، مخطوط، ص. 5.

8ـ «المشكلة العلمية... «، مخطوط، ص. 6-7.

9ـ «المشكلة التعليمية... «، مخطوط، ص. 11-12.

10ـ في هذا الصدد، يعتبر العلامة أبو بكر شهادات محمد الحجوي في الجزء الرابع من كتابه «الفكر السامي» مرجعية نادرة في تشخيص وضعية العلوم الإسلامية وقضية القرويين.

11ـ «المشكلة العلمية... «، مخطوط، ص. 17-19.

12ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 20.

13ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 24.

14ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 25.

15ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص.25-26.

16ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 28-29.

17ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 30-31.

18ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 35-39.

19ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 40-42.

20ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 48-55.

21ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 58-59.

22ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 59.

23ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 63.

24ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 66-67.

25ـ «المشكلة العلمية...»، مخطوط، ص. 71-78.

26ـ يضع العلامة زنيبر في هذا الصدد مقارنة لها من الأهمية البالغة، بحيث لم يكن يتوفر المغرب في هذه الفترة سوى على أربع ثانويات في حين يصل عددها بمصر إلى مائة وأربعون. وهذا الفرق الشاسع له من الدلالات العميقة التي دفعت الفقيه زنيبر إلى الإلحاح بضرورة الإصلاح وتعجيله.

27. «المشكلة العلمية... »، مخطوط، ص. 86.
28. نظراً لأهمية تعليم الفتاة، نجد الفقيه أبو بكر زنيبر يفرد مخطوطاً خاصاً بهذه المسألة، وهو عبارة عن محاضرة أهداها للملك محمد الخامس سنة 1362هـ وقد ضمنها أفكاره الإصلاحية بخصوص النهوض بأوضاع الفتيات أي بأحوال المرأة في مغرب الحماية. المخطوط موجود بالخزانة الحسنية تحت رقم 6094.
29. «تعليم الفتاة»، مخطوط رقم 6094، ص. 3-5.
30. «تعليم الفتاة»، ص. 6-9.
31. «تعليم الفتاة»، ص. 10-14.
32. «تعليم الفتاة»، ص. 14-24.
31. «تعليم الفتاة»، ص. 25-30.
34. «تعليم الفتاة»، ص. 39.

* * *


إضـــــاءات

الفكر الإصلاحي في مغرب ما قبل الحماية*

جامع بيضا**
ترجمة: عبد العزيز اعمار***

مقدمـــة :

شكلت نهاية وصاية الوزير با احماد على العرش سنة 1900 دخول المغرب عهد المبادرات الفردية الهادفة إلى تجاوز الركود الذي كانت تتخبط فيه البلاد على المستوى السياسي والاقتصادي والمالي والأمني. وقد تأكد لدى نخبة متنورة من داخل المخزن وخارجه أن المحافظة على استقلال المغرب رهينة بنهج سياسة جريئة وضرورية للإصلاحات التي من شأنها أن تضبط البلاد على أزمنة العصر الحديث. ومن المؤكد أنه كانت هناك محاولات سعت في هذا الاتجاه، خصوصا خلال فترة حكم السلطان المولى الحسن (1873-1894)، لكن الحصيلة لم ترق إلى متطلبات المرحلة.

---

* صدرت هذه الدراسة باللغة الفرنسية تحت عنوان:
« La pensée réformiste au Maroc à la veille du Protectorat »
مجلة هيسبريس تمودا، ع. XXXIX، مجلد 2، 2001، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ص ص، 49-69

**أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، أكدال، الرباط
***أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة

لقد أبدى السلطان الشاب المولى عبد العزيز، المتحرر من وصاية الحاجب باحماد، رغم قلة تجربته في تدبير شؤون الدولة ونكاية بالعديد من المقاومات المحيطة به، انفتاحا كبيرا على كل مشروع إصلاح جدير بأن يقود البلاد إلى انفتاح أكثر، ويضمن لها الارتقاء والانخراط في بنيات الحداثة. بيد أن خطورة الوضع الداخلي بالنظر إلى الاضطرابات التي سببتها ثورة بوحمارة، وكذا التدخل المتواصل للقوى الأجنبية في شؤون البلاد ، في إطار ما كان يطلق عليه عامة «المسألة المغربية» كل هذا لم يكن ليساعد على خلق جو ملائم لإنجاز أي برنامج إصلاح بكل هدوء ورصانة. وجدير بالذكر أن التدخلات الأجنبية في بداية القرن العشرين كما في القرن التاسع عشر، كانت في غالب الأحيان تتم تحت ذريعة إنسانية قائمة على ضرورة إدخال البلاد –رغما عنها إن اقتضت الضرورة– في مسار الإصلاحات. والحالة هذه فإن المواقف التي عبرت عنها نخبة من المفكرين المغاربة، يجب تأويلها إلى حد كبير، على أنها مشاريع إصلاحية مضادة تهدف إلى الهروب والتملص من إملاءات القوى الأوروبية.

وبمرور سبع سنوات على الحكم الفعلي للمولى عبد العزيز لم تزدد الحالة العامة للبلاد إلا تفاقما. فخلع المولى عبد الحفيظ أخاه معتقدا قدرته على قيادة الجهاد وتعبئة الجماهير وإيقاف التدخلات العسكرية الفرنسية في الشاوية والمنطقة الشرقية. لكن يبدو أن الانتظارات كانت بعيدة كل البعد عن الإمكانات الواقعية لأسس حكم ملغوم من الداخل ومضايق من الخارج. وما كان من السلطان الجديد ، إلا أن قبل، ضدا على رغبة أتباعه، بنود عقد الجزيرة متخليا عن المواجهة العسكرية المباشرة مع جنود الاحتلال. وكان من شأن هذه المبادرات أن عرضت هيبته ونفوذه لمحنة قاسية ودفعت بعض القبائل إلى رفض سيادته. وتبعا لذلك، تحصن المولى عبد الحفيظ داخل قصره بفاس، وأرغم على توقيع معاهدة 30 مارس 1912 القاضية بإقامة حماية فرنسية في المغرب.

وتبعا لما سبق، فمن الأهمية بمكان الكشف عن مختلف مشاريع الإصلاحات التي تمت صياغتها سواء خلال فترة حكم المولى عبد العزيز أو أخيه المولى عبد الحفيظ. إنها مشاريع تعكس وضعا تاريخيا محددا وحالة ذهنية وتطلعات معينة. كما تطلعنا على الأثر القوي للتيار الحداثي المشرقي على نخبة مغربية تبحث جاهدة عن سبل للتخلص من قبضة الغرب الذي أصبح استيلاءه الاستعماري على المغرب وشيك الوقوع.

وقد تمكنا من الوقوف على خمسة مشاريع إصلاح تتعلق بتلك العشرية الأولى من القرن العشرين. أربعة منها معروفة وشكلت موضوع دراسات جزئية[1] ، في حين أن المشروع الخامس، ظل غير متداول، ولم تتم الإشارة إليه إلا في بضعة أسطر تحت قلم محمد المنوني في «مظاهر يقظة المغرب الحديث». وسوف نعرض بإيجاز للمشاريع الأربعة الأولى حتى نضع الخامس في سياقه، وهو المشروع الذي سوف نوليه اهتماما أكبر ونورد نصه الكامل في نهاية هذه الدراسة.

1 ـ مشروع عبد الله بنسعيد (1901)

عبد الله بنسعيد من أعيان المخزن، ولد بمدينة سلا سنة 1866 وتوفي بها في أكتوبر من سنة 1923. كان بعيد النظر، ثاقب الفكر، وكان فضوله شديدا لمعرفة التجارب الغربية في تدبير شؤون الدولة لكي يستخلص منها دروسا ملائمة للحالة المغربية. وقد بدا هذا الفضول جليا في الحكاية التي رواها Mouliéras Auguste بتفصيل عند نهاية اللقاء الذي أجراه مع بنسعيد في طنجة سنة، 1900 حيث أمطر هذا الأخير Mouliéras بأسئلة تتعلق بمدونة نابليون: «"إني أبحث عن مدونة نابليون مترجمة إلى العربية طبعا، منذ ما يزيد عن عشر سنوات. قيل لي عنها الكثير ! هيا ! أين أستطيع الحصول على الترجمة؟" إلى أن بلغنا باب الخروج، بل إلى الشارع، تحت الطل الأبيض الذي كان يبلل أنفه الأحمر وقميصة الأخضر، والشريك الداهية لا يزال يصيح بي: "مدونة نابليون ! من يعثر لي على مدونة نابليون؟"»[2].

وبعد مرور سنة على ذلك اللقاء، سوف يعرض بنسعيد، بطلب من السلطان، مشروعه الإصلاحي الذي كان عبارة عن مرافعة ودفاع عن مجتمع أكثر انضباطا وتعليم متجدد وإدارة أحسن تنظيما ومالية أحسن تدبيرا وجيش منظم وجهاز قضائي عادل... وللمنفذين والموظفين المخزنيين، جهويا ووطنيا، أن يتسلموا رواتب منتظمة ومتتالية لتحفزهم من جهة، ولمنعهم من التعاطي للرشوة من جهة أخرى.

2- المشروع الدستوري لعلي زنيبر (1906)

ولد علي زنيبر بمدينة سلا سنة 1844. كان تاجرا بمدينة فاس وأقام طويلا بمصر في الإسكندرية وطنطا ابتداء من سنة (1879- 1880)، حيث اشتغل بالتجارة وتشبع بالأفكار الحداثية التي كانت رائجة حينئذ في مصر والمشرق عموما. وعاد إلى المغرب سنة 1904 ليجد بلدا مهزوزا بالفتن وعدم الاستقرار. أغاظه عقد الجزيرة (1906) واحتج عليه بمذكرة بعثها إلى السلطان المولى عبد العزيز، وهي وثيقة تحت عنوان «حفظ الاستقلال ولفظ سيطرة الاحتلال».

وتتمثل الفكرة الرئيسة لهذا المشروع، المقدم في ثلاثة وعشرين مادة، في ضرورة اختيار لجنة من بين أحرار الأمة والمثقفين، تسند إليها مهمة إعداد برنامج إصلاح شامل لكل القطاعات النشيطة في المغرب، مع ضرورة استحضار ومراعاة النموذج الياباني. وبالمقابل، فإن الشرط اللازم لتحقيق هذا البرنامج هو المحافظة على استقلال البلاد وهو أمر ممكن جدا، يؤكد المؤلف، مادام استقلال بلدان صغيرة مثل سويسرا وإيطاليا وبلغاريا وصيربيا، لم يكن عليه اعتراض.

3ـ مشروع عبد الكريم مراد (1907)

كان محمد الفاسي أول من عرض هذه الوثيقة سنة 1970، واعتبرها مجهولة المؤلف، لأن المخطوط الذي كان بين يديه لم يكن يحمل اسم مؤلفه. ومضت خمسة

عشر سنة استطاع بعدها محمد المنوني أن يحقق هوية المؤلف عبد الكريم مراد الطرابلسي[3]. عاش هذا الشامي في المغرب بمدينة فاس خلال سنتي 1906- 1907، حيث كان يُدَرس التاريخ والجغرافيا وعلم الفلك وتجويد القرآن[4]. وكان أيضا مراسلا للصحيفة المصرية «المُؤَيَّد» لسان الحزب الإصلاحي الدستوري. وبعد إقامة طويلة بالمغرب، هاجر عبد الكريم مراد إلى النيجر وأقام بها إلى أن توفي سنة 1928.

يقترح المشروع الذي عرضه عبد الكريم مراد على المولى عبد العزيز، إنشاء «مجلس الأمة» (مجلس الملة- مجلس الشورى)، ومباشرة إصلاحات في مختلف القطاعات: الجيش، الشرطة، ، الجمارك، التعليم...واستخلاص العبر من تجارب بلدان إسلامية مثل إيران ومصر وتونس وتركيا.

4- **مشروع دستور لسان المغرب** (1908)

يعتبر هذا المشروع الأكثر شيوعا والأفضل إعدادا عن باقي مشاريع الإصلاح التي عرفها مغرب ما قبل الحماية. صدر خلال أكتوبر- نونبر من سنة 1908، في أربعة أعداد متتالية من الصحيفة الطنجية «لسان المغرب» الصادرة باللغة العربية في مدينة طنجة عن الأخوين الشاميين المارونيين آرثور وفرج الله نمور.

حمل هذا المشروع تطلعات فئة مثقفة مغربية فضلت عدم الإفصاح عن هويتها، كما حمل أفكارا حداثية لحركة «تركيا الفتاة». تميز هذا المشروع الدستوري بجرأته، لحد أنه رام -في نظرنا- انتزاع تنازلات من المولى عبد الحفيظ، وهو أمر لم يكن السلطان -حديث العهد بالملك- مهيأ له، وكان هذا أيضا من بين الأسباب التي أدت إلى احتجاب صحيفة «لسان المغرب» سنة 1909[5].

5ـ وثيقة غميسة: التحفة الناضرة إلى الحكومة الحاضرة

مؤلف الوثيقة هو محمد الأمين بن سليمان التركي، مثقف تركي. يرى محمد المنوني –دون إثبات لذلك– أنه أحد المدربين العسكريين الأتراك الذين استقدمهم المولى عبد الحفيظ إلى المغرب سنة 1909 لتدريب جيشه. والحال أنه لا يوجد في المخطوط ما يثبت أو ينفي هذا الافتراض. لذلك سوف نكتفي في هذه الدراسة، بالرجوع إلى مخطوط «التحفة» واستخلاص ما كشفه المؤلف نفسه عن هويته. يخبرنا محمد الأمين التركي أن «نوائب الدنيا» قادته إلى مغادرة أهله وبلده، والترحال في البلدان والآفاق، إلى أن وصل فاس، حيث أكرم المولى عبد الحفيظ مثواه وجعله من مستشاريه المقربين إليه. ولكي يرد للسلطان جميل رعايته وفيض كرمه، وضع هذه الرسالة وسماها « التحفة الناضرة إلى الحكومة الحاضرة»[6] آملا أن يجد فيها العاهل المغربي بعض الإرشاد.

عثرنا على ثلاثة نسخ مخطوطة لهذه المذكرة، إحداها بمكتبة خاصة في الرباط، وثانيها بمكتبة ابن غازي لمحمد المنوني، والثالثة بمكتبة مؤسسة علال الفاسي في الرباط. النسخة الأولى مؤرخة ب11 ذي القعدة 1328هـ (14 نونبر 1910)، بينما الأخرين غير مؤرختين. وقد اعتمدنا في هذه الدراسة النسخة الأولى، وتضم ستة عشر صفحة. ولم نعد إلى النسختين الأخرين إلا عند تعذر قراءة كلمة أو مجموع كلمات.

لقد حرر محمد الأمين التركي لولي نعمته، ما يشبه درسا في العلوم السياسية. تطرق في الجزء الأول من المذكرة لمختلف الحكومات وفرعها إلى صنفين: حكومات مستوحاة من النظام الإنساني «دور المتغلبين» وحكومات مستوحاة من النظام الإلهي «دور المتشرعين».

ووضع المؤلف الحكومات الغربية ضمن الصنف الأول، حيث ميز ثلاثة أنواع:

ـ الأول، الحكومات المستبدة، حيث يحكم رئيس الدولة بشكل مطلق دون محاسبة أو مشورة، كما هو الحال في روسيا.

ـ الثاني، الحكومات الدستورية، حيث يرث رئيس الدولة الحكم، ويحكم بمشورة مجلس الأمة المنتخب، كما هو الحال في انجلترا وإيطاليا وألمانيا.

ـ الثالث، الحكومات الجمهورية، حيث ينتخب رئيس الدولة لمدة محددة ويحكم بمساعدة من مجلس ممثلي الأمة، كما هو الحال في فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة.

بعد رسم هذه اللوحة، شرع المؤلف في تفسير صلاحيات واختصاصات الأجهزة التشريعية والتنفيذية في الحكومات الدستورية والجمهورية.

فبالنسبة للجهاز التنفيذي، فرعه المؤلف إلى عشر نظارات أو وزارات، رتبها كالتالي:

1ـ النظارة الداخلية

2ـ النظارة الخارجية

3ـ النظارة المالية

4ـ النظارة الحربية

5ـ النظارة البحرية

6ـ النظارة العدلية

7ـ نظارة الأوقاف

8ـ نظارة الأشغال العمومية

9ـ نظارة المستملكات

10ـ نظارة المعارف (التعليم)

وهذه القطاعات العشرة هي التي اعتبرها المؤلف أساسية. بيد أنه رأى إمكانية

إحداث قطاعات أخرى بحسب الاحتياجات الخاصة بكل بلد، مثل وزارة الفلاحة والتجارة...

والترتيب الذي وردت عليه هذه الوزارات لا يحيل بالضرورة على تراتبية بحسب أهمية كل قطاع. فمن منظور كمي، نشير إلى أن محمد الأمين التركي خص هذه القطاعات باهتمام متفاوت، يتراوح بين سطر واحد كما الحال بالنسبة لوزارات الأوقاف والبحرية والعدلية، وخمسة وعشرين سطرا كما الحال بالنسبة لوزارة المالية التي اعتبرها المؤلف قطب رحى دولة حداثية عليها إعداد ميزانيتها كل سنة، دون اللجوء إلى قروض خارجية إلا عند الضرورة القصوى. وبخصوص الميزانية «البودجه Budget» وهي كلمة نقلها المؤلف ودونها كما وردت في أصلها اللغوي الأجنبي، يقول محمد الأمين التركي «وإذا كانت الحكومة تتمشى على هذه البودجه كانت حكومة معتبرة بين الدول، فلهذا قلنا إنها أس أساس الحكومة في الدنيا. ثم إنها ليست خاصة بالحكومة فقط، بل هي أمر لازم لكل أحد، فعلى الإنسان أن يعمل هذه البودجه فيما يحتاجه في أموريته في كل سنة والموازنة فيما يرد عليه فيها وما يصرف محافظة على ماله خوف حدوث مرض أو حرق أو غرق أو ما أشبه ذلك. والعامل لهذا يكون معتبرا بين أقرانه[7]».

ويأتي التعليم في المرتبة الثانية بعد المالية. وفي هذا الشأن، يخبر مؤلف التحفة السلطان أن تمدرس الأطفال إجباري في أوروبا من سن السادسة إلى الرابعة عشرة، وعدم امتثال الآباء والأولياء لهذا الإجراء، يعرضهم لعقوبة الحبس ستة أشهر فأكثر. ويضيف محمد الأمين التركي أن الأوروبيين يهيؤون أطفالهم لتحمل مسؤولياتهم في تسيير شؤون الدولة مستقبلا.

وبعد حديثه عن الحكومات ذات النظام الإنساني، يعرض المؤلف للحكومات المستوحاة من النظام الإلهي، التي تتأسس على النصوص الدينية، بالنظر إلى المسيحية والإسلام. ويطلع المؤلف بإيجاز العاهل على دولة الفاتكان وعلى مختلف

التقلبات والتحولات التي عرفتها هذه الدولة في غضون الوحدة الإيطالية، ثم على هيبة البابا وحظوته عند الكاثوليكيين عبر العالم، وكذا نفوذه الروحي والدنيوي.

وكان الحديث عن دولة الفاتكان مجرد وسيلة للوصول إلى الأساسي. فالدولة الإسلامية هي الأخرى ذات نظام إلهي مستوحى من القرآن والسنة، ويؤكد محمد الأمين التركي على الفور، مستندا إلى أحاديث نبوية وآيات قرآنية، أنه واجب على المؤمنين طاعة أمرائهم. وبعد هذه الديباجة، تطرق التركي بإلحاح، إلى المالية التي اعتبرها أس نظام الدولة. والحال أن الدول الإسلامية ومنها الحكومة المغربية، مدعوة جميعها إلى إعادة تنظيم مالياتها بتدبير أفضل لإيرادات الضرائب والجمارك.

وبما أن المال هو أس الدولة الحديثة وعصب كل إصلاح، فمن الضروري تطعيم مالية المخزن بشكل منتظم، وذلك بسن نظام جبائي حديث. ولاقتطاع الضرائب، يقترح المؤلف استلهام نماذج أوروبية، وتحصيل الضرائب من الأفراد بالعدل والإنصاف وبحسب الثروات.

لقد فطن محمد الأمين التركي إلى الاستياء الذي خلفه الترتيب[8] المفروض من لدن السلطان عبد العزيز سنة 1901، فصرح بشكل ضمني، أنه على المغاربة الشعور بالاعتزاز والرضا مادام أداؤهم للضرائب فيه دعم وتوطيد لسلطة إسلامية. ذلك أن مسلمين آخرين، أقل حظا حسب المؤلف، في مصر والجزائر كانوا يخضعون لأداء الضرائب إلى قوى مسيحية خصوصا إنجلترا وفرنسا. ويرى محمد الأمين التركي أن فرض الضرائب أفضل من الاقتراض من قوى أجنبية لما فيه من مجازفة كبيرة بالسيادة الوطنية.

ولم يكن محمد الأمين التركي، بطبيعة الحال، جاهلا برفض ومقاومة بعض العلماء لمثل هذا الخطاب الحداثي. لذا نجده يثور بحدة ضد أولائك الذين يوردون الحديث النبوي حول موضوع البدعة، للاعتراض على تحديث بُنى البلاد وعصرنتها. ولدحض حججهم، ينهل هو الآخر من السجل الديني: «إن بعض الناس لا يحبون الأشياء المحدثة الجديدة، ويقولون هذه بدع ولا يعرفون قوله صلى الله عليه وسلم

«الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حين وجدها ». على أن قولهم هذه بدع نشأ عنه ضرر كبير في عالم الإسلام[9]».

ويستحضر التركي، إلى جانب السجل الديني، التاريخ عند ذكره أعلام ومشاهير إسلامية من قبيل الفارابي وابن سينا والغزالي وعمر الخيام وغيرهم ممن ترجموا التراث اليوناني لتستفيد منه البشرية جمعاء. كما يؤكد بمرارة أن هؤلاء العلماء ذائعي الصيت، ممجدون في الغرب، لكنهم مغمورون تماما عند ورثتهم المسلمين، الذين فضلوا –على حد تعبير التركي- الاشتغال باللاهوت والسحر والخرافات.

ويقترح محمد الأمين التركي، في الأخير، إصلاحا لإدارة الحكومة الإسلامية، حيث توكل لكل موظف سامي مهمة محددة، ويكون له فرع أو مقر عمل خاص به. ويجب على كل المسؤولين الحكم بعدل وإحسان، لأن في جورهم –يؤكد التركي- إساءة وإهانة لسلطانهم وكذا خيانة لنفحة وقدسية دينهم.

تبرز مذكرة التركي إلى جانب مشاريع الإصلاح الأربعة سالفة الذكر (بنسعيد- زنيبر- مراد- لسان المغرب) مدى غزارة وخصوبة الأفكار الحداثية التي كانت تروم إخراج المغرب من الركود الذي كان يتخبط فيه قبيل الاحتلال الاستعماري. وتتقاطع في كل هذه المشاريع أفكار منها المستوحى محليا ومنها القادم من المشرق. وبخصوص هذه الأخيرة، ينبغي التأكيد على مدى وقوة حضور أفكار « تركيا الفتاة » في المشهد الثقافي وقتئذ. وعلى الأرجح أن محمد الأمين التركي كان أحد الناشرين لهذه الأفكار والداعين إليها. فبعد مرور خمسة عشر سنة على مذكرته، ينشر مؤلف مجهول على جريدة اسطنبول «الزمن Vakit » (8 يونيو 1926) مقالا يفصل فيه الحديث عن نشاط الشباب التركي في محيط السلطان عبد الحفيظ. نقرأ في هذا المقال على وجه الخصوص، شهادة أحد المدربين العسكريين للجيش المغربي : «إن الفجر الأحمر لشهر يوليوز من سنة 1324هـ (1908) ليزف لتركيا مرحلة تكاد تكون دائمة الجاذبية والتألق في أعين الشعوب الشرقية. ومن هذا وذاك، فإن أمما

متخلفة ومتعطشة لكل إصلاح وتحضر، كانت تلتفت دوما بأنظارها نحو بلدنا. والمغرب على وجه الخصوص، يطلب ضباطا أتراكا ليعيد تنظيم جيشه.

(...) وافَقَنا طلب الأمير وشروطه. بل دعانا دافع أقوى لكي نقبل بها. إنها الرغبة في إيقاظ هذا البلد على حياة التحضر، وترسيخ ثقافة تركيا وحبها بداخله. وحرَّكَتْنا أيضا فكرة جامعة إسلامية على الطريقة العصرية الحديثة. وحللنا بالمغرب حيث لحق بنا ضباط قادمون من طرابلس الغرب»[10].

خـــاتمـــة

إننا ندرك الأثر المحدود جدا الذي كان لهذه الترسانة من المشاريع الإصلاحية. لقد عرف المغرب –بطبيعة الحال– الترتيب سنة 1901، كما عرف دعوة مجلس الأعيان سنة 1905 للحيلولة دون قبول برنامج الإصلاح الفرنسي المعروض على المخزن، وأخيرا البيعة المشروطة للمولى عبد الحفيظ سنة 1908 بمدينة فاس، ثم اللجوء إلى المدربين العسكريين الأتراك لتأطير الجيش المخزني. إلا أنه، وكما تمت الإشارة إلى ذلك في مقدمة هذه الدراسة، هناك عوامل داخلية وخارجية مختلفة، كان لها دور في قصور الحصاد ومحدودية الحصيلة.

وبالمقابل، فإن حيوية هذه الإصلاحات وحماستها، كانت حافزا للعودة إليها فيما بعد لمواجهة وضعيات دقيقة، خلال ثلاثينيات القرن العشرين من لدن الحركة الوطنية، بل حتى في المغرب المستقل لتأكيد نضج الشعب المغربي وقدرته على تحمل وممارسة المواطنة في إطار نظام دستوري وديموقراطي.

* * *

هوامش :

1-محمد، المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ج. 2، ص ص. 399- 445

Jacques, Cagne, Nation et nationalisme au Maroc. Aux racines de la nation marocaine, Dar Nachr al-Maarifa, Rabat, 1988, p 457- 543

2- Auguste, Mouliéras, Fes, Paris, 1902, p. 39- 40

3. إلا أن عبد الكريم غلاب يستمر في التأكيد على أن هذا المشروع هو نتاج عمل لجنة مغربية كان من بين أعضائها: عبد الحفيظ الفاسي، وعبد الواحد الفاسي، وسعيد الفاسي، وعبد الله الكردودي.
انظر: عبد الكريم، غلاب، «التطور الدستوري والنيابي في المغرب (1908- 1992)، ط. 3، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993، ص. 105- 106

4. محمد، المنوني، مرجع سابق، ص. 311

5. انظر مقالتنا : «رسائل مفتوحة إلى السلطانين المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ»، تأليف جماعي إهداء إلى الأستاذ إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2001، ص . 493- 529

6. انظر النص الكامل فيما يلي، ص. 359 فما بعد

7 - انظر المخطوط (مكتبة خاصة في الرباط)، ص. 7
انظر كذلك النص الكامل فيما يلي، ص. 364

8. حول الترتيب، انظر: معلمة المغرب، ج. 7، ص . 2316- 2319

9 - انظر النص الكامل فيما يلي، ص. 369

10. ورد عند:

Jean, Deny, « Instructeurs militaires turcs au Maroc sous Moulay Hafid », in Mémorial Henri Basset : nouvelles études nord-africaines et orientales, Lib. Orientaliste Paul Geuthner, 1928, p. 222

* * *

ملحــق

التحفة الناضرة إلى الحكومة الحاضرة
لمؤلفها محمد الأمين التركي[1]

(ص ـ 1 ـ) بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وسلم.

الحمد لله الذي زين الإنسان بالعقل والإذعان، وأكمل صورته فكان أكمل موجود في الأعيان، وأنزل عليه الكتاب لتتميم الحفظ والأمان، وأمر فيه كما قال بالعدل والإحسان، ورفع السماء ووضع الميزان، وحكم للكل بما صدر منه وعنه بان، والصلاة والسلام على درة الأعيان، ومنبع الجود والامتنان، سيدنا محمد فخر الأكوان، والقمر الساطع في كل الأزمان، وعلى آله وأصحابه النجود، الداعين إلى الخير والحافظين للحدود. أما بعد، فيقول المتعلق بالملك الديان، العبد الفقير محمد الأمين ابن سليمان :

لما كانت نوائب الدنيا كالغيث المدرار، والألطاف محتفة بها من كل قرار، وكان الفقير ممن أصابه سهم منها، حتى فر من أهله وبلده هاربا عنها، تلفظه البلدان، وبرحل به الزمان، إلى أن رفضته[2] الأقدار الإلهية، بمحروسة حضرة فاس البهية، زادها الله من العز والأمنية، ما لا يحصى[3] بالكيف والكمية، حضرة جلالة سيدنا الهمام، المشهور والمعروف بعلمه وفضله بين عالم الإسلام، الممدوح بشدة ذكائه ونفوذ بصيرته بين سياسيي الأنام، عز الأشراف، والياقوتة المنطوية بين الأصداف، من جمع الله له بين العلوم، المنطوق منها والمفهوم، وتثني عليه باللسان كل حين، نحو من أربعمائة مليون من المسلمين، وتدعو له بالنصر والفتح المبين، كأجداده وأنجاله الأكرمين، المخصوص (ص ـ 2 ـ) من مولاه بسوابع الحسنى، السلطان بن السلطان مولانا عبد الحفيظ بن مولانا الحسن، لازالت البشائر تتوالى عليه وتترقى، وتعرب عن ضميرها

ما كان فيها قد كمن، فاحتميت بحماه، وخيمت ببابه كي أفوز منه بمناه، ولاحت لي رياح القبول، وأيقنت بحصول المأمول، وقربني من حضرته، وجعلني من أخص خدمته[4]، وخلع علي خلعة أهل العرفان، شكر الله سعيه، وخلد في الصالحات ذكره، فلما رأيت هذا الامتنان، الذي لايصدر إلا من ولد سيد عدنان، تمنيت ما أكافئ به هذا[5] الأعظم، فلم أجد بيدي غير لساني والقلم، وإن كانت بضاعتي في العربيات مزجاة[6]، ففي غيرها ما تكل عنه عقول الإثبات، فوضعت هذه الرسالة التي سمحت بها بنات الأفكار، وجعلتها تحفة لملك الزمان، صنو النبي المختار، هدية مني لجنابه، وتذكرة لرفيع مقامه، وسميتها بالتحفة الناضرة إلى الحكومة الحاضرة، والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق.

اعلم أنه لما زين الله بني آدم بالعقل والإذعان، تولدت عنهما احتياجاته المتفاوتة، واحتياجاته تستدعي التعاون في تسهيل قضاء مئاربهم، وذلك متوقف على جمعية البشر، والجمعية قد أسست، وحسن تمشية المناسبة بين أفراد جمعية البشر وحفظ الحقوق فيما بينهم يستلزم إحداث الحكومات.

الحكومات

ولها دوران ابتداءيان :

- الدور الأول دور المتغلبين : أسس من طرف المتغلبين بالجبر والتهديد على الضعفاء.

- الثاني دور المتشرعين : أسس من قبل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مسندا إلى الله تعالى.

ومن (ص ـ 3 ـ) دور المتغلبين تولدت كل الحكومات الأرباوية العصرية وتشبعت. وفي هذه الرسالة نبحث على تشكلات الحكومة العصرية الأرباوية من غير تعرض وتنقص على الحكومات نفسها، لأن مقصودنا تعريف الأحوال فقط على سبيل

الاختصار، وإن سامح الزمان[7] بالفراغ فيها، فيما يستقبل نضع كتابا كبيرا في ذلك بحيث تكون فيه الغنية عن غيره.

ثم الحكومات العصرية الأرباوية أقسام ثلاثة :

ـ الأول : الحكومة المستبدة، وهي كون السلطان يحكم بنفسه من غير جبرية ولا مشورة مع أحد، وذلك كحكومة المسكو.

ـ الثاني : الحكومة المشروطية أو الدستورية، وهي أن يحكم الحاكم فيها برأي ومشورة من مجلس الأمة المنتخبة، وذلك كحكومة النجليز والطليان والألمان.

ـ الثالث : الحكومة الجمهورية، وهي أنهم ينتخبون رئيسا[8] مدة من سبع سنين، ويكون حاكما بمعاونة مجلس الأمة، كحكومة افرنسا وأمريكة وسويسرا. وهذا القسم والذي قبله ليس بينهما فرق إلا من جهة أن سلطان الدستور يكون وارثا لأبيه في السلطنة ويحكم مادام حيا، بخلاف الجمهورية فإنه يكون منتخبا كما قدمنا. وأما من الجهات السائرة في الأصول والأساس والتشكلات، فهما سواء.

ونحن نتكلم على تشكلات الوزارة ومجلس الأمة في الحكومة الدستورية والجمهورية، فنقول : هاتان الحكومتان تجتمع تحت عنوان الحاكمية الأمية، ومقصودنا بالحكومة الأمية عند الاطلاق مجلس الحكومة الدستورية، أعني المشروطية والجمهورية.

ثم الحكومة الأمية تتشكل من قوتين على الأصول :

الأولى : القوة التشريعية، وهي منتخبة من عامة الأهالي للبحث عن القوانين الجديدة وتمشيها على مقتضى الأصول وطرح (ص ـ 4) الضربات والرسوم، وغير ذلك من أشغالها المطوقة بها. وهذه القوة التشريعية تنقسم ؤلى مجلسين : مجلس أمة العوام، ومجلس أمة الخواص. أما مجلس أمة العوام. ويسمونه المبعوثان، فهو

كل خمسين ألفا من الأهالي سنهم احدى وعشرون سنة ينتخبون مبعوثا إلى مجلس الأمة مدة من أربع سنين في افرانسة وسبع سنين في النجليز. وهذا المجلس هو الذي يقبل أو يرد ما انتخبه السلطان أو رئيس الجمهورية. والوزراء هم الذين ينظمون النظامات والقوانين وغير ذلك من المحاربات والضربات والسياسات والعدليات وما أشبه ذلك من كل أمور الدولة وحسن تمشيتها. ثم يرسلون ذلك إلى مجلس الأمة المذكور لينظروا ذلك فيسلموه أو يردوه. وأما مجلس أمة الخواص، فهو إما منتخب كما في افرنسة وأمريكة، وإما إرثي كالنجليز. والمنتخبون هنا ينبغي أن يكونوا من ذوات البيوت الأكابر، ووظيفة هذا المجلس هو مراجعة ما انتظم في مجلس الأمة. فإن سلموه دفعوه للسلطان أو رئيس الجمهورية، فأمضى عليه. وبعد الإمضاء عمل بمقتضى ذلك. وإن لم يسلموه، ردوه إلى مجلس أمة العوام ليراجعوه مرة ثانية. ثم إن في بلاد الجمهورية رئيسها مجبورا عليه أن يصدق ما سلمه مجلس العوام والخواص، بخلاف بلاد الدستورية فللسلطان رغما على تصديق مجلس العوام والخواص أن يرد ذلك إن لم يرتضه، بل ويرفض المجلسين معا ويجلس آخرين مكانهما بالانتخاب الجديد، إلا أن هذا قليل الوقوع جدا لما ينشأ عنه من الفساد الكبير. فإذا خلص الأمر كما ذكرنا وأمضى عليه السلطان أو رئيس الجمهورية بإجراء عمله (ص 5) دفعه إلى الوزير.

الثانية : القوة الإجرائية، وهي مكلفة بإجراء القوانين والنظامات التي مرت على الدرجات التشريعيات. ثم السلطان أو رئيس الجمهورية هما رئيسا القوة الإجرائية، والوزراء والضباط والحكام والقضاة والبوليس ومن له أدنى حركة في المخزن كلهم من أعضاء القوة الإجرائية ومكلفون أيضا بتطبيق النظامات التي مرت على المجلسين، أعني مجلس العوام والخواص المتقدمين وصدقت من طرف السلطان أو رئيس الجمهورية. وهم مسؤولون أيضا بعدم تطبيقه أو بسوء تطبيقه بالدرجات المسلسلات، بمعنى أن كل واحد مسؤول بدرجته من عمله على هذه الأصول. فالوزير

الكبير مسؤول من سوء حركة أدنى شرطي له إلى مجلس الأمة، وكذا ما بعده من الأعضاء، بخلاف السلطان فليس مسؤولا لأحد. ثم هذه القوة الإجرائية في حكومة الأمية أعني المشروطية والجمهورية أقسام عديدة، كل قسم منها يسمى بالنظارة وله وزير مستقل يسمى بالناظر ويسمى بالوزير.

القسم الأول : النظارة الداخلية

ولها أركان : ناظر مخصوص، ورئيس الكتاب، وغير ذلك. وهي مكلفة بإجراء النظامات التي انتظمت للأمور الداخلية وتحكم على القواد وعمال القبائل، وتولي وتعزل من يستحق شيئا من ذلك، وتسمع شكايات الأهالي من قوادهم، وتبحث في أحوالهم وتنظر في انتظام البلاد وأمانها، وتبحث أيضا عن المحبوسين في السجن وتفتقد في أحوالهم.

القسم الثاني : النظارة الخارجية

ولها أركان كسابقتها، وهي مكلفة بإجراء النظامات التي انتظمت للأمور الخارجية، ومشتغلة بتمشية أشغال الدولة مع الدول (ص 6) السائرة، ومكلفة أيضا بتنظيم المعاهدات بين الدول. لكن هذا الانتظام منوط بتصديق مجلس الأمة، ومن وظائفها أيضا المعاهدات التجارية، وحماية أهلها خارج البلد.

القسم الثالث : النظارة المالية

وهي مكلفة بأمور مالية الدولة بالكل، وتحصيل الضربات، وتصريفها، وحفظها على العموم، وتنظيم البودجه التي هي أسس أساس انتظام الحكومة بالكل، بل هذا أخص وظائفها. والبودجه كلمة أعجمية ومعناها إحضار موازنة المالية للسنة الجديدة بالكل وتطبيقها إلى النقطة. وأسبق من هذا أن كل الوزراء يحصون ما يحتاجونه في السنة الجديدة المستقبلة من أجور الكتاب والعساكر وجميع متعلقات

السنة ويعملونه في صفيحة مثلا كل منهم على حدته، ويدفعون ذلك لوزير النظارة المالية، فيحصي جميع ذلك كله، ثم يقابله بالواردات التي ترد والضربات التي تدخل على تلك الحكومة في تلك السنة المستقبلة. فإن وافق الداخل الخارج، كان في غاية الحسن وتمام المراد، وإن زاد الداخل على الخارج خط وحفظ. وإن زاد الخارج على الداخل فتوفيته بأحد أمور ثلاثة : بالزيادة في الضربات، أو بالاستقراض من الداخلية، أو بالاستقراض من الخارجية إلى ما يستقبل من السنين، فيرد الاستقراض فيما يستقبل من السنين مقسطا. لكن الزيادة في الضربات إذا كانت غير مضرة أحسن وأولى من الاستقراض. وكل الدول في الدنيا في الأوربة والآسية والأمريكة وأفريكة واستراليا يستقرضون عند الاحتياج. فكل منهم مديون إلى أهله أو إلى غير أهله بمقدار عظيم، إلا أمريكة فليس مديونا (ص 7) لأحد، ومقدار ديونهم سنتكلم عليه في رسالة مستقلة في أصول الاستقراض بين الدول. وأما المصاريف الحادثة في تلك السنة المستقبلة الجديدة المقدر لها ما ذكرنا مثل محاربة أو وباء أو قحط أو احتلال أو ما أشبه ذلك مما لم يكن به علم وقت الإحصاء والتقدير، فليست داخلة في العدد المحصي، بل يكون قدرا آخر مخصوصا موضوعا في خزين احتياطا من أجل ما يحدث وسط تلك السنة ومذكورا في البودجة. وهذا الإحصاء الصادر من الوزراء ومن وزير المالية يكون في الشهر الأخير من السنة الموالية للسنة الجديدة المستقبلة المقرر لها ما يخصها. وإذا كانت الحكومة تتمشى على هذه البودجه كانت حكومة معتبرة بين الدول، فلهذا قلنا إنها أس أساس الحكومة في الدنيا. ثم إنها ليست خاصة بالحكومة فقط، بل هي أمر لازم لكل أحد، فعلى الإنسان أن يعمل هذه البودجه فيما يحتاجه في أموريته في كل سنة والموازنة فيما يرد عليه فيها وما يصرف محافظة على ماله خوف حدوث مرض أو حرق أو غرق أو ما أشبه ذلك. والعامل لهذا يكون معتبرا بين أقرانه.

القسم الرابع : النظارة الحربية

وعملها الاشتغال بالأمور الحربية وهي مكلفة بإجراء النظامات العسكرية وتطبيقها وتعليم التربية العسكرية وكل شيء يتوقف عليه حفظ الوطن في البر.

القسم الخامس : النظارة البحرية

وعملها الحكم على السفن البحرية عموما وحفظ الوطن من جهة البحر بوسائط السفن.

القسم السادس : النظارة العدلية

وعملها كونها رئيسة الحكام والقضاة ومكلفة بحسن التمشية في إحقاق حقوق العباد.

القسم السابع : نظارة الأوقاف

وهي مكلفة بصرف مال الحبس وحسن (ص 8) المحافظة على مقبوضاته وإداراته.

القسم الثامن : نظارة الأشغال العمومبة

وهي مكلفة بإنشاء الطرق وسكك الحديد وإعطاء الامتيازات لإنشاء سكك الطرق وحفريات المعادن وإنشاء القناطر والتمشية على النظامات التي تفرعت عن مجلس الأمة،

القسم التاسع : نظارة المستملكات

وهي مكلفة بتمشية النظامات وأمور البلادات التي احتلت واستملكت من طرف دولة. وذلك مثل الجزائر فإنها ليست بافرانسة، ولكنها مستملكة لها، والهند فإنه ليس بنجليز ولكنه مستملك له.

القسم العاشر : نظارة المعارف

وهي مكلفة بتأسيس وإدارة المكاتب والمدارس وتعليم العلوم والفنون القديمة والحادثة لأطفال المملكة. ومن أجل هذا القول ينبغي في كل الأربة أن يجبر الآباء وأولياء الأطفال على إرسال أولادهم إلى المدارس والمكاتب الابتدائية من بلوغهم ست سنين إلى أربع عشرة سنة لتحصيل الكتابة والقراءة وابتداء العلوم، بمعنى أن تحصيل العلوم الابتدائية جبري على كل الناس من غير استثناء. وعدم طاعة الأب والولي في هذا موجب لحبسه في السجن ستة أشهر فأكثر. وعلى هذه الأصول أهل الأربة كلهم يؤدبون أطفالهم ويستحضرونهم في التمشية على أمور الدولة في المستقبل.

ثم هذه النظارات العشر هي الأساس، وهناك نظارات أخر بحسب احتياج البلدة والمملكة إليها مثل نظارة الزراعة والحراثة والتجارة وغير ذلك. وكل هذه النظارات لها وزير كبير عليها بموافقة السلطان ومجلس الأمة يسمى وزير الوزراء ورئيس النظار والوزير الأعظم والوكيل المسخر والمسئول المستقبل إلى مجلس الأمة. وهذا الوزير مكلف (ص 9) برئاسة مجلس النظار والوزراء وبحسن تمشية كل النظارات المختلفة. وأيضا هو الذي ينتخب هؤلاء النظار بموافقة السلطان ومجلس الأمة.

الدور الثاني من الدورين السابقين دور المتشرعين، وهو قسمان على ما اشتهر:

القسم الأول : حكومة بابا الروم المدعي أنه وكيل عيسى روح الله في الأرض وراعي المسيحيين ورئيس الروحانية الكاثوليكية في الدنيا، بمعنى المذهب المعظم النصرانية والحاكم على الكنائس الكاثوليكية. وأهل افرانسة واصبانية والإطالية والاسترياك والبلجيك وأهل جماهير أمريكة الجنوبية كلهم كاثوليكية في عالم المسيحيين. والأكثر من نصفهم يعتقدون فيه أنه لا يخطئ في كل أموره، وأن عيسى روح الله يتشخص منه ويشرف عليه. والنصارى يعتقدون فيه أن بيده مفاتيح الجنة وأن أغنياء النصارى هو الذي يبيع لهم مفتاح الجنة الكائن من الذهب والفضة بثمن

عال. ومما يعتقدونه فيه أنه غافر للذنوب، فمن أتاه معترفا بذنبه عفا عنه في مقابلة هديته. وكل النصارى إذا ذهبوا لزيارته، ولو سلاطينهم، يقبلون إبهام رجله ثلاث مرات حرمة له وتعظيما. وقبل خمسين سنة من تاريخه وهو حاكم جسماني في بلدة الروم وأطرافها، زيادة على حاكمية روحانية في عالم النصارى. إلا أن الإيطالية، أعني جد الإيطالية الموجود الآن، كان أميرا في شمال الروم المسمى صوريا عمل المحاربة مع بابا الروم، هذا القسيس الكبير، ومنعه من الحكم على أهل الأجسام وقبض منه الروم وصار يحكم عليه وقلب حكومة الصوريا مع الروم وأسس حكومة الإيطالية وأعلن بنفسه أنه سلطان الإيطالية، وباب الروم كان محصورا مع أتباعه في دار مخزنه المسماة واتيقان ويدعي أنه لازال حاكما مدينة الروم، والدول الكاثوليكية (ص 10) ترسل إليه سفراء، وحكومة الإيطالية تصدق حاكمية روحانيته على عالم النصارى ولاتصدق حاكميته الجسمانية في الروم. والآن حاكميته الروحانية على فرقه الكاثوليكية مصدقة له على جميع الدول، وحاكمية جسمانيته منحصرة في دار مخزنه. وإذا مات باب الروم هذا، فالرهبان الكبار ينتخبون فيما بينهم بابا الروم بتصديق الدول الكاثوليكية المتقدمة.

القسم الثاني من الحكومات الشرعية : الحكومة الشرعية الإسلامية

واضعها هو الله تعالى بواسطة النبي عليه الصلاة والسلام، ودستور تشريعيتها الكتاب والسنة، وقوة إجرائها والمحافظ عليها أمير المؤمنين والحاكم على عباد رب العالمين، المأمور بطاعته في القرآن المبين وسنة نبيه الصادق الأمين. قال تعالى : «ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم». ويكفيه شرفا حيث ذكر مقرونا مع الله ورسوله. وهذا عام في مطلق الأمراء. فكيف إذا انضم إلى ذلك الكون من بضعة خير الأنام محمد النبي بدر التمام عليه أفضل الصلاة والسلام، والاتصاف بكمال العدل والدين، والمهارة في العلم والتحرير، ومن لازم المتصف بما ذكر أن يكون مجتهدا على وفق الكتاب والسنة، مرتكبا لأخف الضررين لما صدر في الأمة. وقال صلى الله عليه والسلام : السلطان ظل الله في الأرض،

فمن أكرمه أكرمه الله، ومن أهانه أهانه الله، أخرجه في الجامع الصغير. وقال صلى الله عليه وسلم : من أهان سلطان الله أذله الله، ذكره المناوي. وقال صلى الله عليه والسلم : السلطان ظل الله في الأرض، فمن غشه ضل، أخرجه الجامع الصغير. وقال صلى الله عليه وسلم : من يطع الأمير (ص 11) فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني، أخرجه في نوادر الأصول. وإنما أمر الله ورسوله كل العباد بطاعة السلطان لأن فيه كل الخير، والمراد فيه تصان الدماء ويحصل الأمان في كل البلاد، وترد الواردات وتستقيم جميع الجهات. فعلى كل المسلمين في جميع البلاد أن يعرفوا قدره ويطيعوا أمره لأنه إذا كان العباد يطيعون الله كما أمر الله ورسوله يلزمهم أن يطيعوا أمير المومنين العاقل العامل، فيقوى بسبب ذلك دين الاسلام، ويلزمهم أيضا أن يعرفوا سبب انحطاطنا في الأمور الدنيوية واضمحلالنا في أمور الحكومات، والتفرقة بيننا وعدم اتحادنا، والسبب المستقل لهذه الفتنة والتفرقة الكائنة فينا هو الجهل والعياذ بالله، حتى أن جهل بعض المفسدين من جهلهم ويغوون على الحكومة ويضلونها، فيكون ذلك سببا في خراب الدين، وهذه الفتنة ليست قاصرة على المغرب، بل عامة في كل بلادات الإسلام.

ثم إن حركة الحكومات لشغل العباد متوقفة على المال، فمن أجل هذا الشرع الشريف أمر الناس بدفع ما وجب عليهم إلى الأمراء، هذا الواجب مضروب على الأفراد أو على أموالهم وأملاكهم، وذلك مثل العشر والزكاة، ويزاد عليها الگمرك لينتظم به بيت المال. وإذا لم يف ذلك المقبوض ساغ له أن يقبض من رعيته ما يكفيه بشرط أن لا يكون أمرا فوق طاقته ووسعه. وأما الضرائب التي تطرح على العباد في بلادات الإسلام، فالناس يشتكون من كثرة ذلك، والعذر لهم حيث أنهم أصابهم ذلك من جهلهم القائم بهم. ولو كانت لهم خبرة بالدنيا وأحوالها والقوانين الرومية، ما اشتكوا من ذلك بل يشكرون الله ويحمدونه. ألا ترى أهل الهند أكثرهم مسلمون ومع ذلك يدفعون كل سنة إلى حكومة (ص 12) النجليز بعد حط المصاريف النجليزية ثلاثمائة مليون لبرة انجليزية، وأهل مصر يدفعون قريبا من سبعين مليونا

ليرة انجليزية أيضا، وأهل الجزائر يدفعون كل سنة لحكومة افرانسة أكثر من ألفي مليون من الفرنك. فاعتبروا يا أولي الأبصار وانظروا ما يدفعه هؤلاء المسلموت الأحرار إلى الأجانب كل سنة جزاء لجهلهم وفتنتهم وأجرة لمحكوميتهم وتفرقتهم. ثم إن بعض الناس لا يحبون الأشياء المحدثة الجديدة، ويقولون هذه بدع ولا يعرفون قوله صلى الله عليه السلم : «الحكمة ضالة المومن يلتقطها حين وجدها». على أن قولهم هذه بدع نشأ عنه ضرر كبير في عالم الإسلام، ولم يعلموا أن آباءهم وأجدادهم كانوا قدوة في العلوم والفنون في عصرهم، وهل لا يعرفون مدارس بغداد وقرطبة وإشبيلية، أليس العباسيون، أعني لسان العرب، بتراجمة آثار كل حكماء اليونان. أليس أولو المغرب ابن رشد الحكيم، أليس أدبته مدرسة القرويين، والآن تنوسي هناك مع أن آثاره لازال مقتدى بها في مدارس الفنون الأرباوية وكتبه في خزانة القرويين وغيرها اضمحلت وصارت كالغبار، مع أنها مزين بها مخازن الكتب الأرباوية. أليس يعرف علم ابن سينا والفارابي والغزالي وعمر خيام وفردوس الطويسي وأضرابهم مع أن قبورهم مندوسة وآثارهم متروكة في بلادات الإسلام. فهل نحن أحسن من المسلمين الأولين أم نحن أعلم منهم فنرد عليهم علومهم العصرية بمجرد قولهم هذه بدع. أما ابن سيناء والفارابي والغزالي فآثارهم تاج على رؤوس الأرباويين، وأما عمر خيام الحكيم ففلسفته مدونة اليوم في النجليز وأمريكة وافرانسة والأليمان، وفي الوندريز خصوصا جمعيات علميات (ص 13) الأكابر المسمى باسم عمر خيام. وأما فردوس الطوسي فهيكله عظيم من رخام بالوندريز منقوش أسفله كتابات تضمنت مدائحه وأوصافه وآثاره. ونحن معاشر المسلمين لا نرفع إليهم رأسا، وإنما نشتغل بالعلوم الحدسيات والخنطرات والرمليات والروحانيات وعلوم الجدول والحرق والتنجيم وما ماثل ذلك من الخرافات السخيفة التي لا أصل لها قطعا ما هذا إلا وطير (؟). والحاصل أن سلامة الإسلام منوطة ومتوقفة على درء الفتنة ورفع الجهل في كل البلادات الإسلامية. وعليه، فيلزم جميع المسلمين أن يقلعوا عن فتنتهم ويمتثلوا

أوامر السلطان العاقل العالم بقلبهم وقالبهم إلى أن يدلهم على ما هو عين الصواب ويخرجهم من الظلمات الجهل والفتنة إلى نور العلم والوفاق. فالله يحفظ سيدنا ويرعاه، ويحرسه بالعناية التامة وهو مولاه.

الـوزارة والحجابـــة

وهما في الحكومة الشرعية الإسلامية أرفع مقاما بعد أمير المومنين لأن الأمير يودع كل أمور الحكومة بواسطتها ولا يباشرها بنفسه. ثم إن الوزير يسمى بأسامي عديدة وكلها تدل على علو مرتبته وأنه لا مقام هناك أعلى منه وأرفع إلا مقام السلطنة والإمارة، فإنه يسمى بالوزير الكبير، ووزير الوزراء، ووزير الصدر، والوزير الأعظم، والصدر الأعظم، والدستور المعظم، والمشير المفخم، والمنظم لأمور العالم، والمدير لأمور الجمهور بفكره الثاقب، والمؤيد للسلطنة والإجلال، والممهد بنيان الدولة والإقبال. وليست هذه الأسماء بمحدثة، بل كل وزراء الإسلام يسمون بهذه الأسماء من زمن العباس، ووظيفته المشورة الخاصة للسلطـان والواسطة بينـه وبين الرعية والمــوزع (ص 14) والقاسم العدل والإحسان الصادرين عن حضرة السلطان، ومن أوصافه الرأفة والرحمة علي الرعية إذا غضب السلطان عليها والدلالة حسب الاستطاعة بالمكافآت و [...] التام مع الأدب اللائق بمنصبه، ومن أوصافه أيضا أن يكون واسع الأخلاق، كريم الأعراف، واسع النظر، ملين الأثر، وعنوانه صاحب الفخامة والدولة.

الوزارة الحربيـــة

وهو مسؤول إلى السلطان عن أحوال الرعية، ويليه في المرتبة الحاجب لأنه مطلع على بعض الأمور المخصوصة مما يتعلق بحريم السلطان، ويسمى الحاجب والحافظ لحريم السلطان ومشير المابين (؟) أعني ما بين دار المخزن ودار حريم السلطان وصاحب الركاب وصاحب الكيس المخصوص بالسلطان. ويليهما في المرتبة وزير

الحرب المسمى بوزير الحربية، وناظر الحربية، وبعلاف العسكر، وقاضي العسكر، ووزير الجنك[9]، وسبه سالار عسكر، سردار اكرام[10]، ورئيس العسكر لأنه يعين قوادهم ويسمع شكاياتهم، ويرفع لهم موناتهم، وهو مسؤول إلى السلطان عن قواده الذي نصبهم هو بنفسه. ومن قديم الزمان، أعني من زمن العباسيين في الأتراك والفرس والهند وغيرهم، مرتبته أعلى المراتب بعد مرتبة الوزير الكبير. وأما عموم الوزراء، فهم أمناء السلطان والمعتمدون عليهم، ومن اللازم لهم كونهم كاتمين لأسرار السلطان لأنه يفشي سره الخاص إليهم، وأن يحكموا على الرعية بالعدل والإحسان لأن جورهم إهانة بالسلطان وخيانة في الدين ونقيصة في حقهم لأن الأهالي وديعة إلى الوزراء من أجل رؤية أمورهم من أول السلطان، وأول من أحدث الوزارة في الإسلام الدولة الأموية.

والحاصل أن كل مصالح جمعية البشر مسلمين كانوا ونصارى وغيرهم (ص 15) في الدنيا تدور على هذه الأصول شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، فتمسكوا أيها المومنون بحبل أمير المومنين العالم العاقل. واعتصموا بجانب هذا السلطان الفاضل الكامل. فإنه كان في الدنيا تسعون حكومة شرعية إسلامية قبل مائة سنة، ولم يبق منها الآن خالصا إلا الحكومة المغربية. فالله يحفظه وأهله من الآفات، ويكلؤه من جميع العاهات، ويحرسه بالعنايات الإلاهية، ويشد عضده بجاه خير البرية، وحسن إدارة سيدنا وتمشيته كافية في الإسلام سلامة المغرب وأهله، فإنه السبب الموصل إلى الاستقامة في الدنيا والآخرة، وأعني به سيدنا الإمام الواحد في العز وعلو المقام، من اختاره الله لتصريف الأنام، وحمل راية الإسلام، الأسد الكمي والليث المنصور، ذا النصر المؤزر واللواء الهزير الضرغام، الشجاع البطل المقدام، ذا الباع الطويل في العلوم عموما وخصوصا، حتى كان فيها اليتيمة وغيره من الملوك فصوصا، من ألقت إليه المعاني قيادها من غير زمام ولا رسن، السلطان بن السلطان، مولانا عبد الحفيظ بن مولانا الحسن، خلد الله في الخيرات

مآثره، وأيد بالتوفيق أوامره، وأرشده الله في كل الأعمال، لما يحبه ويرضاه في الحال والمئال، ولازالت الدنيا مشرقة بكوكب سعده، حاملة لرايات مجده، ناطقة بالثناء على الأشباه، غرة حسن الأيام والليالي، ولا فتئ العز فخيما بناديه، واليمن يراوحه ويغاديه، ولا برحت أيامه مواسم ثغور برها بواسم، الله ولي ذلك، والقادر على توفيقه لسلوك هاتيك، والحمد لله رب العالمين.

(ص 6)[11] هذه أسماء بعض الكتب لمؤلف هذه الرسالة المطبوعة وغير المطبوعة:

1. انتشار الإسلام في العصر الأخير .... باللسان النجليزي
2. حكمـــة الإسلام .... بالتركي
3. تيقظ الإسلام .... بالنجليزي معربا لخمسة ألسن
4. الأحوال السياسية الأرباوية على المسائل المشرقية .... بالنجليزي
5. أصول الحقوق بين الدول .... بالتركـــي
6. فلسفة الحكومات .... بالتركـــي

وكان الفراغ من [...] نسخه يوم الإثنين حادي عشر شهر القعدة، سنة ثمانية وعشرين وثلاثمائة وألف[12].

* * *

هوامـش :

1. اعتمدنا نسخة مكتبة خاصة بالرباط (م.خ.ر) وقابلناها بنسخة مؤسسة علال الفاسي بالرباط (م.ع.ف) وبنسخة خزانة محمد المنوني (خ.م.م).
2. في نسخة م.ع.ف. : رمته
3. في نسخة م.ع.ف. : يعد
4. إضافة في نسخة م.ع.ف. : وأنزلني منزل الأمان
5. إضافة في نسخة م.ع.ف. : الطود
6. في نسخة م.ع.ف. : «في العربية مزجت»
7. في نسخة م.ع.ف. : الله بدلا من الزمان
8. في نسخة م.ع.ف. : حاكما
9. وزير الجنك : جنك وزيري (هذا في اللغة التركية) أي وزير الحرب
10. سردار اكرم : Généralissime
11. محتوى هذه الصفحة غير موجود في نسخة خ.م.م.
12. الاثنين 11 ذي القعدة 1328 هـ، الموافق 14 نونبر 1910 م.

* * *

الدستــور الذي قَــدِم مــن الــخارج*

بيرنابي لوبث غارثيا
ترجمة: إبراهيم الخطيب**

بالنسبة لغالبية المؤرخين، يعتبر يوم 11 أكتوبر 1908 هو تاريخ صدور أول نص دستوري وضع للمغرب. بيد أن هذا النص الذي نشر بجريدة « لسان المغرب » لم يكن سوى اقتباس من الدستور العثماني الذي تم تجديده في صيف تلك السنة. لقد تمت صياغته من طرف جماعة من الصحفيين الذين كانوا يريدون التأثير على السلطان حديث العهد بالبيعة مولاي عبد الحفيظ بغية وضع حدود معينة لحكومته. غير أن أهمية الوثيقة، كما أشار إلى ذلك عبد الله العروي في كتاب « الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية »، إنما تتركز « في كون قلة من المغاربة الذين ساهموا في مشروعه نقلوا المثال الدستوري الأعلى إلى زعماء الوطنية إبان فترة الحماية ».

مع ذلك، وقبل مائة سنة تقريبا، وبالضبط حوالي سنة 1817، أملى رحالة إسباني « دستور شعوب المغرب» الذي يتألف نصه من 31 بندا حيث يقترح نفسه كملك للمغرب. يتعلق الأمر بالرجل الشهير دومينغو باديا إي ليبليش، الملقب علي باي الذي تجول عبر أرجاء المغرب وروى مراحل سفره في كتاب نشر لأول مرة في باريس سنة 1814، باللغة الفرنسية، تحت عنوان «أسفار علي باي العباسي

* صدرت هذه الدراسة بمجلة « Zamane » العدد 6 ـ أبريل 2011
** أستاذ باحث، كلية علوم التربية، جامعة محمد الخامس، السويسي، الرباط.

في إفريقيا وآسيا إبان سنوات 1803، 1804، 1805، 1806 و1807».
لكن هذه الحكاية، التي تبدو أشبه بخرافة، تستحق مع ذلك أن نقوم بسردها لما تكشفه من علاقات تلك الحقبة بين بلدين جارين، هما إسبانيا والمغرب، ولكونها توحي بموضوع لم يفقد شيئا من قوته منذ 200 سنة: ونعني بذلك حدود السلطة السياسية للملكية. إن النص، وهو نتاج محض لمخيلة مؤلفه، يوجد محفوظا ضمن «الأرشيف التاريخي» ببرشلونة.

طعم المغامرة

ولد دومينغو باديا في برشلونة سنة 1767، حيث عُين والده سكرتيرا لمحافظها. نشأ في مالقة وفي فيرا (ألميريا) حيث ثقف ضرورات الوظيفة العمومية – التي كانت، حسب كل الشهادات، لا تجتذبه قدر اجتذاب المغامرة له. لقد تجلى مزاجه الجسور واهتمامه بالعلوم بسرعة كمجموعة من التصرفات الغريبة. مثلا، عمل على إطلاق منطاد فوق مدينة قرطبة لأخذ قياسات هوائية. باءت تجربته الأولى بالفشل، وضيع فيها ثروته وجزءا لا بأس به من مصداقيته.

بيد أن ذلك لم يحل بينه وبين وضع مخطط أكثر غرابة لغزو نصف إفريقيا ليصير سيد الإمبراطورية المغربية، وليجعل من إسبانيا البلد المستفيد الأكبر من التجارة الإفريقية كافة. إنه من الصعب التمييز بين ما كان حلما ومغامرة وخداعا في مشروع الرجل في أن يأخذه الناس مأخذ أمير مسلم حتى يحصل على ثقة كبار أعيان المغرب وإعداد مؤامرة للاستيلاء على عرش هذا البلد. لكن المؤكد، وخلافا لذلك، هو أنه سيتمكن من أن يدرج في مغامرته محظي ملك إسبانيا شارل الرابع: مانويل غودوي، الذي كان يراقب جميع مقاليد السلطة في إسبانيا مطالع القرن التاسع عشر.

هذا المشروع، وهو «مخطط للسفر إلى إفريقيا لأهداف سياسية وعلمية»، تم تقديمه لأول مرة إلى غودوي في أبريل 1801. وهو ما يتوقع أن «رجلا أوروبيا سيخفي ديانته وانتماءه الوطني، وسيقدم نفسه في إفريقيا على هيأة مسلم، بحيث

يمكنه زيارة كافة المناطق بحرية (...) بشرط وحيد وهو ضرورة توفره على بعض عناصر اللغة العربية، وحفظه بعض آيات القرآن وارتدائه الملابس المناسبة، ومشاركته في كافة المناسبات والأنشطة العمومية، وحمله اسما إسلاميا».

يطرد من طرف مغاربة

وبسبب طبيعة الإرادوية، انطلق باديا من فرضية أنه سيستطيع في ظرف شهرين أو ثلاثة من تعلم اللغة الماندينغية، في فاس، التي كان يعتبرها مفتاح التواصل في إفريقيا السوداء. وكان ينوي أن ينطلق من فاس ليقطع 3000 فرسخا بغية الوصول إلى تمبوكتو وغانا ودارفور و من ثم الذهاب إلى الساحل المتوسطي مرورا بطرابلس. كما كان يأمل القيام بمراقبة كافة الأراضي التي حمل منها بعضَ الأخبار مكتشفون من قبيل جيمس بروس و مونغو باركس. ورغم أن تقرير أكاديمية التاريخ في يونيو 1801 اعتبر «أن البعثة المقترحة غير مجدية سواء من وجهة نظر تقدم العلوم أو مصالح التجارة الإسبانية»، فقد تلقى دومينغو باديا دعم غودوي وبالتالي دعم الملك الإسباني.

سافر بادئ ذي بدء إلى باريس في يونيو 1802، ثم إلى لندن بضعة شهور فيما بعد، وذلك بغية الحصول على الأدوات العلمية للقيام بمعايناته خلال الرحلة، والاتصال بالعلماء والرحالة والمتخصصين في الإسلام، كما أسلم نفسه للختان حتى يكون ذلك مصداقا لتحوله إلى علي باي العباسي. لقد اختار هذا الاسم حتى يعتبره الناس ابن أمير ثري مسلم شرقي منفي في إيطاليا ويريد استعادة جذوره بعد أن تلقى تربية أوروبية. وأخيرا، حل دومينغو باديا بطنجة سنة 1803، ثم جال عبر المغرب إلى غاية اكتوبر 1805 حيث تم طرده من العرائش، إثر اكتشاف تورطه في أعمال تخريبية. انطلاقا من ذلك، سيمدد رحلته صوب الشرق، فيحج إلى مكة، ويزور سوريا وفلسطين، ثم ينهي رحلته في اسطنبول في اكتوبر 1807.

يُعتبر الديبلوماسي الإسباني سالفادور باربيرا دون شك الباحث الذي تعمق

أكثر في حياة وأعمال دومينغو باديا. لقد أزال الوهم عن صورته، وتمكن من وضع الحدود بين واقع الشخصية وأسطورتها ودجلها؛ لكنه تمكن في نفس الوقت من إبراز قيمة مساهمته في مضمار معرفة مغرب مطالع القرن التاسع عشر. لقد كان أيضا من أوائل من كشف وجود «الدستور» الذي كتبه علي باي للمغرب، حسب زعمه، عشر سنوات بعد رحلته. ربما لم يكن الأمر في جزء منه سوى لعبة أدبية، خاصة وأن باديا كتب، بموازاة ذلك، مأساة في خمسة فصول عنونها « علي باي في المغرب»، وهي عبارة عن نقاش مع مولاي سليمان من أجل «دسترة» المغرب... وربما كان ذلك أيضا حجته الأخيرة على آخر مشاريعه الخرقاء: وهو العودة إلى الإمبراطورية الشريفة، وغزوها وفرض نفسه كـ «سلطان دستوري» بمساعدة فرنسا!. لكن باديا سيقضي نحبه، مسموما حسب الاحتمال، أثناء عودته من سوريا للالتحاق بالمغرب في متم سنة 1918.

فإذا كان «دستوره» مجرد تخييل أدبي كُتِب بعد مرور وقت على رحلته، إلا أنه لا ينبغي غض الطرف عن أن الرجل كان أوَل من أثار الانتباه إلى مخاطر التحكم القانوني في بلد مثل المغرب، وإلى فوائد قيام نظام قار سواء على مستوى العائلة الملكية أو المستوى الاقتصادي. فلندرس وثيقة أرشيف برشلونة التي تحمل عنوان «مذكرة وهمية مرسلة من العرائش إلى سيدي مولاي عبد السلام، أمير الغربي». الوثيقة مؤرخة في فاتح رجب 1220 (1805) بالعرائش (تاريخ مغادرته للبلاد)، لكنها كتبت ولاشك عشر سنوات بعد ذلك.

يشرح الكاتب في الوثيقة أنه لم يكن يريد الإقامة في المغرب (الذي يسميه « الغربي ») بسبب غياب القانون أو الدستور الذي يضمن سلامة عرش سيدنا مولاي سليمان: «أخيرا أعلن علي باي أنه نظرا لعدم وضع قانون، فإنه ليس بإمكانه إحضار ثروته إلى البلد ولا البقاء للعيش به. فمع أنه يوجد اليوم سلطان طيب، إلا أنه ربما لن يوجد نظير له غدا. لذا يغادر علي باي في اتجاه المشرق ». لكن ليس ذلك بطبيعة الحال هو السبب الحقيقي لخروج دومينغو باديا من المغرب .... وفكرة وضع الدستور لم تخالج ذهنه و لا ريب إلا بعد مآل المسألة الدستورية

في فرنسا، مع صدور قانون 1814. فمما لاشك فيه أن اختياره فرنسا كمنفى له في تلك الفترة جعله ينظر إلى المسألة الدستورية على طريقة فرنسا وليس على طريقة إسبانيا، حيث تم تأجيل الموضوع إثر عودة فرديناند السابع.

مستوحى من بونابارت

يجعلنا النص نتذكر أسلوب بيان نابليون بونابارت في الاسكندرية إبان غزوه لمصر: كتب علي باي: « أيتها الشعوب الإسلامية: لقد انتهى الطغيان! ». فبالنسبة للرجل الذي سيصير إمبراطورا، كان الطغاة في مصر هم المماليك. أما بالنسبة لعلي باي فالطغاة في المغرب هم « الشرفاء الذين، بحجة الدين، يسترقونكم كالعبيد دونما قانون غير قانون أهوائهم... ». سنجد في النص الأفكار الليبرالية لتلك الحقبة: فالإنسان حر، والمِلكية « أكثر حقوق الإنسان قداسة». يمكننا أن نقارن أيضا بالدستور الذي منحه لإسبانيا جوزيف نابليون بونابارت : كلاهما يؤسسان لسلالة ملكية وراثية؛ فالسلطان (المغربي) أو الملك (الإسباني) يعينان القضاة مدى الحياة؛ والسلطة التشريعية يتقاسمها مجلس شيوخ ومجلس نواب ذو طبيعة مجالية. يعين أعضاء مجلس الشيوخ من بين الأعيان، والملاك ، والتجار، والعلماء (فيما يتعلق بالمغرب) و الجامعيين والحكماء (في حالة إسبانيا). ويدرج علي باي في وصفه للمملكة المغربية المناطق التي ستكون ممثلة في مجلس النواب، الذي سيقتصر على ثلاثين عضوا أصولهم من فاس ومكناس وتطوان وطنجة والقصر الكبير وتازة وسلا والرباط وأزمور وتارودانت، و«القبائل الثلاث المجتمعة في الجبال»، و «القبائل الرئيسية الثلاث المجتمعة في صحراء أنكاد» و «القبائل الرئيسية الثلاث المجتمعة في درعة».

ويلح باديا بصفة خاصة على ضرورة مراقبة وضمان الخاصية الوراثية للعرش، وذلك تفاديا للخصومات بين أعضاء العائلة الواحدة وكذا ضمان المِلكية الخاصة. وهكذا نجد في مأساته الرومانطيقية «علي باي في المغرب» أن السلطان

مولاي سليمان، حينما يبوح له بأن منح «الشعوب» حقوقا يجهلون وجودها يعتبر بالنسبة له «عائقا لا يمكن قهره»، فإن علي باي يرد قائلا: «اسمح لي أن أثير انتباهكم، سيدي، أن هذه الحقوق غير قابلة للتقادم سواء بالنسبة للأمة أو بالنسبة للعاهل، وأن كل ملك لا يبني وجوده على ضمان حرية الملكية الفردية، سيحرم نفسه اعتمادا على ذلك من كل حق يدعم مشروعية سلطته؛ وأَنه لا يمكن تدعيم مشروعية السلطة هاته إلا بإعلان قانون دستوري أو قانون للإمبراطورية مع تبنيه. عليكم أن تقرروا، سيدي، منح هذا القانون وضمان العيش لأبنائكم والسعادة لأجيال إمبراطورية الغرب في المستقبل. فمشروعية سلالة ملكية واستقرارها هما ضامنا السعادة العمومية».

بطبيعة الحال، لم يكن لكل هذه الوصايا أي تأثير على المغرب....

* * *



فــهرس

تقديـــم

مرتكزات الفكر الإصلاحي

محمد بن الحسن الحجوي

في سياق الإصلاح

إضاءات

* * *